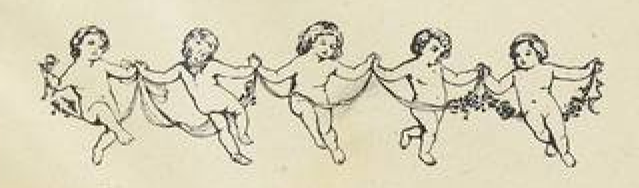
الى حضرات الكتاب والقراء !

قد عزمنا بعونه تعالى على متابعة نشر كل ما تعمُّ فائدتهُ وتلذُّ مطالعتهُ من المؤلفات الأدبية والاجتماعية والعلمية والتاريخية والفكاهية والروايات والقصص وغير ذلك بعنوان :—

سلسلة المطبوعات العصرية

وذلك بالاتفاق مع بلغاء الكُتَّاب والمؤلفين . وسنبذل كل ما في وسعنا في سبيل مرضاتهم ، وعرض عرائس أفكارهم على القرَّاء مجلوَّةً في حلل الإجادة والإتقان ؟

الياس انطون الياس





تاييس

تأليف

أناتول فرانس

(عضو الاكاديمي الفرنسية)

ترجمة

احمد الصاوى محمد

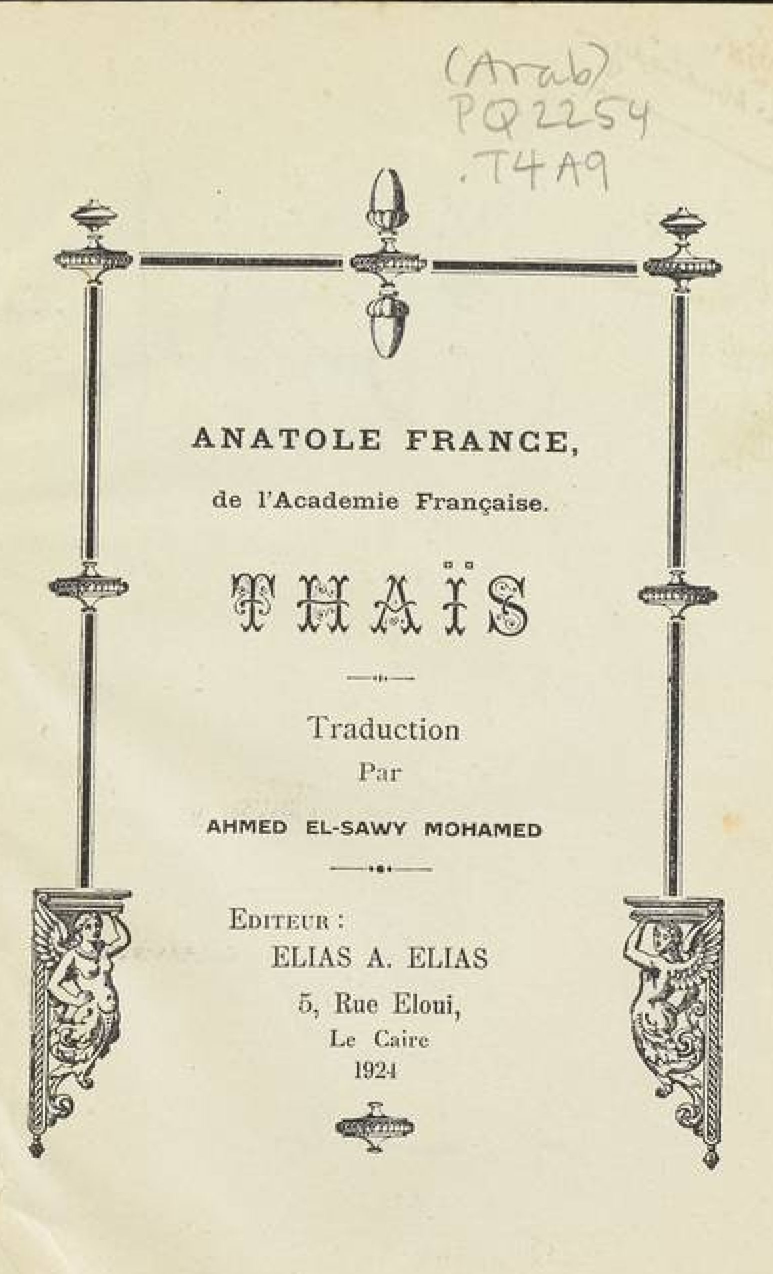
عُني بنشرها

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية بمصر

بشارع علوي رقم ٥



ANATOLE FRANCE,

de l'Academie Française.

THAÏS

Traduction
Par

AHMED EL-SAWY MOHAMED

Editeur :
ELIAS A. ELIAS
5, Rue Eloui,
Le Caire
1924

تقدمة الكتاب

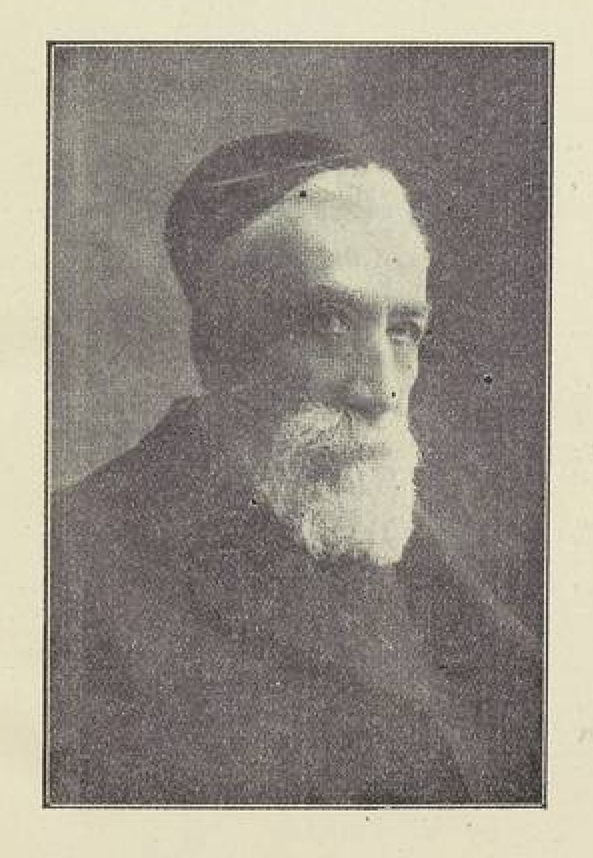
من الناشر الى الجمهور

نقدّم اليوم الى الجمهور الكريم هذه القصة الممتعة ، التاريخية ، الفلسفية ، الجامعة لدعابات «اناتول فرانس» المشهورة ، وفنه الجميل ، الذي يفتح أبواب الخيال من أقدم الأجيال بمفتاحه السحري – القلم .

نقدّمها مغتبطين كدرّة من درر الفن الخالدة ، واثقين انها ستلقى من نفوسهم المتسامحة ارتياحاً ، ومن عقولهم الراجحة رضًى وقبولاً

ونجدد العهد على بذل الجهد في التوفيق بين أدب الشرق والغرب ، ولغات الافرنج ولسان العرب ، قياماً بالواجب علينا نحو النهضة الشرقية والناطقين بالضاد ؟

الياس انطون الياس



﴿ أناتول فرانس ﴾

صفحة من كتاب (الورود الدامية)

لسمو الأمير الجليل حيدر فاضل

الى اناتول فرانس

أفلاطون العصر ومؤلف تاييس

A ANATOLE FRANCE

(Au Platon Moderne).

Ces vers humbles et doux, à toi je les apporte
Du pays de THAIS... Daigne les recevoir.
Et pour te les offrir je me fais un devoir
De les déposer tous sur le seuil de ta porte.

O maître, ne crois point qu'un fol orgueil m'emporte,
Jusqu'à m'imaginer qu'il soit en mon pouvoir
De taquiner la Muse en caressant l'espoir
De plaire à ton regard que le génie escorte.

Non! Je suis un rêveur... un pauvre troubadour,
Chantant le ciel, la mer, les roses et l'amour,
Respirant ta pensée et toujours vivant d'elle...

Et si j'eus le courage, avec l'ami Silvain,
D'entrer à ton foyer pour te serrer la main,
C'est que «FRANCE» à ton nom je demeure fidèle !.

* *Roses Ensanglantées*

par S.A. Le Prince Haidar Fazil.

---

* Impr. de l'Institut Français D'Archélogie Orientale,
le Caire 1919, £ 1.



Ut vitam habeant et abundent.

لكيما تكون لهم حياة موفورة

هذه هي القصة الأولى من مجموعة الشعلة الخالدة ، نستعين بالله مبعث النور والحياة على نقلها الى لغتنا تباعاً، إذكاء للنار المقدسة في قلب الشرق العظيم .

أقدمها الى شباب بلادي وغيرهم من طلاب الحب والحق والحكمة .

قصة رجل مسكين راح ضحية هذه الدنيا الغرور ، لعلهم يتدبرو ن ما فيها من عظات سامية ، فيسيرون في الحياة في طريق الاخاء الروحي بأقدام ثابتة، متنكبين رمال التعصب الخائنة ، أوفياء للانسانية ، مخلصين للحقيقة ، هائمين بالحكمة ، ناصرين الفضيلة دواماً — لكيما تكون لهم حياة موفورة

احمد الصاوى محمد



اللوتس

كانت الصحراء في ذلك الزمان يسكنها النساك في اكواخ لاتحصى، بنوها من الأغصان والصلصال ،وهي تمتد على شاطىء النيل متجاورة منثورة بحيث توافر لساكنيها الغايتان، العزلة، والمؤازرة لدى الحاجة. وبرزت الكنائس هنا وهناك بين الاكواخ عليها شارة الصليب يقصدها الرهبان ايام العيد لاقامة الشعائر والمشاركة في التبرك بالاسرار الدينية. وكان على ضفة النهر اديار آهلة بالرهبان وكلهم قابع في كسر صومعته الضيقة لا يتدانون الاَّ ليذوقوا طعم الوحدة.

عاش الرهبان المتبتّلون والعاكفون في زهد وتقشف، وكانوا يصومون حتى غروب الشمس ثم يتبلغون بقليل من الخبز والملح. وطمر بعضهم انفسهم في الرمال متخذين الكهوف او المقابر مساكن كانت غاية في العزلة والانقطاع.

أخذوا جميعًا بأسباب التقشُف، فارتدوا ملابس من وَبَر الإبل وكانوا بعد طول التهجد يفترشون الأرض، ويصلون وينشدون المزامير. وقصارى القول ان هؤلاء الزهاد كانوا في كل

يوم يزاولون جميع اعمال الصلاح والتقوى . ولم يكونوا يقفون في الورع عند حد تحريم الخطيئة الأزلية على أجسادهم بل تجاوزوه الى تحريم العناية بأبدانهم ، مع انها كانت مباحة في عهدهم ، وذلك لاعتقادهم ان إضعاف البدن يقوي النفس ويطهرها ، وان أشرف حلية للجسم إرهاقه بتكليفهِ ما يشقّ عليه ، وهكذا صدقت فيهم نبوة الأنبياء : « يبتهج القفر ويزهر » !

وكان بعض نزلاء « طيبه » المقدسة يقضون اوقاتهم في التنسك والتصوف بينما يسعى غيرهم في تحصيل معاشهم بضفر الياف النخيل وخدمة الزراع المجاورين في اثناء الحصاد على أجر معلوم . أما المشركون فكانوا يعيشون من قطع الطرق ومداخلة البدو الرحل الذين ينهبون القوافل . وهل ينافي ذلك ان هؤلاء الرهبان كانوا يحتقرون المال والثراء ، وكانت رائحة فضائلهم الذكيَّة تتصاعد الى عنان السماء ؟ ؟

وكان الملائكة يغدون على هيئة فتيان لزيارة الصوامع وبأيديهم عصيهم كالسائحين . وكان الشياطين يتخذون اشكال الاحباش او ضروب الحيوان ويجولون بين النساك ليضلوهم . وكان الرهبان يذهبون في الصباح ليملأوا اباريقهم من النبع فيرون آثار أقدام الشياطين على الرمال ! وكان المتأمل بعين العقل في حال طيبة الروحيَّة يراها ميداناً للقتال بين أبالسة جهنم وملائكة النعيم !

ولما كانت جيوش الشياطين تهاجم الزاهدين بعنف وفظاعة كان هؤلاء يدافعون عن انفسهم بالصوم والتقوى والتقشف مستعينين بالله والملائكة ! وكانت رغبات شهواتهم تقسو عليهم حيناً فتخزهم وخزاً يمزق احشاءهم من شدة الألم ، فتتجاوب صيحاتهم المزعجة تحت قبة السماء المملوءة بالكواكب وعواء الضباع الجائعة ! وعند ذلك كانت الشياطين تبدو في صور جميلة فتانة ، تحول دون معرفة طبيعتهم الباطنة ، فجزع رهبان طيبه اذ رأوا في صوامعهم مشاهد التمتع غير المعروفة حتى عند معاصريهم المترفين . وكان الصليب يعلو صوامعهم ويحميهم من شرور الخطيئة ، فتتخذ الشياطين أشكالها الحقيقية وتبتعد لدى الفجر وقد ملئت خجلاً وغيظاً . وكان يحدث احياناً في مطلع الفجر أن عابراً يلقى واحداً من هؤلاء باكياً منتحباً فيسأله عن سبب بكائه فيجيب « أبكي وأنتحب لأن أحد هؤلاء المسيحيين الساكنين هنا ضربني بهراوته وردني بخزي وفضيحة » !

أما شيوخ الصحراء فقد عرفوا مبلغ سلطانهم على الآثمين والكافرين ، وكان صلاحهم في بعض الاحيان صلاحاً مروعاً . فقد أخذوا عن الرسل سلطة معاقبة العصيان لله الحق ، وما من شيء كان يستطيع انقاذ الذين يحكمون عليهم . وتناقل الناس حتى في مدينة الاسكندرية ، أن الارض انشقت لتبتلع الاشرار الذين مستهم عصى الزاهدين ! ولهذا السبب كانوا مرهوبي الجانب يخافهم كل الذين

يحيون حياة الانس ولا سيما أهل المساخر والمراقص ، والقساوسة المتزوجون ، وربات الخلاعة !

وقد ظهرت فضيلة هؤلاء الزاهدين فامتد نفوذها الى الوحوش نفسها . فكان إذا دنا أجل أحدهم أقبل أسد وخط له مضجعاً بمخالبه فيعرف القديس بهذا أن الله قد دعاهُ اليه فيتجه نحو اخوانه ويقبلهم قبلة الوداع ويرقد بانشراح لتأخذه سنة الموت في الله عز وجل !

ومذ صعد « انطوان » الى قمة جبل كلزين بعد أن أربت سنه على المائة مصطحباً أحب مريديه اليهِ وهما « مقار واماتاس » لم يبق في طيبه كاها راهب أبرّ وأصلح من « بافنوس » كاهن بلدة أنصينا (١)

حقًا كان افرايم وسرابيون يحتكمان في كثيرين من الرهبان وكانا متفوقين في خططهما الروحانية والزمنية وفي ادارة مناسكهما . أما بافنوس فكان يراعي أنظمة الصوم فيقضي ثلاثة أيام بلياليها لا يذوق طعاماً ، وكان يرتدي عباءة من الصوف الخشن ، ويجلد نفسه صباح مساء ، وطالما انبطح على الارض ممرغاً جبهته في التراب !

أما تلاميذه الاربعة والعشرون فبعد أن بنوا اكواخهم على مقربة من كوخه فقد اقتدوا به في تقشفه فأحبهم في يسوع المسيح حباً

---

(١) قامت على اطلال مدينة أنصينا (بلدة الشيخ عبادة) المعروفة بالصعيد (المترجم)

جماً وكان يحضهم دائماً على التقوى . وكان من أبنائه الروحيين رجال قضوا سنين طويلة في قطع الطريق ، لكن وعظ هذا الصالح القديس هداهم سواء السبيل فتخلقوا بأخلاق الرهبان . وكانت طهارة عيشتهم مما يشرف رفقاءهم ، ومنهم طاهي ملكة الحبشة الذي صار بعد أن هداه كاهن « أنصينا » يذرف الدموع بلا انقطاع ! ومنهم ايضاً الواعظ فلافيان ، وهو رجل عالم بالكتابة وخطيب مفوّه . على ان أعجب تلاميذ بافنوس كان فلاحاً صغيراً يدعى بولس ، ولقب بالساذج لسلامة نيته التي لا حدّ لها . ولشد ما ضحك الناس من سذاجته . لكن الله شرّفه بأن بعث له بالرؤى الصادقة وأتم عليه نعمة النبوة .

وقف بافنوس حياته على تهذيب أتباعه وتثقيفهم ومزاولة العبادة والبحث والتنقيب في تضاعيف الكتب المقدسة يقتبس منها المواعظ والامثال . فكان على حداثة سنه موفور الحظ من الفضيلة ، فلم تكن الشياطين التي هاجمت الرهبان تلك المهاجمة العنيفة لتجرؤ على الدنو منه . واعتاد أن يجلس في الليل في ضوء القمر سبعة من جراء[1] بنات آوى منصتة امام صومعته بملء الهدوء والسكون . وقيل ، بل تلك

(١) جمع جرو وهو الصغير من الحيوانات

سبعة من الجن كان قد استبقاها ببابه لا تتعدّى عتبته بقوّة طهره وقداسته !!

° ° °

وُلِدَ بافنوس في مدينة الاسكندرية من أبوين نبيلين وتأدّب بأدب الدنيا، ولشد ما أضلته أكاذيب الشعراء ! وكانت تلك الاكاذيب مغالطة لعقله مشوشة لافكاره في ريق صباه . حتى انه صدّق أن طوفاناً قد أغرق الجنس البشري كله في عهد ديوقليس ! وجادل رفاقه في الدرس في طبيعة الله ، وصفاته ، ووجوده . ثم استرسل في الخلاعة ، وكانت تلك بدعة الخارجين على الدين .

وكان قد اعتاد في تلك الأيام أن يقول لاخوانه ، لقد غليت في مرجل اللذات المزيفة !

يريد بذلك انه اكل اللحم المطبوخ جيداً ، واختلف الى الحمامات العامة !

ودرج على سنن الحياة في عصره حتى بلغ العشرين ، وهذه المدة أجدر أن تسمى بالموت منها بالحيـاة . ولكنه بعد أن تهذب على يدي الكاهن « ماكرين » خُلق خلقاً آخر وعاد رجلاً جديداً

وكذلك تغلغل الحق فيه ونفذ في روحه — كما كان يقول — كالحسام ! فاعتنق عقيـدة الصليب وعبد المسيح المصلوب . وبقي سنة اخرى بعد تعميده ، بين الكافرين مقيداً بسلاسل العادة . في

ذات يوم سمع واعظاً في كنيسة يقرأ من الكتاب المقدس آية مؤداها : « اذا شئت أن تكون كاملاً فاذهب بع ما لك واعط ثمنه للفقراء » فباع من فوره متاعه وانفق ثمنه في وجوه البر والاحسان وانخرط في سلك الرهبنة .

وفي العشر سنين التي قضاها بعيداً عن البشر لم يغل في مرجل الشهوات الجثمانية بل استفاد بمعالجة نفسه ببلسم التقوى

تعوّد التفكير في ما مضى من حياته قبل هدايته ، وعرض خطاياه الواحدة تلو الاخرى فأدرك جسامتها واستغفر منها . تذكر بينها إذ ذاك انه رأى منذ بضع سنين في ملعب الاسكندرية ممثلة ساحرة بجمالها ومحاسنها تدعى « تاييس » . كانت تمثل في الالعاب أدواراً شتى . ولم تكن تتحرج من رقص يثير في النفس بحركاته أقوى الشهوات ويعرض نفس الرائي لأشنع الرغبات ، وتبدو في مشاهد مخجلة ، مما الصقه الكافرون بالزُهرة وليدا وپاسفيه . فكانت تشعل نيران اللذة في جميع المشاهدين . وكان يختلف اليها الشبان المدلهون والشيوخ الاغنياء المغرمون ، يعلقون اكاليل الزهر ببابها ، فكانت ترحّب بهم وتنيلهم منها ما يشتهون . بحيث انها لما أضاعت نفسها أضاعت نفوساً أخرى .

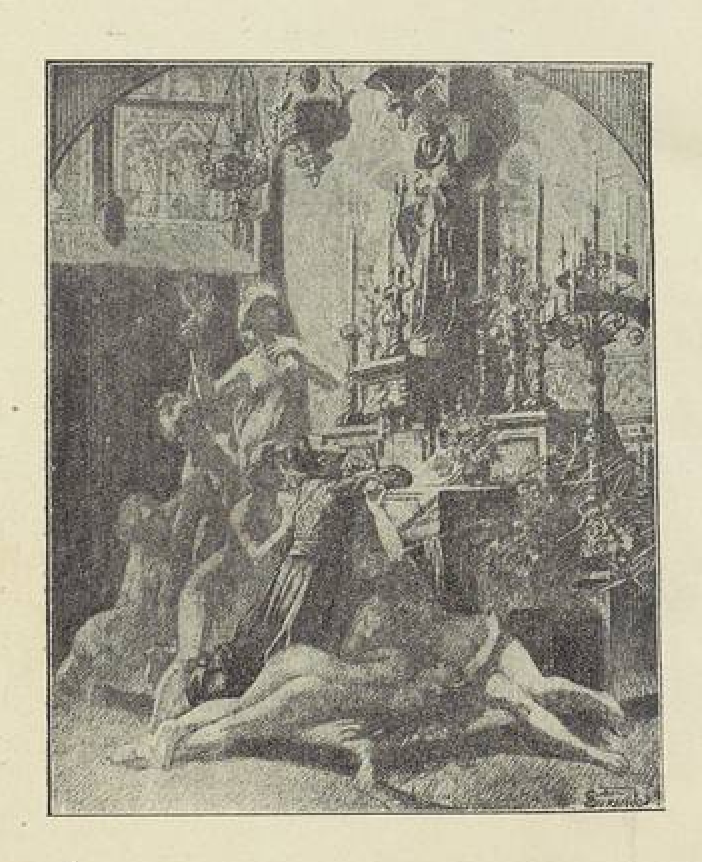


وكان بافنوس نفسه من المعجبين بها. فقد أضرمت نار الصبابة في قلبه ، وأشعلت لهيب الشوق في نفسه . فاقترب ذات مرة من بيتها لكنه وقف بالباب وصدّته الجبانة واحتجزه التهيّب الفطري في الشباب الغضّ (كان في الخامسة عشرة من عمره) وكان تحرجه كذلك خشية أن يُزجر لخلو ذات يد، إذ كان أبواه يأبيان عليه البذل الكثير. ومن رحمة الله ان قيض له ذلك استنقاذاً له من وزر كبير . بيد أن بافنوس لم يحمده تعالى لأنه كان في حينها لا يستطيع أن يميز بين ما ينفعه وما يضره ولا أن يفرق بين نفعه الحقيقي ونزعاته الباطلة .

* * *

أما وقد ركع بافنوس في صومعته أمام صورة ذلك الصليب المقدس المعلق عليه « فدية العالم » ، فقد بدأ يفكر في تاييس ، التي كانت معصيته ، وقد فكّر طويلاً ، بحسب الطقوس الدينية ، في مخافة الملاذ الدنسة المروّعة ، تلك اللذات التي أذاقته إياها هذه المرأة في أيام المحنة والجهل . وبعد تفكير عدة ساعات تراءت له صورة تاييس بجلاء تام ، فرآها ثانية جميلة الجسد كما كانت حين نصبت له حبائل الغواية ، فظهرت له أولاً مثل « ليدا » راقدة فوق

مضجع من حجرٍ يمانٍ ، ناكسة الرأس ، مغرورقة العينين المملوءتين نوراً ؛ باسمة ترتجف شفتاها ، وثدياها كزهرتين ، وزنداها كجدولين .
فضرب بافنوس صدره عندئذٍ وقال :



— أدعوك ربي لتشهد على شعوري بشناعة خطيئتي !

ثم غيرت الصورة شيئاً فشيئاً ملامحها ، اذ زاد ابتسام ثغرها فافتر عن ألم مبرح ، وامتلأت عيناها النجلاوان دموعاً ونوراً ، وجعل صدرها يعلو وينخفض بالتنهدات وهي تزفر زفيراً يشبه اول هبوب العاصفة . فاضطرب بافنوس لهذا المنظر اضطراباً شديداً أثر في صميم قلبه ، وخرَّ ساجداً رافعاً هذه الضراعة :

— أنت يا من أشربتَ قلوبنا رحمةً مثلما اشربت الرياض ندى الصباح ! أيها الإله العادل الرحيم ! تباركت وتعاليت ! انزع من قلب عبدك هذا الحنان الباطل الذي يؤدي الى الشهوة ، وأوزعني ألاّ أحب مخلوقاتك الاّ فيك وحدك ، لأنها تفنى جميعاً وأنت وحدك الحي القيوم . فاذا كنت قد عنيت بهذه المرأة فذلك لانها صنع يديك وان الملائكة أنفسهم ليتوجهون اليها بعناية واهتمام . ألم تكن يا إلهي نفحة من روحك ؟ إن عليها أن تضع حدًّا لما ترتكبه من الخطايا مع اهل البلاد والغرباء . لقد انبعث في قلبي شعور عطف زائد نحوها ، إن ذنوبها لفظيعة ، وان مجرد التفكير فيها يروعني الى حدّ أن شعر رأسي يقف رعباً . سيبقى اشفاقي عليها عظيماً كذنبها ، وكلما ازدادت طغياناً زدت حناناً . انني ابكي حين افكر في أن الزبانية سوف يعذبونها في نار جهنم ، التي كلما خبتْ زادوها سعيراً

وانه لكذلك اذ رأى ابن آوى صغيراً مقعياً عند قدميه ،

فأدهشه ذلك كثيراً لأن باب صومعته كان موصداً منذ الصباح . ولاح على الحيوان أنه قرأ ما جال بخاطر الكاهن فحرّك ذنبه كالكلب فرسم بافنوس علامة الصليب فاختفى الحيوان . وهنالك علم بأن الشيطان قد دخل حجرته للمرة الأولى ، فصلى صلاة قصيرة ثم فكر ثانية في تاييس وقال

— يجب أن أنقذها بعون الله !

ثم نام .

⁂

في صبيحة اليوم التالي ، بعد الصلاة ، زار القديسَ « پالمون » الذي كان يعيش في دار قريبة عيشة الترهُّب والزهد ، فألفاه هادئاً مطمئناً ضاحكاً مستبشراً يفلح حديقته كعادته . وكان پالمون شيخاً هرماً له حديقة تنتابها الوحوش الضارية تلحس يديه ، ولم تقربه قط الشياطين . فقال پالمون وهو مستند الى فأسه .

— حمداً لله يا أخي بافنوس !

فاجاب بافنوس

— الحمد لله ، والسلام عليك يا أخي !

فرد عليه الراهب پالمون بقوله

— وعليك السلام يا أخي بافنوس !

ثم مسح عرق جبينه بكمه

— أي أخي بالمون . ليكن موضوع حديثنا حمد الآله الحي ، الذي وعد بأن يكون بين الذين يجتمعون باسمه ، هذا هو غرضي من المجيء لأحادثك عن خطة لتمجيد الرب .

— بارك الله في خطتك يا بافنوس مثلما بارك في خَسّي ! فهو في كل صباح يسبغ عليَّ نعماءه بسكب النـدى على حديقتي ، وإن رحمته لتدعوني أن أسبح بحمده على ما يمنحني من القثاء والقرع . دعنا نضرع اليه ان يكلأنا برعايته وينزل على قلبينا السلام ! فليس ثمَّ ما يخيف اكثر من المشاعر التي تتعب القلوب فلا يلبث المفتونون بها ان يكونوا كالسكارى يترنحون يميناً وشمالاً وهم على أهبة السقوط المزري في هوة الشقاء . لقد تغمرنا هذه الانفعالات بفرح مفرط ، والذي ينهمك في هذه الغوايات يكون هزأةً تضحك منه البهائم ضحكاً يتردد عالياً في أجواز الفضاء . ولكن قد تنشىء فتن الروح والحواس كآبة مضنية ، وهذه أشأم الف مرة من الفرح . اي أخي بافنوس ، لستُ الآ خاطئاً تعساً ، ولـكني وجدت في أثناء حياتي الطويلة أن ما من عدو اعدى للراهب من الـكآبة . أعني الـكآبة المستعصية التي تغشى الروح كالضباب وتحجب عنها نور الله . وما من شيء مثلها ينافي الراحة والسلام ، وان أعظم نصرة للشيطان

أن ينفث الزيغ والنزعات السوداوية في قلب رجل متدين . فلو أنه بعث لنا التجارب والغوايات في سياق الفرح والمسرّة لما كان مخوفاً نصف هذا الخوف المروع . وا أسفاه ! إنه بارع في إيلامنا ، متفنن في تعذيبنا . أوَلم يظهر لأبينا « أنطوان » طفلاً أسود جميلاً الى حد أن رؤيته استذرفت دموعه واستعبرته ؟ على أن أبانا نجا بمعونة الله من الوقوع في حبائل الشيطان . وانني لأعرفه مدى الزمن الذي قضاه بيننا طروباً منشرح الصدر مع تلاميذه ولم يك قط كئيباً . لكن ألم تأتِ يا أخي لنتحدث عن خطة هيأتها في نفسك ؟ إن إطلاعك إياي عليها فضل منك متى كانت لتمجيده تعالى .

— أخي بالمون ، إنني راغب حقيقة في تمجيد الله ، فاشدد أزري بمشورتك وأولني نصحك ، فانت عالم مستنير لم يحجب الاثم قط أشعة فطنتك !

— يا أخي بافنوس ، إنني لست جديراً بأن أحلُ شراك نعلك! فان آثامي كرمال الصحراء لا تحصى ولا تعدّ ، غير أني بلغت من الكبر عتياً فلن أرفض أن أكون عوناً لك بتجاربي .

— اذاً سألقي اليك همومي واحزاني يا أخي بالمون ، فاني ليحزنني التفكير في أن هناك بمدينة الاسكندرية غانية تدعى تاييس تمرغ في الحمأة حيث تعيش ويلاً على الناس ومذلةً لهم .

— يا أخي بافنوس إن هذا في الحقيقة لرجس محزن ، وإن النساء اللواتي يحيين هذه الحياة بين الوثنيين لكثيرات ، فهل فكرت في علاج لهذا الداء ؟

— سأذهب يا أخي بالمون في طلب هذه المرأة بالاسكندرية وبعون الله سأهديها الى الحق. هذه هي خطتي، فهل تقرني عليها يا أخي؟

— لست سوى آثم منكود يا أخي بافنوس . لكن أبانا أنطوان اعتاد أن يقول : « حيثما كنت لا تتسرع بمغادرة مكانك الى مكان سواه »

— أترى يا أخي بالمون خطأً ما في مسعاي الذي اعتزمت ؟

— يا بافنوس الوديع ، أعاذني الله من اتهام مقاصدك يا أخي ! لكن أبانا أنطوان قال أيضاً « كما ان السمك الذي يوضع فوق أرض جافة يموت ، كذلك يضل النساك الذين يغادرون صوامعهم ويختلطون بالعالم فيبتعدون عن طريق الخير »

وبعد هذا القول نكت الشيخ بالمون الأرض بمعوله ، وبدأ يحفر التربة حول شجرة تين مثقلة بثمارها . وبينا كان يحفر قفزت وعلة متخطية سياج الحديقة عائثة بالأوراق ووقفت في دهش بلا حراك ، مرتعدة المأبض ، ثم بلغت الشيخ الهرم بوثبتين وغطت رأسها البديع في حجر صديقها . فقال بالمون : —

— أسبح بحمد الله في غزالة الصحراء !

ثم مضى الى كوخه يتبعه الحيوان الرشيق فأحضر خبزاً أسود أكلتهُ الغزالة من راحته .

لبث بافنوس شاخصاً ببصره الى حجارة الطريق ، ثم قفل راجعاً ببطء الى صومعته يفكر بعناية فيما سمع وقال وقد تنازعت ذهنه الفِكر :

— لعمري ان هذا الزاهد نافذ الرأي بصير ، وانه لحصيف حذور ، فقد ارتاب في صواب فكرتي ، غير أنه من القسوة أن أتخلى بعد الآن عن تاييس للشياطين الذين يحظون بها . اللهمَّ اهدني سواء السبيلِ وهيىء لي من امري رَشَداً .

وبينا كان في طريقه رأى كيرواناً واقعاً في شباك نصبها صياد على الرمال ، وادرك أن الطائر أنثى . لأن الذكر أقبل محلقاً حول الشبكة وقطّع عيونها واحدة بعد واحدة بمنقاره الى أن أحدث فتحةً كافيـة لخروج رفيقته ونجاتها . فتأمل ذلك الانسان المؤمن هذا المنظر ، ولكونه يستطيع ، بفضـل ايمانه وتقواه ، قراءة خفايا الأشياء ، تمثل له أن الطائر الأسير تاييس ، واقعة في حبائل الرذائل ، وعلى ذلك — طبقاً لمثل الكيروان الذي قطع عيون الشبك بمنقاره — يجب أن يقطع بالاقوال المؤثرة البليغة القيود

الخفية التي تربط تاييس بالكبائر . ولهذا حمد الله وثبت على تصميمه الاول ، ولكنه عند ما رأى الكيروان واقعاً هو نفسه ومنشباً أظفاره في الشبك الذي قطعه ، عاد ثانية الى تردده وارتيابه .

فبات مسهداً ارقاً لم يذق طعم النوم سواد ليله ، ورأى عند الفجر رؤيا . ظهرت له تاييس مرةً أخرى . لم تبــد على وجهها أية علامة للأهواء الضالة أو الملاذ التي يمازجها الاثم ، ولا كانت مرتدية كعادتها شفوفها المهلهلة ، بل كانت في بُردة تغطيها كلها وتحجب بعض وجهها بحيث لم يستطع الراهب ان يرى سوى عينين تفيضان بالدموع السخينة البيضاء .

بدأ يبكي لرؤية هذا المشهد ويعول اعوالاً . وجرى في ظنــه أن هذا الحلم وحى من عند الله ، فطلَّق التردد ، ونهض لساعته وتناول عصاً معقدة ، هي رمز العقيدة المسيحية ، وغادر صومعته . وأغلق الباب بعناية حتى لا تدنس الحيوانات التي تعيش فوق الرمال أو الطيور التي تحلق في الفضاء ، الكتابَ المقدس الذي حفظه في رأس مضجعه ! ودعا الشماس فلافيان ليستودعه تلاميذه الثلاثة والعشرين . واكتفى بوضع عباءة طويلة من الوبر ، وسار والنيــل قاصداً ان يمشي محاذياً الشاطيء الليبي حتى المدينة التي أسسها اسكندر المقدوني . وبدأ السير عند انبثاق الفجر فوق الرمال مستهيناً

بالتعب والجوع والعطش . وكانت الشمس تحت الافق حين رأى النهر الرهيب زاخر الموج مخضوباً بالدماء بين صخور الذهب والنيران . سار على الشاطيء مستعطياً الخبز لوجه الله عند ابواب الاكواخ المنفردة ، متلقياً الانتهار بابتهاج ، غير خائف من اللصوص ولا الوحوش الضارية ، ولكنه توخى أن يتنكب القرى والأمصار التي في طريقه . فقد كان يخشى ان يلقى الأولاد يلعبون امام منازل آبائهم بالكعاب ، أو يرى الصبايا في جلابيب زرقاء ، يملأن جرارهن مبتسمات . فكل هذه أشيـاء خطرة على الناسك تركبه الغرَرَ ! بل كان يتهيب أحياناً أن يقرأ في الكتاب المقدس أن « معلم اللاهوت [1] » ذهب من مدينـة الى مدينـة وتعشى مع تلاميذه ! فالفضائل التي يطرزها الرهبان بعناية على نسيج ايمانهم ، سريعة التلف بقدر ما هي بديعة ، فان نسمة من نسمات الحياة العادية قد تقتم الوانها الزاهية . ولهذا امتنع بافنوس عن دخول المدن خشية افتتان يصيب القلب ، او خوَرٍ يلمُّ بالنفس من جرّاء مرأى البشر .

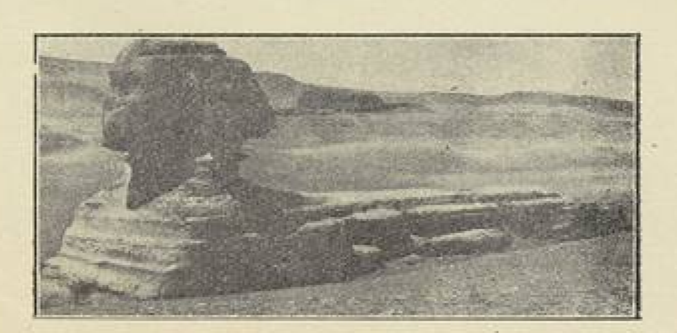
فانطلق يضرب في الطرق الموحشة ، وكلما أمسى فداعب النسيم شجر التمر الهندي ، فزع فأسدل غطاء رأسه على عينيه حتى لا يشاهد جمال الكائنات !

---

(١) هو السيد المسيح عليه السلام (المترجم)

وبعـد مسير ستة ايام وصل الى مكان يدعى « سيلسيليه » حيث يجري النهر في وادٍ ضيق تحدّه من جانبيه جبال الجرانيت ، هناك نحت المصريون أوثانهم ، أيام كانوا يعبدون الأبالسة. فوجد بافنوس رأساً هائلاً لأبي هول لا يزال قائماً بين الصخور. فخوفاً من ان يكون ابليس قد نفخ فيه من روحه الشيطانية ، رسم علامة الصليب وفاه باسم يسوع ، وطار للحال خفاش من احدى اذني الصنم ، فعلم بافنوس انه قد طرد روح الشر التي سكنت التمثال عدة أجيال ! فازدادت حماسته ورفع حجراً ضخماً قذفه في وجه التمثال ، فاستبان اذ ذاك في تقاطيعه كآبة حركت في نفس بافنوس عامل الحنان والشفقة . والواقع أن صورة الحزن البادية على هذا الوجه الحجري كانت كفيلة بأن تؤثر في أقسى الناس قلوباً وأغلظهم اكباداً وأشدهم جموداً . . .

من اجل هذا خاطب بافنوس أبا الهول بقوله : —



— أيها الوحش ! اتبع مثال الجياد والمعز الآدمية التي رآها ابونا انطوان في الصحرآء ، واعترفْ بألوهية يسوع ، لكيما أباركك باسم الآب والابن والروح القدس !

ولما فاه بذلك سطعت عينا أبي الهول بضوء أحمر ، وارتعشت جفون الاسد الغليظة ، وباحت الشفتان الصوّانيتان بتأوه — كصدى صوت إنسان — باسم يسوع المسيح . . وعنـدها مدّ بافنوس يده اليمنى وبارك أباهول سيلسيليه !

٭ ٭ ٭

استأنف سفره بعد ذلك ، وانفسح الوادي امامه فرأى أطلال مدينة عظيمة لا تزال المعابدباقية فيها ، تسندها الاصنام بدل العمد . وقد القت هذه الاصنام نظرات طويلة ثابتة على بافنوس امتقع لها واضطرب ! وهكذا سار سبعة عشر يوماً ، كان غذاؤه الوحيد فيها بعض الاعشاب والثمار يأ كلها فِجّةً غير ناضجة . وكان يقضي ليله في خرائب القصور مع القطط البرّيّة وجرذان فرعونية ، وخلائق لها صدور انثوية واعطاف مائيـة كأنها عرائس البحار . لكن بافنوس ادرك انهنّ خرجن اليه من الجحيم فأقصاهن برسم علامة الصليب !!

وفي اليوم الثامن عشر رأى كوخاً حقيراًبعيداً عن القرى مصنوعاً من ليف النخيل ، مطموراً الى نصفه في الرمال التي سفتها رياح

الصحراء . فجاءه آملاً أن يجده مأهولاً ببعض المتنسكين الصالحين . ولم يكن له باب فرأى فيــه جرة وركام بصل وفراشاً من الهشيم ، فقال في نفسه :

— هذا متاع ناسك ، والزاهدون لا يبعدون كثيراً عن اكواخهم ، فلا ألبث أن ألقى الرجل وأرى أن أهب له قبلة السلام مقتدياً بالقديس المتنسك « انطوان » الذي عانق « بولس الزاهد » ثلاث مرات وهو مارّ به !! سوف نتكلم في الابديات ، وربما انزل الله عليه خبزاً بواسطة غراب فيتفضّل بدعوتي لتناول شيء منه !

ثم دار حول الكوخ معللاً نفسه بهذا الامر باحثاً عن الناسك . ولم يسر الا قليلاً حتى رأى رجلاً متربعاً على ضفة النيل . وكان الرجل عارياً ، وشعر رأسهِ ناصع البياض كلحيته ، وكان لون جسده شديد الحمرة كلون الآجرّ ، فلم يشك بافنوس في أنه هو الناسك وحياه بتحية الرهبان المعتادة عند اللقيا :

— السلام عليك يا اخي ! أمتعك الله بلذات النعيم المقيم !

فلم يجب الرجل ولبث بلا حراك كأنه لم يسمع ، فظن بافنوس أن سكوته ناشيء عن حالة الانجذاب الذي اعتاده القديسون ، فركع بجانب الرجل المجهول، مشبك الأنامل، وظلّ هكذا جاثياً حتى الغروب . ولما رأى ان رفيقه لم يحرك ساكناً قال :

— اذا كنت قد فرغت يا أبتِ من حالة التجلي التي اراك فيها، فباركني باسم سيدنا المسيح !

فأجابه الرجل دون ان يلتفت اليه :

— أيها الغريب ! لا علم لي بما تعنيه، ولا اعرف هذا السيد المسيح !

فصاح بافنوس :

— يا سبحان الله ! اتجهل من انبأتْ به الأنبياء، واعترفت باسمه الرسل والشهداء، وعبـده قيصر نفسه؟ ومنذ وقت قصير أنطقتُ أباالهول بتمجيده، فكيف لا تعرفه؟

— نعم يا صاحبي ! حقاً أني لا اعرفه !

فدهش بافنوس ورثى لشدة جهل هذا الرجل وقال له :

— اذا لم تكن تعرف السيد المسيح فمظاهر تقواك لا تجديك فتيلاً، ولن تنال الحياة الابدية.

فأجابه الشيخ الهرم :

— عبثاً يأملُ المرء، سواءٌ سعى اولم يَسْعَ ! وسِيَّان عندي الحياة والموت !

— وا عجبا ! أترغب عن الحياة الخالدة؟ ألست تسكن صومعة في هذا القفر مقتفياً آثار الزاهدين؟

— في الظاهر !

— ألا تعيش عارياً محروماً كل شيء ؟

— يُخَيَّلُ اليك ذلك !

— الست تتغذى بالجذور ؟ الست متعلقاً بأهداب العفة ؟

— يظهر انني افعل هكذا !

— او لم تنبذ لذّات الدنيا ؟

— الحقّ أني زهدت فيها لأني رأيت الناس شديدي الكلَف بها.

— اذن انت مثلي في الزهد والتقشُّف ولكنك لست مثلي في محبة الله وطلب سعادة السماء . فلماذا تتمسك بالفضيلة اذا لم تكن تؤمن بالمسيح ؟ لماذا تحرم نفسك متاع الدنيا اذا لم تكن تطمع في نعيم الآخرة ؟

— أيها الغريب ! أنني لا احرم نفسي ، ويسرني اني اهتديت الى عيشة راضية ، وان كانت الحياة خلواً من الطيب والرديء جميعاً . الحقُّ ان الحياة ليس فيها شيء مما يقال له شرف وعار ، وعدل وظلم ، ولذة وألم ، وحسن وسوء . ولكنَّ الناس خصُّوا هذه الاشياء بأوصافها كما يعطي الملح للطعام مذاقاً .

— في رأيك اذاً ان ليس ثمة يقين ؟ انك تنكر الحقيقة التي تنشدها الوثنيون أنفسهم . انك غارق في جهالتك كما يغرق الكلب المضنى من التعب في الحمأة !

— أيها الغريب ! لا فائدة من سبّك الكلاب والحكماء ! إنّا لا ندري ماهيةّ الكلاب ونجهل ماهية انفسنا . فلا ندري شيئاً . . .

— أتُراكَ إلى جماعة اللاأدريين تنتسب ؟ أأنت اذاً أحد اولئك البائسين ذوي العقول السخيفة ، الذين ينكرون الحركة والسكون معاً ، ولا يميزون بين نور الشمس الساطع وظلام الليل الحالك ؟

— أجل ! اني « لا أدريّ » يا صاحبي ، وأنتسب الى طائفة ، اذا كانت في رأيك مدعاة للسخرية ، فهي في رأيي جديرة بالاعتبار . لان الاشياء نفسها لها مظاهر عديدة . فاهرام منفيس تبدو في مطلع الفجر مخاريط من ضياء وردي، لكنها تلوح عند غروب الشمس مثلثات حالكة السواد في السماء المتقدة كشعلة من نار . فمن ذا الذي يستطيع ان يسبر غورها ويدرك كنهها ؟ انت تعيّرني إنكار الظواهر، والظواهر هي وحدها الحقائق التي أسلّم بها . تبدو لي الشمس منيرة ، ولكن طبيعتها خافية عليّ ، وارى النيران تشتعل ، لكني لا أعرف كيف ولِمَ . انك عاجز عن إدراك فكري ، ولكن هذا لا يهمني !

— أسألك ثانية لماذا تعيش مكتفياً بالبلح والبصل في البادية ؟ لماذا تقاسي شظف العيش والحرمان ؟ إنني أتحمل مثل هذه الشدائد وألق ماتلق، ولكنني أفعل هذا إرضاء لله تعالى لكيما أستأهل السعادة الأبدية ! فمن المعقول أن يتعذب المرء لقاء أجرٍ كبير ، ولكن من الجنون أن يعاني الانسان بمحض ارادته مشقاتٍ لا فائدة منها . فلو لم اكن مؤمناً — غفرانك لهذا التجديف أيها النور الذي لم يولد ! — فلو لم اكن مؤمناً بحقيقة تعاليم الله بلسان أنبيائه و بيّنة ابنه، وأعمال رسله ، وأحكام المجامع ، وشهادة الشهداء المختومة بدمائهم، ولو لم أعلم ان تعذيب الجسد واجب لتطهير النفس ، او كنت مثلك أجهل أسرار الدين ، لَعُدْتُ توّاً الى العالم وسعيت لاحراز الغنى لاعيش في ترف ورفاهية كالسعداء فيه ، ثم أصيح في عبّاد اللذات قائلاً : هلم يا بناتي ! هلم يا خوادمي ! تعالين جميعاً واسكبن خموركن ورحيق غرامكن وعطوركن . — ولكنك أيها الشيخ المأفون تمنع نفسك كل الطيبات فتخسر دون أن تكسب شيئاً، تعطي ولا أمل لك في أن تستردّ شيئاً مماً أعطيت . فيا أغبى الناس ما حجتك ؟

قال بافنوس هذا بحدّة وعنف، لكن الشيخ لبث هادئاً وأجاب بصوت رقيق :—

— وماذا يهمك من حجة كلب راقد في الحمأة ؟

ولما لم يكن لبافنوس سوى غرض واحد ، هو تمجيد الله ، فقد ذهب غضبه ، واعتذر بخشوع قائلاً : —

— اعفُ عني يا أخي الشيخ ! إن غضبتي للحق حملتني على تجاوز حدود الادب. و يشهد الله أني ما مقتُّ شخصك ولكنني استنكرت خطيئتك ، ولشدَّ ما يؤلمني أن أراك في ظلمات الضلالة مع اني أحبك في المسيح ، ورغبتي في خلاصك تشغل بالي . تكلم ! ادل اليَّ ببراهينك ، أني مشوق الى معرفتها لأفندها .

فأجابه الشيخ بهدوء : —

— ان ميلي الى الكلام كرغبتي في السكوت ، على اني سأدلي اليك بحججي دون أن أسألك حججك ، فانك لن تستميلني بأي حال من الاحوال . أنا لا أبالي سعادتك او شقاءك ، وسواء لديَّ السبل التي تتجه اليها أراؤك . وكيف أحبك أو اكرهك ، والميل والنفور كلاهما لا يليقان بالحكيم ؟

أما وقد سألتني فاعلم ان اسمي « تيموكليـه » ، وانني قد ولدت في « قوص » من أبوين أثريا من الصناعة . وكانت صناعة أبي تسليح السفن ، وكان ذكاؤه يضارع كثيراً ذكاء الاسكندر الملقب بالاكبر . وكان لي اخوان اتخذا صناعة أبينا ، أما أنا فقد احترفت

الحكمة . واكره والدي أخي الكبير على الزواج بامرأة كورية تدعى « تيماسا » ، فلم ترقه ولا طابت له عشرتها . ثم ان تيماسا هذه اغرت شقيقنا الصغير على عشق أثيم . ولم تلبث هذه العاطفة ان تحولت الى جُنة مستعرة وولع شديد . على أن الكورية أبغضتهما كليهما وهامت بزمّار كانت تخلو به ليلاً في مخدعها حيث ترك ذات صباح تاجه الذي اعتاد لبسه في المآدب . فلما وجده أخواي أقسما على قتل صاحبه . وفي اليوم التالي قتلا الزمار ضرباً بالسياط ولم تشفع له دموعه ولا توسلاته . ففقدت زوج أخي رشدها من القنوط وأصبح هؤلاء الثلاثة البائسون كالوحوش يهيمون على شواطئ قوص . وكانوا من شدة جنونهم يعوون كالذئاب ، يعلو الزبد أشداقهم ، وتحدّق في الارض ابصارهم ، والاطفال يضجّون من حولهم ويرمونهم بالمحار والحصى . الى أن ماتوا ودفنهم أبي بيديه . ولم يلبث ان امتنع عن تناول الطعام فمات جوعاً ، مع انه كان لوفرة غناه يستطيع شراء ما يشتهيه الأصحاء في أسواق آسيا . وكان يتميز غيظاً من توريثي ثروته التي بددتها بعد موته في الاسفار . فزرت ايطاليا وبلاد اليونان وأفريقيا ، فلم ألق قط عاقلاً ولا سعيداً . درست الفلسفة في أثينا والاسكندرية حتى أزعجتني جلبة الحوار في اختلاف الآراء . ولما وصلت أخيراً الى الهند ، رأيت على شاطئ نهر الكانج رجلاً عارياً متربعاً في مجلسه لم يفارقه منذ ثلاثين عاماً ، وقد علقت بجسده

الضامر النباتات المتسلقة وعششت الطيور في شعر رأسه ، وهو باق حيًا . ذكرتُ لرؤيته تيماسا والزمار وأخويّ وأبي ، وأدركت أن هذا الهندي حكيم . وقلت لنفسي ، « الناس يتألمون لأنهم محرومون ما يظنونه خيراً ، واذا نالوه خشوا ان يفقدوه ، أو لأنهم يعانون ما يظنونه شرًا . فاذا بطل كل اعتقاد من هذا القبيل زالت جميع الشرور ». هذا هو السبب الذي حال دون اعتباري شيئًا نافعًا ، وحملني على ان أذهب مذهب الانفصال التام عن طيبات هذه الدنيا ، وجعلني أعيش في وحدة وسكون مبتعداً عن ضجيج العالم ، اقتداء بالهندي .

وكان بافنوس يصغى بانتباه لحكاية الشيخ ، فأجاب :

— حقاً يا تيموكليه القوصي ، ان كل ما قلته غير بعيد عن الصواب . فمن الحكمة ازدراء متاع هذه الدنيا ، ولكن ازدراء النعيم الابدي ، وتعريض النفس بذلك لغضب الله ، لمن الجنون . انني أرثي لجهلك يا تيموكليه ، وسأهديك الى الحق ، وأقودك الى محجة الصواب . فانك اذا علمت أن الله موجود في ثلاثة أقانيم ، أطعت هذا الآله كما يطيع الابن اباه . . .

فقاطعه تيموكليه بقوله : —

— كفى أيها الغريب ! كفى شرحاً وتبياناً لتعاليمك . لا تحاول ان تكرهني على قبول آرائك ، فكل جدل عقيم ؛ ورأيي ألا يكون

لي رأي . إني أعيش خلواً من الهموم مادمت لا أُفاضل بين الاشياء .
سرْ في طريقك ولا تعالج تحويلي عن الجمود المحمود الذي يغمرني
كأني في حمَّام منعش بعد مشاغل أيامي المرهقة

كان بافنوس راسخ العقيدة قوي الايمان . ولشدة اختباره لقلوب البشر عرف أن تيموكليه الشيخ قد عدته رحمة الله ، وان يوم خلاص تلك النفس الخاسرة لم يحن بعد ، فلم يجب خشية أن تنقلب التبصرة تهلكة . فقد يحدث ان مجادلة المشركين تزيدهم تمرُّداً وعصياناً بدلاً من أن تردهم الى حظيرة الايمان ، ولهذا ينبغي لمن هم على الحق أن يذيعوه بفطنة وحذر .

فقال : —

— اذن ، فالوداع يا تيموكليه التعس !

ثم تنهد تنهداً عميقاً واستأنف سراه تحت ستر الغسق .

* * *

رأى في الصباح سرباً من « أبي قردان » واقفاً على ساق واحدة لا يتحرك عند حافة المياه التي تعكس ظلّ أعناقه الوردية . وقد بسطت أشجار الصفصاف أوراقها الغضة الرمادية على الشاطيء الى مدى بعيد ، وكانت الكراكي تطير على شكل مثلث في السماء

الصافية الأديم ، ومن بين عيدان القصب يتردّد نواح مالك الحزين . والى آخر ما تستطيع العين أن ترى يتلاطم النهر في لجته الخضراء وفوقها الاشرعة البيضاء كأنها أجنحة الطير . وهنا وهناك تنهد على الشاطيء بيوت بيضاء يغشاها ضباب خفيف . وفي ظلال الجُزُر المثقلة بالنخيل والازهار والثمار يدوي صياح أسراب البط والاوز والنُّحام والشرشير . والى اليسار يمتد الوادي الخصيب حتى الصحراء تمايل حقوله وجناته طرباً . والشمس تصبغ السنابل بالذهب ، وقد فاح عَرف التربة المخصبة وعبق شذاها

ولما رأى بافنوس ، في روعة هذا المنظر ، برهان وجود ربه ، خرَّ ساجداً يقول : —

— تبارك الله الذي وفقني في سفري ! سبحانك أنت الذي أنزل نداهُ على أشجار التين ، أنزل غفرانك يا إلهي على روح تاييس التي برأتها ، وفي أحسن صورة صورتها ، لا تقلّ عن زهر الخمائل وأشجار البساتين ! دعها يا إلهي تزهر بعنايتي شجيرة ورد بلسمية في بيت مقدسك السماوي !

وكان كلما رأى شجرة مزهرة أو طائراً غرداً ، فكر في تاييس . وهكذا سار على ضفة النيل اليسرى بين البقاع الخصبة الآهلة حتى وصل بعد أيام الى الاسكندرية ، التي لقبها الاغريق بالجميلة والذهبية .

وكان الفجر قد تبلَّج منذ ساعة فلاحت له المدينة الرحبة العظيمة من مرتفع، تتلألأ قبابها في ضباب الصباح الوردي. فوقف وضمَّ ذراعيه الى صدره، وقال: —

— اذن، هذا هو المقرُّ البديع الذي تمخض بي في الخطيئة! وهذا هو الهواء الذي منه استنشقت العطور السامة! وهذا بحر الشهوات الذي فيه سمعتُ اغانيَّ بناته! هوذا مهدي الجسدي وموطني العالمي! وانه في نظر الناس لمهد الورد والزهر، ووطن المجد والفخر! ليس عجيباً أيتها الاسكندرية أن يعزك بنوك كأمٍ رؤوم. وقد نشأتُ في أحضانك ذات الرواء وشببت في ربوعك ربةّ البهاء. بيد أن الزاهد يستخف بالطبيعة، والصوفي يزدري الظواهر، والمسيحي ينظر الى وطنه الدنيوي كأنه منفى، والراهب يعرض عن الدنيا! ايتها الاسكندرية! لقد حولت قلبي عنكِ، فأنا اكرهكِ وأمقتكِ لغناكِ، لعلمكِ، للذاتكِ، لجمالكِ! لعنة الله عليك يا معبد الشياطين! يا مضجع الفُجّار! يا منبر الاريوسيين الموبوء، عليك اللعنة!. وأنت يا ابن السماء، يا من هدى أبانا الناسك « القديس انطوان » لما أتى من مجاهل الصحراء ودخل معقل الوثنيةَّ هذا، ليثبت إيمان المهتدين، ويشد أزر المستشهدين. يا ملاك الرب الجميل، ايها الطفل غير المنظور، يا نفحة الله الاولى، حلّق امام عيني

وعطر برفرفة جناحيك الهواء الفاسد الذي سأستنشقه عما قريب مع مردة الشر وأبالسة الظلام :

قال ذلك واستمر في طريقه ، ودخل المدينة من « باب الشمس » الرفيع ، وكان على تساميه وخيلائه يتربع في ظله الفقراء البائسون ، يستجدون المارّة أو يبيعونهم التين والليمون

وكانت هناك عجوز جالسة في أطمار بالية ، فأمسكت بمسوح الراهب وقبلتها وقالت :

— أي رجل الرب ! باركني ليباركني الله ! لقد ذقت مر العيش وكابدت آلاماً كثيرة في هذه الدنيا ، وأريد أن أحظى بالمسرات في الآخرة . انك آتٍ من عند الله ايها القديس ، لذلك أعدّ تراب قدميك أغلى من التبر .

فقال بافنوس :

— الحمد لله !

ورسم بيده علامة الفداء والخلاص على رأس العجوز ، وسار في طريقه

على انه لم يكد يبتعد قليلاً حتى اعترضته شرذمة من الاطفال جروا وراءه مستهزئين ، ورجموه بالطوب وهم يصيحون :

— يا للراهب الخبيث ! انه أسود من الغراب الاسخم ، وأقبح التحاء من تيس ! يا له من غبيّ مستميت ! لماذا لم ينصبوه لعيناً(١) في حقل لتخويف العصافير ؟ لكن لا ! ان وضعه هناك يجلب البَرَد على زهر التفاح ! انه يجلب النحس والشؤم ! القوا به الى الغربان !! على الراهب ! الى الغربان !

وانهالت عليه الحجارة مع صيحاتهم ، فتمتم بافنوس :

— اللهم بارك في هؤلاء الاطفال المساكين !

واستمر في طريقه مردداً ما يجول بخاطره :

— لقد احترمتني تلك العجوز ، وامتهنني اولئك الصبيان ، وكذا الشيء الواحد يقدَّر على وجوه مختلفة من الناس الذين هم عرضة للخطإ في احكامهم . فيجب التسليم بأن الشيخ الهرم تيموكليه، مع انه كافر ، لم يكن خلواً من الادراك . اذ أنه يعرف انه محروم النور على الرغم من كونه أعمى . ان كل شيء في هـذه الدنيا سراب خادع ، وظلٌ زائل ، ولون حائل . والبقاء لله وحده

* * *

اجتاز بافنوس المدينة سريع الخطى ، وتذكر بعد غيبته عشر سنوات كل حجَر فيها ، وكان كل حجر لديه فضيحة تذكره بمعصية.

---

(١) اللعين ما ينصب في الزرع بهيئة رجل لطرد الطيور والوحوش

لأجل هذا كان يطأ حجارة الطريق حافياً بشدة وعزم ، وكان يبتهج كلما تركت قدماه الممزقتان أثر دمائهما عليها .

ثم سار عن يمين أروقة معبد السرابيس الفخمة ، في طريق محفوف بالقصور المنيفة التي كانت كأنها تنطف عطراً . وهناك اشجار الصنوبر والاسفندان شامخة برءوسها فوق الطنوف الحمراء وقواعد التماثيل المذهبة . ورأى من خلال الأبواب تماثيل من النحاس في أروقة من المرمر ، وخيوطاً من الماء النافر ترقص بين اغصان الشجر . ولم يك ثمة صوت يكدر صفو سكون هذه الوحدة الرائقة ، سوى أنغام ناي بعيدة . فوقف الراهب امام منزل صغير بديع التقسيم ، قائم على اعمدة كأنها لحسن صنعها فتيات ، ومزدان بتماثيل نصفية من البرنز لأشهر فلاسفة اليونان ، عرف بافنوس منهم افلاطون وسقراط وارسطو وايبقور وزينون .

قرع الباب ولبث ينتظر وهو يفكر في « إن من العبث أن يمجد المعدن هؤلاء الحكماء المزيفين ، فترّهاتهم باطلة ، وأرواحهم في نار الجحيم تلظّى ، وافلاطون الشهير نفسه ، الذي ملأ الأرض بشهرة فصاحته ، يجادل الآن الزبانية في جهنم » !!!

فتح الباب زنجي . ولما رأى رجلاً حافي القدمين يطأ فسيفساء العتبة قال بخشونة :

— اذهب ايها الراهب الهزأة ، واستجد في غير هذا المكان ولا تنتظر حتى أطردك بالنبوت

فأجابه كاهن انصينا :

— لا أسألك شيئاً الاّ أن تأخذني الى سيدك نسياس .

فأجابه العبد وهو يمعن في حنقه :

— حاشا لسيدي أن يلقى الكلاب أمثالك .

فأجابه بافنوس :

— تفضَّل يا بني وافعل ما طلبته اليك . أخبر مولاك اني راغب في رؤيته

فصاح البواب الساخط متهيجاً :

— اخرج من هنا أيها المستجدي الملحاح !

ولكزه العبد بعصاه ، فتلقى الضربة على وجهه ساكناً ساكتاً ، وكرر قوله بلطف :

— أرجو يا بنيّ أن تؤدي رسالتي الى سيدك .

فارتجف البواب ، وقد أوجس خيفة مما رأى ، وتمتم قائلاً :

— تُرى من يكون هذا الرجل الذي لا يخشى الألم ؟

وانطلق ليخبر مولاه .

كان نسياس خارجاً من الحمام ، والجواري الجميلات يمسحن جسده بأدوات التدليك . وكان رجلاً رشيقاً بشوشاً ، يجمع محياه بين حلاوة الدعابة ومرارة التهكم . فلما أبصر الراهب ، تقدم اليه مفتوح الذراعين هاتفاً :

— هذا انت يا بافنوس ! رفيقي في طلب العلم ، صديقي ، أخي ! آه ! لقد عرفتك مع انك — والحق يقال — قادمٌ في صورة أشبه بالوحوش منها بالبشر . أتذكر أيام كنا ندرس معاً النحو والبيان والفلسفة ؟ كنت في ذلك الحين ذا مزاج فظٍّ وحشي . ولكني أحببتك لإخلاصك الذي لا تشوبه شائبة . وكنا اعتدنا أن نقول عنك أنك تنظر الى الكائنات بعيني جواد غضبان نفور ، ولم يكن جماحك ونفورك بالشيء المدهش . فلم تكن على جانب كبير من رقة القدماء ، ولكن كرم أخلاقك لم يكن له حد . لم تكن تضن بمالك ولا تبخل بحياتك . وكنت على خلق شاذ وعبقرية حببتك اليَّ وجعلتني أميل اليك كل الميل . أهلاً بك أيها العزيز بافنوس ، ومرحباً بك بعد فراق عشر سنين ! لقد غادرتَ الصحراء وزهدت في خرافات المسيحية وخزعبلاتها والآن تعود الى حياتك الاولى . ان اليوم ليوم ميمون !

ثم التفت الى النساء وقال :

— يا كروبيل ويا مرتال ، ضمخا بالطيب قدمي ضيفي العزيز ويديه ولحيته .

فابتسمتا واقبلتا عليه بابريق وقناني ومرآة معدنية . لكن بافنوس وقفهما باشارة الآمر ، ثم غض من بصره كي لا يراهما ، لأنهما كانتا عاريتين . فجاءه نسياس بالوسائد ، وقدم اليه طعامًا وشرابًا مختلفي الالوان ، فرفضها بافنوس كلها بازدراء وقال :

— اعلم يا نسياس انني لم أهجر ما سميته خطأ بالخرافات المسيحية ، والتي هي بلا ريب حقيقة الحقائق : « في البدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله . كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان . فيه كانت الحياة ، والحياة كانت نور الناس ... » (١)

فأجابه نسياس وهو يرتدي جلبابًا معطراً : —

— أتظن يا عزيزي بافنوس أنك تدهشني بذكر أقوال مشوشة فارغة ، لا معنى لها ولا طعم ؟ أنسيت أنني أنا نفسي فيلسوف إلى حد معيّن ؟ أيخيل اليك أنك تستطيع اقناعي ببعض خرق مزّقت من ثوب اميليوس الارجواني ، في حين أن اميليوس و بورفير وافلاطون في أوج مجدهم ما استطاعوا اقناعي ؟! ان المذاهب التي أنشأها الحكماء ليست سوى حكايات اختلقت لتسلية طفولة الناس الخالدة ، ويجب أن نلهو بها كما نلهو بحكايات الحمار ، ودن النبيذ ،

(١) من الانجيل المقدس (المترجم)

وماترون الافيوسي ، أو أية أسطورة أخرى من الاساطير الميلزية . ثم أخذ بذراع ضيفه وقاده الى بهو فيه آلاف من أوراق البردى مركومة في سلال وقال :

— هذه مكتبتي . وهي تحوي شيئاً يسيراً من الآراء التي ابتدعها الفلاسفة لتفسير الغاز هذا الكون . ان مكتبة الاسكندرية بكل غناها لاتحويها كلها . وا أسفاه ! ليست هذه سوى أحلام قوم مرضى !

وأرغم ضيفه على الجلوس على مقعد من العاج ، وجلس هو أيضاً . فألقى بافنوس على الكتب نظرة المغتم وقال :

— يجب أن تحرق كلها !

فأجابه نسياس :

— انها تكون خسارة يا ضيفي الكريم ! فأحلام المرضى تكون بعض الاحيان مسلية . فضلاً عن انه اذا اعدمت كل أحلام الناس وتخيلاتهم فقدت الارض زينة أشكالها و بهجة ألوانها ، وكان نصيبنا جميعاً الرقاد في خمول محزن .

لكن بافنوس استطرد قائلاً :

— من المحقق أن تعاليم الوثنيين ليست الا ترّهات فارغة . لكن الله ، وهو الحق بآيات بينات ، قد تجسد وعاش بيننا .

فأجاب نسياس :

— ما أفخم كلامك عن تجسّده أيها العزيز ! لعمري أن إلهاً يفكر ويعمل ويتكلم ويمرح حسب الطبيعة ، كما كان شأن عوليس العتيق على البحر الاخضر — ان هو الا انسان عريق . وكيف يخطر ببالك أن تؤمن بجوبيتر هذا الجديد ، في حين أن صبية أثينا ، في عصر بركليس ، فرغوا من الايمان بسميّه القديم ؟ ولكن دعنا من هذا ، إنك لم تأت ، كما أحسب ، للجدل في الاقانيم الثلاثة . فخبرني عمّا أستطيع القيام به لك أيها الرفيق العزيز .

فأجابه قسيس انصينا :

— أعرني حلة معطرة ، كتلك التي تلبسها ، ومنّ عليّ بنعال مذهبة وقارورة ملئت زيتاً لأطيّب به لحيتي وشعري . وزد على ذلك سفطاً فيه الف درهم . هذا ما أتيتك في طلبه يا نسياس حباً لله واكراماً لعهد صداقتنا القديم .

فدعا نسياس بجاريتيه كروبيل ومرتال ، فأحضرتا أفخر حلّة له ، وكانت موشاة على الطراز الأسيوي بصور الزهر والحيوان . فأمسكتها المرأتان ونشرتاها بحذق بحيث بدت ألوانها البرّاقة ، وأمهلتاه حتى يخلع مسوحه التي تغطيه من رأسه الى قدميه . فأعلن الراهب أنه يفضل تمزيق لحمه إرباً إرباً دون أن يخلع مسوحه . فسترتا

المسوح بتلك الحلة . ومع ان كرو بيل ومرتال كانتا من طبقة الرقيق الاّ انه كانت لهما على الرجال دالّة الحسن ، فطفقتا تضحكان من الهيئة الغريبــة التي أصبح الراهب فيها . ودعته كرو بيل مولاها العزيز ، بينما كانت واقفة أمامه بالمرآة . وشدت مرتال لحيته . غير أن بافنوس كان يصلي لله ، ويغض عنهما بصره . ولما احتذى النعال المذهبة وشد السفط الى حزامه قال لنسياس الذي كان ينظر اليه باسماً :

— أي نسياس ! يجب ألاّ تكون الاشياء التي تراها معرّة في نظرك . كن واثقاً أنني سأحسن استخدام هذا الثوب ، وهذا السفط ، وهذه النعال ، واعمل بها عملاً صالحاً .

فأجاب نسياس :

— لست أظن شراً ولا سوءاً ، لاعتقادي أن الناس متساوون في العجز عن فعل الشر والخير . فالخير والشر لا يتعدّيان حدّ الظن . وليس لدى الحكيم لأسباب الدعوى سوى العادة والعرف . اني احبّذ الآراء الشائعة في الاسكندرية في عهدنا هذا . وذلك هو سبب اعتبار الناس إياي رجلاً شريفاً اميناً . فاذهب ياصاحبي وتمتع بما اخذت كيف شئت

لكن بافنوس استحسن أن يطلع مضيفه على حقيقة الامر ، فقال :

— أتعرف تاييس ، تلك التي تمثل في المسرح ؟

— امرأة جميلة فتانة ! وقد كانت يوماً ما عزيزة جداً عليّ حتى اني بعت في سبيل هواها طاحونة وحقلين كانا يزرعان حنطة ! واكرمتها بثلاثة دواوين من الشعر مشحونة مراثي سقيمة ! حقاً ان الجمال هو اعظم قوة في العالم ، فانه اذا قدّر لأحدنا ان يظفر به الى الأبد ، أعار « الخالق » و « الكلمة » و « الخلود » أقل ما يمكن من المبالاة ! على اني أعجب يا بافنوس الصالح لمجيئك من اعماق طيبة لتتحدث عن تاييس .

ثم تنهد ، فرشقه بافنوس بنظرة الذعر والخوف ، لأنه لم يخطر بباله قط أن رجلاً يمكنه أن يقترف مثل هذا الأثم بمثل ذلك الهدوء. وتوقع أن يرى الأرض قد انشقت وابتلعته . لكن الأرض لم تنشق . وبقي الاسكندري الصامت معتمداً رأسه يبتسم ببرارة لذكارات شبابه المدبر . فوقف الراهب وأجاب بصوت جهوري :

— اعلم يا نسياس اني أروم بمعونة الله انقاذ تاييس من حضيض الشهوات الارضية السافلة ، وإشراب قلبها حب المسيح لتكون عروسه . واذا لم يفارقني الروح القدس ، فستغادر تاييس هذه المدينة اليوم لتذهب الى الدير .

فأجاب نسياس :

— احذر أن تغضب « الزُهرة » إنها إلهــة قادرة ، ان أنت حرمتها أبدع عبادها ، أوغرت صدرها عليك !

فقال بافنوس :

— ان الله سيقيني ويدفع عني السوء . وعسى ربي أن ينير قلبك يا نسياس ، ويرفعك من الهوة التي تتردى فيها .

وخرج فتبعه نسياس حتى أدركه بالباب ووضع يده على كتفه وهمس في اذنه مكرراً قوله :

— احذر أن تغضب الزهرة ، فانتقامها شديد !

على أن بافنوس لم يعبأ بهذا النذير وخرج طاوياً عنه كشحه . فلم تبعث فيه أقوال نسياس الا عاطفة الاشمئزاز والاحتقار . وقد أحفظه جداً ، اذ علم أن صديقه نال حظوة عند تاييس . وخيل اليه أن ارتكاب الخطيئة مع هذه المرأة أشنع وأشد هولاً منه مع أية امرأة أخرى ! كان يرى في هذا الشر مخزاة مستنكرة على مثله ، وأصبح نسياس عنده مبغضاً حقيقاً باستنزال اللعنات . كان من طبعه كراهية الرجس ، ولكنه تمثل هذه الرذيلة فبدت له بأفظع مظاهرها . وما سبق له أن شاطر من صميم قلبه ، المسيح في غضبه ولا الملائكة في حزنها ، كما شاطرهم الآن .

وكان كلما فكَّر في ذلك يزداد ميلاً الى انقاذ تاييس من وسط الفجار . وما كان ينقصه الاَّ أن يراها لينتشلها من بينهم . غير أنه كان لا مناص له من التريث حتى يعتدل الجو ، إذ كانت الشمس لا تزال رأد الضحى . فسار بافنوس في شوارع البلد الآهلة ، وقد اعتزم الامساك عن الطعام في هذا النهار حتى يكون أهلاً لما يلتمسه من عون الله ورضاه . وكان لشدة حزنه لا يجرؤ على دخول كنيسة من كنائس المدينة لعلمه بأنها ملوثة بدنس الآريوسيين الذين قلبوا موائد الرب . وكان امبراطور الشرق يشد أزر هؤلاء الهراطقة الضالين الذين طردوا اثناسيوس بعد أن القوه عن كرسي اسقفيته وبثوا الفتن بين نصارى الاسكندرية .

فسار معتسفاً ، تارةً يلقي بنظره الى الأرض في اتضاع وخشوع ، وتارةً يرفع بصره الى السماء في تجلي الانجذاب . وبعد أن سار قليلاً على غير هدى وجد نفسه على رصيف من أرصفة المدينة . وكان الميناء يضمُّ سفناً عديدة والبحر يموج معجباً بلججه اللجينية الزرقاء . وكان هناك مركب يحمل في مقدمته « بنت البحر » وقد رفع البحَّارة مرساه وهم يغنون ويشقون صدور الأمواج بمجاذيفهم ، ولم تلبث السفينة البيضاء المغطاة باللؤلؤ الرطب ، أن اصبحت في عيني الراهب أثراً بعد عين ، وأبحرت يقودها ربّانها في مضيق حوض

« الاينستوس » ، وأوغلت في عباب البحر الزاخر تجرُّ وراءها ذيلاً من الزبد .

فقال بافنوس في نفسه :

— لقد تمنيت أنا أيضاً أن أمخر عباب اوقيانوس العالم رافعاً عقيرتي بالغناء ، لـكني ما لبثت أن أدركت مبلغ حماقتي فلم تغلبني آلهة البحر على أمري .

ثم جلس على ربطة من الحبال وما لبث أن استغرق في النوم ، ورأى رؤيا : خُيّل اليه فيها أنه يسمع نفخاً في صور ، ورأى السماء حمراء كأنها صُبغت بالدم ، فعلم أن الساعة قدأتت وحان يوم الحساب . وفيما هو يضرع إلى الله بحرارة ، رأى وحشاً هائلاً يتقدم اليهِ وعلى جبينه صليب من نور ، فعرف فيه أبا هول سيلسيليه . فأمسكه الوحش بين فكّيه من غير ان يصيبه بأذى وحمله في فمه كما تحمل القطة صغارها وقطع به ممالك عديدة عابراً الانهار ، مجتازاً الجبال ، حتى أتى مكاناً قفراً مغطى بالصخور الضخمة والرماد الحارّ ، وكانت الأرض مشققة في عدة مواضع يخرج من فوهاتها لهيب وبخار ، فأنزله الوحش على الأرض برفق وقال له :

— انظر !

فأشرف بافنوس من حافة الهاوية فرأى واديًا من النيران يتلظى في جوف الأرض بين جرفين من الصخور السوداء. وشاهد الزبانية تسوم أرواح الخاطئين سوء العذاب، وقد احتفظت تلك الأرواح بمظاهر أشكالها الجسدية، حتى ان قطعًا من النسيج كانت لا تزال عالقة بها. وأدهشه أنه كان يبدو على هذه الأرواح علامات الطمأنينة في هذا العذاب الذي يكابدونه. ومنها روح طويلة القامة، بيضاء، مغمضة العينين، على جبينها عصابة وبيدها صولجان. غنّت فملأ صوتها الوادي الجدب بألحان موزونة، وشدت بذكر الآلهة والابطال، وكانت العفاريت الصغيرة الخضراء تحرق شفتيها ونحرها بحديد محمى.. وظل طيف هوميروس يغني..!! وعلى مقربة منهُ، الشيخ اناجزاجور، وكان أصلع أشيب، يرسم بالفرجار أشكالاً في التراب، وهناك شيطان يصب الزيت الغالي في اذنه وهو جاد في عمله!

ورأى الراهب فيما رأى، طائفـــة من الناس على جانب وادي السعير، يقرأون ويتحدثون في اطمئنان وهدوء، وهم يتنزهون كما يفعل الاساتذة والطلبة فى ظل اشجار الاكاديمي!!

وهناك على حدة، وجد تيموكليه الهرم قد اتخذ مكانًا قصيًا، يهز رأسه هزة الجحود والانكار، وبجانبه أحد زبانية الهاوية يحرك شعلة امام عينيه، وتيموكليه لا ينظر اليه!

عقدت الدهشة لسان بافنوس فالتفت الى الوحش واذا به قد اختنق ، ورأى مكانه امرأة مقنعة قالت له :

— انظر واعتبر بهؤلاء المشركين فانهم خالدون في جهنم فرائس الأوهام التي أغوتهم وأضلتهم في الحياة الدنيا . لأن الموت لم يكشف الغشاوة عن بصائرهم ليروا . فما الموت بكافٍ لرفع الحجاب عن الحقيقة. والذين كانوا في الحياة جاهلين سيبقون في الجهل خالدين . وما اولئك الشياطين الذين يشتدون في تعذيب تلك النفوس سوى صور محسوسة يتجلى فيها العدل الرباني . لهذا ترى تلك النفوس عاجزة عن رؤيته والشعور به لأنها بعيدة عن كل حق فلا تدري قضاء الله عليها وتعمى عن الصواب

فقال كاهن انصينا :

— ان الله على كل شيء قدير

فأجابت المرأة المقنعة :

— انه جل شأنه لا يفعل شيئاً عبثاً . فعقابهم يقتضي انارة بصائرهم ، فاذا ملكوا ناصية الحق اصبحوا كالمجتبين

عاد بافنوس يطل ثانيـة على الهاوية . وقد طـار لبه روعاً وفزعاً . فرأى طيف نسياس تحت الريحان المحترق يبتسم وجبينه متوج بالزهر وبجانبه « اسپازيا » تختال بدلال ورشاقة في ثوبها الصوفي ،

يلوح عليهما انهما يتكلمان معاً في الحب والفلسفة . وعلى محياهما سمات الملاحة والنبل . وكان سيل النـار يتساقط عليهما كأنه برد وسلام . وكانت أقدامهما تطأ الأرض المضطرمة وكأنها العشب الندي . فاهتاج بافنوس لهذا المنظر هياجًا شديداً وصاح :

— عدلك يارب عدلك ! أنزل مقتك وغضبك ! هذا نسياس ، دعه يبكي ويتوجع ! اجعل اسنانه تصطك ، انه جنى على تاييس !

واستيقظ بافنوس بين ذراعي بحار قوي كهرقل كان يحمله ليضعه على الرمل وهو يقول له :

— هدوءا وسلاماً ايها الصاحب ! بحق « بروتيه » آله البحر ، انك تضطرب فى نومك ! ولو لم اكن قد أمسكت بك لسقطت في « الاينوستوس » . فلا تشك في انني أنقذت حياتك ، كما لا أشكُّ في أن أمي تبيع الفسيخ ! !

فأجابه بافنوس بقوله :

— الحمد لله !

ثم نهض وسار يفكر في الحلم الذي رآه ويقول في نفسه :

— ان هذا الحلم شر ظاهر ، انه يسيء الى العزة الالهية بتمثيل الجحيم كأن ليس له ظل من الحقيقة ، حقاً ان هذه أضغاث أحلام من عمل الشيطان !

وبينما كان يعاتب الله على تخليه عنه وتركه لسلطان الشيطان ، كانت تدفعه جماهير من الناس تسير مسرعة في طريق واحد . ولما لم يكن معتاداً السير في المدن فانه تعثر في طيات ثوبه وسقط غير مرة .

وأراد معرفة مقصد اولئك الناس فسأل أحدهم عن سرّ هذه العجلة فأجابه :

— ألا تعرف أيها الغريب أن الألعاب ستبدأ ، وأن تاييس ستمثل ؟ هؤلاء كلهم ذاهبون الى الملعب وأنا ذاهب اليه مثلهم . فهل تروق لك صحبتي ؟

ففطن بافنوس الى أن رؤية تاييس في العابها توافق خطتــه ، وتبع الرجل الغريب .

وكان الملعب امامهما مزدانا ايوانه بصور الوجوه المستعارة الزاهية ، وعلى سوره تماثيل لا تحصى . فتبعا الجمهور ودخلا دهليزاً ضيقاً في نهايته مدرّج تسطع فيه الأنوار . فجلسا في أحد الصفوف . وكان المسرح باديًا في أجمل زينة وأبدع مثال ولا يزال خاليًا . ولم يك ثمة ستار يحجب المشهد . وكان على المسرح هضبة كالتي كان يقيمها الأقدمون لأرواح أبطالهم . وكانت هذه الهضبة في وسط معسكر . وقد وضعت امام الخيام حزم الرماح ، وعلقت التروس

الذهبية على الأعمدة بين أكاليل من الغار وتيجان من أوراق شجر البلوط — يخيم عليها جميعًا السكون . لكن دويًا كأزيز النحل دوى من نصف الدائرة حيث جلس المشاهدون ، وقد تحوّلت وجوههم المحمرة ، من انعكاس الثياب القرمزية عليها ، نحو ذلك المكان الرحب الصامت بهضبته وخيامه . وكان النساء يضحكن وهن يأكلن الليمون ، وكان المترددون على الملعب يتلاقون فيتعارفون بابتهاج وابتسام .

صلى بافنوس في نفسه ، وأمسك عن لغو الكلام ، لكن رفيقه أخذ ينتقد الملعب ويشكو من تأخر حاله ، فقال :

— قديمًا كان الممثلون البارعون يلقون من تحت الوجوه المستعارة أشعار يوربيدس ومناندر ، أما الدراما فلا تُلقى الآن وانما يقلدونها باشارات كأنهم صم بكم ، ولم تبق لنا من المشاهد السامية التي وُضعت اكرامًا لباخوس في اثينا الا ما يستطيع أن يفهمه الرجل الساذج ، لأنه ليس سوى مظهر واشارة . أما برقع المأساة الذي كان موضع الفم فيه مجهزًا بألسنة من معدن تزيد في جهارة الصوت ، والمطوّلات التي كان يلبسها الممثلون فتبلغهم طول الآلهة ، وجلال المأساة والقصائد التي كانوا يتغنون بها — هذه كلها قد امّحت ، وحلّ الممثلون الصامتون ، والراقصات السافرات محل پولوس



(تكريم باخوس ، اله الخمر ، في أثينا)

وروسكيوس . تُرى ماذا كان الأثينيون معاصرو بركليس يقولون لو انهم رأوا امرأة تبدو للعيان ؟ ان سفور المرأة عيب ، ولا ريب أن رضانا به تقهقر وانحطاط . حقاً ، ان المرأة هي عدو الرجل الطبيعيُّ وسوءة الوجود .

فأجاب بافنوس :

— أصبتَ ! فان المرأة أشدُّ أعدائنا ، لأنها تملك قياد اللذات ، وهذا سر قوتها .

فصاح دوريون :

— وحق الآلهة إن المرأة لا تمنح الرجال لذة بل تجلب الحزن ، والنَّصَب ، والهموم الساحقة ! الحب مصدر آلامنا المحرقة ! اسمعني أيها الأجنبي :

ذهبتُ في صباي الى تيريزنا بأرجوليد، ورأيت هناك ريحانة كبيرة الحجم موخوزة الاوراق ، ويقول سكان تيريزنا عنها : انه لما هامت الملكة فيدروس بحب هيپوليتس ، قضت سحابة يومها جاثية في ضنى وكلال تحت هذه الشجرة. وفي أثناء ضجرها و إعيائها أخذت دبوسها الذهبي الذي يمسك شعرها الاشقر ووخزت به أوراق الشجرة ذات الشذى العطري، و بعد ان صادت الرجل البريء الذي نصبت له شرك هواها ، ماتت فيدروس شر ميتة كما تعلم ، فقـد أغلقت باب مخدعها وشنقت نفسها بمنطقتها الذهبية معلقة في مسمار من العاج . وأرادت الآلهة أن تبقى الريحانة شاهدة على هذا الشقاء ، تحمل فوق أوراقها الغضة المتجددة وخزات الدبوس الى نهاية الدهور . وقد قطفت احدى هذه الاوراق ووضعتها فوق مضجعي زجراً للنفس عن التطوح في مهامه الحب، مستعيناً بحكمة أبيقور أستاذي العظيم الذي من تعاليمه أن الشهوة مخوفة . وصفوة الكلام أن الحب داء محتوم لاخلاص منه غالباً

فسأله بافنوس :

— فيم مسرّاتك اذاً يا دوريون ؟

فأجاب دوريون باكتئاب :

— لي لذة واحدة ، هي التفكير . وليس لذي معدة ضعيفة مثلي أن يبحث عن سواها .

فانتهز بافنوس هذه الفرصة، وبدأ يُعرّف الابيقوري بالمسرات الروحية الناشئة عن مناجاة الله والتأمل في ذاته العلية، فقال:

— استمع للحق يا دوريون، وتلق النور . . . !

فما لبث ان رأى الرؤوس والاذرع تتجه اليه من كل صوب تأمره بالسكوت. وخيم على الملعب سكون عميق أعقبته نغمات الموسيقى الحماسية.

بدأت الالعاب،وشوهدت الجنود تغادر الخيام وتستعد للرحيل، وعندئذ حدث أمر عجيب رهيب، اذ غطت سحابة قمة الهضبة ثم انقشعت وظهر طيف «أشيل» في درع من ذهب ومد ذراعه نحو المحاربين كأنه يقول لهم: «ما هذا يا أبناء دانوس، أتعودون الى الأرض التي لن أراها ثانية، وتغادرون قبري بغير أن تقدموا لديه الذبائح والقرابين؟»

فاجتمع فوراً قواد الاغريق حول سفح الهضبة، وبينهم اكناس بن تزيس، ونستور الشيخ، وأجا ممنون يحمل الصولجان وعلى جبينه عصابة — وجعلوا يتفرسون فيما حدث. وكان پيروس ابن اشيل الصغير ساقطاً على الارض،واتضح من حركات عوليس، المعروف بقلنسوته التي يظهر من تحتها شعره الجعد، انه راض بما يطالبه

طيف البطل ، وكان يحاور أجاممنون ، واستطاع الحضور أن يفهموا أقوالهما من اشاراتهما ، وحسبوا ملك اتيكا يقول :

— ان أشيل يستحق منا كل إعظام وتكريم ، وهو الرجل الذي مات أشرف ميتة في سبيل اليونان ، وهو يطلب العذراء پوليكسنا ابنة پريام ليضحي بها على قبره ، فيا أيها اليونانيون ! ادخلوا السرور على طيف البطل واجعلوا ابن پيليه يفرح في مقرّه الابدي

لكن ملك الملوك أجاب :

— لنبقينّ على عذارى طرواده اللواتي انقذناهنّ من المذابح ، فكفى ما نزل من الإحن والمصائب بالجنس الپريامي الجليل .

قال ذلك لأنه كان يهوى أخت پوليكسنا ويقاسمها مضجعها . فعيّره عوليس الحكيم أنه يفضل فراش كساندرا على رمح أشيل

وأخيراً ، وافق اليونانيون على اقتراح عوليس بأن قرعوا أسلحتهم بعضها ببعض . وتقررت تضحية پوليكسنا ، فاطمأنت روح أشيل واختفى طيفه مغتبطاً .

وكانت الموسيقى تارةً تعصف وتثور ، وتارةً تئن وتنوح ، وهي تماشي إحساس الجمهور وعواطفه . فصفق الحضور طرباً واعجاباً الا بافنوس ، الذي يعزو كل شيء الى الله الحق ، فانه قال :

— من هـذه القصة نرى كيف كانت قسوة الذين عبـدوا الآلهة الباطلة !

فأجابه الابيقوري :

— ان الأديان كلها تلد الجرائم ! ولحسن الحظ ، أوتي اغريقي الحـكمة ، فخلّص الناس من مخاوف المجهول التي لا أساس لها . . .

وهنا غادرت هيكوبا الخيمة التي كانت فيها اسيرة وهي شعثاء الشعر ، ممزقة الثوب . فارتفعت تأوهات عالية من قلوب الحاضرين حين شاهدوا صورة شقائها مجسمة . وكانت هيكوبا قد أنذرت برؤيا صادقة، فبكت واستبكت لنفسها ولابنتها ، فدنا منها عوليس وسألها أن تسلم پوليكسنا ، فشدت شعرها بيديها، وخدشت خديها بأظافرها، وقبلت يدي ذلك الرجل الغليظ القلب الذي خاطبها بقوله :

— تعقلي يا هيكوبا واخضعي لحكم الضرورة . فان في منازلنا أيضاً أمهات عجائز يبكين اطفالهن الذين ناموا تحت أشجار صنوبر إيدا نوماً أبدياً .

أما كسندرا التي كانت يوماً ملكة آسيا الغنية ، وأصبحت الآن جارية ، فانها حثت التراب على رأسها .

ثم رُفع ستار الخيمة . وظهرت العذراء پوليكسنا . فسرت

في المشاهدين جميعاً هزّة اذ عرفوا انها تاييس . وأبصر بافنوس ثانية المرأة التي جدّ في طلبها

وظهرت تاييس بعد ان رفعت بيدها البيضاء ستار الخيمة ، ثم لبثت واقفة بلا حراك كتمثال بديع ، والقت من عينيها البنفسجيتين نظرات الدلال والخيلاء ، ففتن جمالها الباهر كل قلب ، وأحسّ كل من شاهدها برجفة أثارت فيه عوامل الشفقة والحنان .

وارتفعت من الحاضرين أصوات الاستحسان ، حتى أن بافنوس عقد يديه فوق صدره ، وشدّ على فؤاده مفتوناً ، وتنهد متأوهاً ، وقال : —

— رب ان هذا سلطان شديد ، لواحدة من خلقك ، على عبادك !

وكان دوريون أقل تأثراً منه فقال :

— حقاً إن الذرّات التي تألفت منها هذه المرأة كونت تركيباً بديعاً يسر النظر . وليس ذلك الا احدى دعابات الطبيعة وهي تلهو وتلعب ، فالذرات لا تدرك ما تكونه ، وسوف ينحل بعضها عن بعض وتفترق كما اتحدت ، أي بغير شعور بالاتحاد ولا بالتفرق . وأين أين الذرّات التي تكوّنت منها لاعيس أو كليو بطرا ؟ لست انكر أن النساء في بعض الاحيان جميلات ، لكنهن جُعلن عرضة للقبح والثقل !!

هذه مسائل تشغل عقول المفكرين ، في حين أن السفلة الاجلاف لا يعنون بها ولا يلتفتون اليها . النساء يضرمن الحب فينا ويوحينه الينا ، ولكن الهيام بهن مخالف للعقل والحكمة .

كذلك فكر الفيلسوف ، وكذلك فكر الزاهد في تاييس ، واتبع كلٌّ منهما سبيل خواطره ، فلم يلحظا اتجاه هيكوبا الى ابنتها وقولها باشاراتها :

— حاولي أن تؤثري في قلب عوليس القاسي ، كلميه بدموعك وجمالك وشبابك !

فأرخت تاييس ، أي پوليكسنا ، باب الخيمة ، وخطت خطوة فاستولت على كل القلوب . ولما تقدمت نحو عوليس بخطى ثابتة سريعة ، بعثت حركاتها المتوازنة المرتبطة بأنغام الناي الشجية ، في أذهان الحضور كلهم أحلاماً لذيذة فأحسوا كأنها هى المحور الالهى الذى تدور حوله أنظمة الكون جميعاً ! فلم يروا أحداً سواها ، وكسفت أنوار جمالها كل ما عداها ، ولم يحظ الممثلون الآخرون بأدنى التفات . ثم استمر التمثيل .

أدار «ابن ليرت» الحصيف رأسه ، وأخفى يده تحت معطفه ، ليتحاشى نظرات الفتاة المتضرّعة وقبلاتها ، فأشارت اليه العذراء ألاَّ يخافها ولا يخشاها ، وقالت بلسان نظراتها الهادئة :

— اني أمتُكَ يا عوليس ! سأتبعك خاضعة للقضـــاء ، لأني راغبة في الموت . أنا ابنة بريام وأخت هيكتور التي كانت يوماً جديرة بالملوك فلن أرضى سيداً أجنبياً - اني بملء الرضى أنبذ الحياة !

وكانت هيكوبا جاثية على التراب ، فنهضت فجأة وعانقت ابنتها عناق اليأس والقنوط ، فأبعدت پوليكسنا ، بلطف لا يقاوم ، ذراعي أمها عنها ، وكأنها تقول :

— لا تعرضي نفسك يا أماه لعدوان السيد ، لا تنتظري منـه شفقة ولا رحمة ، أيتهـا الأم المحبوبة ، هاتِ يدك ذات الغضون وقربي خديك الضامرين الى شفتي !

زاد الحزن وجه تاييس حسناً واشراقاً ، وشعر الجمهور بامتنان نحوها لتمثيلها أمامه أهواء الحياة وأشكالها فى رقة فائقة . وسامح بافنوس زهوها الحالى اكراماً لاتضاعها المقبل ، واثنى على نفسه سلفاً من اجل القديسة التى سيضمها عما قريب الى السماء !

* * *

وقارب المشهد الختام . فسقطت هيكوبا كالميتة ، وتقـدمت پوليكسنا ، يقودها عوليس ، الى القبر المحوط بصفوة رجال الحرب ، وصعدت مزفوفة بتراتيل الحزن المؤثرة ، الى قمة الهضبة حيث قدم

ابن أشيل الخمر في كأس ذهبية الى طيف البطل . ولما مدّ المقربون أذرعهم ليمسكوا بها أشارت اليهم برغبتها في الموت طليقة غير مقيدة كما يليق بسليلة الملوك مثلها ، ثم مزقت قميصها وكشفت عن موضع قلبها ، فغيّب فيه پروس حسامه وقد حوّل رأسه ، ففاض الدم ، بحيلة فنية باهرة ، متدفقاً من صدر العذراء الناصع ، وسقطت بحياء وخفر منحنية وقد نكس رأسها ، وغارت عيناها من تأثير الموت وهوله .

كفّن المحاربون الضحية وغطوها بالزنبق وشقائق النعمان في برهة ملىء الجو فيهـا بصيحات الفزع والانين والتأوهات . فنهض بافنوس واعتلى مقعده وتنبأ بصوت جهوري كالرعد ، هذه النبوءة :

— أيها الذين كفروا وعبدوا الشياطين ! أيهـا الأريوسيون وأنتم أشد طغياناً من الوثنيين ! ان ما ترون الآن إن هو الأ مثال ورمز ، هي خرافة تشتمل مغزًى دينيًا ساميًا . فان المرأة التي مثّلت أمامكم التضحية سوف تقبل الموت باغتباط في سبيل الله . . .

ولكن الجموع كانت قد تسابقت الى الخروج كالموج الزاخر ، واستطاع كاهن أنصينا أن يتخلص من دوريون المذهول فانطلق وهو لايزال يردد نبوءته .

٭
٭ ٭

وبعد ساعة من الزمن طرق باب تاييس .

وكانت الممثلة تسكن بيتاً محاطاً بجنات وارفة الظلال فيها صخور صناعية ينساب في وسطها غدير مزدان بأشجار الحور، في حي راكوتيس بقرب قبر الاسكندر.

ففتحت له الباب جارية سوداء شمطاء مثقلة بالحليّ، وسألته عما يريد، فأجابها:

— اروم رؤية تاييس، والله يشهد اني ما أتيت الى هنا الاّ لرؤيتها.

وأبصرت الجارية أنهُ يلبس ثوباً فاخراً ويتكلم بأبهة السيادة فسمحت له بالدخول وقالت:

— تجد تاييس في كهف العذارى





البردى

ولدت تاييس من أبوين فقيرين ، وثنيين . وفي أيام حداثتها كان ابوها يدير حانة على مقربة من باب القمر بالاسكندرية يتردد اليها البحارة . فرسخ في ذهنها تذكار أمور كثيرة عن الحانة وما يتعلق بها . كانت تذكر أباها وهو متربع في زاوية البهو ، طويلاً ، مهيباً ، هادئاً كأنه أحد أولئك الفراعنة الذين كان العمي المتسولون يمجدونهم في أغانيهم المحزنة وهم جالسون في مفارق الطرق . وتذكر أيضاً أمها النحيلة المكتئبة تذرع البيت وتطوف به كقطة جائعة ، يملأه صوتها المنكر رعباً ، وعيناها البراقتان شرراً . وقد شاع عنها في الضاحية انها ساحرة تتحول في الليل الى بومة لتلاقي

عشاقها ! على أن هذه الاشاعة زور و بهتان ! فقد تحققت تاييس من ملاحظتها الدائمة لأمها أنها لم تشتغل قط بفنون السحر، ولكن لشدة تفانيها في الشح والجشع كانت تقضي سواد ليلها تحصي دخل يومها .

فأبوها الفاتر الهمة ، وأمها البخيله ، كلاهما ألقيا حبلها على غاربها ، وتركاها كدجاجة في حظيرة الطيور البيتية ! فمهرت مهارة لا تجارى في سلب دراهم البحارة السكارى، تتناولها من أحزمتهم وهي تباسطهم بالاغانى الصبيانية ، والكلمات الشنيعة التى كانت تجهل معناها. وكانت تنتقل من ركبة الى ركبة في القاعة المتشبعة برائحة الخمور والقرب الراتينجية ، ثم تعود ويداها الصغيرتان قابضتان على الدريهمات ، ووجهها مندّي برشاش الجعة المتطاير ، مخدّش من اللحى الكثّة ، وتجري لشراء أقراص الشهد من امرأة عجوز جالسة في كُنَّةٍ تحت باب القمر

وهذه المشاهد كانت تتكرر كل يوم . فيذكر البحارة ما لاقوه من الاخطار في أثناء اشتداد العاصفة، ثم يلعبون النرد والكعاب ، ويطلبون ، وهم يجدفون ، أحسن جعة كلكيلية .

وكانت الطفلة تاييس تستيقظ كل ليلة على شغب السكارى وعراكهم ، وعلى ما يتساقط فوق الموائد من قذائف المحار وسط

الصخب والضجيج المتعالي، وترى بعض الاحيان، على ضوء المصابيح الكثيرة الدخان، المدي تلمع والدم يسيل ...

ولم تعرف الطيبة البشرية في ريّق عمرها الآ في شخص « احمس » الذي كانت تقاسمه المذله . وأحمس هذا عبد البيت وهو نوبي أشد سواداً من القدور التي يعنى بفركها وتنظيفها ! لكنه كان طيباً كالليل الذي يُقضى في نوم عميق لا يتخلله سهاد ! وطالما وضع تاييس على ركبتيه يقص عليها قصصاً عن مغاور مملوءة كنوزاً وقد بُنيت لملوك أشحاء أعدموا الذين بنوها لهم ! وكان في تلك القصص أيضاً لصوص حُذّاق يتزوجون من بنات الملوك، وسراري يبنين اهراماً !

فأحبت تاييس الصغيرة أحمس حب الطفلة للأم والاب والمرضع والكلب ! تعلقت بالعبد وكانت تتبعه الى قبو دنان الخمر وحظيرة الدجاج بين الفراخ الضامرة المنتفشة التي ترفرف طائرة امام مدية الطاهي الزنجي أسرع من فراخ النسور ! وفي كل ليلة تقريباً، كان يصنع لتاييس الطواحين والسفن بحجم راحة اليد، وفيها كل معداتها .

وكانت إحدى أذنيه مصلومة من سوء معاملة سادته له، وقد غطت الندوب جسده، ولكن كان على وجهه مسحة الطمأنينة

والانبساط ، ولم يخطر لأحد ان يسأله من أين استمد عزاء النفس وراحة الضمير . فقد كان ساذجاً كالطفل ، وكان وهو يؤدي عمله اليومي الشاق ينشد بصوت أجشّ أناشيد تبعث في نفس الفتاة الرجفة والاحلام .

كان يترنم مسروراً بصوت جهوري يقول :

« — خبرينا يا مريم ، ماذا رأيت حيث كنت ؟

« — رأيت الكفن ، ونسيج الكتان ، والملائكة جالسين عند القبر ، وشهدت مجد المبعوث . . . »

فسألته تاييس مرةً :

— لماذا تتغنى يا ابت بقولك : « الملائكة جالسون عند القبر ؟ »

فأجابها :

— أيتها الصغيرة ، يا نور عيني ! اني أتغنى بذكر الملائكة،لأن سيدنا المسيح قد صعد الى السماء

كان احمس مسيحياً ، معمَّداً . وفي اجتماعات المؤمنين التي يحضرها سرًّا في الوقت المعيّن لنومه ، كان معروفاً باسم تيودور .

في ذلك العهد كانت الكنيسة تقاسي اكبر البلاء وأشد

الاضطهاد . فبأمر الامبراطور هُدمت الكنائس ، وأحرقت الكتب المقدسة ، وصهرت الاوعية الطاهرة والمسارج ، وجرّد المسيحيون مما ملكت أيمانهم ، وما كانوا يتوقعون سوى الموت . وساد الرعب طوائف الاسكندرية وبلاد العرب وبين النهرين وغيرها من بلدان الامبراطورية الرومانية . وسُلّطت السياط ومطايا التعذيب والمخالب الحديدية والوحوش الضارية على الاساقفة والعذارى فمزّقتهم شرّ ممزّق . فانقضّ انطوان ، زعيم المؤمنين الذي كان مشهوراً في مصر بزهده وتقواه، انقضاض النسر على مدينة الاسكندرية ، وخفّ من كنيسة الى كنيسة يشدد عزائم المؤمنين ، ويبث في قلوبهم روح الشجاعة والقوة والايمان والصبر على المكاره . وكان اضطهاد العبيد على الخصوص بالغاً أشدّه ، فارتدّ كثيرون منهم لما أصابهم من الجزع ، وهرب آخرون الى الصحراء بأمل أن يعيشوا فيها نساكاً زاهدين ، أو لصوصاً ناهبين !

أما أحمس فظل مع هذا كله يغشى كعادته المجتمعات ويختلف اليها . فزار المسجونين ، ودفن الشهداء ، واعترف وجاهر مبتهجاً بدين المسيح . ولما شاهد أنطوان العظيم ، قبل رجوعه الى الصحراء ، هذه الحمية الصادقة ، احتضن العبد الاسود ومنحه قبلة السلام . . .

٭ ٭ ٭

ولما بلغت تاييس السابعة ، بدأ أحمس يحدثها عن الله ، قال :

« — ان الله سبحانه وتعالى قد عاش في السماء ، كفرعون ، في خيمة حريمه ، وتحت أشجار جناته . وهو أزلي منذ الازل لا بداية له . وليس له من ولد سوى الامير يسوع الذي يحبه بكل قلبه ، والذي يفوق بجماله العذارى والملائكة جميعاً

وقال الرب للامير يسوع :

« — اترك حريمي وقصري ونخيلي وأنهاري وانزل الى الارض لخير البشر . ستكون فيها كطفل صغير . وتعيش فقيراً بين الفقراء . سيكون الألم خبزك اليومي ،وستذرف دموعاً غزيرة تجري أنهاراً يستحم فيها العبيد المرهقون مبتهجين — اذهب يا بني ! » فأطاع الامير يسوع وهبط الى الأرض بمكان يسمى بيت لحم في أرض الموعد وسار في الرياض المنمقة بشقائق النعمان قائلاً لصحبه :

« — طوبى لاولئك الجياع لاني سأجلسهم على مائدة أبي ! طوبى لاولئك العطاش لانهم سيشربون من عيون السموات ! طوبى لاولئك الذين يبكون لاني سأرقىء دموعهم بنقب أبدع من نقب القيان ! »

لهذا أحبه الفقراء وآمنوا به ، لكن الاغنياء مقتوه خشية أن يفضل الفقراء عليهم

«وفي ذلك العهد كانت كيلوباترا وقيصر قوة في الارض لا تتحدى، وكلاهما كرها يسوع وأمرا الحكام والكهنة ان يقتلوه . فنصب أمراء سورية ، إطاعة لملكة مصر ، صليباً فوق جبل عال وصلبوا المسيح عليه . بيد أن النساء غسلن جثته ودفنّا . ثم قام الامير يسوع من الاموات ، وخرج من قبره ، وصعد الى الله أبيه .

ومنذ ذلك العهد يصعد الى السماء كل الذين يستشهدون في سبيله .

فيفتح الرب سبحانه ذراعيه ويقول لهم :

« — على الرحب والسعة ، لأنكم تحبون ولدي الأمير ! استحموا ثم كلوا ! »

« فيستحمون على أنغام الموسيقى الشجية : ويرون في اثناء الطعام رقص القيان ، ويصغون لحكايات ما إن لها من ختام ! وهم لدى الله الرءوف أعزّ عليه من نور عينيه ، لأنهم ضيوفه . وسيكون من نصيبهم طنافس قصوره ورمان جناته !

ضرب أحمس في أقواله على مثل هذه الأوتار الحسّاسة ، وهكذا علّم تاييس الحق واستهواها ، فقالت معجبة :

— أود لو آكل من رمان الله تعالى ! !

فأجابها أحمس :

«-ان الذين عُمِّدُوا في يسوع يذوقون وحدهم فاكهة السماء».

فطلبت تاييس أن تتعمد، ولما رأى منها إيمانها بيسوع قرّ رأيه على أن يمعن في تهذيبها، حتى اذا عُمّدت أمكن أن تنضمّ الى الكنيسة. واشتد حبه لها كابنته الروحية.

وكانت تاييس منبوذة من والديها الظالمين، فلم يكن لها فراش تحت السقف الابوي، فنامت في زاوية من الاسطبل بين الأنعام، وهناك وافاها أحمس سراً تحت جنح الدجى، واقترب بخفة من القش الذي افترشته، وجلس على كعبيه، مزدوج الساقين، معتدل القامة، جلسةً يتوارثها الخلف عن السلف من ابناء جنسه، واختفى وجهه وجسده المتشح بالسواد، في الظلمات. ولمعت عيناه الكبيرتان البيضاوان وانبعث منهما نور كشعاع الفجر المنبعث من شقوق الباب

ثم تكلم بصوت أجشّ مؤثر، فيه نغمة الموسيقى المحزنة التي تُسمع عند المساء في الطرقات . . .

وفي بعض الاحيان كان نهيق حمار أو خوار ثور يصحب صوت أحمس وهو يرنّم آيات الانجيل، فيتألف من امتزاجها نغم موسيقي كأنه صادر عن جوقة ملحنين للارواح الغير المنظورة !!

تدفقت كلماته بهدوء في جنح الظلام ، ممزوجة بالحماسة والرحمة والأمل . . . فشدت المتنصّرة بيدها على يد أحمس وقد اطمأنت لهذه الأنغام التي تجري على وتيرة واحدة ، وسكنت نفسها لصور مخيلتها المبهمة ، فأخذ الكرى بمعاقد اجفانها ، فنامت وادعة باسمة بين ايقاع الحان الديجور والاسرار القدسية ، تحت ضوء نجم بزغ من ثقوب في سقف الاسطبل .

* * *

استغرق تعليمها الأولي حولاً كاملاً ، حتى جاء الموسم الذي يحتفل فيه المسيحيون وهم فرحون بعيد الفصح . ففي ليلة من ليالي ذلك الاسبوع المجيد ، كانت تاييس نائمة على حصيرتها في القبو ، فشعرت بأن العبد قد حملها وعيناه تسطعان بنور غريب ، ولم يكن كعادته في سرواله الممزّق ، بل كان يرتدي عباءة طويلة بيضاء لفّ بها تاييس قائلاً لها بصوت خافت :

— تعالي يا روحي ! تعالي يا عينيَّ ! تعالي يا فؤادي ! تعالي ارتدي ثوب التعميد !

ثم حملها ضاماً إياها إلى صدره ، وكانت خائفة لكنها توّاقة الى الاستطلاع ، فأخرجت رأسها من العباءة وطوقت عنق صديقها بذراعيها ، وقد جرى بها يشق حجاب الظلمات .

ساراً في دروب ضيقة واجتازا حي اليهود ومرّا أولاً بمقبرة انبعث منها صيحة العُقاب الرهيبة ، ثم بمفرق طرق علقت فوق صلبانه أجساد المعذبين وقد حطت على أذرعهم الغربان الناعقة تنقرها . فخبأت تاييس رأسها في صدر العبد ، ولما فتحت عينيها رأت نفسها في كهف ضيق مضاء بشعل راتنجية ، منقوش الحيطان بصور كبيرة تظهر في دخان المشاعل كأنها أحياء تتحرك . . . وهي صور رجال مرتدين جلابيب طويلة يحملون السعف في وسط حملان وحمام وغصون كرم .

وعرفت تاييس من بين هذه الاشكال يسوع الناصري بشقائق النعمان المزهرة عند قدميه . وفي وسط القاعة ، بقرب جرن المعمودية المملوء بالمـاء ، وقف شيخ هرم مرتد حلة قسيس قرمزية مطرزة بالذهب وعلى رأسه تاج أسقف ، وقد تدلت من وجهه النحيف لحية طويلة ، وعلى رغم حلته الفاخرة ، كانت تلوح عليه سيماء التواضع ودماثة الخلق . ذلكم المطران ڤيڤانتوس الذي كان أميراً مبعداً من كنيسة برقه واصبح الآن ينسج من شعر المعز قماشاً صفيقاً ليقيم صلبه . وقد وقف بجانبه غلامان فقيران ، وعلى مقربة منه حملت عجوز زنجية ثوباً صغيراً أبيض . فأنزل أحمس البنت الى الأرض ، وركع امام الأسقف وقال : —

— هذه هي يا أبي ، النفس الصغيرة ، ابنة روحي ، احضرتها لك حتى اذا ما راقت سيادتك أنعمت عليها حسب وعدك بالمعمودية .

فمدّ المطران ذراعيه وأظهر يديه المشوهتين ، اللتين نُزعت أظافرهما عقاباً على جهره بالايمان في ايام المحن والاضطهاد . فأوجست تاييس خيفة والقت بنفسها في حضن أحمس، لكن الكاهن لاطفها وسكّن روعها بقوله :

— لا تخافي أيتها الطفلة المحبوبة ، فان لك هنا أباك الروحي الذي يدعى بين المؤمنين تيودور ، ولك أم صالحة ترعاك ، وهي التي خاطت لك بيديها ثوباً أبيض .

ثم التفت الى الزنجية وقال :

— انها تدعى « نيتيدا » وهي على هذه الارض جارية ، لكن يسوع سيرفعها في السماء الى صف عرائسه !

ثم سأل الطفلة المتنصّرة :

— أتؤمنين يا تاييس بالله الأب القادر على كل شيء ؟ وبابنه الوحيد الذي مات في سبيل خلاصنا ؟ وبكل تعاليم الرسل ؟

فأجاب الزنجي والزنجية ، اللذان كانا قابضين على يديها ، بالايجاب

وطبقاً لأوامر الأسقف ركعت نيتيدا ونضت عن تاييس ثيابها كلها ، فصارت عارية الاَّ من رقية في عنقها ، ثم غطسها المطران ثلاث مرات في جرن المعمودية ، ومسحها بالزيت ووضع ذرة من الملح على شفتيها ، وبعد تنشيف جسدها الذي كان معدًّا بعد بلاء شديد للحياة الخالدة ، ألبستها نيتيدا الثوب الابيض نسيج يديها .

ثم منحهم الأسقف جميعاً قبلة السلام ، وانتهت الحفـلة فنزع حلته الـكهنوتية .

ولما صاروا جميعاً خارج السرداب قال أحمس :

— ينبغي أن نغتبط بتقديمنا اليوم نفساً لله سبحانه وتعالى ، فهلم نذهب الى منزل سيادتكم ونقضي بقية الليل بالحبور

فأجاب المطران :

— أحسنت يا تيودور

ثم قادهم الى داره القريبة منهم وكانت مؤلفة من حجرة واحدة متاعها نولان ، ومنضدة كبيرة ، وسجادة بالية .

فصاح النوبي عند دخولهم :

هاتِ يا نيتيدا الموقد وقليلاً من الزيت . ولنطهين اكلة هنيئة!

قال هذا وأخرج من تحت عباءته بعض السمك ، وأشعل ناراً وأخذ يقليه . وجلس الأسقف والطفلة والغلامان والعبـدان في دائرة فوق السجادة ، وأكلوا السمك المقليّ وحمدوا الله .

وتكلم ڤيڤانتوس عما عاناه من الآلام المبرّحة ، وبشر بفوز الكنيسة القريب . وكانت لغته جافة غير انها فائضة بالمجازات الفصيحة والنكات البديعة . وشبّه حياة الاستقامة بنسيج ارجواني موشّى ! قال في شرح سرِّ العماد :

— ان الروح القدس يطفو فوق المياه ، ولهذا يتلق المسيحيون عماد الماء ، غير ان الشياطين يسكنون ايضاً الغدران ، كذلك الينابيع المخصصة للحوريات خطرة مخوفة ، ومن المشاهد ان بعض المياه يسبب امراضاً مختلفة للنفس والجسد .

وفاه في بعض كلامه بأحاجي ومعميات ملكت على البنت مشاعرها تهيباً واعجاباً ! وبعد الفراغ من الطعام قدم لضيوفه شيئاً من النبيذ فانطلقت السنتهم من عقالها وأخذوا ينشدون ويسبحون . ثم نهض أحمس ونيتيدا ورقصا رقصة نوبية تعلماها في صباهما ، وكانت بلا ريب شائعة في القبيلة منذ قديم الزمان . وهي رقصة غرامية ، يكون فيها تحريك الأذرع والجسد بأكمله ، ثم الاحتيال

بالتاوب على الهرب، ثم اقتفاء الأثر . فأدارا عيونهما الكبيرة واظهرا أسنانهما اللامعة وهما يبتسمان

كذلك تلقت تاييس التعميد القدسي

***

هامت تاييس بحب اللهو والمرح ، وتولدت في نفسها ، وهي تنمو وتكبر ، رغبات مبهمة وأهواء . . . فكانت ترقص وتغني سحابة نهارها مع أولاد الشوارع المتشردين ، وفي الليل تعود الى بيت أبيها وهي لا تزال تغني . . .

ثم أخذت تفضل صحبة الصبيان والبنات على صحبة أحمس الرقيق الرزين ، فلم تلحظ أن صديقها قد قلَّل اجتماعه بها . وكان الاضطهاد قد انقطع واصبحت محافل المسيحيين اكثر انتظاماً ، فأخذ النوبي يحضرها على الدوام . وزادت حميته اشتعالاً ، وكان في بعض الاحايين يفوه بكلمات تنذر بالوعيد كقوله ، ان الأغنياء سوف يفقدون أموالهم ! وذهب مرة الى الساحات العامة حيث اعتاد فقراء المسيحيين أن يجتمعوا ، وهناك جمع البائسين الراقدين في ظل الجدران العالية وبشرهم بتحرير الارقاء ودنو يوم العدالة ، قال :

— سوف يشرب الأرقاء في ملكوت السموات خمراً صافية

ويأكلون فاكهة لذيذة ، على حين أن الأغنياء يكونون جاثين عند أقدامهم كالكلاب يلتقطون فتات موائدهم !

لم تبق هذه الاقوال في طي الكتمان ، بل ذاعت في نواحي المدينة كلها ، وخشي السادة أن يغري أحمس عبيدهم بالتمرد ، وحقد صاحب الحانة عليه حقداً بالغاً

في ذات يوم اختفت من الحانة مملحة من الفضة مخصصة لمائدة الآلهة . . فاتُهم أحمس بسرقتها نكاية في سيده وفي آلهة الامبراطورية . وكان الاتهام بغير دليل على الاطلاق ، وانكر العبد التهمة بكل قواه . على انه سيقَ الى المحكمة ، وحكم عليه القاضي بالموت ، إذ كان على زعمهم عبداً رقيقاً لا قيمة له ولا اعتبار . وقال له :

— ستسمّر في صليب يداك ، اللتان لم تعرف كيف تحسن استخدامهما .

فسمع أحمس الحكم بهدوء ، وحيّ القاضي باحترام فائق ، وقيد الى السجن العام . وفي اثناء ثلاثة الايام التي قضاها فيه ظلّ يكرز بالانجيل للمسجونين ، وقيل انه في وقتها تأثر المجرمون والسجان نفسه بكلماته وآمنوا بالمسيح المصلوب .

واخذوه الى أحد تلك المفارق التي مرَّ بها فرحاً مغتبطاً ذات ليلة منذ أقل من عامين ، حاملاً تحت عباءته البيضاء تاييس الصغيرة ابنة روحه ، وزهرته المحبوبة .

ولما صلب وسمرت يداه لم يتأوه ولم ينبس ببنت شفه ، غير انه تمتم قائلاً : « ظمآن ! اني ظمآن ! »

ودام كربه ثلاثة ايام بلياليها . ولايكاد المرء يصدق أن الجسد البشري يستطيع أن يتحمل مثل هذا العذاب الطويل ، حتى ظُن مراراً أنه مات . وكان الذباب قد التهم بعض جفنيه ، بيد أنه ما لبث ان فتح عينيه الداميتين بغتةً . وفي صبيحة اليوم الرابع غنَّى بصوت جهير ، أرق من صوت الأطفال :

— خبرينا يا مريم ماذا رأيت حيث كنت . . .

ثم ابتسم وقال :

— ها هم ملائكة الله مقبلون . . . ! يحملون إليّ خمراً واثماراً . . . لله ما أندى حفيف أجنحتهم . . .

وأسلم الروح

وظلّ وجهه وهو ميت مشرقاً بانوار السعادة الابدية ، فكان موضع إجلال الجنود الذين كانوا يحرسون الصليب . وأتى

ڤيڤانتوس مصحوباً ببعض الاخوان المسيحيين في طلب الجثة لدفنها بين بقايا الشهداء في قبر القديس يوحنا المعمدان . واحتفظت الكنيسة منذ ذلك الحين بذكر القديس « تيودور النوبي » الموقر

وبعد ثلاث سنوات أصدر قسطنطين، فاتح ما كسانس، مرسوماً أمّن فيه المسيحيين .

وكانت تاييس قد بلغت من العمر إحدى عشرة سنة حين مات صديقها معذباً ، فشعرت بحزن عميق وجزع شديد .ولم تكن روحها من السموّ بحيث تدرك أن العبد أحمس كان هانئاً جدّ الهناء بحياته وموته . وتولد في ذهنها الضيّق أن في استطاعة المرء أن يكون في هذه الدنيا صالحاً ولكن ذلك يكلفه عناء التباريح والآلام ، فخافت أن تكون صالحة لأن جسدها الغضّ الرقيق لا يحتمل آلام الصلاح !

وكان لها ، قبل الأوان ، عشاق من صبيان المرفإ، وكانت تتبع الرجال المسنين الذين يطوفون في المساء في ضواحي المدينة مفسدين ، وتشتري بما ينفحونها به ماتشتهيه من الحلوى وادوات الزينة . .

وأساءت أمها معاملتها لانها لم تكن تأخذ الى البيت شيئاً مما تربحه من النقود . فكانت كثيراً ما تهرب وتجري حافية الى أطلال المدينة لاجتناب صفعات أمها ، وتختبيء مع الهوامّ في شقوق

الاحجار . وهناك كان يخامرها حسد النساء اللواتي تراهن مارّات متبرّجات في أبهة و بهاء ، محمولات في مِحفَّاتهن على اكتاف الارقاء

وفي ذات يوم نالها من الضرب فوق المعتاد ، فخرجت وانطرحت عند بوّابة المدينة ، ثائرة النفس واجمة . و بينا هي على هـذه الحال واذا بامرأة عجوز قد وقفت أمامها ونظرت اليها مليًا وهي ساكتة ثم قالت :

— يا لك من زهرة حسناء أيتها الطفلة الفتَّانة ! ما أسعد أباكِ الذي أوجدك وأمك التي ولدتك !

فلبثت تاييس صامتة مطرقة وقد احمر جفناها من كثرة البكاء.

فعادت العجوز تقول :

— يا زَنبقتي البيضاء ! أليست أمكِ سعيدة الجد لانها أرضعت معبودة صغيرة مثلك ؟ أوليس أبوك مغتبطًا من صميم فؤاده برؤيتكِ ؟

فأجابت الطفلة كأنها تحدث نفسها :

— أبي قِربةٌ منتفخة من الصهباء ، وأمي عَلَقةٌ شرهة !

فنظرت العجوز ذات اليمين وذات الشمال لتستوثق أن ليس عليها رقيب ، ثم قالت متلطفة :

— أيتها السوسنة النضرة ذات البهاء ! أيتها الحسناء التي تشرب النور وتنهل الضياء ! تعالي معي ، وستكون حياتك سلسلة متصلة الحلقات من الرقص والابتسامات ! سأطعمك الشهد ، وسيحبك ابني ، ابني الصميم ، حبه لعينيه ! وانه لفتى لو علمت غضُّ الاهاب في شرخ الصبا ، فاتن المحيا ، ليس له في ذقنه إلا لحية خفيفة ، وجلده ناعم بضّ ، وانه لخنّوص [1] من خنانيص أشارنيه !

فأجابت تاييس :

— خذيني ، اني ذاهبة معك !

ثم نهضت وتبعت العجوز الى خارج المدينة .

☆ ☆ ☆

كانت هذه المرأة ، وتدعى « مروا » ، تأخذ البنات والصبيان من بلد الى بلد وتعلمهم الرقص ثم تؤجرهم بعدها لسراة القوم ليرقصوا لهم في الولائم والحفلات

ولما رأت أن تاييس ستغدو عما قليل أجمل النساء ، علمتها الموسيقى والغناء ، مستعينة على ذلك بالسوط . وكانت تجلد ساقيها البديعتين بسيور من الجلد اذا لم تقف عند سماع نغمات القيثارة .

أما ابنها فكان ثمرة اجهاض ، سقطاً لا تبدو عليه حقيقة سنه ،

(١) الخنوص : الخنزير الصغير

ولا يميز الناظر اليه كنه جنسه ! وكان ينتهر الفتاة ويصب على رأسها جام حقده على النساء جميعًا . ولما كان ينافس الراقصات متكلفًا رشاقتهن ، فقد تعلمت منه تاييس فن التمثيل الايمائى الصامت والتعبير عن العواطف الانسانية بواسطة ملامح الوجه والهيئة والوضع . وامتازت بتمثيل أهواء الغرام . ولقد محضها ، على كرهٍ منه ، نصح استاذ ماهر . بيد انه كان يغار من تلميذته ، فيخدش خديها ويقرص ذراعيها أو ينخسها بإبرة في ظهرها حين كان يتضح له أنها خلقت لإمتاع الرجال !

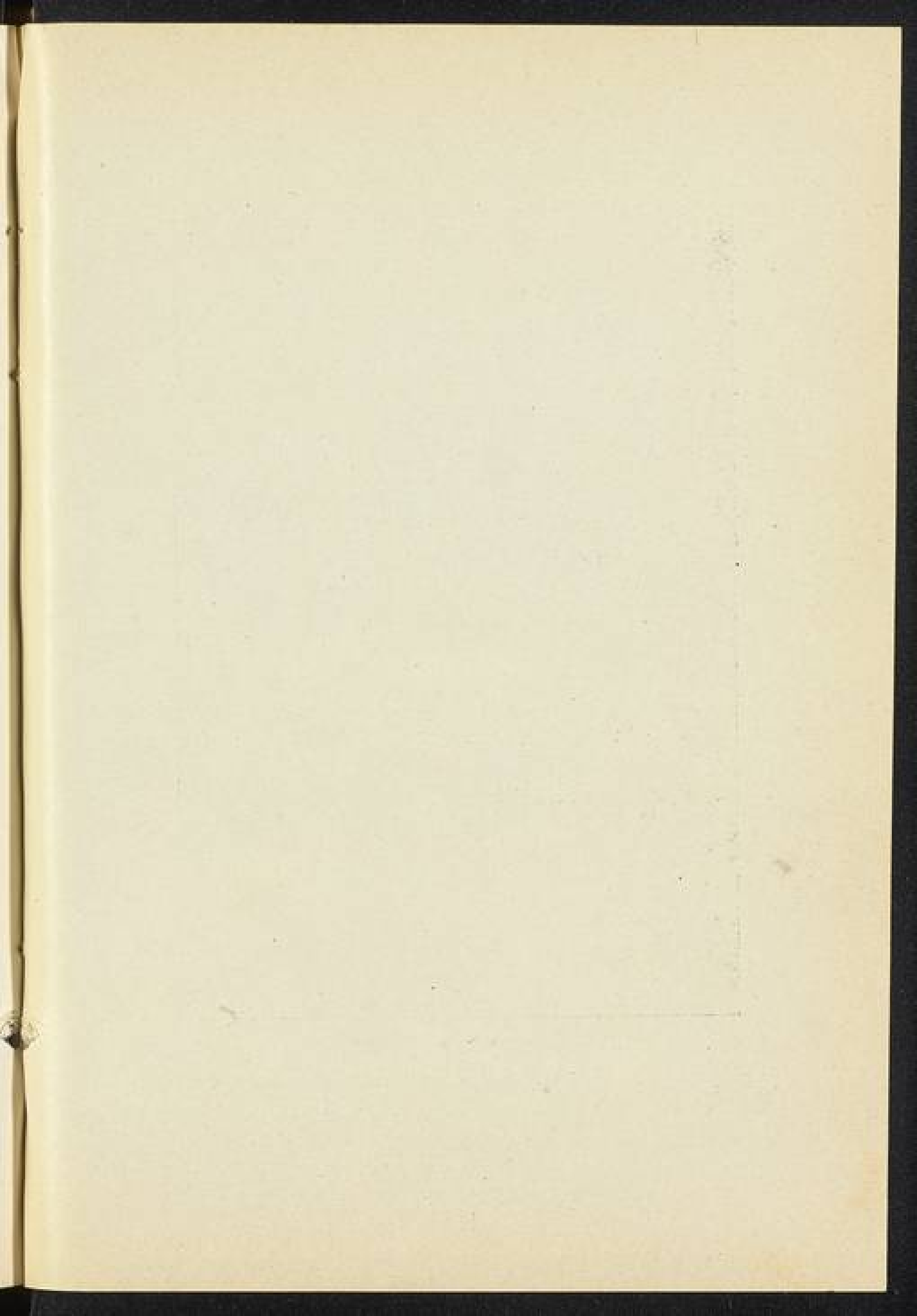
وبفضل هذه الدروس أتقنت في زمن قصير فنون الموسيقى والتمثيل الصامت والرقص . ولم تدهشها قط فظاظة معلميها ، اذ لم تكن ترى اي غرابة في أن تهان وتساء معاملتها ، بل شعرت بشيء من الاحترام نحو تلك الموسيقية العجوز التي تجرع النبيذ الاغريقي !

ولما جاءت « مروا » مدينة أنطاكية ، اطنبت في مدح تلميذتها ، كراقصة عازفة ، لوجوه المدينة وأعيانها الموسرين الذين كانوا يقيمون المآدب .

رقصت تاييس فنالت الاعجاب ، وأخذها السراة بعد انفضاض الولائم الى احراج نهر العاصي ، فسلمت نفسها للجميع من دون أن تعرف للحب ثمنًا . ولكن حدث ذات ليلة بعد ان رقصت أمام أظرف



تايس الراقصة



شبان المدينـة ، ان اقترب منها ابن الوالي يتوثّب فتوّة ، ويختال عزّة ، وقال لها بصوت كأنه مرطب بالقُبل :

— ألستُ التاج المنعقد على مفرقك يا تاييس ؟ الست القميص المزرور على جسمك البديع ؟ الست نعل قدمك الجميلة ؟ اني اروم ان تطأي بقدميك هامتي ، وان يكون قيصك وتاجك من عناقي وقبلاتي . فتعالي أيتها البنية المليحه ، تعالي الى بيتي ، ولننسَ العالم !

نظرتْ اليه وهو يتكلم ، واستبانت محاسنه ، فشعرت على الفور بالعرق يثلج جبينها ، واستحال لونها كالعشب اخضراراً . ترنحت وانتشرت على عينيها غشاوة . فتوسل اليها ثانية ان تتبعه فرفضت ، ولم تغنه نظرات اللوعة وكلمات الحب فتيلاً . ولما أخذها بين ذراعيه ليسير بها على رغمها دفعته بخشونة ، فعاد يتوسل اليها ويتضرع وهو يذرف أمامها الدموع ويريق العبرات ، فامتنعت عليه بسلطان قوة مجهولة لا تقاوم . فقال المدعوون :

— تبًّالها من زمّارة حمقاء ! انهـا تنبذ لوليوس الفتى النبيل الغني الجميل !

عاد لوليوس وقد كواه الهوى سواد ليـله بناره ، وفي الصباح ذهب ممتقع اللون ، أحمر العينين ، وعلق الزهر فوق باب الموسيقارة ،

وكان الهم والضجر قد اعتريا تاييس، فأعرضت عن لوليوس. على انها كانت تتخيله دائماً. تألمت ولم تدر سرَّ ما تشكو منه. سألت نفسها لماذا تغيرتْ هكذا، ومن أين دَهِمَتها الكآبة؟ ردت كل عشاقها لأنهم أزعجوها، وعافت رؤية الضياء فلبثت سحابة نهارها مضطجعة في فراشها ورأسها غارق في الوسائد. ثم تهيأت للوليوس وسائل اقتحام بابها، وأتى عدة مرات يرجو ويلعن تلك البنت العنيدة، فلبثت في حضرته خائفة كعذراء بتول، وأصرّت على قولها:

— لا أريد! لا أريد!

وبعد خمسة عشر يوماً وهبته نفسها، اذْ شغفها حباً. فذهبت الى بيته وعاشت معه، وكانت ثمَّ حياة لذيذة. فكانا يقضيان النهار في خلوة يحدّق كل منهما في عيني صاحبه، ويخاطب احدهما الآخر بكلمات لا يقولها سوى الاطفال. فأذا جاء المساء تنزها على ضفتي نهر العاصي الخاليتين، وضلاّ السبيل غير مرة في الأحراج. واستيقظا أحياناً عند الفجر ليذهبا لقطف السوسن فوق منحدرات «سليبسوس». وشربا من كأس واحدة، وكانت اذا رفعت الى فمها حبة عنب تناولها بأسنانه من بين شفتيها!

أتت «مروا» بيت لوليوس تطلب تاييس بصيحات عالية، قائلة :—

— ابنتي ! ابنتي التي أُخِذَت مني عنوةً ! زهرتي المعطرة ! حشاشة فؤادي وفلذة كبدي !

فصرفها لوليوس بعد أن أجزل لها العطاء . لكنها لما عادت تلحف في طلب المزيد من قِطَع الذهب ،بعث بها الفتى الى السجن ، وحققت الحكام جرائم عديدة اتهمت باقترافها ، فسيقت الى الموت وطرحت طعاماً للوحوش الضارية

⁂

أحبت تاييس لوليوس بكل ما فيها من قوة الادراك وسذاجة النفس ، وقالت له من أعماق قلبها :

— لم ينل أحد مني ما نلته !

فأجابها لوليوس :

— أنك لا تشبهين أية امرأة في الوجود !

ولبث السحر مستولياً عليها ستة أشهر ، ثم انحلت طلاسمه ، فأحست تاييس فجأة بنفسها خالية وحيدة . ولم يبق لوليوس في نظرها لوليوس الذي احبته . وفكرت :

— كيف تغيرتُ هكذا في طرفة عين ؟ وكيف تغير لوليوس حتى انه صار في نظري مثل سواه من الرجال ؟

ثم هجرته، وبفؤادها رغبة خبيثة في ان تجد لوليوس في انسان آخر ما دامت لا تجده فيه نفسه. وخيل اليها أيضاً ان الحياة مع انسان لم تحبه قط ايسر خطباً منها مع انسان صارت لا تحبه. وصحبت المترفين من ابناء المسرات والفجور في تلك الولائم الدينية، حيث كانت ترقص في المعابد نخبة من العذارى العاريات، وتقطع السراري نهر العاصي سابحات. واشتركت في جميع الملاهي التي أقامتها المدينة البديعة الفاسقة. واكثرت من التردد على دور التمثيل حيث كان الممثلون الايمائيون يأتون من كل حدَب وصَوْب لتمثيل أدوارهم بين تهليل الجماهير الظمآنة الى اللهو واللعب.

عُنيت بدرس حركات الممثلين والراقصين، لا سيما الممثلات اللائي كن يمثّلن في الروايات الفاجعة أدوار الربات عاشقات الشبان، أو المخلوقات الهائمات بحب الأرباب. وبعد ان علمت السرَّ الذي به خلبن لب الجمهور، توقعت ان تبزَّهن لأنها كانت تفوقهن حسناً ودلالاً.

فمضت الى رئيس الممثلين وسألته أن يلحقها بفرقته. وبفضل جمالها، والدروس التي تلقتها من «مروا» العجوز، قُبلت وظهرت على المسرح في دور «ديرسيه»، فلاقت نجاحاً ضئيلاً لأنها كانت مفتقرة الى المران، ولأن جمهور المشاهدين لم يُشوَّق الى مرآها

بالاطناب فى محاسنها والثناء عليها قبل ظهورها على المسرح . ولكن لم تمضِ بضعة أشهر حتى انفجر بأس جمالها على مسرح التمثيل بقوة اهتزت لها المدينة من أقصاها إلى أقصاها ، فهرع اهل انطاكية الى الملعب حتى اكتظ بهم . واضطرت قوة الرأي العام زعماء الأمبراطورية وقضاتها ورؤساء البلد الى الظهور هناك : وحَرَم الحمالون والكناسون وعمال الميناء أنفسهم الثومَ والخبز ليدفعوا اجرة مقاعدهم . ومدحها الشعراء بقصائدهم ، وخطب في تجريحها الفلاسفة الملتحون في الحمامات والمدارس ، وأشاح عنها الرهبان المسيحيون في أثناء مرورها في محفتها !

تُوِّجتْ عتبة بيتها بالزهر ونُضحت بالدم . تلقت من عشاقها الذهب بغير حساب ، وزناً وكيلاً ، لا عدًّا . وتدفقت الكنوز التي ادخرها الكهول الأشحاء عند موطىء قدميها كالأنهار . لذلك طابت نفساً وقرّت عيناً . ابتهجت لتكريم الجمهور وعطف الآلهة ، وهامت بحب نفسها ، لأن الجميع هاموا بحبها !

وبعد أن تمتعت عدة سنوات بحب الأنطاكيين وإعجابهم ، اشتاقت للعودة الى الاسكندرية لتظهر عزّتها للمدينة التي ضربت في أرجائها وهي طفلة تجر ذيل الشقاء والحرمان وقد هزلها الجوع والمسغبة ، فكانت هزيلة كالجرادة في وسط طريق مقفر . . .

فاستقبلتها المـدينة الذهبية بالفرح والترحيب ، وغمرتها بالهبات والعطايا ، وكان ظهورها في الألعاب نصراً مبيناً . وسعى اليها جمهور لا يحصى من المعجبين والعاشقين ، فتلقتهم بفتور وقلة مبالاة ، لأنها يئست من العثور على مَن يشغل مكاناً شغله لوليوس مِن قلبها !

☆☆☆

تلقت من بين الجموع الغفيره الفيلسوف « نسياس » الذي اشتهاها على مجاهرته بالتجرد من الشهوات ! وكان على ثرائه ذكي الفؤاد دمث الاخلاق ، غير أنه لم يفتنها بحصافة عقله ولا برقة حاشيته ، فلم تحبه ، بل أغضبتها أحياناً تهكماته الرائقـة ، وجرّحها بشكوكه الدائمة . لم يكن يؤمن بشيء ، وهي قد آمنت بكل شيء . آمنت بالعناية الالهية ، وبقدرة أرواح الشر ، وبالرقى والتعاويذ ، وبالعدل الأزلي ، وبيسوع المسيح . كما آمنت أيضاً بأن الكلبات تنبح اذا مرّت الهـة جهنم السوداء بمفارق الطرق !! وبأن المرأة تستطيع ان توحي الحب اذاصبّت شراب العشق في كأس يحوي جزّة شاة مخضّبة بالدماء ، وسقته لمن تريده !!!

ظمئت الى المجهول ، ودعت كائنات لا أسماء لها ، وعاشت في انتظار دائم . روّعها المستقبل وأخافها فتطلعت الى معرفته . لاذت

برهبان إيزيس وبالسحرة الكلدانيين ، والعرّافين الذين مكروا بها وخدعوها على الدوام ، ولكنهم لم يتخلوا عنها مطلقاً .

خافت الموت ، ورأته في كل مكان . وكانت كلما استسلمت للذات يخيل اليها كأن أصبعاً مثلوجةً قد لمست كتفها العارية ، فيمتقع لونها وتصرخ من الهلع بين الذراعين اللتين تطوّقان خصرها.

قال لها نسياس :

— وماذا يكون لو جرى القضاء بأن ننزل أبيضي الشعر ، ضامري الخدود ، الى الليل الأبدي ؟ ثم ماذا يكون لو كان هـذا اليوم الذي يبتسم لنا الآن في صفحة السماء المبسوطة ، هوآخر أيامنا ؟ ماذا يضيرنا يا عزيزتي تاييس ، وماذا يكون ؟ ألا فلنستمرئ طعم الحياة . فسنحيا طويلاً اذا ما شغفنا كثيراً . فلا فطنـة كفطنة أن الحب هو الفطنة ، أما ما نجهـله فليس لنا به شأن . وما فائدة إزعاج أنفسنا لغير طائل ؟

فأجابته غاضبة :

— انني أمقت الذين على شاكلتك لا يرجون ولا يخافون ! انني راغبة في المعرفة ! راغبة في المعرفة !

أخذت تقرأ كتب الفلاسفة لتقف على سر الحياة ، فلم

تفهمها . وكان كلما تقدم بها الزمن وتباعد ما بينها و بين أيام طفولتها ازدادت تعلقاً بذكراها . فولعت بأن تسير تحت ستار الظلام، وهي متنكرة، في تلك الدروب والمنعطفات والميادين العامة حيث ترعرعت في الشقاء والبأساء . وكم أسفت على فقد والديها، وخصوصاً لانها لم تحظَ بلذة محبتها لهما . وكانت عند ما تلقى الرهبان المسيحيين تفكر في عمادها وتضطرب .

وفي ذات ليلة ،بينما كانت تجوس خلال ضواحي المدينة كعادتها، وهي مرتدية طيلساناً، وشعرها الاشقر مخبوء تحت قلنسوة سوداء، ألفت نفسها،دون أن تعرف كيف كان ذلك، أمام كنيسة القديس يوحنا المعمدان الحقيرة. فسمعت بداخلها ترتيلاً، ورأت نوراً ساطعاً منبعثاً من شقوق الباب . ولاعجب ، فقد اخذ المسيحيون لعشرين عاماً خلتْ يحتفلون بأعيادهم علانية تحت حماية « فاتح ما كسانس» نادت تلك التسابيح روحها نداء حاراً لا يردّ ، فدفعت الممثلة الباب بيدها ودخلت كمدعوة الى المشاركة في الاسرار ، فوجدت جمعاً محشوداً من النساء والاولاد والشيوخ ، راكعين أمام قبر بجانب الجدار ، ولم يكن هذا القبر سوى خابية حجرية نقشت عليها أغصان وأعناب نقشاً خشناً ، ومع ذلك فقد نالها من التكريم قسط وافر . فكانت مغطاة بسعف النخل واكاليل الورد الاحمر . وكان المعبد مناراً بمصابيح لا عداد لها ، تشق أنوارها

الظلام الذي يظهر فيه دخان الصموغ العربية كأنه ثنايا جلابيب الملائكة ، وعلى الحائط رسوم كأنها رؤى الفردوس ... وثمَّ رهبان في ثياب بيض خرُّوا سُجَّداً عند مؤخرة الناووس . وكانت التسابيح التي شاركهم الشعب في ترتيلها تعرب عن بهجة الآلام، وكانت مزيجاً من الفرح والحزن بحيث أحست تاييس وهي مصغية ، بمسرات الحياة ومخاوف الموت تجري معاً في مشاعرها المستيقظة ...

ولما أتم المصلون الترتيل ، نهضوا وتوجهوا للتبرّك بتقبيل القبر واحداً بعد واحدٍ . أولئك كانوا قوماً بسطاء من أهل الحرف اليدوية ؛ تقدموا ثابتي الخطى ، شاخصي الابصار ، كليلي الأفواه تلوح عليهم سلامة النية وصفاء الطوية ؛ جثوا واحداً بعد واحد أمام الناووس وألصقوا به شفاههم ، ورفع النساءُ الاطفالَ الصغار على أذرعهن ووضعن افواههم بلطف على الحجر .

فدهشت تاييس واشمأزت ، وسألت شماساً عما يفعلون ، فأجابها :

— الا تعلمين أيتها المرأة اننا نحتفل اليوم بالذكرى المباركة للقديس « تيودور النوبي » الذي احتمل العذاب في سبيل الايمان في عهد الامبراطور ديوقليس ؟ إنه عاش طاهراً ، ومات شهيداً ،

وهذا هو السبب الذي من أجله قد حملنا الورد الاحمر ونحن في ثياب بيضاء الى ضريحه المكرّم .

فلما سمعت تاييس قوله هذا ركعت واجهشت بالبكاء . عادت الى ذهنها ذكرى أحمس التي كادت تطمسها يد النسيان . وعلى تلك الذكرى المبهمة ، العذبة ، المؤلمة ، أرسلت أشعةُ الشموع وعطور الورد ، وسُحُب البخور ، وألحان المزامير ، ومظاهر الخشوع — عزّةَ الفخر وجمال المجد .

فحدثت تاييس نفسها :

— أنه كان صالحاً ، وها هوذا جليل القدر ، جميل الذكر ! تُرى كيف رُفع فوق هام البشر ؟ فما هو ذلك الشيء المجهول الذي فاق الثراء والسرّاء ؟

نهضت ببطء ، واتجهت الى قبر القديس الذي شُغف بعينيها البنفسجيتين ، العينين اللتين تلألأت فيهما الدموع في نور الشموع — ووقفت مطرقة في مؤخرة الجماعة ، خاشعة متباطئة ، ولثمت قبر العبد بشفتيها اللتين علقت بهما شهوات كثيرة . . .

***

ولما رجعت الى بيتها وجدت نسياس ينتظرها ، مضمخ الشعر بالطيب ، مفكوكاً قميصه ، يقرأ رسالة في الأدب يستعين بها على

مضض الأنتظار . فتقدم للقائها مبسوط الذراعين قائلاً بصوت ضحوك :

— أتعرفين يا تاييس الخبيثة ماذا وجدت في اثناء انتظارك في هذا الكتاب الذي كتبه أرزن الرواقيين ؟ أهي حكم سامية وسنن غالية ؟ كلا ! رأيت على البردي الخشن ألف تاييس صغيرة ترقص ، وألف تاييس ! وكانت كل واحدة منهن طول الأصبع ، ومع ذلك كان ظرفهن لا يُحدّ ، وكلهن تاييس الفريدة ! كان بعضهن يرفل في حلل من أرجوان وذهب ، وبعضهن يسبح كسحابة بيضاء في نُقُب شفافـة ، وأخريات يوحين اللذة بسكونهن في سناء عريهن وكانت اثنتان منهن متماسكتين بالأيدي ، وهما متشابهتان شبهاً يستحيل معه تمييز الواحدة عن الأخرى ، ابتسمت كلتاهما ، وقالت الأولى « انا الحب » وقالت الثانية « انا الموت » .

قال هذا واحتضن تاييس ، ولم يلحظ انها كانت ترمق الأرض بنظرة وحشية ، فاستمر يحدّثها بمـا جال في ذهنه من الخواطر والافكار . وواصل كلامه قائلاً :

— أجل ! لما وقع تحت ناظريّ هذا السطر : « يجب ألاّ يحول شيء بينك وبين تهذيب نفسك » قرأت : « قبلات تاييس أحرّ من اللهيب وأحلى من الشهد » وهذه هي — والذنب ذنبك أيتها الفتاة اللعوب — الطريقة التي أصبح بهـا الفيلسوف يفهم كتب

الفلسفة ! ولا ريب اننا ، ما دمنا كما نحن ، لن نجد في خواطر غيرنا الاّ خواطرنا بعينها ، بل اذا قرأنا كتاباً فنحن نكاد نقرأه كما أقرأ هذا الكتاب ...

لم تكن مُصغية اليه ، لأن ذهنها كان منصرفاً الى قبر النوبي ، فلما سمعها تتنهد اخذ يقبّل منابت الشعر من عنقها ، وهو يقول :

— قرّي عيناً ولا تحزني يا بنيتي ! لا يستطيع المرء أن يكون سعيداً في هذه الدنيا الاّ اذا نسيها أو تناساها ؛ ولدينا سرّ ذلك ، فتعالي نخدع الحياة ! إنها أهل لأن يُمكر بها لانها تكيل لنا الصاع صاعين . هلمي نتبادل الحب !

فدفعته عنها وصاحت :

— نتبادل الحب ! انك لم تحب قط إنساناً — أنت ! ولا أنا أحبك ! كلا ! لا أحبك ! انني أبغضك . انني ألعن السعداء الأغنياء كافةً وأحتقرهم ! اليك عني فلا فضيلة في الدنيا ولا محبة الاّ لدى المساكين . لما كنتُ طفلة عرفت عبداً أسود مات مصلوباً . كان طيباً ، كان يفيض محبة . وقد حظي بمعرفة سرّ الحياة . انك لا تستأهل أن تغسل قدميه . إذهب عنى ! فأني لا أريد أن أراك بعد الآن .

ثم انبطحت على البساط وقضت ليلتها في أنين ونحيب ، وصممت

من تلك اللحظـة أن تقتفي خطوات القديس تيودور وتعيش عيشة الفقر والمسكنة .

وفي اليوم التالي عادت الى الملاهي التي كانت قد أعدّتها . واذْ عرفت أن جمالها الذي كان لايزال ساحراً لن يبقى طويلاً ، سارعت الى التمتع به بكل ما يمكن من الابتهاج والاعتزاز . وأظهرت في الملعب عناية لم تظهرها من قبل ، فأحيت بتمثيلها تخيلات الحفارين والمصورين والشعراء . وأخذ العلماء والفلاسفة من شكل الممثلة وهيئتها وحركاتها وتخطّرها النظامَ السماوي الذي يسيّر الافلاك ، فادرجوا هذا الكمال المطلق في عداد الفضائل ، وقالوا « تاييس ايضاً مهندسة ! » . وباركها الجهلاء والفقراء لقبولها الظهور امامهم ، وعدُّوه نعمة من الخالق . لـكنها مع هذا الاعجاب والثناء كانت حزينة ، شديدة الجزع من الموت ، ولم يك ثمة ما يستطيع أن يدفع عنها همها وبلبالها ، ولا وجدت عزاء في بيتها وجنّاتهـا التي كانت من الشهرة بحيث تُضرب الامثال بها في المدينة .

غرست في حدائقها الأشجار الغالية التي جلبتها بنفقات باهظة من الهند وبلاد الفرس ، يرويها جدول متفجر وسط صف من الأعمـدة المتهدمة والصخور الهائلة المشيدة بيد بنّاء ماهر ، تنعكس في بحيرة ترتسم على مرآتها المجلوّة التماثيل التي حولها . وفي وسط

الحديقة « كهف العـذارى » الذي يُعزى اسمه الى تماثيل ثلاث من النساء مصنوعة من الرخام الملوّن بمهارة وتفنن ، واقفات عند مدخله . وهؤلاء النسوة كنّ قد نضون ثيابهن ليغتسلن والتفتن قلقات خشية أن يراهن أحد ، وعليهن علامات الحياة . وكان الضوء لا ينفذ الى هذا الخِدر الاّ من خلال طبقات المياه الرائقة التي تخففه وتلونه بألوان قزحية . وعلى جوانب الحيطان علقت ، كما تعلّق في المغاور المقدسة ، التيجان واكاليل الزهر والصور المنذورة التي ظهر فيهـا جمال تاييس وذاع صيته . وكانت هناك أيضاً براقع للمأساة وأخرى للمهزلة ذات ألوان زاهية . وصور تمثل مشاهد مسرحية وأشكالاً هزلية أو حيوانات خرافية . وفي وسط الـكهف نُصب فوق عمود قصير تمثال صغير لإلّه الحب (ايروس) مصنوع من العاج صنعاً قديماً دقيقاً عجيباً ، وكان هدية من نسياس . وثم عنزة من المرمر الاسود واقعة في حفرة ، يظهر منها بريق عينيها العقيقيتين ، وقد التفت حول ضرعيها ستة جِداء من المرمر الابيض ، وقد همّت العنزة بأظلافها ورفعت رأسها الفِلْطاح كأنما كلّت وفرغ صبرُها من رضاع صغارها ، وكأنها تود لو يتاح لها تسلق الصخور .

وكانت الأرض مفروشـة ببساط بيزنطي ، ووسائد مطرزة بأيدي الصُفر من أهل كاتاي ، وجلود أسود صحراء ليبيا . وكان

البخور يتصاعد من المباخر الذهبية . وهنا وهناك أُصُص من الجزع فيها نبات مزهر ؛ ووراء ذلك كله ، في الظل الارجواني ، تلمع أظافر من ذهب لسلحفاة هندية هائلة مقلوبة على ظهرها تُستخدم كسرير للممثلة .

في هذا المكان ، في كل يوم ، بين خرير الماء ، وشذا الزهور ، وعبير العطور ، كانت تاييس تضطجع برخاوة واستسلام ، في انتظار ساعة العشاء ، تتحدث الى اصحابها ، أو تفكر وحدها في شؤون المسرح ، أو في كرّ الغداة ومرّ العشي .

•••

في ذلك اليوم بينما كانت جالسة بعد التمثيل في « كهف العذارى » ، لاحظت في مرآتها العلامات الاولى لتضاؤل جمالها وذبول حسنها ، فهالها التفكير في انه سيحين أخيراً حين الشعر الأبيض والغضون والتجعدات ، وعبثاً حاولت ان تسكن روعها وتؤمن خيفتها بقولها لنفسها ، قول الواثق المستيقن ، ان احراق أعشاب معينة والنطق بتمائم سحرية معلومة تكفي لاعادة نضارتها الاولى ! !

واذا بصوت ، لا أثر للرحمة فيه ، يهيب بها : «ستبلغين يا تاييس من الكبر عتياً ! ستشيخين تاييسَ ويدركك الهرَم ! » فجمد العرق البارد على جبينها من الجزع ، وطالعت وجهها ثانية في المرآة برقة

بالغة ، فألفت نفسها لاتزال جميلة فتّانة ، جديرة بأن تُعشق وتُشتهى ، فتمتمت : « ليس في الاسكندرية كلها امرأة واحدة يضارع قوامها قوامي اللّدن ! ولا من تماثلني في رشاقة الحركات ، وبهاء الأذرع ؛ والأذرع ، أيا مرآتي ، هي سلاسل الحب الحقيقية ! »

وإذ كانت تفكر في ذلك رأت رجلاً مجهولاً ، نحيلاً ، مشتعل العينين ، منتفش اللحية ، مرتدياً ثوباً مزركشاً ثميناً ، واقفاً امامها ، فأفلتت مرآتها وصرخت مذعورة

وقف بافنوس جامداً ، ولما رأى مبلغ جمالها ، قدّم من أعماق قلبه هذه الضراعة :

— اللهم لا تجعل وجه هذه المرأة سبباً في غوايتي ، بل سبباً لهدايتي !

ثم أرغم نفسه على الكلام ، قال :

— تاييس ! انني من سكان أرض سحيقة نائية ، وقد قادني اليك صيتُ جمالك . قيل انك أبرع الممثلات وأقدر النساء ، وكأن قصص ثرائك وغرامك وأهوائك من أساطير الاولين ، تعيد إلى الذهن ذكرى « رودوبيس » القديمة التي يحفظ ملاحو النيل تاريخها العجيب عن ظهر قلوبهم . فاستولت عليّ الرغبة في معرفتك ، ولعمري اني أرى الخُبر يفوق الخَبر ! انك أعلم وأجمل الف مرة مما



(تاييس تاجي مرآتيا)

ذاع عن علمك وجمالك . والآن إذْ أراكِ أقول لنفسي : « يستحيل على المرء الاقتراب منها الاّ ويترنح ترنح السكارى »

كانت هذه الكلمات ملفقة ، لكن الراهب فاه بها بحرارة صادقة تحمساً للدين . فنظرت تاييس بغير استياء الى هذا المخلوق الغريب الذي أخافها وأدهشها بمنظره القبيح الوحشي ، ونظراته الكئيبة النارية ؛ فودت معرفة شأن هذا الرجل الذي يختلف كل الاختلاف عمن عرفتهم أجمعين .

فأجابت بسخرية رقيقة :

— يلوح لي أيها الغريب انك سريع الاعجاب بالناس . فحذار أن تشغفك نظراتي فتبلي جسدك . وتوهن العظم منك ! حذار من حبي !

فقال لها :

— إنني أحبك يا تاييس ! احبك اكثر من حياتي وأحبك اكثر من نفسي . لأجلك غادرت صحرائي على أسف . لأجلك نطق لساني بكلمات دنيوية ، وكان قد نذر الصمت . لأجلك رأيت مالا يصح أن أراه ، وسمعت ما حرّم عليَّ سماعه . لأجلك تبلبلت روحي وفتح قلبي وتفجرت منه العواطف والخواطر كعيون الماء الجارية التي يشرب منها الحمام . لأجلك واصلت الليل بالنهار ساريًا سائراً في مفاوز الصحارى الرملية المكتظة بالحشرات والهوام والخفافيش .

لأجلك وطئتُ الأفاعي والعقارب حافياً ! أجل ، إني أحبك ! أحبك لا كهؤلاء الرجال الذين تضرم الشهوات أبدانهم فيتسابقون اليك كالذئاب الخاطفة او الثيران الهائجة . لذلك أنت عزيزة عليهم معزة الظبية على الأسد ، فيتلف حبهم الشهواني روحك وجسدك أيتها المرأة . أما أنا فأحبك بالروح والحق . أحبك في الله والى أبد الآبدين ، والشعور الذي يكنّه صدري لك هو غيرة حقة وعطف رباني . انني أعدك ما هو أزكى من عطر الزهر ، وألذّ من أحلام ليل قصير . أعدك المآدب المقدسة والأفراح السماوية . النعيم الذي آتيك به مقيم لايزول ، نادر لم يُسمع به ، رائع لا يوصف . . . واذا قدّر للسعداء في هذه الدنيا أن يروا لمحة واحدة من مثله ، فانهم يموتون في الحال من شدة الذهول !!

فضحكت تاييس ضحكة المتهكم المرتاب ، وقالت بخباثة :

— عليّ يا صاحبي بهذا الحب العجيب . عجّل ! فأني أعدّ إسهابك في القول مهانة لمحاسني . فلنبادر الى انتهاز الفرص ولا نضع لحظة واحدة ! انني لا أطيق الصبر على معرفة السعادة التي تبشرني بها . ولكني أصارحك القول اني أخشى أن أظلّ جاهلة بها ، وان تنتهي وعودك كلها لي في كلمات فقط . فالوعد بالسعادة ، أسهل بكثير من منح السعادة . كلٌّ له موهبة ، وأظن موهبتك الخطابة والكلام . انك تقول بحب مجهول ، ليت شعري ، لقد مضى دهر طويل على

تبادل القُبل بحيث يكون من عجائب الزمن بقاء أسرار حب لم يمط عنها اللثام ، والعاشقون يعرفون اكثر من السحرة في هذا الباب ...

— تاييس لا تسخري . انني أحمل اليك الحب المجهول .

— لقد أتيتني يا صاحبي متأخراً ، فانا بكل أنواع الغرام عليمة .

— الحب الذي آتيك به ملؤه المجد ، وكل حب آخر عرفته لا يتمخض الاَّ بالعار !

فنظرت اليه تاييس بعين جامدة ، وغشي جبينها الصغير عبوسة وتقطيب ، وقالت :

— انك أيها الاجنبي جريء للغاية ، لتحديك ربة الدار . انظر إليَّ وقل لي بربك هل أبدو كمخلوقة يغمرها الرجس ويطوِّقها العار ؟ كلا ! لست خجلة مستنكفة ، لا أنا ولا كل اللواتي يعشن معيشتي ، ولو أنهنَّ قد يكنَّ دوني جمالاً ومالاً . لقد بذرت المسرَّة في كل خطوة خطوتها ، فذاع صيتي في العالم من أقصاه الى أقصاه . فأصبحت أقوى سادة الدنيا ، الذين رأيتهم عند موطيء قدميَّ صاغرين . أنظر إليَّ ! انظر الى هاتين القدمين الصغيرتين ، وأعلم أنه يوجد ألوف من الرجال يشترون بأرواحهم نعمة تقبيلهما ، ويبذلون دماءهم ليحظوا بهذه اللذة . نعم ، لست رفيعة العماد أو أشغل حيزًا كبيراً من فراغ هذه الدنيا ، وانني أبدو كحبة أرز لاولئك الذين ينظرون

إليَّ من قمة السرابيوم عندما أمرّ في الطريق . غير أن حبة الارز هـذه قد سببت للناس أحزانًا وآلامًا ويأسًا وبغضًا وجرائم تكفي لتملأ أودية التتر . وبعد ، ألستَ مجنونًا أيها الرجل إذ تذكر العار مع أنّ كل ما يحيط بي ينطق عن المجد ؟

— ان ما هو مجيد في عيون الرجال، مرذول عند الله . لقد نشأنا كلانا ، أيتها المرأة ، في بلاد مختلفة ، فلا عجب ان تباينت آراؤنا واختلفت لهجاتنا . ومع ذلك فأشهد السماء على أن مرامي الاتفاق معك، وقصدي ألّا أغادرك قبلما تتوحد مشاعرنا . من ذا الذي يوحي إليّ بكلمات مشتعلة تجعلك تذوبين أيتها المرأة كالشمع تحت حرارة أنفاسي ، وتجعل يد إرادتي تكوّنك كما تشاء ؟ أية قوّة تسلمك إليَّ يا ريحانة النفوس لتفطرك ثانية الرُوح التي تحييني كي تسمك بجمال جديد ، فتصيحين ، وأنت من الفرح تبكين ، : « اليوم وحده يوم مولدي ! » . من ذا الذي يجعل « جرن معمودية القدس » ينبوعًا يتفجّر من صدري حيث تجدين فيه بعد الطهر نقاءك الاول ؟ من ذا الذي يحولني « أردنًا » تغمرك مياهه فتمنحك الحياة الخالدة ؟

فهدأت ثائرة تاييس وقالت في نفسها :

— هذا الرجل يتكلم عن خلود الحياة ، وكأن كل ما يفوه به مكتوب فوق طلسم ، فلا شك أنه ساحر ، ولديه أسرار مقاومة الشيخوخة والموت

فاعتزمت أن تهب نفسها له ، ولهذا تظاهرت بالخوف منـه ، وخطت الى الوراء مرتدة الى آخر كهف العـذارى ، وجلست فوق حافة الفراش وقدماها الحافيتان تهتزان في رفق ولين ، ورفعت قميصها بلباقة ، ثم لبثت ساكتة ، ساكنة ، لا تبـدي حراكاً .. تنتظر .. بعيون سبلاء

وقد ألقت أهدابها الطويلة على الخدين ظلاً خفيفاً ، وكان مظهرها ينمّ عن حياء وخَفَر ، فشابهت بنتاً تحلم وهي جالسة فوق حافة غدير

نظر اليها بافنوس ولم يتحرك ، ولم تعد ركبتاه المرتجفتان تقويان على حمله ، وجفّ لسانه في فمـه ، واعترى دماغه دويّ هائل . وأغشي على بصره ، فعاد لا يرى أمامه سوى سحابة كثيفة ، فظن أن يد يسوع قد أُلقيت على عينيه لتحجب منظر المرأة عنه ، فاطمأن لهذا العون وتشددت عزيمته ، وقال بوقار يليق بشيخ الصحراء :

— أفتظنين أنك إذا وهبت نفسك لي تخفي على الله ؟

فهزت رأسها قائلة :

— الله ! ومن ذا الذي يُكرهه دائماً على مراقبة كهف العذارى ؟ فلينصرف عنا إذا كنا نسوءه ! ولكن كيف نسوءه ؟ أما وقد خلقنا ، فليس له أن يستاء أو يدهش اذا رآنا كما برأنا وصوَّرنا ، نفعل ونتأثر بحسب الطبيعة التي أوجدها فينا . لقد قيل عنه الشيء الكثير

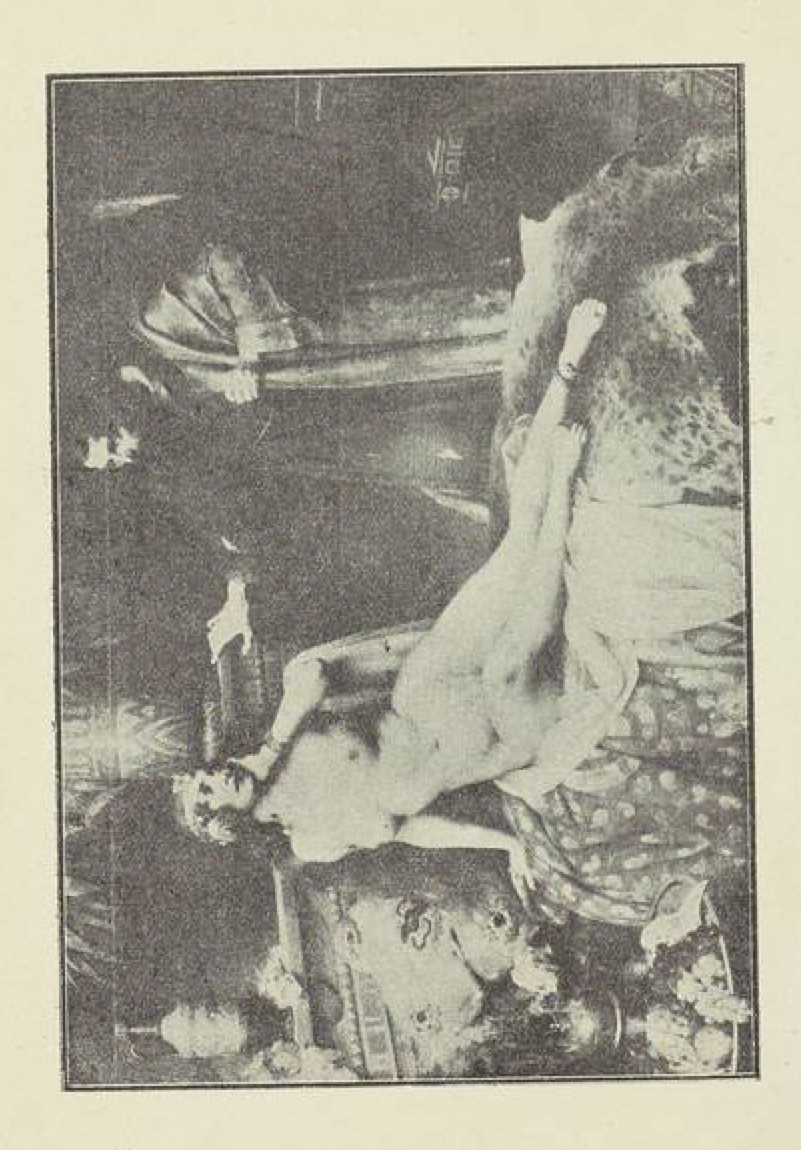
وعُزي اليه ماليس بصحيح على الاطلاق ، فهو منه براء . وأنت أيها الاجنبي ، ألك معرفة اكيدة بحقيقة أمره وجوهريته ؟ ثم من تكون أنت حتى تخاطبني باسمه ؟

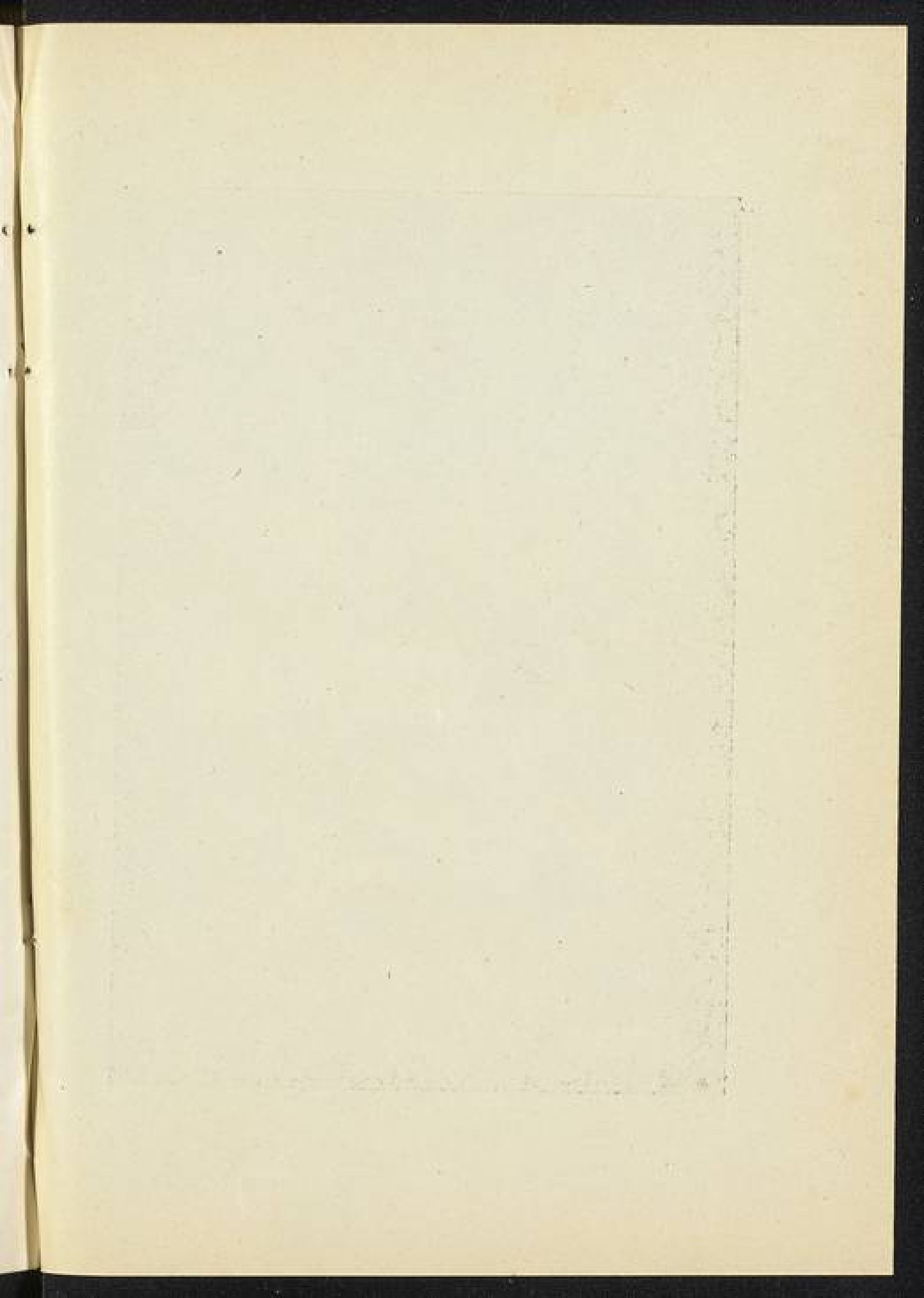
وعند هذا السؤال فتح الراهب قليلاً حليته المستعارة ، وأبان عن ثوبه الوبري ، وقال :

— أنا بافنوس ، كاهن أنصينا الاكبر ، جئت من الصحراء المقدسة ، واليد التي أبعدت ابراهيم عن بلاد الكلدانيين ، ولوط عن سادوم ، هي التي فرقت بيني وبين العالم . لقد احتجبتُ عن الناس ، لكن رسمك ظهر لي في مقدسي الرملي ، فعرفت ان نفسك مفعمة بالفساد ، وان كان فيك المنون . وهأنذا أمامك أيتها المرأة وكأنني أمام جدث . وانني أصيح بك : « انهضي يا تاييس ! »

ولما سمعت اسم بافنوس ، وكلمتي راهب ، وكاهن اكبر ، امتقع لونها رعباً ، وزحفت متشابكة اليدين ، شعثاء الشعر ، الى قدميْ القديس وهي تنوح ، وتتأوّه ، قائلة :

— لا تؤذني ! ما الذي جاء بك ؟ ماذا تبغي مني ؟ لا تؤذني ! أنا أعرف أن أولياء الصحراء يمقتون النساء اللواتي خلقن على شاكلتي متعة للرجال . انني أخشى أن تشنأني ، وأن تكون راغباً في ايذائي . فاعزبْ عني ! أنا لا يخامرني شك في مقدرتك . لكن اعلم يا بافنوس





انه لا يجوز لك أن تحتقرني أو تمقتني . انني لم أسخر قط من فقرك الاختياري ، مثل كثيرين من الرجال الذين أعرفهم ، فعليك بدورك ألاّ تجعل ثرائي جرماً . انني حسناء وممثلة حاذقة . انني مُسيّرة لا مُخيّرة فيما أنا عليه . انني خُلقت لما أنا فيه ، ووُلدت لأفتن الرجال . وأنت نفسك قلت الآن انك أحببتني ، فلا تستخدم علمك للبطش بي ، ولا تفه بكلمات السحر التي تتلف جمالي أو تجعلني تمثالاً من الملح . لا ترعبني ! فانني خائفة جدّ الخوف . لا تجرّعني كأس المنون ، فلشدّ ما أخاف الموت !

فأشار اليها أن تنهض ، وقال :

— هدئي روعك يا بنية ، فلن أسومك المذلة . اني أتيتكِ من قِبَل ذلك الذي جلس فوق حافة البئر وشرب من ابريق المرأة السامرية المقدم اليه[1] ، وهو الذي عندما تعشى في بيت سيمون ، ضمخته مريم بالعطور . لستُ بلا خطيئة لأرميك بأول حجر ، فقد طالما أسأت استعمال ما لا يحصى من نعم الله التي أسبغها عليّ . ليس ثمة غضب ، وإنما هي الرحمة بك أخذتْ بيدي وجاءت بي الى هنا . والحق أقول ، اني كنتُ قادراً على التقرب منك بكلمات الحب والهيام ، إنما حرارة قلبي هي التي قادتني اليك . انني اشتعل

---

(١) يقصد به السيد المسيح

بحمية الاحسان ، وإذا كانت عيناك اللتان لم تتعوّدا النظر إلا إلى نقائص البدن وعوراته تستطيعان أن تنظرا إلى الاشياء بحقيقتها الروحانيـة ، فلأظهرنَّ إذاً لك كغصن منتزع من تلك العلّيقة المشتعلة التي أراها الله نبيه موسى القديم في البرية ، ليعلمه الحب الصادق ، الحب الذي يشعلنا دون أن يبلينا ، فلا يترك جمراً ورماداً ، انما بلسماً وعطراً يضمخان كل ما يتخلله إلى آخر الدهر .

— انني أصدقك ، أيها الراهب ، ولست أخشى بعد خدعة منك أو مضرّة . لقد طالما سمعت أخبار نسّاك طيبة ، والحكايات التي بلغتني عن حياة أنطوان و بولس غريبة ، ولم يكن اسمك خافياً عليَّ ، ولقد خبروني انك ، على حداثة سنك ، تضارع في الفضل اكبر الزاهدين . ومع اني لا أعرف حقيقة أمرك ، أشعر بأنك لست رجلاً عادياً . ألا فخبرني ، أتستطيع أن تعمل لي ما يعجز عن عمله كهنة إزيس وهرمس و يونو والسحرة الكلدانيون جميعاً ، وما لا يستطيعه العرافون البابليون ؟ أيها الراهب ، إذا كنت تحبني ، فهل تستطيع أن تحول بيني و بين الموت الذي أخشاه ؟

— أيتها المرأة ، ان من يرغب في الحياة يحيَ . فاعرضي عن الملذات السافلة التي تهلكين بها هلاكاً أبدياً . انتزعي جسدك الذي فطره الله من رضابه ونفخ فيه من روحه ، إنتشليه من أيدي

الشياطين الذين يوشكون أن يحرقوه احراقاً. تعالي أيتها التي أضناها التعب وردِي موارد الزهد المباركة، تعالي انهلي من تلك العيون المخبوءة في الصحراء التي تتفجر من السماء! أيتها النفس القلقة المتابعة، تعالي تنلي ما تشتهين! أيها القلب الشره الطامح الى الجذل، عليك أن تجذل حقيقة بتذوق طعم الفقر والعزلة، وانكار الذات وتركها في حضن الله. يا عدوة المسيح الآن، ويا حبيبته غداً، تعالي اليه! تعالي يا من بَحَثَتْ وفَتَّشَتْ وستقول: «ها أنا قد وجدت الحب!»

وكان يلوح على تاييس أنها تتفرس في أشياء بعيدة، فسألته:

— أصحيح أيها الراهب انني إذا نبذت المسرات وتبتُ، أُولَدُ ثانية في السماء سليمة الجسم موفورة الجمال؟

— تاييس، انني أحمل اليك الحياة الخالدة، فثقي بي، لأن ما أبشرك به هو الحق...

— ومن يضمن لي أنه الحق؟

— داود، والأنبياء، والكتب المقدسة، والمعجزات التي سوف تشهدين...

— أميل إلى تصديقك، أيها الراهب. لأني اسلّم بكوني لم

أجد في هذه الدنيا هناء . كان نصيبي أعظم من نصيب ملكة ، ومع ذلك فقد صبّت الحياة على رأسي صنوف الآلام والمتاعب ، وها أنذا قد عيت كثيراً وضقت ذرعاً بوجودي . كل النساء يحسدنني ، مع انني طالما حسدت المرأة العجوز الدرداء التي كانت ، وأنا صغيرة ، تبيعني أقراص الشهد تحت احدى بوابات المدينة . وقد خطر لي غير مرة أن الفقراء هم وحدهم الصالحون السعداء المباركون ، وان في هذه الحياة الوضيعة الوديعة تعزية وسلوى . فيا أيها الراهب ، لقد هجتَ أمواج حياتي ، وطفوت إلى السطح بتلك التي رسبت في القاع ... ترى من أكون أنا لأؤمن ؟ وا أسفاه ! ... وما عساي أن أكون ؟ وما هي الحياة ؟

وفي اثناء كلامها تغيرت ملامح بافنوس وأضاء وجهه بفرح سماوي ، فقال :

— اسمعي ! انني ما دخلت الى مسكنك وحدي ، بل صحبني آخر . وهو واقف هنا بجانبي ، لا تستطيعين أنت رؤيته ، لأن عينيك لا تستأهلان بعد مشاهدته ، ولكنك لا تلبثين أن تريه بجلاله وجماله ، وتقولين : « هو الجدير بالحب وحده ! » ولو لم يكن قد وضع الآن يده الناعمة فوق عيني ، يا تاييس ، فلربما كنت اقترفت معك خطيئة ، لأنني أنا نفسي مثال الضعف والوهن .

لكنه أنقذنا معاً . انه صالح كما هو قدير واسمه « المخلّص » . وقد بشر الدنيا به داود والأنبياء ، وسجد له الرعاة والمجوس ، وهو لا يزال في المهد صبياً . وقد صلبه الفريسيون ، ودفنته القديسات ، وأظهره الحواريون للعالم ، وشهدت به الشهداء . وهو الذي لما علم بأنك تخشين الردى ، أتى بي إلى بيتك ليدفع عنك غائلة الردى ! أليس كذلك يا يسوع ؟ أولستَ تظهر لي في هذه اللحظة كما ظهرتَ لأهل الجليل في تلك الأيام العجيبة ، عند ما هَوتْ معك النجوم من السموات ، وصارت قريبة من الأرض بحيث تناولها الأطفال القديسون بأيديهم وهم يلعبون في أحضان أمهاتهم فوق سطوح بيت لحم ؟ ألسنا يا يسوع في حضرتك ، وانك تظهر لنا حقيقة ناسوتك المقدس ؟ أليس ذاك وجهك ؟ أوليست العَبْرة التي تنحدر فوق خدك هي عبرة حقيقية ؟ أجل ! ان ملاك العدل الأزلي سوف يتلقاها فتكون فدية لروح تاييس . ألستَ هنا يا يسوع ؟ ان شفتيك المستحقتين العبادة مفتوحتان . انك تستطيع الكلام . تكلم ، فكلي آذان صاغية . وأنتِ يا تاييس ، يا تاييس السعيدة ! اصغي لما يقوله لك المخلّص نفسه . انه يتكلم من دوني قائلاً لك : « بحثتُ عنك طويلاً يا شاتي الشاردة ، وها قد وجدتك ! فلا تشردي مني بعد الآن . هاتِ يديك أيتها البنية المسكينة ،

ودعيني أحملك فوق كتفي إلى حظيرة السموات . تعالي يا تاييس ! تعالي يا صفيتي ! تعالي واذرفي الدموع معي ! »

وسقط بافنوس على ركبتيه وعيناه تنفثان ذهول الجذب . . . ولما رأت تاييس على وجهه صورة يسوع الحيّ ، قالت في زفراتها :

— واهاً لأيام طفولتي الماضيـة ! واهاً لأبي الـكريم أحمس ! أيها القديس الصالح تيودور ، لماذا لم أمت في دثارك الأبيض عندما كنت تحملني في مطلع الفجر ، وانا مبتلة بماء المعمودية ؟

فوثب بافنوس نحوها صائحاً :

— أنتِ عُمِدْتِ ! . . . يا للحكمة الربانية ! يا للعناية الالهية ! الآن عرفت القوة التي اجتذبتني نحوك . الآن عرفت ما صيّرك هكذا عزيزة عليّ جميلة في عينيّ ! فالفضل كل الفضـل لماء التعميد الذي جعلني أترك ظل الله ، حيث كنت اسكن ، لأبحث عنك في جوّ العالم المسموم . لا ريب أن قطرةً ، قطرةً من الماء الذي غسـل جسدك ، قد سقطت على جبيني . فتعالي يا أختاه وتقبلي من أخيـك الروحي قبلة السلام !

ولثم الراهب جبين البغيّ . . .

ثم سكت وترك حبل القول لله . . ولم يكن يُسمع في كهف العذارى سوى زفرات تاييس ممزوجة بخرير المياه الجارية .

بكت ، ولم تكفكف عبراتها ، ولا حبست انهمارها ، في حين دخلت جاريتان سوداوان محملتان بالثياب والعطور وتيجان الزهور .

فقالت ، وهي تحاول أن تبتسم :

— ليس البكاء من حسن الرأي ، فالدموع تحمر منها العيون ، ولونها يفسد بها . واذ أنني مزمعة أن أتعشى الليلة مع بعض الأصدقاء ، أروم أن اكون فتانة ، لأنه سوف يكون هناك نساء جميلات ، فلا أريد أن يلحظن آثار الضعف البادية على محياي . وهاتان الجاريتان جاءتا لإلباسي . فتنحَّ قليلاً يا أبي واتركهما يفعلان ذلك . انهما ماهرتان محنكتان وقد اشتريتهما بثمن غالٍ . انظر الى أحداهما ذات الخواتم الذهبية الكبيرة والأسنان الجميلة ، اني أتيت بها من بيت امرأة الحاكم .

ففكر بافنوس بادىء الرأي في اقناع تاييس بالعدول عن الذهاب الى هذا العشاء ، على أنه آثر أخيراً أن يتصرف بفطنة فسألها عمن ستلقاه هناك .

فأجابت أنها سترى هناك صاحب الوليمة ، الشيخ كوتا مدير العمارة

البحرية، ونسياس ، وكثيرين غيرهما من الفلاسفة والمولعين بالحوار ، والشاعر كاليكرات ، وكاهن سيرابيس الأعلى ، وبعض الشبان الأغنياء من هواة تربية الخيل ، ونساء في ريعان الصبا وكال الجمال

فقال الراهب بإلهام غير عادي :

اذهبي اليهم يا تاييس ! اذهبي ، بيد أني لن أتركك . . سأذهب معك الى هذه المأدبة وأبقى بجانبك ملازماً الصمت والسكون . . .

فضحكت تاييس ، وصاحت ، والجاريتان تلبسانها حليها :

— تُرى . . ماذا عسى أن يقولوا عند ما يرون لي عاشقاً من رهبان طيبة ؟





المأدبة

لما دخلت تاييس قاعة المأدبة ، ومعها بافنوس ، كان اكثر المدعوين قد اجتمعوا متكئين على الأرائك أمام مائدة على شكل حدوة الفرس فوقها كثير من الأواني اللامعة . وكان في وسطها حوض من الفضة تعلوه أربعة تماثيل منحنية بِقِرَبٍ يتدفق منها مرقٌ على سمكٍ مسلوق يسبح فيه . .

فلما أقبلت تاييس ، علا الهتاف لها من جميع الأرجاء :

— سلام على أخت المحاسن والبهاء !

— سلام على عروس التراجيديا الصامتة ،التي تعبّر نظراتُها عن جميع الأشياء !

— سلام على محبوبة الآلهة والناس بلا استثناء !

— سلام على المشتهاة غاية الاشتهاء !

— سلام على التي منها الداء وفيها الشفاء !

— سلام على لؤلؤة « راكوتيس » !

— سلام على وردة الاسكندرية !

فانتظرت تاييس بفروغ صبر همود عاصفة التهليل والثناء ؛ ثم قالت لمضيفها « كوتا » :

— لقد جئتك يا لوسيوس براهب من الصحراء ، بافنوس ، كبير كهنة أنصينا ، وهو رجل قديس كلماته شعلة من نار . .

فنهض « لوسيوس أوريلوس كوتا » قائد الاسطول ، قائلاً :

— مرحباً بك يا بافنوس ، يا من يؤمن بالعقيـدة المسيحية . اني أجلّ بعض الاجلال ديناً أصبح الآن امبراطورياً . فقد أحلّ

قسطنطين العظيم إخوانك في الدين المحل الأول بين أصدقاء الدولة. وحقاً أنه وجب على الحكمة اللاتينية أن تسمح بدخول مسيحكم معبد أربابنا (١) . ومما يؤثر عن آبائنا قولهم ، أن في كل رب شيئاً من الألوهية . لكن لندع هذا جانباً ، ولنشرب ، ونطرب ، ونروّح القلب باللذات ، (فالوقتُ سمحٌ والزمانُ مؤاتٍ)

قال هذا وهو منشرح الصدر ، إذ كان قد فرغ من اختراع سفينة جديدة ، وأتمّ الجزء السادس من تاريخ كان يكتبه عن قرطاجنه . ولوثوقه بأنه لم يضع يومه سدًى ، كان راضياً عن نفسه وعن الآلهة .

ثم قال :

— ترى هنا يا بافنوس رجالاً كثيرين جديرين بالمحبة والاحترام : هيرمودور كاهن سرابيس الاعظم ، والفلاسفة دوريون ، ونسياس ، وزينوتميس ، والشاعر كاليكرات ، والفتيان شيراس وأريستوبول ، وهما إبنا رفيق من رفقاء شبابي الأعزاء . وبقربهما فيلنا ودروسيه ومن حقيهما أن يُعجب بهما كثيراً لفرط جمالها . .

فعانق نسياسُ بافنوسَ وهمس في أذنه :

— لقد أنذرتك يا أخي بما للزُّهَرَة من بأس شديد . أليس

(١) البانثيون Panthéon

سلطانها القوي هو الذي قادك قسراً الى هذا المكان ؟ اصغَ إليّ، انك رجل شديد التقى ، لكنك اذا لم تسلّم بأنها أمّ الآلهة فهلاكك محتّم. واعلم أن الشيخ « ملانت » الرياضي كان يقول : « انني لم أستطع اثبات خواص المثلث بغير مساعدة الزُّهرَة ! »

وكان دوريون يطيل النظر الى القادم الجديد ، وما لبث ان صفق بيديه ، وصاح صيحة الدهشة :

— انه هو يا صحب ! نظرَتهُ ، لحيته ، طيلسانه — هو بعينه ! لقيته في الملعب وكانت تاييسنا تكشف عن ذراعيها البديعتين ، فاضطرب اضطراباً شديداً ، وأشهد انه تكلم بحدَّة وحمية . انهُ رجل شريف ، وسيكون نصيبنا منه اللعنات . فصاحته رائعة ، واذا كان ماركوس هو أفلاطون المسيحيين ، فبافنوس ديموستينهم . ولعمري ان أبيقور ، في حديقته الصغيرة ، لم يطرق سمعه مثل ذلك قط .

وفي تلك الاثناء ، كانت فيلنّا ودروسيه تكادان تفترسان تاييس بأعينهما الخائنة ، وقد وضعت فوق شعرها الأشقر تاجاً من البنفسج الذابل ، كل زهرة منه تمثل لون حدقتيها حائلاً ، حتى لاح الزهر كانه نظرات زائغة ، وبدت عيناها كزهرتين متألقتين . . .

ومما امتازت به تاييس أن كل ما عليها كان يتألَّق بنور الحياة وروح الانسجام . . فكان لثنيات ثوبها الأرجواني المطرز بخيوط الفضة رونق عليه مسحة من الكآبة لا تمحوها الأساور والقلائد . وكان البهاء كله في ذراعيها العاريتين

فلم يسعهما الاّ الاعجاب بثوب تاييس وزينتها ، وان لم تشيرا الى ذلك بكلمة .

قالت فيلنّا :

— يالك من فتَّانة ! لم تستطيعي أن تكوني الآن أجمل منك عندما قدمت الاسكندرية ، لأن أمي التي رأتكِ حينذاك تقول أنه قلَّ من النساء من كانت تستحق أن تشبه بكِ .

وسألتها دروسيه قائلة :

— مَن يكون اذاً ذلك العاشق الجديد الذي جئتنا به ؟ ان هيئته غريبة وحشية ، واذا كان للفيلة رعاة فلا ريب انهم يكونون على صورته . أين وجدت يا تاييس هذا الصاحب الوحشي ؟ لعله من سكان الكهوف والمغاور الذين يعيشون تحت الأرض ملطَّخين بدخان سَقَر ؟

فوضعت فيلنّا أصبعها على فم دروسيه ، وقالت :

— صه ! يجب أن تبقى أسرار الحب في طي الكتمان ، لأن اذاعتها محرمة ! أما أنا فأفضل أن يقبلني فم بركان إتنا المدخن على أن تقبلني شفتا هذا الرجل ! لكن حبيبتنا تاييس الجميلة ، الجديرة بالعبادة كالهة ، عليها أن تتقبل كالهة دعاء جميع المتوسلين . وليست مثلنا نأبى الغرام الا على زين الشباب

فقالت لهما تاييس :

— احذرا ! انه عرّاف ساحر ، يسمع الهمس الضعيف ، ويعلم ما تخفي الصدور . وهو قادر على أن يختطف قلبيكما أثناء نومكما ، ويضع بدلاً منهما اسفنجتين ، حتى اذا شربتما ماء تموتان اختناقاً !

ثم نظرت اليهما وقد شحب لونهما ، وطوت كشحاً عنهما وجلست بجانب بافنوس على أريكته .

ووقف كوتا هدر الحديث بصوته الذى في نبراته رنة الأمارة ورقة الترحيب :

— إلزموا أماكنكم أيهـا الاخوان ! صبّوا النبيـذ المعسول أيها العبيد !

ثم رفع رب البيت كأسه قائلاً :

— لنشرب أولاً نخب قسطانس سليل الآلهة ورمز عبقرية الدولة ! يجب أن يُقدم الوطن على كل شيء، حتى على الآلهة، لأنه يأويهم فى أرضه، ويضمهم تحت كنفه اجمعين

فرفع كل المدعوين كؤوسهم المترعة الى شفاههم الاّ بافنوس، أبي واستكبر، لأن قسطانس كان قد اضطهد عقيدة اهل «نيسيه»، ولان وطن المسيحي ليس من هذا العالم.

فتمتم دوريون بعد أن شرب :

— ما الوطن ! انه نهر جارٍ . ضفافه تتبدل، وأمواجه تتجدد على الدوام

فأجاب قائد الأسطول :

— أعْرِفُ يادوريون انك قلما ترعى جانب القوى الوطنية، وانك تعتقد انه يجب على الحكيم أن يعيش بنجوة عن الشؤون العامة . أمّا انا فارى أن الرجل الشريف يجب الاّ يتمنّى اكثر من أن يشغل منصباً سامياً مسؤولاً في الدولة . فما اجمل الدولة وما اجلّها !

فوصل هيرمودور، كبير كهنة سرابيس، حبل الحديث بقوله :

— سأل دوريون « ما الوطن ؟ » وجوابي عن ذلك أن

الوطن عبارة عن محاريب الآلهة ومقابر الأجداد . فالانسان مواطن سواه بالاتحاد معه في الذكريات والاماني .

فقاطعهُ الشاب اريستوپول قائلاً :

— بحق التوأم الأول[١] ! لقد رأيت اليوم لصاحبنا ديموفون جواداً كريماً ، له فك ضئيل ، وقائمتان بديعتان ، رافعاً رأسه الواجف ، مزدهياً ازدهاء الديك !

فهزّ شيراس الفتى رأسه قائلا :

— انه ليس بالجواد الكريم كما تدعى ، فله حوافر دقيقة ، وعراقيبه توشك ان تمس الأرض ولا يلبث أن يصاب بالعرج .

وكانا سيستمران في حوارهما لولا أن صرخت دروسيه صرخة عالية :

— آي ! كدت ابتلع حسكة اطول وأحدّ من الخنجر . ولحسن الحظ أخرجتها من حنجرتي قبل فوات الوقت . ان الآلهة تحبني !

فسألها نسياس مبتسماً :

---

(١) في اساطير الأولين ان كاستر Castor هو ابن جوبيتير وليدا . والأخ التوأم لبولكس Pollux . وضرب المثل بعروتهما الوثقى التي لا انفصام لها . — وهذان الاسمان يذكران عادة في معرض الوداد رمزاً للمحبه والقبول (المترجم)

— اتقولين يا عزيزتي دروسيه ان الأرباب بحبك هائمون ؟ اذاً فليساهموا الناس العلل ! لان الحب يقضي بالشقاء الابدي على من يصاب به ، وهو دليـل على الضعف . فالحب الذي تشعر به الآلهة نحو دروسيه حجة دامغة على عدم بلوغهم حد الـكمال .

فاشتدّ غضب دروسيه لهذه الـكلمات ، وقالت :

— ان ما قلتـه يا نسياس حماقة لا تستحق الجواب ، ومن طبعك ألاَّ تفهم ما يقال ، وان تقول ما لا معنى له .

فابتسم نسياس ثانية وقال :

— تكلمي ، تكلمي يا عزيزتي دروسيه ، لا بأس بكل ما تقولين ، فعلينا أن نشكرك كلما فتحتِ فاكِ ، فما أبهى ثناياكِ !

* * *

وعندئذ دخل البهو شيخ وقور ، زريّ اللباس ، متئد الخطى ، عالي الرأس ، ونفض المكان بنظره محدقاً في الحاضرين بسكون . فأشار اليه كوتا ليجلس بجانبه فوق أريكته قائلاً :

— أهلاً بك وسهلاً يا يوكريت ! هل من رسالة فلسفيـة جديدة كتبتها هذا الشهر ؟ ستكون ، إذا صح حسابي ، الثانيـة والتسعين التي خطتّها قصبتك النيلية بِيَدك الأثينية .

فأجاب بوكريت ، وهو يعبث بلحيته الفضية :

— ان البلبل خُلق ليشدو ، وخُلقتُ لأحمد الأرباب الخالدين . (١)

دوريون

فلنحيي باحترام، في شخص بوكريت ، آخر الرواقيين . انه وقور رزين ، يقوم في وسطنا ، مكللاً بجلال المشيب ، كتمثال الأسلاف ! تراه بين الناس منفرداً ، يفوه بعبارات لم يُسمع بها

بوكريت

هذه مغالطة منك يا دوريون . ففلسفة الفضيلة لم تنعدم من هذا العالم . وان لي أتباعاً كثيرين في الاسكندرية وروما والقسطنطينية ،

---

(١) هذه الجملة من أقوال الفيلسوف الرواقي (Epictète) ايكتيتوس (اي العبد الاسير) . الذى ولد في الجيل الاول للميلاد بمدينة هيرابوليس بمصر . وأتى روما في عهد نيرون تابعاً لابافروديت Epaphrodite أحد رجال الطاغية الروماني . فعُرف بهذا الاسم . وخلاصة آرائه احتقار المادة ونصرة الفضيلة وحب البشرية وتمجيد الله . وان العلم بغير العمل لا قيمة له . وانه لابد مما ليس منه بد . وله في ذلك كلمة مشهورة « احتمل وامتنع » ومما يروى عنه ان سيده القاسي لوى يوماً ساقه في أداة تعذيب . فقال له أيكتيتوس بهدوء : « ستكسرها ! » فلما صدق حدسه وكسرت رجله ،سرَّ بأن ختم جملته بقوله : « ألم أقل لك ذلك ؟ » — (المترجم)

سواء من العبيد الأرقاء أو أعضاء الأسرة القيصرية، يعرفون الآن كيف يحكمون أنفسهم ويعيشون أحراراً. وهم بعدم اكتراثهم لشيء سعداء كل السعادة. كثيرون يحيا فيهم «ايكتيتوس» و «ماركوس اوريلوس»[١]. لكن إذا صحَّ أن الفضيلة قد انطفأت جذوتها من الأرض إلى الأبد، ففي أي شيء تُعني خسارتها هنائي، ما دام بقاؤها وعدمها لا يتعلقان بي؟ إن الحمقى، يا دوريون، هم وحدهم الذين تخرج سعادتهم عن طوقهم، وتفلت من ايديهم. انني لا أشتهي مالا تشاؤه الآلهة، وأشتهي كلَّ مايشاؤون. بهذا أصبحت مثلهم أشاركهم في مسرتهم المحققة. فاذا ماتت الفضيلة رضيت بموتها، وملأني هـذا الرضا سروراً، كالمجهود الأعلى لعقلي أو شجاعتي. ولسوف تتشبه حكمتي في جميع الامور بالحكمة الالهية، فتأتي الصورة أثمن جداً من الاصل، لأنها ستكلف شيئاً كثيراً من العناية، وكثيراً جداً من المجهود.

نيباس

لعلي فاهم ما ترمي اليه. انك تضع نفسك في مستوى العناية

---

(١) Marc-Aurèle عاهل الدولة الرومانية (١٦١ — ١٨٠ ق.م) وخير امبراطرتها. ورب من أرباب السيف والقلم. عُرف بحكمته الرواقية الخالصة واعتداله المشهور وأدبه الموفور. ضمن كتابه الخالد «أفكار» زبدة آرائه الساميه التي تعد القواعد الادبيه لفلسفة الرواقيين — (المترجم)

الالٓهية والقدرة العلوية . لكن إذا كانت الفضيلة تنحصر في المجهود وحده يا بوكريت ، وفي ذلك الاجهاد الذي به يزعم تلاميذ « زينون » [1] انهم يجعلون ذواتهم أشباهاً للآلهة ، فالضفدعة التي تنتفخ لتصير ضخمة كالعجل تؤدي اكبر عمل من أعمال الرواقيين

بوكريت

أراك تمزح يا نسياس ، وقد برعت كعادتك في تهكمك . ولكن إذا كان العجل الذي ذكرته إلهاً حقيقياً كأبيس ، أو كالثور الذي تحت الأرض – الذي أرى هنا كاهنه الاكبر ؛ واذا كانت الضفدع تثقف وتؤتى الحكمة فتنجح في مضارعته ، ألا تكون في الحقيقة أفضل من العجل ؟ وهل يسعك الآ الاعجاب بحيوان صغير كهذا أوتي مثل هذا الفضل العظيم ؟

* * *

(١) Zénon هو الفيلسوف اليوناني المشهور ولد في سيتيوم بجزيرة قبرص وأسس المذهب الرواق Stoïcisme الذي يرى في العقل الالهي المنظم الاعظم لجميع الكائنات . وان سعادة الانسان في العمل واجهاد النفس . وقد أسس مدرسته في أثينا برواق باسيل . فأطلق عليه وعلى تلاميذه : « الرواقيون » وكان على مذهب أبي العلاء ، طيب الله ثراه ، يرى انها : (تعب كلها الحياة) لذلك لما أحس بالشيخوخة تدب في جسده ، وضع حداً لحياته بالانتحار — ٢٩٣ ق . م — (المترجم)

وضع أربعة من الخدم فوق المائدة هِلَّوفاً[1] مغطى بهُلبه، وخنانيص مصنوعة من الفطير أحاطت بالحيوان كأنها تريد أن ترضعه، اشارة إلى أنه انثى.

فاتجه زينوتميس نحو الراهب قائلاً:

— قد جاءنا أيها الاصدقاء ضيف من تلقــاء نفسه! وأعني به بافنوس العظيم الذي يحيا في التنسك هذه الحياة الغريبة، فهو ضيفنا غير المنتظر.

كوتا

قُلْ خيراً من هذا يا زينوتميس، قل إن له صدر المكان لأنه قد أتى بغير دعوة

زينوتميس

يلزمنا أيضاً يا عزيزي لوسيوس، مبالغةً في اكرامه، أن نتوخى ذكر ما يطيب له سماعهُ. وعلى ذلك، فيقيناً ان رجلاً مثـله أقل تأثراً بتوابل اللحوم منه بعطر الافكار الجميـلة. ولا ريب في اننا نُدخل على نفسه السرور بتوجيه الحديث إلى عقيدة المسيح المصلوب

(١) الهلّوف: الخنزير البرّي

التي يعتنقها . أما أنا فأقدم نفسي للحوار عن طيب خاطر . لأن هذه العقيدة تلذّ لي كثيراً لاختلاف رموزها وتباين كناياتها . وإذا كان ما تقروه عنها يدل حقيقة على روح هذا الدين ، فهو إذاً دين ملؤه الحقائق . وأرى الكتب المسيحية حافلة بآيات الوحي الالهي . على أني لا يمكنني يا بافنوس أن أسوي بينها و بين كتب اليهود التي لم تلهم ، كما يُدّعى ، من روح الله بل من روح خبيث . فان « يهوَه »(١) الذي أملاها هو أحد تلك الأرواح التي تعمّر الطبقات الجوية السفلى ، وتبعث بالجانب الاكبر من الامراض التي تفتك بنا . غير أنه يبزّها جميعاً في الجهالة والقسوة ، على النقيض من ذلك الثعبان ذى الأجنحة الذهبيـة الذي لفّ طياته اللازوردية على شجرة المعرفة ، فقد كان مخلوقاً من النور والحب ؛ فلم يكن ثمة بدّ من المشادّة بين هاتين القوتين — هـذه القوة المنيرة وتلك القوة المظلمة . وقدوقع ذلك النزاع بعـد خلق الدنيا . إذ دبّر « يهوه » — لسوء حظ آدم وحواء ، وهما أول رجل وامرأة كانا يعيشان عاريين سعيدين في جنة عدن — وسيلةً للسيطرة عليهما وعلى جميع ذريتهما . ولما لم يكن في حوزته فرجار أو قيثارة ، وكان كذلك جاهلاً بالعلم الذي له السلطان ، و بالفنّ الذي يستميل القلوب ، فقد روّع هذين الساذجين المسكينين

(١) — Iaveh — (Jehovah الكائن الاسمى)

بأشباح مخيفة ، وتهديدات تخيلية ، ورعود و بروق وصواعق . ولما أحسّ آدم وحواء بظلّه فوق رأسيهما ، التصق كل منهما بالآخر وضاعف الخوفُ حبّهما . فأشفق الثعبان الحكيم عليهما ، ورأى أن يثقفهما بالعلم حتى لا تضللهما الخرافات والاكاذيب . وتطلّب هذا المسعى فطنةً نادرةً وحزماً فائقاً ، بيد أن الشيطان الكريم الصادق النية تلافى الامر بحكمته . فاقترب منهما بغير علم يهوه – الذي ادّعى انه يستطيع رؤية كل شيء وهو فى الحقيقة قصير النظر – وجذب بصرهما بأبهة درعه و بريق أجنحته . ثم روّض عقليهما بأن رسم امامهما ، بجسمه ، أشكالاً متقنة ، كالدائرة والأهليلج والحلزون ، التي عرف الاغريق خواصها العجيبة منذ ذلك الحين . فعُني آدم بالتأمل في هذه الاشكال الهندسية اكثر من حواء . لكن لما بدأ الثعبان يتكلم ويعلمهما الحقائق السامية العليا ، تلك التى لا يمكن التدليل عليها ، وجد أن آدم المخلوق من طين ذا طبيعة اكثف جداً من أن تجعله يدرك تلك العلوم الدقيقة ، وأن حواء ، بالضدّ ، استطاعت فهمها بسهولة لكونها أرق قلباً وأدق احساساً . لذلك حدّثها وهي وحدها ، في غياب زوجها ، ليهذب أول . . . .

دوربوله

اغتفر مقاطعتي لك يا زينوتميس . لقد تبينت أول الأمر من

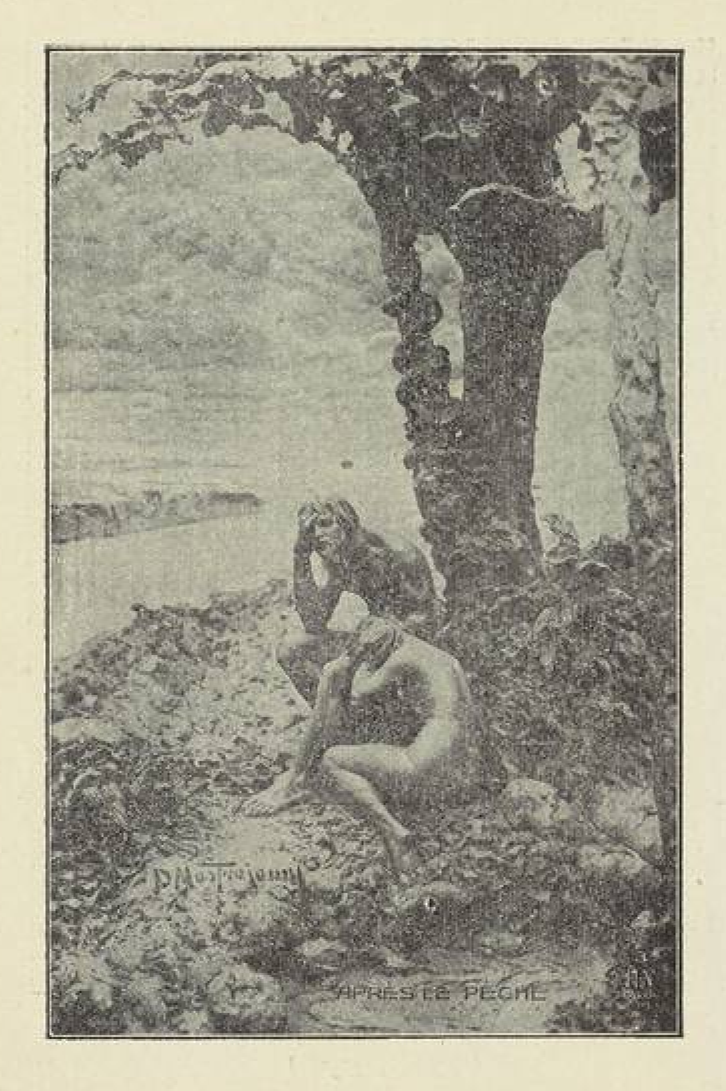
الخرافة التي قصصتها علينا إحدى وقائع الصراع بين « بالاس أتينا » (١) والجبابرة . ولعمري ان يهوه ليشبه جدّ الشبه «تيفون» كما أن بالاس يمثله الاثينيون ثعبانًا بجانبها . غير أن ما قلته الآن جعلني أشك في ذكاء الثعبان واخلاصه . ياليت شعري اذا صحّ أنه أوتي الحكمة ، أفتراه يودعها رأس أنثى صغير الحجم لا يقدر أن يسعها ؟! أوثر أن أعتقد أنه كان مثل يهوه جاهلاً كذابًا ، واختار حواء لأنها أسهل انخداعًا ، ولأنه توسم في آدم ذكاءً وتبصرةً .

زينونيس

اعلم يا دوريون أن اسمى الحقائق وأفضلها لا يدرك بالبصيرة والذكاء ، بل بالحس والشعور . ولهذا ترى النساء بوجه عام أقل ادراكاً من الرجال ، ولكنهنّ أدق منهم إحساساً ، فيصلن بسهولة الى قمة المعرفة بالمسائل الالهية ، ولهنّ موهبة الرجم بالغيب . واني لاستصوب تمثيل أبولو العازف بقيثارته ، ويسوع الناصري مرتديين كالنساء ثيابًا فضفاضة . ومهما يكن رأيك يا دوريون فالثعبان الذي هدى حواء كان حكيماً لتفضيله ، في عمله النوراني ، حوّاء التي هي أنصع بياضًا من الحليب والكواكب على آدم الثقيل الظل ! فقد صغت اليه طوعًا ، وانقادت الى شجرة

---

(١) Pallas Athéné هي الهة الحكمة عند الاغريق (المترجم)



(آدم وحواء بعد الخطيئة)



(الفردوس المفقود)

المعرفة التي تمتد فروعها الى السماء ، والتي بللها الرُّوح القدُس كالندى . كانت هذه الشجرة يانعة بأوراق تنطق بألسنة الشعوب المقبلة ، وتؤلف أصواتها المجتمعة موسيقى كاملة . وكانت أثمارها الوافرة تغذي المهتدين وتعلمهم الأسماء كلها ، من معادن وأحجار ونبات ، وقوانين الطبيعة والخلق ، ولكنها كانت لهيباً لا يجرؤ الذين يخشون الألم والموت على إدنائها من شفاههم . أما حواء فبعد ان صغت بانتباه الى دروس الثعبان ، تحررت ورفعت نفسها عن مستوى المخاوف الفارغة ، واشتهت أن تذوق الثمار التي تؤدي الى معرفة الله . لكنها كانت تحب آدم فلم تشأ أن يكون دونها ، فأخذت بيده وقادته الى الشجرة العجيبة ، وقطفت تفاحة ملتهبة واكلت منها ثم قدمتها الى رفيقها . ولكن ساء حظهما إذ باغتهما يهوه ، وكان يتنزه معتسفاً في الجنة ، فلما رأى أنهما قد علما ما كان مجهولاً لديهما ، تملكه غضب فظيع . وكانت غيرته شرًّ ما يُتقى . فاستجمع قواه وأحدث في الجوّ السفلي ضجة جزع من هولها ذانك الكائنان الضعيفان ، فأفلتت الثمرة من يد الرجل ، أما المرأة فقد تعلقت بعنقه وقالت : « أريد أن أقاسمك الجهل والألم ! » فلما انتصر يهوه أبق آدم وحواء وذريتهما في ذهول وفزع . وفازت صناعته التي لم تكن تتعدى خلق الشهب الغليظة وفاقت علم الثعبان الذي كان موسيقاراً ومهندساً . فعلّم الناس الظلم والجهل والقسوة ،

ومكّن للشر في الأرض. طارد قايل ونسله لأنهم كانوا أهل جدّ وعمل. وآخذ الفلسطينيين بشعرهم الأورفيّ ومواعظهم العيسوية، فأفناهم على بكرة أبيهم. ثم صار للعلم والجمال عدوًّا لا تبرد غلته. وقد ظلّ النوع الانساني قرونًا متعاقبة غارقًا في بحار من الدموع والدماء تكفيراً لهزيمة الثعبان المجنّح. وكان بين الاغريق، لحسن الحظ، دهاةٌ مثل فيثاغورس وأفلاطون، فأدركوا بقوة عبقريتهم الأشكال والأفكار التي حاول عدو يهوه عبثًا تعليمها للمرأة الأولى. كانت روح الثعبان فيهم ولذلك كرّم الأثينيون صورته كما قال دوريون. وأخيراً، ظهرت ثلاثة أرواح علوية بأشكال بشرية: يسوع الجليلي، وبازيليد، وڤالنتان. وقد أنعم عليهم باجتناء أفضل الثمار من شجرة المعرفة التي غارت جذورها في بطن الأرض وارتفعت قمتها الى عنان السماء. وهـذا ما شئت أن أقوله انتقامًا للمسيحيين الذين كثيراً ما تنسب اليهم أغلاط اليهود

دوريون

اذا كنت وعيتُ ما قلته يا زينوتميس من أن الرجال الثلاثة الحريّين بالاعجاب — يسوع وبازيليد وڤالنتان — قد اكتشفوا اسراراً كانت خافيـة على فيثاغورس وأفلاطون وجميع فلاسـفة

اليونان ، حتى عن أبيقور الالهي (١) الذي حرّر الانسان من سائر المخاوف الباطلة ، فيكون لك الفضل ان أنت أنبأتنا بأية وسيلة أحرز هؤلاء الثلاثة الزائلون المعارف التي غابت عن حكمة الحكماء.

زينوتميس

وهل أنا بحاجة الى أن اكرر على مسمعك يا دوريون ان العلم والتأمل ليسا سوى الدرجة الأولى من المعرفة ، وان الانجذاب وحده هو الذي يوصل الانسان الى الحقائق الازلية ؟

هيرمودور

صحيح يا زينوتميس ان الروح تغتذي بهذا الانجذاب كما يغتذي الجندب بالندى . وزد على ذلك ان العقل وحده هو الصالح لتجلي الجذب . لأن الانسان يتألف من طبيعة ثلاثية : جسد مادي

---

(١) Epicure فيلسوف اليونان العظيم (٣٤٢ — ٢٧١ ق . م) . يحتمل انه ولد في ساموس . يرى في اللذة الخير كله . وانه يجب ان تتوجه كل مجهوداتنا في سبيل الحصول عليها . لكنه يفرقها عن الحواس . ويرى في لذة الجسد العذاب والالم . ويقول بلذة العقل وتثقيفه وممارسة الفضيلة . ويرى في ذلك السعادة وهي غاية الحياة . لكن مذهبه تحدر وتدهور من بعد ذلك الى عكس أغراضه العالية النبيلة ككل مذهب من المذاهب الساميه التي يقضي عليها ضعف الانسان — (المترجم)

وروح أرق منه وان كانت مادية مثله ، ثم عقل غير قابل للفناء .
وعندما يصعد العقل من الجسد ، — الذي يصبح بعده كقصر هجره صاحبه بغتة فصار نهب الصمت والوحشة — ، ويحلق في جنات الروح ، ويندمج في ذات الله — يتذوق العقل لذات موت عتيد ، أو بالحري حياة آتية ، فما الموت الاَّ الحياة ، وفي هذه الحالة — حالة الاتصال بالذات العلية والاشتراك في الصفاء الإلهي — يفوز العقل بمسرات لا نهاية لها و بمعرفة مطلقة ، فيدخل الوحدة التي هي الكل فيكون كاملاً .

نيـاس

هذا حري بالاعجاب . لكن الحق أقول يا هيرمودور اني لا أرى فرقاً كبيراً بين « الكل » و « العـدم » . حتى الكلمات تبدو عاجزة عن التمييز بينهما . فغير المتناهي يلوح ، الى درجة رائعة ، انه عبارة عن لا شيء — كلاهما بعيـد عن التصور . ومن رأيي أن الكمال يكلّف كثيراً جداً ، قد يكلف الانسـان حياته كلها ، وعلى المرء لكيما يحظى به أن يتفانى . وهي نكبة لم ينجُ منهـا أحد مذ آلى الفلاسفة على أنفسهم تأليـه الكمال وتكميل الآلهة . وبعـد ، فاذا كنا لا نعرف غير الكائن فنحن جاهلون كذلك ما يكون . اننا لا ندري شيئاً . . تقولون ان تفاهم الناس فيما بينهم محال ، ويبدو

لي ، على رغم ضوضاء التنازع بيننا ، أنه يستحيل عليهم ألاّ يتفقوا في نهاية الأمر ، وقد دفنوا جنباً الى جنب ، مغمورين بأكوام من المتناقضات التي هالوها هم أنفسهم فوق أنفسهم مثل بليون فوق أوسّا . (١)

كونا

أحب الفلسفة حباً جماً ، وأمارسها في أوقات فراغي ، لكنني لا أفهمها جيداً الاّ في كتب شيشرون .

يا أيها العبيد صبّوا السلافة المعسولة !

لابكرات

ان هذا لشيء عجاب ! قبلما أذوق الطعام ذكرت أيام كان الشعراء الجديون يجلسون على موائد الجبابرة الطيبين فسال لعابي . لكنني وقد ذقت الرحيق المختوم الذي سكبته لنا بسخاء يا لوسيوس الكريم ، لم أحلم بسوى الجهاد المدني ، والعراك الحماسي . واني لأستحيي أن أعيش في زمن كهذا لا مجد فيه . انني أستوحي الحرية ،

---

(١) في اساطير الاولين ان بليون Pélion وأسّا Ossa جبلان متجاوران في تساليا . فلما ثار الجبابرة على الاله جوبيتر . وأرادوا ان يرقوا أسباب السماء كوّموا بليون فوق أوسّا فضربت مثلا للمشكلات اذا زادت لغير نتيجة ، والصعوبات اذا اقامت ضغثاً على ابّاله (المترجم)

وأسفك دمي – في الخيال – مع آخر الرومانيين في ساحات فايي !

كونا

مات أجدادي عند سقوط الجمهورية مع بروتس في سبيل الحرية . ولكن عندي أنَّ ما دعاه الشعب الروماني « حرية » لم يكن في الحقيقة سوى حق حكم نفسه بنفسه . لا أنكر أن الحرية قد تكون خير النعم لأمة وأجدى ما تناله من العطايا . لكن كلما طال عمري زدت اقتناعاً بأن الحكومة القوية ذات الحول والطول هي وحدها التي تستطيع أن تضمنها لرعاياها . لقد قضيت أربعين عاماً شاغلاً أعظم مناصب الدولة ، ودلتني تجاربي الطويلة على أن وهن القوة الحاكمة ينتج ظلم الرعية . فكل الذين يسعون ، مثل السواد الاعظم من الفصحاء ، في اضعاف كيان الحكومة ، يقترفون جرماً شنيعاً . قد تتخذ ارادة الحاكم المطلق حيناً مظهراً مشئوماً ، ولكن السعي الى رضا الشعب يجعل الحزم والعزم في الحكم مستحيلاً . وقبل أن يُغمر العالم بجلالة السلم الروماني ، لم تسعد الشعوب الاَّ بحكم مستبد مستنير

هرمودور

أما أنا يا لوسيوس فأظن أنه لا يوجد مثال صالح للحكم ، ولن يوجد . إذ أن اليونانيين الألباء الذين وفقوا الى إدراك أشكال

صالحة لمختلف الشئون ، حاولوا عبثاً ايجاد الحكومة التي ينشدونها من هذا القبيل . لذلك كان كل أمل من هذه الوجهة خائباً سلفاً . ولقد استدللنا من علامات خاصة على أن الدنيا أشرفت على الغرق في الجهالة والوحشية ، وقدّر لنا يا لوسيوس ان نشهد احتضار المدنية المروع ، ولم يبق لنا من كل الترضيات التي فازت بها الزكانة والعلم والفضيلة إلاَّ الفرح القاسي — إلاَّ ارتقاب الموت مستسلمين

كوتا

حقاً ان جوع البشر وعتوّ المتوحشين آفتان مخيفتان . غير أنه بأسطول عظيم ، وجيش عرمرم ، ومال وفير . . .

هيرمودور

ما فائدة اغترارنا بأنفسنا ؟ ان الأمبراطورية المضمحلة سوف تُقدم لقمة سائغة للهمج . والمدن التي شاد صروحها الحذق الهيليني والأناة اللاتينية لن تلبث أن تصير نهباً للمتوحشين السكارى . ولن يبقى على وجه الأرض فن ولا حكمة . ستقلب صور الأرباب في المعابد وتنعكس في القلوب . وسيكون في هـذا ظلام العقل وفناء العالم . وكيف نصدق ان « السرماتيين » سيقومون يوماً ما بأعمال نابهة ، أو أن « الجرمان » سيزاولون الموسيقى والفلسفة ، أو أن

« الكاض » و « المركومان » سيعبدون الأرباب الخالدين ؟ كلا !
لقد مال ميزان كل شيء وتهدم . وهذه مصر العريقة في القِدم التي
كانت مهد العالم ستصير لحده ، وسيتلق سيرابيس — إله الموت —
أسنى تعبدات الأحياء . وسأكون أنا آخر كاهن لآخر إله ...

* * *

في تلك اللحظة رفع السجوف الموشاة مخلوق غريب ، فرأى
الضيوف أمامهم رجلاً ضئيل الجسم ، أحدب الظهر ، له جمجمة
مفلطحة صلعاء . وكان يرتدي جلباباً أزرق على الزيّ الأسيوي ،
ويلبس كالهمج سراويل حمراء مرصعة بنجوم ذهبية . فلما رآه
بافنوس عرف انه ماركوس الأريوسى ، فرفع يديه فوق رأسه
خشية انقضاض صاعقة من السماء ، وامتقع لونه رعباً . ففي وليمة
الشياطين هذه لم تستطع تجديفات الوثنيين ولا ترّهات الفلاسفة
الخاطئين أن تفتّ في عضده أو توهن من جلده ، ولكن أصابه بذلك
مجرد حضور هذا الكافر . فحدثته نفسه بالفرار .. على أنه عندما التقى
نظره ونظر تاييس ، اطمأن وسكن روعه ، إذ قرأ روح المجتباة
وأدرك أنها — وهي توشك أن تصبح قديسة — قد أسبلت عليه
ستر حمايتها ، فأمسك بطرف ثوبها الطويل الفضفاض ، وناجى
المسيح مخلص البشر

رحب المدعوون بوصول من يدعى « أفلاطون المسيحيين » ، وخاطبه هيرمودور أولاً بقوله :

— أي ماركوس النابه الذكر ! اننا نبتهج جميعاً برؤيتك بيننا ، وقد وافيتنا في الوقت المناسب . نحن لا نعلم عن تعاليم المسيحيين إلاّ ما يرضون باذاعته وحاش لفيلسوف مثلك أن يرتأي ما يرتئيه الدهماء . لذلك ترانا متلهفين للوقوف على رأيك في الأسرار الكبرى للعقيدة التي تنتحلها . وقد كان عزيزنا زينوتميس ، وهو كما تعلم شغف بتفسير الرموز ، يسأل الآن النابه بافنوس عن كتب اليهود ، غير أن بافنوس لم يحر جواباً ، ولا غرو فقد نذر ضيفنا الصمت ، وختم الله على فمه في الصحراء . أما أنت يا ماركوس ، يا من رن صوته في المجامع الاكليروسية ، واعتلى المنابر في مجلس قسطنطين الإلهي ، فتستطيع — اذا شئت — أن تنقع غلتنا وتبلغنا أمنيتنا بأن تطلعنا على الحقائق الفلسفية المخبوءة في أساطير المسيحيين . أوليس أولى هذه الحقائق هي وجود إله واحد لا شريك له ، به أومن إيماناً ثابتاً ؟

ماركوس

أجل أيها الاخوان الموقرون ، إني أومن بواحد أحد ، لم يولد ، فرد صمد ، مبدع لجميع الكائنات

نيباس

نحن نعلم يا ماركوس أن ربك خلق الدنيا . وكان لهذا الخلق ، بالتأكيد ، شأن يذكر في وجوده . وكان موجوداً منذ الأزل قبل أن تصح عزيمته على خلقها . لكن لا بدّ لي من التسليم — إحقاقاً للحق — بأن موقفه كان حرجاً جداً . فقد كان عليه أن يظلّ بلا عمل ليظل كاملاً . وكان عليه أن يعمل اذا شاء أن يبرهن لنفسه على وجوده . أراك تؤكد لي أن رأيه كان قد استقرّ على أن يعمل، واني لواثق بما تقول ، وان كان هذا يعدُّ من قِبَل إله كامل إغضاء لا يغتفر . والآن خبرنا يا ماركوس كيف شرع في خلق الدنيا ؟

ماركوس

ان الذين أوتوا الحكمة وجوهر المعرفة مثل هيرمودور وزينوتميس ، يعلمون وإن لم يكونوا مسيحيين ، ان الله لم يخلق العالم مباشرة وبغير واسطة . فقد اتخذ له ولداً واحداً هو الذي بأمره صُنعت جميع الكائنات

هيرمودور

صدقت يا ماركوس ، وهذا الولد قد عُبد بأسماء « هرمس » و « ميترا » و « ادونيس » و « أبولو » و « يسوع »

ماركوس

لا أكون مسيحياً إذا أطلقت عليه اسماً غير « يسوع » و « المسيح » و « المخلّص » . انه حقاً ابن الله ، لكنه ليس بأزلي ، إذ أن له بداءة . أما القول بأنه وُجد قبلما يولد فذلك سخف يجب أن يُترك لبغال « نيسيه » ، وللحمار الحرون الذي حكم كنيسة الاسكندرية زمناً طويلاً باسم اثناسيوس اللعين

وكان بافنوس قد شحب لسماعه هذا القذف ، وأغرقه الألم في لجة من عرقه ، فرسم علامة الصليب ولازم صمته السامي . ومضى ماركوس في حديثه :

— من المعلوم ان مجمع « نيسيه » الاكليروسي الغر ، قد تهجم على جلاله عزّ شأنه ، بارغامه على تقسيم صفاته — التي لا تتجزأ — بينه وبين الشفيع الذي بواسطته صُنعت كافة الموجودات . . .

يا نسياس كفَّ عن تهمك بالَه المسيحيين الحقّ ! واعلم انه جلّ شأنه كزنابق الحقل ، لا يعمل ولا يغزل . لم يكن هو الصانع بل كان ولده الوحيد يسوع الذي خلق الدنيا ؛ وبعد ذلك اتى سبحانه ليصلح عمله ، لأن الخليقة لم تكن كاملة ، وكان الشر حتماً قد امتزج فيها بالخير

نباس

ما الخير ؟ وما الشرّ ؟

* * *

مرت فترة سكوت،عرض فيها هيرمودور ، وذراعاه مبسوطتان فوق غطاء المائدة ، اناناً صغيرة من معدن قورنثي تحمل سلّين ، في أحدهما زيتون أبيض وفي الآخر زيتون أسود ، وقال :

— انظروا الى هذا الزيتون ، فاننا نرتاح الى تخالف لونيه ، و يروقنا أن أحدهما أبيض والآخر أسود . لكن لو وُهب له الفكر والنطق والمعرفة ، لقال الأبيض : « خير للزيتون أن يكون أبيض ، و بئس الزيتون الأسود » . وكان قوم الزيتون الاسود ينفرون من قوم الزيتون الأبيض . أما نحن فحكمنا أعدل من حكمهم ، لأننا فوقهم ، بقدر سمو الآلهة فوقنا . فالانسان يرى جانباً واحداً من كل شيء ، فيبصر الشر شرًا ، والله يحيط بكل شيء علماً ، فيرى في الشر خيراً . ان القُبح بلا شك قبيح ، لا جميل . لكن لو كان كل شيء جميلاً ، لما ظهر كل شيء جميلاً ، (و بضدّها تتبيّن الأشياء . . .)

فلا بأس إذاً من أن يكون هناك شر، كالذي أثبته افلاطون الثاني بما يفوق سميّه الأول

بوكريت

لنقُل قولاً الى الفضيلة أقرب . الشر شر لا للعالم الذي لا يخل نظامه المنزه عن الاضطراب ، وانما هو شر بالنسبة للشرير الذي يقترفه ، وكان بوسعه أن يجتنبه .

كوتا

وحق جوپيتير ! ان هذا عين الصواب !

بوكريت

العالم مأساة شاعر مجيد . والله الذي ألفها قد جعل لكل منا دوراً يمثله فيها . فاذا شاء أن تكون سائلاً أو أميراً أو أعرج — فابذل أقصى جهدك في اجادة تمثيل دورك !

نـبـاس

أجل ! . . ويجمل بأعرج المأساة أن يعرج مثل « هيفستوس » ؛ و بالمجنون أن يستسلم لهياج « أجاكس » ؛ و بالزانية بحرّم أن

تجدد جرائم فيدروس ؛ وبالغادر أن يخون ؛ وبالخادع أن يكذب ؛ وبالقاتل أن يذبح . وعندما يتم تمثيل الرواية فكل الممثلين — الملوك ، والعدول ، والطغاة السفاكون ، والعذارى الطاهرات ، والزوجات الفاسقات ، والقتلة الانذال ، وأهل البلاد ذوو الهمم الشماء — هؤلاء كلهم ينالون أنصبة متساوية من الثناء !

بوكريت

انك تشوه فكري يا نسياس ، وتحوّل الغادة الحسناء الى غول بشع ! انني أرثي لجهلك بطبيعة الآلهة والعدل السماوي والشرائع الأزلية .

زينونيس

أما أنا يا صحب فأومن بحقيقة الخير والشر ، لكنني أيقنت انه ما من عمل بشري ، حتى قُبلة يهوذا ، الاَّ وفيه جرثومة الفداء . الشر عون على نجاة الناس نجاة نهائية ، وفي هذا يصدر عن الخير وله نصيبه في الجزاء المتعلق بالخير . وهو ما بيّنه المسيحيون تبييناً شائقاً في اسطورة الرجل ذي الشعر الاحمر الذي لكي يخدع مولاه منحه قبلة السلام ، واكد فعله خلاص الناس . كذلك ما من شيء ، في رأيي ، أشد تناهياً في الشطط من الضغينة التي بها طارد

بعض أتباع « بولس الخيّام » أتعس حواريي المسيح ، وفاتهم أن قبلة « الاسخريوطي » التي تنبأ بها المسيح نفسه ، كانت ضرورية، بحسب عقيدتهم ، لفداء البشر . وانه لو لم يقبل يهوذا السفط ذا الثلاثين من الفضة ، لكانت الحكمة الالهية فرية ، فتُضلل الذات العلية ، وتنعكس اغراضها ، وتسلّمُ الدنيا للشر والجهل والفناء ...

ماركوس

سبق في علم الحكمة الإلهية أن يهوذا كان مخيراً في الآ يسلم سيده ، ومع ذلك سلّمه ، وهكذا استخدمت جريمة الاسخريوطي لحجر في بناء صرح الفداء العجيب .

زينونيس

كلمتك الآن يا ماركوس كمن يصدق أن نجاة الناس تمت على يد المسيح المصلوب ، لعلمي أن هذا هو اعتقاد المسيحيين . وقد أدركت ما يجول بخواطرهم ليكون في تمام وسعي ان اكشف عن خطأ اولئك الذين يعتقدون هلاك يهوذا الأبدي . وأرى أن يسوع هو في الحقيقة البشير بازيليد وفالنتان . أما من جهة سر الفداء ، فسأخبركم أيها الاصدقاء الاعزاء ، مع قلة شوقكم الى السماع ، كيف تم — في الواقع — على الأرض .

فأشار المدعوون بالقبول .

وعندئذ دخل القاعة اثنتا عشرة فتاة ، سريعات الخطى على الحان ناي خفي ، يحملن على رؤوسهن سلال الرمان والتفاح ، مثل العذارى الأثينيات بسلال الحصيد المقدسة . فوضعن السلال فوق المائدة ، وانقطعت أنغام الناي . وقال زينوتميس :

— لما خلقت « أيونيا » أي « فكرة الله » العالمَ ، عهدت بحكومة الارض الى الملائكة . لكنهم لم يحتفظوا بالرزانة اللائقة بالحكام ، فانهم لما رأوا بنات الناس فاتنات ، باغتوهن في المساء عند عيون المياه ، واجتمعوا بهن ، فتولد جنس شرس ملأ الارض بغياً وعتواً ، حتى ارتوت أتربة الطرقات من دماء الأبرياء . ولما رأت « أيونيا » هذا ، نالها حزن لا يوصف . فاتجهت الى الدنيا ، وتنهدت قائلة :

« — هذا ما قدمت يداي ! ان أطفالي المساكين غارقون في حياة مريرة ، والذنب ذنبي . انهم يتوجعون بجريمتي وأريد أن أكفّر عنها . الله نفسه ، الذي لا يفكر الاّ بواسطتي ، لا يستطيع أن يرد اليهم طهارتهم الاولى . سبق السيف العذل ، وسوف تبقى الخليقة ناقصة حتى الأبد . وأقل ما أستطيعه ألاَّ أتخلى عن مخلوقاتي . فاذا لم أستطع اسعادهم مثلي ، فانني أقدر على مقاسمتهم شقاءهم .

وبما انني أخطأت إذ وهبت لهم أجساداً تذلهم ، فلأتخذن أنا الأخرى جسداً كأجسادهم ، وأذهب لأعيش بينهم »

ثم هبطت الى الارض واتصلت برحم امرأة أرجوسية حيث تكونت ثم ولدت صغيرة نحيلة ، وسميت « هيلانة » . وسخّرت في اعمال الحياة ، بيد انها ما عتمت أن ترعرعت في حسن وجمال وصارت أعزّ من يُشتهى من النساء . وكانت قد اعتزمت أن تمحن جثمانها الفاني بأدنس الخطايا . فبذلت نفسها للزناة الشرسين كفّارة عن كل فسق وشراسة ومظلمة . وسببت بجمالها دمار الشعوب حتى يعفو الله عن جرائم الكون . ولم تكن « ايونيا » قط ، أو بالحري الفكرة السماوية ، مستحقة العبادة كما كانت في تلك الايام التي أباحت ، كامرأة ، عرضها للأبطال والرعاة .

تخيل الشعراء ألوهيتها حين وصفوها بالهدوء والسموّ والفتك ، وعندما وجهوا الدعاء لهـا ، قائلين انها : « روح صافية صفاء البحار »

كذا دفعت الشفقة « ايونيا » الى الشر والعذاب . ماتت ولا يزال الجنس الأرجوسي ينتجع قبرها . كان عليها أن تعرف الموت بعد الزنا ، وأن تذوق الثمار المرّة التي بذرت بذورها . لكن بتخلصها من جسد هيلانة المنحلّ تجسمت في شكل امرة أخرى

وانقادت ثانية الى كل فاحشة . وهكذا بانتقالها من جسد الى جسد، واجتيازها مراحل الشرّ بيننا ، تحمل أوزار الدنيا . ولن تذهب تضحيتها أدراج الرياح ، فلاتصالها بنا برابطة اللحم والدم ، ومحبتها لنا ومشاركتنا في ذرف الدموع — ستحصل على نجاتنا ونجاتها معًا، وسترفعنا ، معلقين بصدرها الأبيض الناصع ، الى سلام الفردوس المردود .

هيرمودور

هذه الأسطورة ليست مجهولة مني . فاني اذكر ما قيل عن هيلانة الشائقة انها عاشت في احدى تقمصاتها مع « سيمون » الساحر في أيام الامبراطور « تيبروس » . على انني أظن ان سقوطها كان على رغمها ، وان الملائكة طوّحوا بها معهم

زينوبيس

كذا يظن الذين لم يقفوا على حقائق الامور يا هيرمودور ، فعندهم ان « ايونيا » الحزينة سقطت مضطرة غير مختارة . لكن اذا كان الأمر كما يزعمون فان « ايونيا » لن تكون السرية المكفّرة ، والنذر المغمور بكل مسبة ، والخبز المنقوع في خمر عارنا،

والقربان المحبب ، والضحية المثابة ، والمحرقة التي يتصاعد دخانها الى الله . . اذا لم تكن خطاياها برضاها فلا خير فيها ولا فضل لها

كاليكرات

لكن ، هل يعلم أحد يا زينوتميس ، بأي أرض ، وبأي اسم ، وفي أي شكل فتّان ، تعيش اليوم هذه « الهيلانة » التى تتجدد ولادتها على الدوام ؟

زينوتميس

لكيما يستطيع المرء أن يكشف عن هذا السر ، يجب أن يكون قد أوتى الحكمة . والحكمة ، يا كليكرات ، لم تؤتَ الشعراء الذين يعيشون في عالم كثيف من الاشكال والاشباح ، والذين يتلهون بالاصوات والصور الوهمية كالاطفال

كاليكرات

حذار أن تسيء الى الآلهة يا زينوتميس الزنديق ، فالشعراء أعزّة لديهم ، وقد سنت الشرائع الأولى نظاماً ، ومعجزات الأرباب قصائد ، والآذان السماوية تستطيب وقع الأناشيد ؟ ومن ذا الذي يجهل أن الشعراء مطلعون على الغيب فلا تخفى عليهم خافية ؟ واذ

كنت شاعراً وقد توجت باكليل من غار « أبولو » فسأطلعكم على آخر تجسد لأيونيا . ان هيلانة الأزلية على مقربة منكم . انها تنظر الينا ونحن ننظر اليها ... انظروا الى تلك المرأة المتكئة على مساند فراشها ، بالغةً حد الجمال ، غارقة في بحر الاحلام ، وقد اغرورقت عيناها بالدموع ، وتحركت شفتاها بالقبل .. انها هي !.. فتأنة كما كانت في عهد پريام وأيام آسيا الزاهرة . ان ايونيا اليوم تُدعى تاييس !...

فيلنا

ماذا تقول يا كليكرات ؟ أترى عزيزتنا تاييس قد عرفت پاريس ومنالاس واهل « مورة » المشهورين بجمال أربطة الساق الذين حاربوا حيال « اليون » ؟ وهل كان حصان طروادة عالياً ياتاييس ؟

أُربسنو بول

من يذكر الخيل ؟

فصاح شيراس :

— لقد شربت حتى ارتويت !

ثم هوى ساقطاً تحت المائدة ..

فرفع كاليكرات كأسه قائلاً :

— اذا شربنا شرب اليائسين ، متنا موتورين !

ونام كوتّا الشيخ ملقياً رأسه الأصلع على كتفيه العريضتين . ومرت فترة من الزمن ، ودوريون يبدو كأنه يموج في معطفه الفلسفي ، ثم اقترب من متّكإ تاييس وقال :

— أحبك يا تاييس ، وان كان حب المرأة لا يليق بي !

تاييس

ولماذا لم تحبني منذ هنيهة ؟

دوريون

لأني لم أكن ذقت طعاماً !

تاييس

أما أنا يا صاحبي المسكين ، وان كنت لم أشرب سوى الماء القراح ، فلا أحبك !

فاكتفى دوريون بما سمعه ، وانسل الى جانب دروسيه التي أومأت اليه بعينها لتستأثر به دون صاحبتها . فاحتل زينوتميس المكان الخالي وقبل تاييس في ثغرها

تاييس

كنت أحسبك أعفّ من أن تأتي بمثل هذا . . .

زينوتميس

انني كامل ، والكاملون لا يقيدهم قانون !

تاييس

أفلاَ تخشى أن تتدنس اذا ألقيت بنفسك في حضن امرأة ؟

زينوتميس

للجسد أن يستسلم للشهوات ، وتبقى النفس طاهرة غير شاعرة !

تاييس

بعداً لك ! اني أريد أن أحب بالجسد والنفس معاً . كل هؤلاء الفلاسفة تيوس !

. . . .

٭٭٭

انطفأت المصابيح واحداً إثر واحد . ونفذت أشعة الفجر الشاحبة من خلال السجوف فأضاءت وجوه المدعوين القاتمة وعيونهم المنتفخة . وكان اريستوبول ، الذي سقط بجانب شيراس ، مطبق اليدين يرسل في حلمه سواسه الى الغربان !.. وقد ضم زينوتميس في حضنه فيلنا المنهوكة القوى . وصبَّ دوريون فوق حلقوم دروسيه العاري قطرات خمر ترقرقت كاليواقيتْ وتدحرجت على صدرها الابيض ، الرجراج من فرط الضحك ، وقد تعقّب الفيلسوف تلك القطرات بشفتيه يشربها من فوق لحم الصدر الغض ..

نهض يوكريت ووضع يده على كتف نسياس واجتذبه الى أقصى القاعة ، وقال له مبتسماً :

— اذا كان لا يزال في طاقتك يا صديقي أن تفكّر ، ففيم تفكّر ؟

— افكر في أن عشق النساء هو حدائق أدونيس !

— ماذا تعني ؟

— أوَ لَمْ يجر في علمك يا يوكريت ان النساء في كل عام يشيدن حدائق صغيرة في شرفات منازلهن ، فيغرسن نخيلاً في أصص تكريماً

لعاشق الزُّهرة ؟ فهذه النخيل تنضر وتخضرّ قليلاً ثم تذوي وتذبل ...

— وأي قيمة لهذا يا نسياس ؟ فمن الحماقة أن يتعلق المرء بظل لا شك زائل .

— اذا كان الجمال ليس سوى ظل ، فليس الاشتهاء الاّ وميض برق . ويا ليت شعري أية حماقة في اشتهاء الجمال ؟ من رأيي أن ما يزول ينبغي أن يصحب ما لا يدوم ، وان الوميض الحائل يبتلع الظل الزائل ..

— انك تبدو لي يا نسياس طفلاً لاعباً بالأُكر ! ألاَ فتحرر تكن رجلاً !

— كيف يمكن انساناً أن يتحرر يا يوكريت وله جسد ؟

— سترى حالاً يا ولدي ، وتقول : « لقد كان يوكريت حراً »

وكان الشيخ يستند اثناء كلامه الى عمود من رخام سُمّاقي ، وقد أضاء جبينه بأشعة الفجر الاولى . فاقترب هيرمودور وماركوس ووقفا بجانب نسياس وأخذ الأربعة يتحدثون في الالهيات غير مكترثين لضحك السكارى وصياحهم . فأعرب يوكريت عن حكمة ، وأبان عن فصاحة ، جعلت ماركوس يقول له :

— انك خليق بأن تعرف الله الحق .

فأجاب يوكريت :

— ان الله الحق في قلب كل حكيم .

ثم تكلموا في الموت

قال يوكريت :

— اريد أن يجدني الموت مشغولاً بتقويم اعوجاجي وتأدية واجباتي . فارفع يديّ الطاهرتين امامه نحو السماء، وأقول للآلهة : « أيتها الآلهة ، لم أدنس قط صورك التي وضعتها في هيكل روحي. هناك علقت أفكاري كالأكاليل والتيجان . لقد عشت ممثلاً لذاتك العلية ، وقد عشت حتى اكتفيت »

قال هذا ورفع ذراعيه الى السماء فأضاء وجهه بنور ساطع .

ولبث هنيهة مفكراً ، ثم عاد يقول مسروراً :

— انتزع ذاتك من الحياة يا يوكريت ، كما تسقط الزيتونة الناضجة من الشجرة التي حملتها ، فتحمدها ، وتحمد الارض التي غذتها.

ثم أخرج من ثنيات ثوبه خنجراً مسلولاً وأغمده في صدره . .

ولما أمسك سامعوه بيده ، كان النصل قد اخترق صدر الرجل الحكيم . فحمل هيرمودور ونسياس الجسد المصفر المخضب بالدماء

الى مضجع بين ولولة النساء المذعورات ، وتأفف الأضياف المنزعجين من رقادهم ، وتأوهات الشهوات المكتمة التي ركدت ريحها وخبت نارها . أما الشيخ كوتا فقد استيقظ من نومه الخفيف العسكري ودنا من الجثة ، يفحص الجرح ويصيح :

— عليّ بطبيبي اريستيه !

فهز نسياس رأسه وقال :

— لقد قضى يوكريت . انه اشتهى الموت كما يشتهي غيره الحب . وقد أذعن ، مثلنا جميعاً ، لأمنية مبهمة . وها هو الآن مثل الآلهة الذين لا يتمنون شيئاً . . .

فقرع كوتا جبهته وقال :

— الموت ! يشتهي الموت وهو لا يزال قادراً على خدمة الدولة ؟ يا للخَبال !

وكان بافنوس وتاييس قد لبثا جالسين جنباً الى جنب بغير حراك ، وقد فاضت نفساهما بالاشمئزاز والرعب والأمل . .

ثم أمسك الراهب فجأة بيد الممثلة ، وتخطى معها السكارى المصروعين على مقربة من المتعانقين والمتضاجعين ، واجتذبها مجتازاً بها الشراب المسكوب والدم المسفوك . . .



الصباح

(وقد أشرق نوره بلون الورد على المدينة)

البردى

— عَودٌ على بدء —

طلع الصبح بلون الورد على المدينة . وامتدت صفوف الأعمدة الطويلة على جانبي الطريق المقفر . وقد أشرفت عليه من بعيد قبة قبر الاسكندر المتلألئة . وكان على جانبي الطريق اكاليل زهر سقطت أوراقها ، ومشاعل انطفأ نورها ، مبعثرة هنا وهناك . وكان الهواء مرطباً بنسمات البحر العليلة . فمزّق بافنوس ثوبه الفاخر مشمئزاً ، وداس عروضه بقدميه ، وصاح قائلاً :

— ها قد سمعتهم يا تاييس ! فقد نفثوا صنوف الحماقات والخبائث . وقذفوا بفاطر السموات والأرض من أعلى سمائه الى أسفل درك الجحيم حيث الشياطين . وأنكروا بوقاحة وجود الخير والشرّ ، وجدّفوا على السيد المسيح وكفروا به ، وأثنوا على يهوذا . أما أشدهم طغياناً وفجراً فهو ذنب الظلام ، والحيوان النجس ، الأريوسي النتن المحشو بالفساد والهلاك ، فقد فتح فاه كما تنبش القبور ... أي تاييس ! لقد رأيت تلك القوقعات النجسة تزحف اليكِ وتدنسك بعرقها اللزج ، وأبصرت أولئك الوحوش نائمين تحت

أقدام العبيد ؛ وشاهدت أولئك البهائم متضاجعين فوق الطنافس المدنسة بقيئهم ؛ لقد رأيت ذلك الشيخ المجنون يهرق دماً أنجس من الخمر المسكوبة في مجلس دعارتهم ، ويلقي بنفسه بعد الفراغ من التهتك والخلاعة في وجه المسيح غير المنتظره ! .. الحمد لله ! .. لقد رأيت الخطيئة وعرفت أنها مرذولة وساءت سبيلاً . تاييس ! تاييس ! تاييس ! إذكري جهالة أولئك الفلاسفة ، وقولي ، هل ترغبين في الهذيان مثلهم ؟ إذكري النظرات والحركات والقهقهات التي عاينتها من رفيقتيهم الخليقتين بهم — تانك العاهرتان الخليعتان القردتان ، وقولي ، أتودين أن تكوني مثلهما ؟

أما تاييس التي أحفظت قلبها مكاره تلك الليلة ، وشعرت بتفاهة الرجال وبهيميتهم ، وخباثة النساء ، وثقل وطأة الأيام .. فانها قالت متنهدة :

— نفسي متعبة حتى الموت يا أبي ، فأين الراحة ؟ أحس بجبيني ملتهباً ، ورأسي خاوياً ، وذراعيّ مرتخيتين حتى لا أملك من القوة ما يكفي لإمساك السعادة لو انها وُضعت في راحتيّ

فنظر اليها بافنوس بحنو وقال

— تشجعي يا أختاه ! . فقد اقتربت الساعة التي ترتاحين اليها ، أنت التي ستصير بيضاء نقية مثل هذه الأبخرة التي ترينها صاعدة من الحدائق والبحيرات

* * *

اقتربا من بيت تاييس . وشاهدا فوق الجدران رؤوس أشجار الجميز والجلنار ، المحيطة بكهف العذارى ، تهتز تحت طلّ نسمات الصباح . . وكانت أمامهما رحبة خالية محاطة بالعُمُد والتماثيل المنذورة ، وفي أطرافها مقاعد مستديرة من الرخام عليها أنصاب مختلفة الأشكال . فسقطت تاييس على أحد هـذه المقاعد ، ثم رشقت الراهب بنظرة تلهف ، وتساءلت :

— ماذا ينبغي أن أعمل ؟

فأجاب الراهب :

— ينبغي أن تتبعي ذاك الذي أتى للبحث عنك . انه سيفصلك عن هـذه الحياة كما يفصل القاطف عنقود العنب الذي يتعفن في الكرم ويأخذه الى معصرة الخمر ليحوله إلى صهباء طيبة النكهة معطرة . اسمعي ! ان على مسيرة اثنتي عشرة ساعة من الاسكندرية ، الى الجهة الغربية ، بقرب البحر ، ديراً للراهبات تعاليمه آيات حكمة بينات جديرة بأن تكتب شعراً غنائياً وتوقع على ألحان الدف والطنبور . . . والحق ان النساء اللواتي فيه باتباعهن تلك التعاليم ، واقدامهن على الأرض ، أصبحت جباههن في السماء ! وهن يحيين في هذا العالم حياة الملائكة . يردن أن يكنّ فقيرات ليحبهن يسوع ،

خفرات كي ينظر اليهنَّ ، قانتات ليتزوجهنَّ .. يزورهن يومياً في ثوب بستاني حافي القـدمين ، ويداه الجميلتان مفتوحتان مثلما أظهر نفسه لمريم في طريق الضريح . وعلى ذلك ، سآخذك اليوم الى هذا الدير يا تاييس ، ولا تلبثين بعـد انضمامك الى أولاء الراهبات القديسات أن تشتركي في سمرهنَّ السماوي . انهن ينتظرنك كأُخت لهن ، وعند عتبة الدير أمهن « ألبين » التقية تمنحك قبلة السـلام ، وتقول لك : « أهلاً وسهلاً بك يا ابنتي ! »

فصاحت الغانية صيحة الدهشة وقالت :

— البين ! إبنة القياصرة ! ابنة أخت الامبراطور كارّو !

— هي بعينها ! ألبين الشريفة المحتد قد ارتدت بعد الأرجوان الروماني أطماراً بالية وسمت بنت سادة الدنيا الى منزلة خادم يسوع المسيح . ستكون أمك

فنهضت تاييس وقالت :

— خذني الى بيت ألبين

فقال بافنوس متمماً نصره المبين :

— سأسير بك حتماً إليه . وسأقفل عليك في صومعـة حيث تبكين على آثامك وما قدمت يداك . إذ ليس من الرأي الصواب

أن تختلطي ببنات ألبين قبلما تغتسلي من جميع خطاياك . وسأضع على الباب ختماً ، وستمكثين سجينة سعيدة حتى يأتي يسوع بنفسه ويكسر الخاتم علامة الغفران . بالله لا يداخلك ريب يا تاييس في مجيئه ، فسيأتي ، ويا للرعشة التي سوف تسري في جسمك حين تشعرين بأصابع نوره فوق عينيك ترقأ دموعك !

فقالت تاييس ثانيةً :

— خذني يا أبي الى بيت ألبين

امتلأ قلب بافنوس فرحاً . فنظر حوله وذاق — غالباً بغير خوف — لذة التأمل في المخلوقات ، ونهلت عيناه من نور الله بابتهاج ، ومرت فوق جبينه نسمات مجهولة . . ثم أبصر فجأة في إحدى زوايا الميدان الباب الصغير المؤدي الى بيت تاييس ، وتذكر ان تلك الأشجار البديعة التي كان يعجب بأعاليها قد ظللت حدائق العاهرة ، ورأى بعين الفكر الأرجاس التي لوثت الهواء الذي كان في ذلك اليوم منعشاً ونقياً ، فأمضه ذلك وأشجاه ، وعال من صبره وشجاه ، فأجهش بالبكاء وقال :

— سنولي الأدبار يا تاييس لا نلوي على شيء . لكن لن نترك وراءنا الادوات ، الشهود ، الشركاء في جرائمك الماضية . تلك السجوف والأسرة والبسط وقوارير الطيب والمصابيح

التي تعان عن فجورك . أتريدين متاع الجريمة هذا المسكون بالشياطين والذي يحمله الروح اللعين المستقرُّ فيه — أن يتبعك أيضاً الى البادية ؟ . . والحق الذي لا ريب فيه ان موائد العار ومقاعد الشنار تستخدم كاعوان للشياطين فهي تعمل وتتكلم وتخبط في الارض وتخترق الجوّ ! فليكن العدم والفناء نصيب شهود عارك ! الآن فامرعي يا تاييس ومري ، والمدينة هاجعة ، عبيدَك أن يقيموا في وسط هذا الميدان كومة من الخشب تحرق فوقها الثروة المدنسة التي يحتوي عليها مسكنك

فارتضت تاييس ذلك ، وقالت :

— افعل يا أبي ما تريد . لست أجهل أن المتاع اللا روح فيه يصلح مساكن للارواح ! . . في الليل ، يتكلم بعض الاثاث سواء بضربات يحدثها في فترات معينة ، أو باظهار أضواء ضئيلة كاشارات ، ولكن هذا كله ليس بذي بال ، فثمة ما هو أدهى وأمر . أفلم تلحظ يا أبي إلى يمين مدخل « كهف العذارى » تمثال امرأة عارية كأنها تتأهب للاستحمام ؟ رأيت بعيني رأسي هذا التمثال وقد التفتَ ذات يوم كأنه إنسان حي ، ثم استعاد مظهره العادي ، فتثلجت أطرافي رعباً ، وضحك مني نسياس لما أخبرته بهذه الأعجوبة . فلا بد وأن يكون في هذا التمثال بعض السحر ، فقد حدث انه نفث . مآرب مضنيه في رجل دلماسي كان كافراً بجمالي . حقاً لقد كنت

في وسط أشياء ساحرة وكنت معرضة لأشد الأخطار برؤية الرجال وقد خنقهم عناق تمثال البرنز هذا!! ومع ذلك فمن دواعي الاسف أن تعدم النفائس المصنوعة بمهارة نادرة، واذا جعلت بسطي وسجوفي طعمة للنيران كانت الخسارة لا تعوض. وان جمال لون بعضها لباهر حقيقةً، وقد أنفق عليها الذين وهبونيها أموالاً لا يستهان بها. كذلك أملك أقداحاً وتماثيل وصوراً ثمينة، ولا أظن أن اتلافها ضروري، لكنك يا أبي تعلم ما يجب عمله، فاعمل ما تريد.

ثم تبعت الراهب الى الباب الصغير حيث عُلِّقَت اكاليل الزهر والتيجان الكثيرة، ولما فُتح أمرت البواب أن يدعو عبيد البيت جميعاً. فظهر أولاً أربعة هنود طهاة، وكانوا عوراً صفر البشرة، وقد كابدت تاييس مشقة عظيمة ووجدت لذة كبيرة في جمعهم من جنس واحد، ومصابين بعاهة واحدة. وكانوا عند ما يخدمون على المائدة يثيرون فضول المدعوين فتأمرهم تاييس بقص تاريخ حياتهم. اقترب هؤلاء وظلوا صامتين. ثم تبعهم مساعدوهم. ثم أقبل السوَّاس والصائدون وحملة المحفَّة والسعاة الذين لا يضنيهم التعب، و بستانيان غزيرا الشعر، وستة زنوج ذوو هيئة وحشية، وثلاثة مماليك يونانيين أحدهم نحوي والثاني شاعر والثالث مغنٍّ. اصطفوا جميعاً بانتظام في الرحبة. وأقبلت الزنجيات الفضوليَّات، منزعجات، يدرن عيونهن الكبيرة، واشداقهن منشقة حتى أقراطهن. ثم ظهر ست جوار بيض

جميلات ، عابسات ، متنقبات ، يجررن ببطء أقدامهن المكبلة بسلاسل ذهبية دقيقة

ولما تكامل عددهم ، قالت تاييس لهم ، وهي تشير الى بافنوس :

— افعلوا ما يأمركم به هذا الرجل ، فقد حلّت به روح الرب ، فاذا خالفتموه أدرككم الموت

ذلك انها كانت قد سمعت ان لاولياء الصحراء من البأس ما يغرق الخاطئين الذين يضربونهم بعصيّهم في جوف الأرض المنشقّ الملتهب . . فآمنت بما سمعت !

صرف بافنوس النساء ، والمماليك اليونانيين الذين كانوا كالنساء ، وقال للباقين :

— ايتوا بخشب في وسط الرحبة ، وأوقدوا ناراً ، والقوا فيها ما دار عليه البيت والكهف .

فوقفوا بلا حراك مشدوهين ، وسألوا مولاتهم بأعينهم ، فلما رأوها لا تأتي بحركة ، ولا تنبس ببنت شفة ، تزاحموا بالمناكب ، وقد داخلتهم الشكوك فيما يراد بذلك ، وحسبوه دعابة . .

قال الراهب :

— أطيعوا !

كان منهم مسيحيون عديدون فقهوا ما طلب اليهم ، وراحوا يبحثون في البيت عن خشب ومشاعل ، وتبعهم الباقون بغير استياء

لأنهم لفقرهم يبغضون الثراء ، وفي غريزتهم حب التدمير . وبينما كانوا يكدسون الخشب ، قال بافنوس مخاطباً تاييس :

— قد خطر لي أن أستدعي خازن إحدى كنائس الاسكندرية (اذا كان فيها ما يصح أن يسمى كنيسة ولم يدنسه الأريوسيون الوحوش) لأعطيه متاعك أيتها المرأة ليوزعه على الأرامل والمساكين ، وبذلك يستحيل ربح الجريمة الى كنز العدالة . لكن هذا الخاطر لم يأتِ من عند الله ، لذلك نبذته نبذ النواة . فلا شك ان اعطاء أسلاب الترف والرفاهيــة الى أحباء المسيح يكون إساءة بالغة .

أي تاييس !

ان كل ما لمسته يداك يجب أن يذهب طعمة للنيران حتى يصير هشيماً تذروه الرياح . حمداً لك يا سماء ، فان هذه الشفوف وهذه النُقُب التي تلقت من القُبل ما لا عدد له ، كأمواج البحر الزاخر ، لن تحسّ الآن الأ شفاه اللهيب وألسنته ! عجلوا أيها الأرقاء ! هاتوا أيضاً خشباً ومشاعل ! وأنت يا امرأة ، ادخلي البيت وانزعي حلتكِ الفاضحة ، والتمسي من أحقر جواريك أن تمنَّ عليك بأرثِّ قميص لها تلبسه وهي تمسح البلاط . .

فأطاعت تاييس .

وبينما كان الهنود راكعين ينفخون في الجذوة المتقدة ، قذف الزنوج على النار صناديق العاج والأبنوس والأرز وهي مفتوحة فسقطت منها التيجان وأكاليل الزهر والقلائد . وارتفع عمود أسود من الدخان مثلما في محرقات الشرائع القديمة . ثم ان النار التي خصرت في صعيد واحد ، اندلعت فجأةً وزأرت كحيوان مفترس ، وأخذ لهيبها الذي يكاد لا يرى من شدة تكاثف الدخان ، يلتهم وقودها الثمين . فازدادت حمية العبيد في عملهم ، ونشطوا لجرّ البسط الغالية ، والبراقع المطرزة بالفضة ، والديباج المزخرف . وقد أثقل كواهلهم حمل المناضد والأرائك والوسائد السميكة والأسرة ذات العُمُد الذهبية . وجرى ثلاثة أحباش أقوياء حاملين في أحضانهم تماثيل الكهف الملوّنة التي كان أحدها محبوباً كأنه من الأحياء . فما كان أشبههم بقردة كبيرة تسير حاملة نساء ! ولما سقطت هذه الدمى الجميلة المتجردة من أذرع حامليها وتكسرت فوق الأحجار ، سُمع لها صدى زفير وتنهد يتردد . . .

***

وحينئذٍ ظهرت تاييس ، وشعرها مرسل على كتفيها ، حافية ، ترتدي قميصاً خشناً لا هندام له ، ولعله صار بلمسه بدنها مشرباً بنعمة الله . . .

وجاء وراءها بستاني يحمل تمثال « إيروس » [1] صغير الحجم ، مصنوعاً من العاج ، مخبوءاً في لحيته المتدلية . فأشارت تاييس إلى الرجل بالوقوف ، واقتربت من بافنوس وأرته التمثال الصغير ، وسألته :

— أمحتم يا أبي القاء هذا أيضاً في النار ؟ انه من الآثار القديمة العجيبة ، وهو يساوي مائة مرة وزنه ذهباً ، ولن يعوض فقده . لأنه لن يوجد في العالم فنّان قادر على صنع مثله . ولا تنس يا أبتِ ان هذا الطفل الصغير هو رمز « **الحب** » . ومن الواجب أن لا يعامل بقسوة . صدقني يا أبتِ ان الحب فضيلة ، واذا كنت أنا قد أذنبتُ ، فليس منه ، وإنما إليـه . لن أندم أبداً على ما جعلني الحب أعمله ، واني لآسفة جد الأسف على ما اقترفته برغم منه . أما تراه وهو يأبى على النساء أن يهبن أنفسهن للذين لا يتقدمون باسمه ، انه خليقٌ بكل إجلال وإكبار ؟ انظر يا بافنوس الى هذا « الأيروس » الصغير ما أبدعه ! لقد لجأ برقة وخفَر الى لحيـة البستاني مختبئاً . أهداه إليَّ نسياس يوماً ، وهو يحبني ، قائلاً : « سوف يحدثك عني » . لكن إله الحب الماكر حدثني عن شاب كنت قد عرفتـه في انطاكية ، ولم يذكر لي نسياس . ترى . . .

---

(١) Eros هو اسم يوناني لاله الحب عند الاغريق — (المترجم)

أوَ لم يكفِ يا أبي ما هلك في هذه المحرقة ؟.. ابق على هذا « الأيروس » ، وضعه في معبد ، فيتوجه الذين يرونه الى الله بقلوبهم ، لأن « **الحب** » طبعًا يعرف كيف يسمو بتلك القلوب الى الافكار العلوية ...

وكان البستاني ، وقد جرى في ظنه ان الأيروس نجا ، يبسم له كأنه الطفل الرضيع ، فاختطفه بافدوس من الذراعين اللتين تحملانه ، ورمى به الى اللهب صارخًا :

— يكفي أن يكون نسياس قد لمسه ، ليفيض بكل أنواع السموم !

ثم أمسك بملء راحتيه الثياب المتألقة ، والأردية الأرجوانية ، والنعال الذهبية ، والأمشاط ، ومحكات الجلد ، والمرايا ، والمصابيح ، والطنابير ، والقيثارات ، ورمى بها في الأتون الذي كان أبهى من محرقة « سردانا پال » . في حين سكر العبيد بنشوة التدمير ، فرقصوا وهللوا تهليلاً وحشياً تحت وابل من الشرر والرماد

***

استيقظ الجيران على هذه الجلبة واحداً بعد واحد ، ففتحوا نوافذهم ، وفركوا عيونهم ليتبينوا مصدر الدخان ، وخرجوا مرتدين بعض الثياب ، واقتربوا من مكان المحرقة متسائلين :

— ما الخبر ؟

وكان بينهم التجار الذين اعتادت تاييس ان تشتري منهم العطور والملابس ، فانزعجوا وأتلعوا أعناقهم محاولين ادراك كنه الأمر

ومرَّ بالمكان بعض الشبان الفاسقين الذين كانوا منصرفين من وليمة ، يتقدمهم عبيدهم ، فوقفوا ورؤوسهم متوجة بالزهر ، وأرديتهم محلولة العرى ، وصاحوا صياحاً عالياً

وأخذ هذا الجمهور الفضولي يزداد بغير انقطاع . وعُرف أن تاييس أغراها كاهن أنصينا بحرق متاعها قبلما تعتزل في أحد الأديرة .

ففكّر التجار في أمرهم ، قائلين لأنفسهم :

— تاييس تاركةً المدينة تنعي من بناها ، فلن نبيعها بعد شيئاً ، فما أفظع التأمّل في هذا ! يا ويلنا ، ماذا يكون مصيرنا إذا زايلتنا ؟ ان هذا الراهب أفقدها رشدها . إنه يمحقنا . لماذا تُرِكَ حبله على غاربه ليأتي بمثل هذا ؟ وما نفع الشرائع والقوانين ؟ أفلم يبق في الاسكندرية قضاة ؟ ان تاييس لا تفكر فينا أو في زوجاتنا وأطفالنا المساكين . ان مسلكها فضيحة عامة . ينبغي أن تُكره على البقاء في المدينة إكراهاً ...

٭٭٭

وفكّر الشبان من جهتهم :

— إذا كانت تاييس تكفّ عن التمثيل وتطلّق الحب ، فان أعزّ الملاهي ينفضّ ويقفر . انها كانت بهجة المسرح ، ومجده الطارف ، وعزّه التليد . انها كانت متعة ومسرة حتى للذين لم يحظوا بها . فيها أحب المرء من أحبّ من النساء . وما من قبلة واحدة ، تبودلت مع امرأة ، لم يكن لتاييس فيها أثر . . . لأنها كانت لذة اللذات ، ومجرد الشعور بأنها تتنفس بيننا ، يبعث فينا اللذة ! . .

كذلك فكّر الشبان ، ومنهم فتى يدعى « شيرون » كان قد حظى بها يوماً ، فأخذ يصرخ ناعياً هذا السلب والنهب ، ساباً المسيح المغتصِب .

وجميعهم ذمّوا تصرّف تاييس وعابوه :

— إنه فرار مخزٍ !

— إنه رحيل بجبانة !

— إنها آخذة الخبز من أفواهنا !

— إنها ذاهبة بصداق بناتنا !

— عليها ، على الاقل ، أن تدفع ثمن التيجان التي بعتها اياها !

— وثمن الستين حلةً التي أوصتني بصنعها !

— إنها مدينة لكل انسان !

— من التي تمثّل بعدها أدوار « افيجينيا » و « الكترا » و « پوليكسنا » ؟ ان « پوليب » الجميلة لن تبلغ شأوها !

— ستكتئب الحياة إذا أُغلق باب تاييس

— كانت الكوكب المتألق الساطع ، كانت في سماء الاسكندرية البدر المنير الطالع !

***

وفي تلك الفترة من الزمن ، اجتمع في الساحة أشهر السؤّال والمستعطين ، من العميان والمقعدين والمشلولين ، وزحفوا في ظل الأغنياء متأوهين :

— كيف نعيش لما لا تكون تاييس هنا لتطعمنا ؟ ان فتات مائدتها كان يُشبع كل يوم مائتين من المساكين ، واعتاد عشاقها عندما يغادرونها ، وقد طابت نفوسهم ، أن يرمونا بملء أيديهم فضّة ...



رقص تاييس

(في رواية « الكترا » لسوفوكليس)

واندس أيضاً وسط الزحام بعض اللصوص وأخذوا يصرخون صراخاً يصم الآذان ، وزاحموا القريبين منهم ليزيدوا اختلال النظام ، ويغنموا الفرصة لنشل ما خفّ حمله وغلا ثمنه !

أما الشيخ « تادّيه » ، بائع الصوف والكتان ، الذي كانت تاييس مدينة له بمبلغ كبير من المال ، فقد لبث وحده ساكناً في وسط الضجيج . أصاخ بأذنه ، ودار بنظره ، وداعب لحية التيس لحيته ، ولاحت عليه سيمياء التفكير . وأخيراً ، اقترب من الشاب « شيرون » وشدّه من كمه ، وقال له بصوت خافت :

— أنت ، يا أيها المولى الجميل ، ذا الحظوة عند تاييس ، تدخّل ولا تدع هذا الراهب يذهب بها !

فصاح شيرون :

— قسماً ببولكس وكاستر ، لن أدعه يفعل ذلك ! سأخاطب تاييس وأحسبها ، ولا فخر ، ستصيخ إليّ اكثر مما الى هذا الملوّث بالرغام ! — افسحوا الطريق ! طريقاً يا رعاع !

وبعد ان أمعن في الرجال ضرباً بمجمع يده ، صارعاً العجائز ، وواطئاً بقدميه الأطفال ، وصل الى تاييس ، وأخذها جانباً قائلاً لها :

— يا بنيتي الحسناء ! انظري إليّ واذكري نفسك ، واخبريني أصحيح أنك زهدتِ في الحب ؟

لـكن بافنوس حال بينهما صائحًا :

— أيها الفاجر ! إخش روعة الموت ان أنت لمستها ! انهـا مقدسة ! انها مِلكُ لله ! . .

فأجابه الفتى ساخطاً :

— سحقًا لك يا أيهـا النسناس ! دعني وحبيبتي أخاطبها ، والاّ جررتك بلحيتك الى النار حيث أشوي هيكلك القبيح شيّاً !

ومدّ يده نحو تاييس ، لكن الراهب دفعـه بعيداً ، بقوّة غير منظورة ، فترنح الفتى وسقط على بعد أربع خطوات من موضع المحرقة ، وسط الشعل المنهالة .

وكان الشيخ تادّيه يذهب أثنـاء ذلك من رجل الى آخر ، شادّاً آذان العبيد ، مقبلاً أيدي السادة ، يحرضهم جميعاً على بافنوس ، ويغريهم به . وما لبث ان ألّف عصبة صغيرة سارت رأساً الى الراهب الخاطف

ونهض شيرون بوجه أسـود ، وشعر شائط ، وقد كاد يختنق من الدخان ، واندفع متميزاً من الغيظ ، مجدِّفاً بالآلهة ، وألقى بنفسه في وسط المهاجمين الذين كان السائلون يزحفون من خلفهم ،

ملوّحين بعكاكيزهم . فحصر بافنوس ، في الحال ، وسط دائرة من قبضات أيدٍ ممدودة ، وعصي مرفوعة ، وصيحات مروعة :

— الى الغربان ! القوا بالراهب الى الغربان !

— كلا ! اقذفوا به في النيران ! إشووه حياً !

فأمسك بقنيصته الجميـلة ، وضمها الى صدره ضمةً طويلة ، وصاح بصوت كالرعد القاصف :

— أيها الفجار ! لا تحاولوا أن تخطفوا الحمامة من نسر الرب ! أولى بكم ثم أولى أن تقتدوا بهذه المرأة وتتأسوا ، وأن تبدلوا مثلها بتربكم تبراً ! احتذوا مثالها ، وانبذوا المال الزائل الذي تظنون انكم تملكونه ، وهو الذي يملككم و يستعبدكم . عجلوا ! فقريباً ما توعدون وأوشك الصـبر الالهي أن ينفد . توبوا واعترفوا بذنوبكم ، وابكوا وصلوا واقتفوا أثر تاييس . إكرهوا خطاياكم التي لا تقـلّ عن خطاياها . ليت شعري من منكم غنياً كان أم فقيراً ، تاجراً أم جندياً ، عبداً رقيقاً أم عيناً وجيهاً — يجرؤ على أن يقول بين يدي الله أنه كان خيراً من بغيّ فاجرة ؟ ما أنتم الاّ ادران متجسمة ، وانها لآية من لطف الله بكم أن لا تتحولوا فجأة الى مجـارٍ طافحة بالوحول !

وكان ينبعث من حدقتيه ، وهو يتكلم ، شررٌ مستعر . وكأنما تساقط من شفتيه جمر متوهج ، فأصغى اليه الذين من حوله صاغرين .

لكن « تادّيه » الهرم لم يكف عن المقاومة ، بل كان يجمع الحجارة وأصداف المحار ويخفيها في طيات ثوبه ، ولم يجرؤ على أن يرميها بنفسه ، فدسها في أيدى السائلين . وما لبث الراهب ان انهالت عليه الحجارة ، وأصابت جبينه صدفة محارة أُحكم تسديدها ، وسال الدم الذى انحدر من وجه الشهيد الكئيب على رأس التائبة كتعميد جديد . وشعرت تاييس ، وقد ضغطها عناق الراهب وخدش ثوبه الخشن جلدها الغضّ ، بالرعب والجزع يسريان فيها .

واذ ذاك أقبل رجل أنيق اللباس ، متوج الجبين بالكرفس ، وشق لنفسه طريقاً وسط الجمهور المائج ، وصاح :

— قفوا ! كفّوا ! ان هذا الراهب أخي !

وكان الرجل نسياس . وقد مرَّ بالرحبة عائداً الى داره بعد أن أغمض عيني الفيلسوف يوكريت . ورأى بغير كبير دهشة (لأنه لم يدهشه شيء قط) المحرقة المدخّنة ، وتاييس مرتدية خرقة خشنة ، وبافنوس يُرجم . .

فكرّر قوله :

— قلت لكم قفوا ! أبقوا على رفيقي في المدرسة ! احترموا رأس بافنوس العزيز !

لكنه كان متعوداً مباحثات الحكماء العويصة ، يعوزه ذلك الحزم والتأثير الذي يسيطر على نفوس الجماهير ويملك مشاعرهم ، فأعاروه أذناً صماء . وسقط وابل من الحصى والمحار على الراهب الذي غطى تاييس بجسمه ،حامداً الله الذي أعاضته رأفته من جراحه تربيتاً . . .

فلما يئس نسياس من حملهم على الاستماع له ، والانقياد اليه ، وأيقن عجزه عن إنقاذ صديقه سواء بالقوة أو بالحجة ، وسلم أمره للآلهة — وكانت ثقته بهم ضعيفة — خطر له أن يجرب حيلة أرشده اليها فجأة احتقاره للبشر . فأخرج من منطقته كيس نقوده ، وكان ممتلئاً بالذهب والفضة ، لأن صاحبه من عشاق المسرات والمبرّات . ثم حاول أن يغري الذين كانوا يرمون الحجارة برنين النقود ، فلم يعيروه بداءة بدء التفاتاً ، اذ كان حنقهم عظيماً ، لكن أنظارهم ما عتمت ان اتجهت شيئاً فشيئاً الى الذهب الرنان ، ثم كفّت أذرعهم الواهنة عن إيذاء فريستهم

ولما رأى نسياس أنه جذب أبصارهم ، واجتذب نفوسهم ، فتح هميانه وبدأ يرمي في وسط الحشد قطع الذهب والفضة . فانحنى المتناهون في الشراهة لالتقاطها ، فابتهج الفيلسوف بنجاحه المبدئي ،

وجعل يرمي هنا وهناك الدراهم والدنانير، وعلا رنين القطع المعدنية فوق الرصيف ، فخرَّ الزاجمون الى الأرض متزاحمين ، وتسابق السائلون والعبيد والتجار . والتفَّ الاشراف حول شيرون ينظرون الى المشهد ويقهقهون ،فنسي شيرون غضبه ،وشجع أصحابه المتناضلين الراكعين ، واختاروا منهم سبَّاقين وتراهنوا عليهم . وكانوا يزيدون الشحناء بتحريضهم أولئك البائسين كأنهم كلاب متقاتلة . وفاز مقعد ، مقطوع الساقين ، بالاستيلاء على درهم فعلا له الهتاف الى عنان السماء . وبدأ الشبان أيضاً يرمون قطع النقود . ولم يبق ثمة شيء يُرى في الميدان سوى ظهور بشرية لا نهاية لها تعلو وتنخفض، كأمواج البحر الزاخر، تحت وابل مدرار من المعدن الرنان . . .

وغدا بافنوس نسياً منسياً

فجرى اليه نسياس ، وغطاه بمعطفه ، وجرَّه مع تاييس في الأزقة، الى حيث باتوا بمأمن من المطاردة . ركضوا حيناً صامتين ، الى ان رأوا انهم صاروا في أمان ، فتريثوا ، وقال نسياس بنغمة التهكم الممزوجة بشيء من الحزن :

— اذاً قُضي الأمر ! واغتصب « فلوطون » « بروزربين » (١)

(١) في الميتولوجيا ان فلوطون Pluton هو ملك الجحيم واله الموتى ، وابن زحل Saturne اله الزمان وسيبل Cybèle ربة الارض ،واخو جوبيتير Jupiter ونبتون Neptuneوزوج بروزربين Proserpine ربة الجحيم التي اختطفها ! — (المترجم)

وتريد تاييس أن تتبع صديقي الوحشي المنظر أينما يذهب بها !

فأجابت تاييس :

— حقًا يا نسياس ، لقد سئمت عشرة أمثالك البساتين ، المتعطرين ، الكيسين ، الأنانيين . وملت كل ما أعرفه ، لذلك أنا ذاهبة للبحث عن المجهول . ولقد علمت بالاختبار ان الفرح لم يكن فرحًا حقيقيًا ، وهذا رجل يرشدني الى أن الحزن هو الفرح الحقيقي . واني أومن بما يقول ، لأنه يعرف الحقيقة

فأجابها نسياس مبتسماً :

— وأنا يا حبيبتي ، أعرف الحقائق ! هو لا يعرف سوى واحدة ، وأنا قد أحطت علمًا بها جميعًا . أنا أغنى منه ، ولكنني في الحقيقة ، لا أفوقه في كبرياء النفس ، او سعادة الجد !

ولما رأى الراهب يرشقه بنظرات نارية ، قال :

— لا تحسبن يا عزيزي بافنوس اني أعدّك بالغًا غاية السخرية ، او نهاية الشطط . فلو قابلتُ حياتي بحياتك لما استطعت ان اقول ايهما اجدى وانفع . ها أنا الآن ذاهب لأغتسل في الحمام الذي اعدته لي كروبيل ومرتال ، وسآكل جناح درّاج ،

وسأعيد — للمرة المئة — تلاوة بعض القصص « لأبوليوس » او بعض مباحث « پورفيريوس » وانت ستعود الى صومعتك حيث تركع لجمل وديع ، مجتراً التسابيح والتعاويذ التي لا كها فمك مراراً وتكراراً ، فاذا جاء المساء ، تناولت الفجل بلا زيت . لكن لا بأس! ففي قيامنا ، يا صاحبي الحبيب ، بهذه الأعمال المختلفة في الظاهر كل الاختلاف — نخضع كلانا لعاطفة واحدة هي العامل الوحيد في جميع فعال البشر؛ كلانا يبحث عن لذاته ويسعى في نيل القصد المشترك — السعادة ، السعادة المستحيلة ! وهبني ارى نفسي مصيباً ، فلا يليق بي ان اتعرض لتخطئتك يا حبيبي !

اما انت يا تاييس ، فاذهبي وافرحي وكوني اسعد حظاً — اذا كان ذلك في الامكان — في زهد التعفف وطهارة الخشونة ، مما كنت في الغنى والمسرات . فمن كل وجهٍ اراك جديرة بأن تكوني محسودة من الجميع لأننا إذا كنا انا وبافنوس في حياتنا بكاملها ، قد قنعنا — امتثالاً لطبيعتنا — بضرب واحد من ضروب المعيشة الراضية ، فانك يا عزيزتي تاييس قد ذقت في حياتك هذه المسرات المختلفة التي قلما يتاح لشخص واحد ان يتمتع بها . وحقاً كم اتمنى ان اكون ساعة واحدة قديساً او ولياً مثل عزيزنا بافنوس ، غير ان هذا محظور عليّ . فالوداع اذاً يا تاييس ! اذهبي الى حيث تقودك

قوى طبيعتك ونصيبك وقسمتك الخفية ! اذهبي مصحوبة اينما تذهبين بخير تمنيات نسياس ! لست أجهل انها فارغة ، ولكن هل في استطاعتي أن أمنحك خيراً من تحسرات عقيمة وتمنيات باطلة جزاء التصورات السارّة الممتعة التي ظللتني في حضنك فيما مضى ، والتي بقي لي منها خيالها ؟ الوداع أيتها المحسنة إليّ ! الوداع ايتها الطّيبة التي تجهل نفسها ، أيتها الفضيلة الغامضة ، يا لذة الرجال ! وداعاً يا أحق صورة بالعبادة بين الصور الجميلة التي تنثرها الطبيعة دواماً ، لغاية مجهولة ، على وجه أرضنا الغرور !

وفي أثناء كلامه ، كان قلب بافنوس يغلي من الحنق ، فتفجر بهذه الشتائم :

— إخسأ يا لعين ! إنني أحتقرك وأمقتك ! ابتعد يا وليد جهنم الذي هو شرٌّ الف مرّة من أولئك الأشقياء الضالين الذين كانوا الآن يرمونني بالحجارة وهم يسبون ! انهم فعلوا ذلك عن جهل ، وغفران الله الذي رجوته لهم قد يهبط يوماً على أفئدتهم . . أما أنت يانسياس المرذول فلست سوى حُمَة غادرة وسم زعاف . انفاس فمك تنفث اليأس والموت . بسمةٌ واحدة من بسماتك تحوي تجديفات اكثر مما تقذفه شفتا ابليس الملوثتان في قرن من الزمان . . . تباً لك أيها الكنود . الى الوراء ! . . .

فنظر اليه نسياس بانعطاف ، وقال :

— الوداع يا أخي ، ليتك تصون الى نهاية أجلك كنوز إيمانك ومقتك وحبك ! . . الوداع يا تاييس ! عبثاً تنسينني وأنا على ذكراك جدّ حريص !

* * *

تركهما وسار مفكراً في الطرق المتعرجة بجوار مقبرة الاسكندرية الكبرى التي يسكنها صناع أواني الدفن الفخارية . وكانت حوانيتهم ملأى بتلك الدمى المزوّقة المصنوعة من الصلصال تمثل آلهة وآلهات ، وتماثيل صامتة ونسوة وجنيّات صغيرات مجنّحة جرت العادة بدفنها مع الموتى . فخطر لنسياس ان بعض الصور التي يراها قد تصحبه في نومه الأبدي . وخيّل اليه ان « أيروسا » صغيراً ، مشمّر الثوب ، يضحك ساخراً . فلما استحضر صورة جنازته التي صورها خياله قبل أوانها تألم ، فحاول تبديد حزنه بالفلسفة ، واقام هذا الدليل :

— حقّاً ان الزمان وهم لا حقيقة له . فما هو الاّ ضلالة من تصوّرنا. واذا لم يكن له وجود ، فكيف يستطيع ان يجلب الموت اليّ ؟ فهل معنى هذا اني أحيا الى الابد ؟ كلا — ولكنني استنتج من هذا أن موتي كائن ، وقد كان دائماً ، كما انه سيكون أبداً . لم أشعر به بعد ،

ولكنه موجود ، وينبغي ألاَّ أخشاه . ومن الحمق ان أخاف مجيء ما قد أتى . إنه موجود ، فكأنه آخر صفحة من كتاب أقرأهُ ، ولما أتمم قراءته .

شغله هذا التعليل في مسيره ، دون أن يبهجه ، وكان مكتئب النفس حين وصوله الى عتبة داره ، وسماعه ضحك جاريتيه كروبيل ومرتال الرنّان ، وكانتا تلهوان في انتظاره بلعب الكرة . . .

* * *

غادر بافنوس وتاييس المدينة من باب القمر ، وسارا على شاطىء البحر ، فقال الراهب :

— أيتها المرأة ! هــذا البحر الأزرق الكبير كله لا يستطيع غسل نجاستك . . .

ثم خاطبها بغضب واحتقار :

— يا أنجس من كلبة ، وأشد رجساً من خنزيرة ، لقد أبحت للفحشاء مع الوثنيين والكافرين جسداً خلقه الصمد ليكون محرابا... وإن أدناسك لعديدة حتى انك الآن ، وأنت تعرفين الحق ، لا تستطيعين أن تضمي شفتيك ، أو تجمعي يديك ، بغير ما يتولد في قلبك تقزز من نفسك . . .

تبعته ، خافضة له جناح الذل والطاعة ، في المسالك الوعرة تحت أشعة الشمس المحرقة ، فأضعف التعب ساقيها ، وأحرق الظمأ أنفاسها ، وألهب حلقها . أمّا بافنوس ، فبدلاً من أن يشعر بتلك الشفقة الكاذبة التي تلين قلوب الملحدين ، فقد فرح بالعذابات التكفيرية التي تنال هذا الجسد الآثم . . ولشدّة تأثير الحمية القدسية فيه ودّ لو مزّق ضرباً بالعصي هذا الجسم الذي احتفظ بجماله ، كبرهان ساطع على فجوره . ولما ذكر أن تاييس ضاجعت نسياس ، واستحضر تلك الصورة البشعة في مخيلته ، جرى دمه كله مرتداً الى قلبه ، وكاد صدره ينشق . فغصّ حنجرته باللعنات ، فحرّق الأرم ، ووثب منتصباً إزاءها ، شاحباً ، رهيباً ، وقد ملأته قوة الله ، ونظر اليها حتى اخترقت نظراته أعماق نفسها ، ثم بصق في وجهها . . .

فمسحت محيّاها بهدوء وانكسار ، دون أن تقف في سيرها ، فتبعها محلقاً فيها كأنما هي هاوية . ومشى مغتاظاً مفكراً في أن يثأر للمسيح حتى لا يثأر المسيح لنفسه ، واذا به يرى قطرةً من الدم سالت من قدم تاييس فوق الرمال . هنا أحسّ بطراءة أنفاس مجهولة تدخل قلبه المفتوح . . فتعالت التنهدات الوفيرة الى شفتيه . فبكى ، ثم جرى وخرّ أمامها ، ودعاها أخته ، وقبل قدميها الداميتين ، وتمتم مائة مرة :

— أختاه ! أختاه ! أماه ! يا أقدس قديسة !

ثم قدَّم هذا الدعاء :

— يا ملائكة السماء ! خذوا هذه قطرة الدم باعتناء ، وضعوها امام عرش الله ... ليت الرمل الذي بلله دم تاييس ينبت شقائق نعمان ليسترد الذين يرون هذا الزهر نقاوة القلب وطهارة الشعور ! أي تاييس أيتها القديسة البالغة غاية القداسة !

واذ كان يصلي ويتنبأ ، مرَّ به غلام على أتان ، فأمره بافنوس أن يترجل ، ثم اركب تاييس الأتان وامسك باللجام ، واستأنف مسيره ..

***

أمسيا عند قناة مظللة بأشجار أنيقة ، فربط الأتان بجذع نخلة ، وافترشا الأحجار ، وتقاسما رغيفاً أكلاه متبلاً بالملح والثغام ، وشربا براحتيهما ماء سائغاً ، وتحدثا في الأبديات .

قالت تاييس :

— ما شربت قط مثل هذا الماء النمير ، ولا استنشقت مثل هذا الهواء العليل ، واني لأحس بأن الله سبحانه وتعالى يسبح في النسمات التي تهب ...

فأجابها بافنوس :

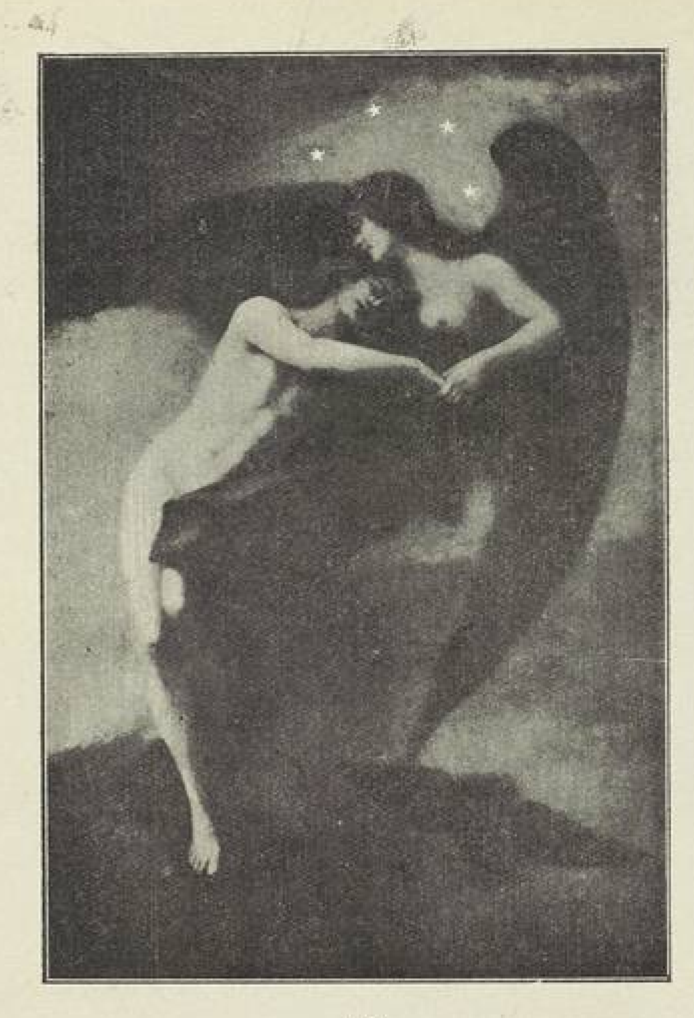
— انظري ! انه المساء يا أختاه ! هوذا ظلال الليل الزرقاء تغطي التلال .. لكنك لن تلبثي أن تري «مظلاّت الحياة» مشرقة في الفجر ، وتشاهدي إشراق ورد الصباح السرمدي !

سريا سواد الليل ، وأنشدا المزامير والتسابيح حينما كان نور الهلال يقبّل وجنات الأمواج الفضية . وعند ما أشرقت الشمس ، امتدت امامهما الصحراء الليبية كجلد أسـد واسع الأطراف . وفي آخر الرمال لاحت لأعينهما ، في ضوء الفجر ، خصاص بيض بقرب بعض النخيل . فسألت تاييس :

— هل هذه هي مظلاّت الحياة يا أبي ؟

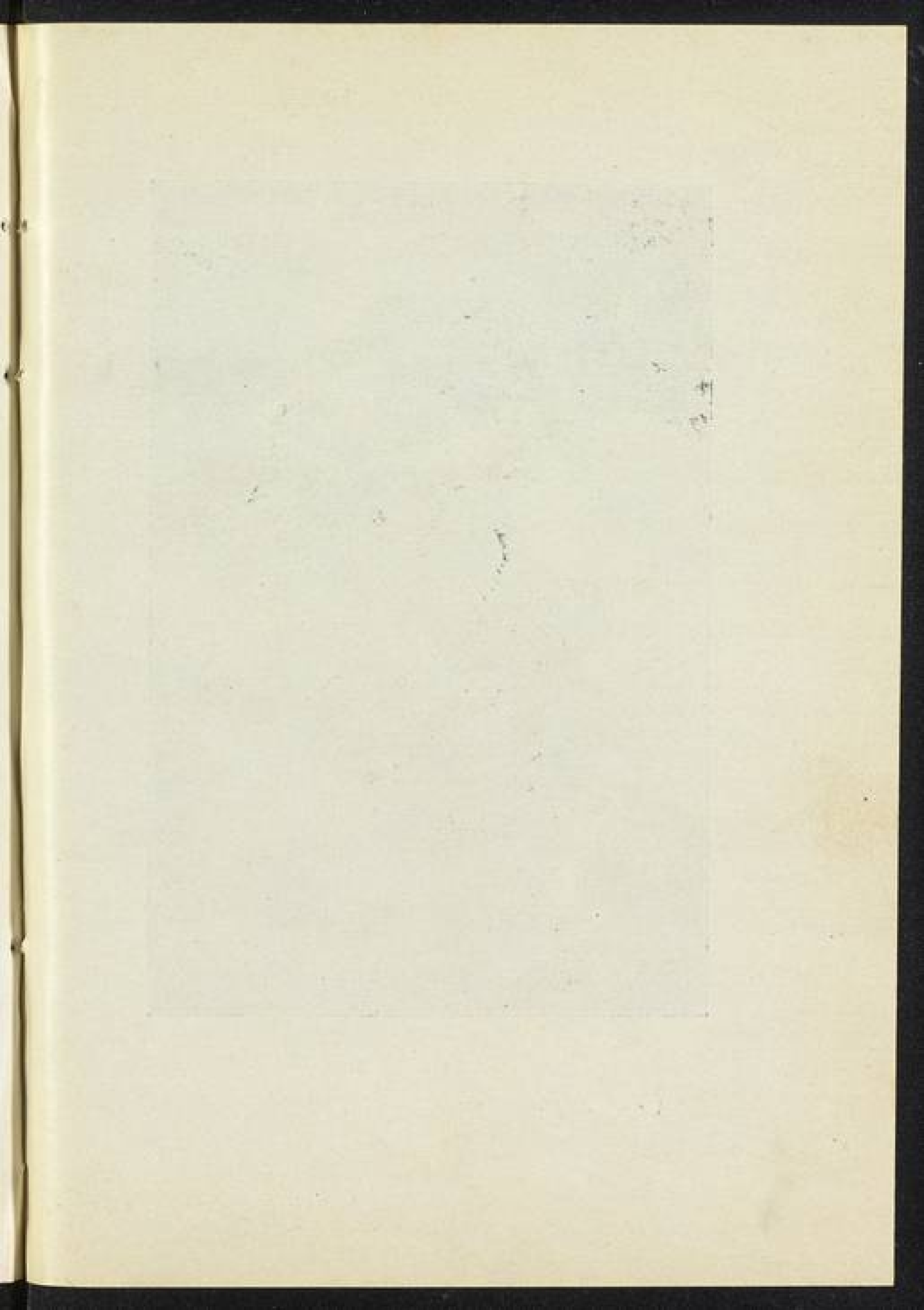
— لقد حزرت يا ابنتي واختي . هذا هو الملجأ الذي أضعك فيه يدي .

وما لبثا أن شاهدا نساء يَجُلْنَ من كل صوب حول مساكن التنسك ، كالنحل حول خلاياه . وكان بعضهن يخبزن ، والبعض يجهزن البقول ، والبعض يغزلن الصوف ، وعليهن نور السماء ينسكب كابتسامة من ثغر الله . . . واخريات كُنَّ جالساتٍ في ظل اشجار الإثل ، ومنصرفات للتأمل والتفكر ، وأيديهن البيض بجوانبهن ،



المساء

(عانق الليلُ النهارَ ، ونشر عليه جناحيه ، فكان المساء)



لأنهن اذ شغفن حباً ، اخترن نصيب المجدلية ، فلم يعملن شيئاً سوى الصلاة والتأمل . لذلك سمين « المريمات »، وكن يرتدين ثياباً بيضاء . أما اللواتي كن يشتغلن بأيديهن فقد أُطلق عليهن اسم « المرتيات » ، وكن يلبسن ملابس زرقاء . وكن جميعهن متقنّعات ، لكن اللواتي كن في نضارة الشباب أرسلن خصل الشعر تتدلى فوق الجبين ، ولعل ذلك كان ، كما يغلب على الظن ، عفواً بغير قصد ، لأن نظام الدير يحظره . . .

وكانت هناك عجوز بلغت من الكبر عتياً ، طويلة القامة ، بيضاء اللون ، تسير من خصّ الى آخر متكئة على عكازة من خشب متين . فاقترب منها بافنوس باحترام ، ولثم طرف خمارها ، وقال :

— سلام لله يا ألبين الموقرة ! لقد أتيت الى الخلية التي أنت ملكتها بنحلة وجدتها ضالة في طريق مجدب لا زهر فيه ، فأخذتها في راحتي ، وأدفأتها بأنفاسي . إني اعطيك إياها . . .

وأشار بأصبعه الى الممثلة التي كانت راكعة امام بنت القياصرة .

فألقت ألبين على تاييس نظرة حادة ، وأمرتها بالنهوض ، وقبلت جبينها ، ثم تحولت نحو الراهب قائلة :

— سنضعها بين « المريمات »

فأخبرها بافنوس عندئذ بالوسائل التي أُحضرت تاييس بها الى « بيت الخلاص » . وسألها أن تُعزل ، بداءة بدء ، في صومعة . فقبلت رئيسة الدير ، وقادت التائبة الى خصّ خلا بموت العذراء « ليتا » ، ولم يكن في هذه الصومعة الضيقة سوى فراش ومائدة وابريق . ولما وضعت تاييس قدمها على العتبة امتلأت بهجة لا حدّ لها.

فقال بافنوس :

— أريد أن أقفل الباب بنفسي ، وأن أضع عليه ختماً يأتي المسيح ويكسره بيديه .

وذهب الى حافة النبع ، وأخذ قبضة من الصلصال ، ومزجه بشيء من ريقه ، ووضع فيه شعرة من شَعره ، وسدّ به شق الباب . ثم اقترب من النافذة ، حيث كانت تاييس واقفة ، وادعة راضية ، وسقط على ركبتيه ، وحمد الله ثلاثاً ، وصاح :

— ما أجمل التي تسير في طريق الحياة ! . . ما أبدع قدميها ، وما أبهى محيّاها ! . . .

ثم نهض ، وأرخى برنسه على عينيه ، وسار الهوينا مبتعداً . . .

. . . .

فنادت ألبين إحدى العذارى ، قائلة :

— احملي يا ابنتي الى تاييس كل ما هي في حاجة اليه ، من خبز ، وماء ، وناي ذي ثلاثة ثقوب . . .

الفربيون



قفل بافنوس راجعاً الى الصحراء المقدسـة ، واستقلَّ بقرب « تل إتريب Athribis » مركباً صاعداً في النيل يحمل المؤون لدير السرابيوم . ولما خرج من السفينة تقدم تلاميـذه لملاقاته بمظاهرات الفرح العظيمة . لأنهم عرفوا ما تمَّ بمدينة الاسكندرية على يديه وكان الكهنة يتلقون عادة ، بوسائل سريعة مجهولة ، الاخبار المتعلقة بأمن الكنيسة ومجدها . وكانت الأنباء تُذاع في الصحراء بسرعة ريح السموم ..

وبينما كان بافنوس يذرع الرمال ، تبعه تلاميـذه مسبحين بحمد الله ، واعترى « فلاڤيان » اكبر أخوته ، هذيان ديني فجائي فأخذ يترنم بأنشودة ملهمة ...

(الفربيون — L'Euphorbe) اسم مشتق من « اوفربوس » اسم طبيب أحد ملوك الغرب . وهو لبن نباتي أبيض . (المترجم)

ولما وصلوا الى صومعة الرئيس ، ركعوا جميعًا وقالوا :

— يا ليت أبانا يباركنا و يعطي كلاً منا مقداراً من الزيت لنحتفل بعودته !

أما بولس الساذج ، فقد لبث وحده واقفًا يتساءل : « من هو هذا الرجل ؟ » . . ولم يعرف بافنوس . على أنه لم يعر أحد قوله التفاتًا لما عُرف عنه من قلة الذكاء والفطنة ، مع كونه موفور الصلاح . .

***

خلا كاهن « أنصينا Antinoé » في صومعته ، فقال في نفسه :

— أراني قد استعدت أخيراً مَلاَذَ راحتي وهنائي ، وعدت الى معقل قناعتي واكتفائي . لكن ماذا حدث حتى ان هذا السقف العزيز المصنوع من الغاب ، لم يستقبلني كصديق ، ولا قالت الجدران اهلاً وسهلاً ! . ما تغيّر منذ رحيلي شيء في هذا المقام المختار . هذا خواني ، وهذا فراشي ، وهذا رأس المومياء الذي طالما أوحى اليَّ الافكار النافعة ، وهذا هو الكتاب الذي كثيراً ما بحثت فيه عن صور الله . . . ومع ذلك لا أجد شيئًا مما تركته . كأنما قد عُرِّيت الاشياء من رونقها المعهود ، ويخيّل اليّ اني أراها اليوم أول

مرة . عند ما أنظر الى هذه المائدة ، وهذه الأريكة ، اللتين صنعتهما يداي في الأيام الخاليـة . والى هذا الرأس الأسود اليابس ، والى أدراج البردى المملوءة بآيات الله — يلوح لي أنها آثار رجل ميت . وأراني ، بعد أن تعرفتها كلها ، لا أكاد أعرفها ! . . وا أسفاه ! . . انه ما من شيء في الحقيقة قد تغيّر حولي ، ولكنني أنا الذي لم أبقَ الشخص الذي كنته . أنا رجل آخر . فالرجل الميت هو أنا ! يا إلهي ! ما الذي صار اليه سلفي ؟ ما الذي أخذه مني ؟ وما الذي تركه لي ؟ ومن أكون أنا ؟ ؟

وقد انزعج ، على الخصوص ، لما وجد أن صومعتـه صغيرة ، مع انه كان يجب — اذا نظر اليها بعين الإيمان — أن يراها كبيرة ولا يرى نهايتها ، لأن سعة الله غير المحدودة تبتدىء منها . . .

بدأ يصلي ، ملصقاً جبهته بالرغام ، فتعزّى ، واستردّ شيئاً من الفرح . وما كادت تمضي عليه الساعة في التضرع والابتهال ، حتى مرت امام عينيه صورة تاييس ، فردد الشكر لله

— يا يسوع ! انك أنت الذي بعثت بها اليَّ . فاعترف بفضلك العظيم عليَّ . أردت أن تسرَّ خاطري ، وتهـدىء ثائري ، برؤية التي أعطيتك إياها . أراك تمثل امام ناظري بسمتها التي زال الخوف من أذاها ، ورقتها الرائقة التي لم يعد منها ضيرٌ ولا ضرار ، وجمالها

الذي نَزعتُ منه شوكته الناخسة ! انك لكي ترضيني يا إلهي تظهرها لي كما زينتها وزكيتها ابتغاء رضاك ، مثلما يذكّر الصديق صديقه بالهدية التي تلقاها منه . لذلك أرى هذه المرآة مبتهجاً ، لثقتي بأن طيفها آتٍ من لدنك . انك لا تنسى انني وهبتهـا لك يا يسوع ! فاحتفظ بهـا ، مادامت تسرّك ، ولا تدع محاسنها تسبي أحداً سواك . . .

***

قضى الليل كله ساهراً ، ما اكتحل بنوم ولا أخذته سِنة ، ورأى تاييس بجلاء أظهر مما رآها في « كهف العذارى » ، فزكى نفسه بقوله :

— ان ما فعلته ، قد فعلته لمجد الله . . .

ومع ذلك بلغ منه الدهش مبلغه ، لأن قلبه لم يطمئن ، فتنهد قائلاً :

— لِمَ أنت حزينة يا نفسي ، ولماذا أنت تقلقينني ؟

وبقيت نفسه في انزعاج . ولبث ثلاثين يوماً على هذه الحال من الكآبة التي تعُدُّ نذيراً للناسك بمحن هائلة ، وشرّ مستطير . لم تفارقه صورة تاييس ليلاً ولا نهـاراً . ولم يبعدها عنه لأنه كان لا يزال يظن انها أتت من عند الله ، وانها صورة قديسة . .

لكنها في صباح أحد الأيام ، تراءت له في حلم ، وكان شعرها متوّجاً بزهر البنفسج ، وكانت رائعة في حلاوتها حتى انه صرخ من شدة الخوف . . فاستيقظ وقد بَلَّله العرق البارد . وكانت عيناه لا تزالان مثقلتين بالنعاس ، فشعر بأنفاس رطبة دافئة تمرُّ على وجهه ، أنفاس ابن آوى صغير ، وضع مخلبيه عند رأسه وأخذ يلهث لهاثه النتن في وجهه ، ويضحك من أقصى بلعومه . . .

فشُده بافنوس وأخذ منه العجب كل مأخذ ، وشعر كأنما قد انهار تحت قدميه صرحٌ شامخٌ . . .

أجل ! . . ففي الواقع انه سقط من ذروة ايمانه المتقوّض . . .

قضى بعض الزمن مضطرب الفكر ، ولما ثاب اليه رشده ، أفضت تأملاته الى زيادة قلقه ، فقال في نفسه :

— إما أن تكون هذه الرؤيا من الله مثل سابقاتها ، فهي صالحة ، وفسادي الطبيعي قد أفسدها ، كما يتحوّل النبيذ خَلاً في الكأس القذرة ، وقد أبدلتُ ، لعدم جدارتي ، من النعمة نقمة ، واغتنم ابن آوى الشيطاني فرصتها واستفاد منها . وإما أن لا تكون من عند الله بل من الوسواس الخنّاس الذي يوسوس في صدور الناس ، فهي شريرة وساءت سبيلاً . وفي هذه الحالة أشك فيما اذا كانت الرؤى السابقة من مصدر سماوي كما حسبتها . فأنا والحالة

هذه قاصرٌ حتى عن التمييز الذي لا بُدَّ منـه للزاهد . وأرى الله يبدي في كلتا الحالتين نفوره مني ، وإعراضـه عني ، وهو ما أشعر بتأثيره ، وأعجز عن تعليله . . .

وعلى هذا النمط برهن ، ثم تضرع بكرْب :

— يا أيها الإِلَه العـادل ! . . بأية تجاريب تبلو عبادك ، إذا كانت أشباح قديسيك خطراً عليهم ؟ دعني أميِّز بعلامة واضحة ما يأتي منك وما يأتي من غيرك .

* * *

صحت عزيمة بافنوس بعد ذلك على أن يكفَّ عن التفكير في تاييس ، إذْ تجاذبته الشكوك ولم يُتح له الله جلّت مقاصده أن يهديه السبيل . لكن تصميمه ظلَّ عقيماً . فإن الغائبة عنه ، كانت حاضرة معه . وكأنها تنظر اليه وهو يقرأ ، ويفكّر ، ويصـلي ، ويتأمل . . وكان اقترابها التصوّري يسبقه صوت لحفيف ثوب امرأة في أثناء مسيرها . وكانت هذه الخيـالات أدق من الحقائق التي تتزعزع ويعتريها الارتباك ، بينما الأشباح الناشئة من العزلة ، تمتـاز بأهم ميزاتها من حيث شدّة الثبات والرسوخ .

أتته تاييس بأشكال مختلفـة ، تارةً مفكرة وقد توّج جبينها بآخر تيجانها التي أُحرقت، ومرتدية كما كانت في مأدبة الاسكندرية ثوباً أرجوانياً مرصعاً بأزهار من فضة واستبرق . وطوراً خليعـة في سحابة من نقُبها الشفافة ، مستحمة في أظلال « كهف العذارى » . وحيناً متألقة في أطمار الفرح السماوي . وحيناً آخر مفجوعة تدور عيناها في مفازع الموت ، وقد أبانت عن صدرها العـاري المخضب بدم قلبها الكليم . . .

وكان أشد ما أزعجه من هذه الخيالات ، رجوع الأكاليل والأثواب والنُقُب التي أحرقها بيديه ، إذ اتضح له ان لهذه الاشياء روحاً لا تفنى ونفساً لا تبيد ، فصاح :

— ها هي أرواح خطايا تاييس التي لا تُحصى تأتي اليّ !

ولما التفت شعر بتاييس وراءه ، فلم يزدد الاّ انزعاجاً . وكان شقاؤه بالغاً أشده . ولكن اذ ان نفسه وجسده بقيا نقيين في وسط هذه التجربة ، لم يقنط من رحمة الله ، وتقرب منـه رافعاً هذه الشكوى برفق وخشوع :

— إلهي ! اذا كنت قد ذهبتُ الى هـذا البعد السحيق أتفقدها بين الكافرين ، فقدكان ذلك لأجلك ، لا لأجل نفسي . فليس من العدل أن أعذّب لما فعلته في طاعتك ونفعك . أسبل عليّ

ستر حمايتك يا يسوع الحليم! يا مخلصي خلصني! لا تبح للشبح ان يقضي ما عجز الجسد عن فعله. أما وقد انتصرت على الجثمان فلا تدع الخيال يصرعني. لا أجهل اني معرّض لمخاطر أعظم جداً مما تعرّضتُ له قبلاً، ولا يخفى عليّ أن الحلم أقوى من الحقيقة، وكيف لا يكون كذلك وهو ذاته حقيقة سامية؟ هو النفس، وأفلاطون ذاته مع كونه وثنياً، سلَّم بصحة وجود الهواجس. وفي مأدبة الشياطين التي صحبتني اليها يارب، سمعت أحاديث رجال مع كونهم أشراراً، لم يكونوا خالين من الذكاء، وقد اتفقت كلمتهم على ان مانبصره في العزلة والتفكير والذهول هو حقيق. وكتبك المقدسة يا إلهي تثبت في مواضع عديدة صحة الأحلام وتأثير الخيالات الصادرة إما منك يا إلهي جلّ شأنك، وإمّا من عدوك...

كان فيه رجل جديد. فناقش الله، ولكنه سبحانه لم يبادر الى هدايته وارشاده. كانت لياليه حلماً واحداً طويلاً، ولم تكن أيامه تختلف عن لياليه

استيقظ ذات صباح وهو يصعّد زفرات كالتي تصدر في ضياء القمر عن قبور ضحايا الجرائم. لان تاييس كانت قد أتته تريه قدميها المخضبتين بالدماء، فلما اغرورقت عيناه بالدموع، اندست في فراشه. فلم يبق عنده أقل شك في أن صورة تاييس كانت صورة اثم ودعارة..

فثار قلبه تقززاً وفاض اشمئزازاً . وانتزع نفسه من فراشه النجس انتزاعاً ، وخبأ وجهه في يديه كي لا يرى نور النهار . ومرّت الساعات بغير أن تمحو عاره ، وخيَّم السكوت على الصومعة . وأخيراً غادره الشبح ، على أن غيابه كان كذلك مزعجاً . وما من شيء على الاطلاق ألهاه عن تذكر الحلم الفاضح . ففكر هالعاً مرتاعاً :

— لماذا لم أدفعها عني ؟ لماذا لم أنتزع نفسي من ذراعيها الباردتين ، وركبتيها الملتهبتين ؟ . .

* * *

لم يعد يجرؤ على النطق باسم الجلالة بقرب ذلك الفراش الكريه وأشفق أن تكون صومعته قد تنجست فيستبيح الشياطين دخولها في كل آن . ولم تكذبه مخاوفه ، فبنات آوى السبع التي كانت ملازمة بابه ولم تخط قط عتبته ، قد دخلت على التعاقب وكمنت تحت المضجع . وعند صلاة المغرب ، أقبل الثامن وكانت رائحته نتنة وبيئة لا تطاق . وفي اليوم التالي انضم التاسع اليها . وما لبثت ان صارت ثلاثين ثم ستين ثم ثمانين . وكانت كلما تكاثرت تصاغرت . ولما لم تزد على حجم الفأر غطت الأرض والفراش والمقعد ، ووثب أحدها على الرف الصغير عند رأس المضجع ووضع مخلبيه الأماميين فوق جمجمة المومياء . ثم نظر الى الراهب بعينين ناريتين . .

وفي كل يوم كانت بنات آوى جديدة تجيء يزحم بعضها بعضاً

***

فلكي يكفّر بافنوس عن رجس حلمه ، ويتخلص من الأفكار المدنسة قرّ رأيه على أن يغادر صومعته التي نجست ، ويضرب في فيافي الصحراء يمارس تقشفاً وتزهداً لم يسمع أحد بمثلهما . ويقوم بأعمال فريدة تسير بذكرها الركبان ويقدّم كفارة ما لها من نظير . لكنه رأى أن يذهب الى الشيخ بالمون لاستشارته قبل تنفيذ خطته .

فوجده في بستانه يروي خسّه ، وقد مال ميزان النهار ، وجرى النيل الأزرق في سفح التلال البنفسجية . وكان الشيخ الصالح التقيّ يمشي الهوينا لكيلا يزعج حمامة حطّت على كتفه . قال :

— الرب معك يا أخي بافنوس ! أعجب برحمته سبحانه ! يبعث إليّ بالحيوانات التي خلقها لأحدثها عن أعماله ، وأمجده في طير السماء ! انظر الى هذه الحمامة ولاحظ ألوان عنقها المتغيّرة ، وقل لي أليست من أعمال الله الجميلة ؟ ثم قل لي أوَلم تأتِ يا أخي لتحدثني عن بعض شؤون الدين ؟ اذا كان الأمر كذلك ، فسأنزل رشاشتي ، وألقي بسمعي اليك

فحكى له بافنوس حكاية رحلته ، وعودته ، ورؤاه في النهار ،

وأحلامه بالليـل . ولم يغفل ذكر الحلم الأثيم ، وجماعة بنات آوى ، ثم قال :

— ألا ترى يا أبي أنه يجب عليَّ أن أتوارى في الصحراء ، لأقوم فيها بأعمال خارقة ، وأدهش ابليس بزهدي واستماتتي ؟

فأجابه بالمون :

— لستُ سوى خاطيء مسكين ، وخبرتي بالناس قليـلة ، إذ قضيت طول حياتي في هذا البستان مع الغزلان والأرانب الصغيرة والحمام . لكن يلوح لي يا أخي أن مرضك ناشيء على الخصوص من انتقالك بغتةً بغير حيطة من جلبة المعمورة الى سكينة القفر . هذه الانتقالات الفجائية لا بدَّ أن توهن صحـة النفس . ومثلك يا أخي مثل رجل يعرض نفسـه ، في وقت واحد تقريباً ، للقيظ والقرّ ، فيرجّه السـعال وتبرّح به الحمى . ولو كنت في موضعك يا أخي بافنوس ، لـكنت بدلاً من الاعتزال في الحال في صحراء مرعبة ، آخذ بالتسليات الصالحة لناسـك تقيّ وكاهن ورع . كنت أزور الأديرة المجاورة ، وبعضها كما يقال عجيب . فدير السرابيوم يحوي على ما بلغني اثنتين وثلاثين وأربعمائة وألف صومعة . والرهبان فيه منقسمون الى شُعَب عديدة بقدر حروف الهجاء اليونانية . ويؤكد الثقاة أيضاً أنه قد لوحظت مشابهات صادقة بين خصال الرهبان

وأشكال الحروف التي تدل عليهم . فالذين هم ، على سبيل المثال ، موضوعون تحت حرف (ى) ذوو خصال معوجة ، على حين أن المرتبين تحت حرف (ا) ذوو عقول مخصبة ، ونفوس مستقيمة . ولو كنت مكانك يا أخي لذهبت وتحققت هذا الأمر بنفسي، وكنت لا يقرُّ لي قرار حتى أبصر هذا الشيء العجيب . وكنت لا أغفل دراسة سنن الطوائف المختلفة المنتشرة على ضفاف النيل ، لأتمكن من المقايسة بينها . هذه واجبات تصلح لرجل ديني مثلك . ولقد طرق سمعك دون ريب أن « افرايم » رئيس الدير وضع قوانين روحانية على جانب كبير من الجمال فتستطيع وأنت الكاتب النحرير ، أن تنسخها باذن منه ، أما أنا فما كنت لأستطيع ذلك لأن يديَّ ، وقد اعتادتا استخدام المعول، تعوزهما المرونة اللازمة لتسيير قصبة الكاتب الرشيقة فوق صحائف البردي . لكنك يا أخي تعرف قواعد الخط ، فلتحمد الله على ذلك ! . ان عمل الناسك والقارىء هو أعظم واق من الخواطر الخبيثة ، فلماذا لا تدوّن يا أخي بافنوس تعاليم أبوينا بولس وأنطوان ؟ بهذه الاعمال الدينية ، تسترد شيئاً فشيئاً سكينة النفس وصفاء الذهن ، وستطيب لك الوحدة مرة أخرى فلا تلبث أن تصير في حالة فكرية تمكنك من العودة الى أعمال الزهد التي كنت تؤديها قبلما تعطلها رحلتك . ولقد اعتاد أبونا أنطوان ، لما كان بيننا ، أن يقول : « الافراط في الصوم يولد الضعف ،

والضعف يسبب الجمود والتراخي . فبعض الرهبان يتلفون أجسادهم بصيام مطوّل بغير تبصر ، فهولاء يصح أن يقال فيهم انهم يغمدون خنجراً في صدورهم و يسلمون أنفسهم كالجمادات الى الشيطان » .

كذلك قال القديس انطوان . نعم ، لست سوى جاهل ، لكنني بنعمة الله قد وعيت قول أبينا . . .

فشكر بافنوس للشيخ پالمون نصيحته ، ووعد بالتفكير فيها . ولما تخطى السياج الذي يحيط بالبستان الصغير ، التفت وراءه فرأى البستاني الصالح يروي خسّه ، بينا كانت حمامة تترجّح فوق ظهره المحني . وعندما استوعب بافنوس هذا المشهد ، كاد يجهش بالبكاء وراود الدمع جفونه ! . . .

* * *

عاد الى صومعته ، فوجد هناك حشداً غريباً كأنه حبات رمل سفاه ريح عاصف . ثم ميّزه ، فاذا هو عشرات الالوف من بنات آوى . . .

وفي تلك الليلة ، رأى في حلم عموداً حجريًا مرتفعًا يعلوه وجه بشري ، وسمع صوتًا يقول :

— اصعد هذا العمود !

فلما استيقظ مقتنعاً بأن الحلم أتاه من السماء ، دعا تلاميذه وخاطبهم بهذه الكلمات :

— أولادي المحبوبين ، اني تارككم الى حيث يرسلني الله . فأطيعوا في غيابي فلافيان كما تطيعونني ، واعتنوا بأخينا بولس . بارك الله فيكم . استودعكم الله . .

ظلوا راكعين وهو يمعن في سيره ، ولما رفعوا رؤوسهم رأوا شبحه الطويل القاتم على أفق الرمال . . .

* * *

سار نهاراً وليلاً حتى وصل الى خرائب ذلك المعبد الذي بناه الوثنيون قديماً ، وبات فيه بين العقارب والجنّ أثناء رحلته العجيبة . كانت الجدران المغطاة بالرموز السحرية لا تزال قائمة . ثلاثون عموداً هائلاً عليها رؤوس بشرية ، أو أزهار لوتس لا تزال تسند الحجارة الضخمة . لكن في أحد أطراف المعبد طرح أحد هذه الأعمدة حمله القديم متخلصاً منه ، وكان له تاج على شكل رأس امرأة باسمة ، بعينين نجلاوين وخدين مستديرين ، وعلى جبينها قرنا بقرة .

فلما رآه بافنوس عرف أنه العمود الذي ظهر له في حلمه . وقدّر

ارتفاعه باثنين وثلاثين ذراعاً . فذهب الى البلدة المجاورة ، وأوصى بصنع سلَّم بهذا الارتفاع . ولما أسند السلم الى العمود ، صعد وركع على القمة وخاطب الرب سبحانه :

— هنا إذاً يا إلهي المقام الذي اخترته لي . ليتني أبق هنا في حماك ، حتي يحين حيني ، وتوافيني المنون .

لم يكن معه شيء من الطعام ، اذ كان متوكلاً على العناية الإلهية ، متوقعاً أن يمده الفلاحون الكرام بما يقوته . وحدث في عصر اليوم التالي ان بعض النساء والأولاد أتوه بتمرٍ وماء أصعدهما اليه الصبيان حتى قمة العمود

ولم تكن قمة العمود من الاتساع بحيث تمكّن الراهب من التمدد بطوله كله ، فنام متربعاً ورأسه ملقى على صدره . وكانت متاعب النوم لديه أشد من عذابات اليقظة . وعند الفجر ، كانت البواشق تصفعه بأجنحتها فيستيقظ متألماً مرتاعاً

واتفق أن النجار الذي صنع السلّم كان رجلاً صالحاً ، فقلق من جرّاء تعرُّض القديس للشمس والمطر ، وأشفق عليه من خطر السقوط وهو مستغرق في نومه . فأقام فوق العمود سقفاً ، وركّب حوله سياجاً

وما لبث صيت هذا المقام العجيب أن ذاع في البلاد . وأقبل عمال الوادي في أيام الآحاد مع نسائهم وأولادهم ليشاهدوا « صاحب العمود » . [1] ولما سمع تلاميذ بافنوس بمكان عزلته المرتفع ، احتشدوا بقربه ، واستأذنوه في بناء اكواخ لهم حول العمود . وكانوا في كل صباح يقفون في دائرة حول الرئيس يستمعون لتعاليمه ، وهو يقول لهم :

— أولادي ! ابقوا كالأطفال الذين أحبهم المسيح . ان إثم الجسد مصدر كل الخطايا ورأسها . انها تتوالد منه كأنه أبٌ لها . فالكِبْر والشح والكسل والغضب والحسد ذريته المحبوبة . واليكم ما رأيته في الاسكندرية : رأيت الاغنياء مسوقين بنقيصة الترف ، وقد جرفتهم مثل نهر عكر ، الى دوامة بحر أجاج . . .

ولما بلغت الرئيسين افرايم وسرابيون حكاية هذه البدعة المستحدثة ، راما رؤيتها بأعينهما . فلما شاهد بافنوس على بعد شراع المركب القادم بهما ، فكر في كون الله تعالى قد جعله مثالاً لجميع الزاهدين . ولما رآه كبيرا الدير لم يخفيا دهشتهما ، فتشاوروا ، ثم بدا

(١) توجد حكاية تاريخية من هذا النوع . قيل ان أحد المتنسكين الاقدمين عاش فوق قمة عمود حيث قضى نحو ثلاثين عاماً ، ولقب بسمعان العمودي . . ولله في خلقه شؤون ! — (المترجم)

كلاهما يلومانه على قيامه بمثل هذه الكفَّارة الخارقة العادة ، وحثّاه على النزول قائلين له :

— ان مثل هذا الضرب من الحياة مضاد للعرف ، وهو شاذّ ومخالف للقوانين .

فأجابهما بافنوس :

— وهل حياة التنسك إلاّ حياة الشذوذ ؟ أليس من الواجب أن تكون أعمال الناسك فذّة مثله ؟ انني بوحي إلهي صعدت الى هنا ، وبوحي منه تعالى أنزل . .

وكان النساك يأتون كل يوم فرقاً لينضموا الى تلاميذ بافنوس . وبنوا لأنفسهم مآوي حول المنسك الجوي . وصعد كثيرون منهم ، تشبهاً بالقديس ، فوق أطلال المعبد ، لكنهم ما لبثوا ان نزلوا إذ عنَّفهم إخوانهم ، ونهكهم التعب فأقلعوا عن تلك المحاولات . . .

* * *

وجاء الحجاج من كل فج عميق . وقدم بعضهم من مكان سحيق ، فكانوا جياعاً عطاشاً . فخطر لأرملة فقيرة أن تبيعهم ماء بارداً وبطيخاً ، فاستندت الى العمود ووقفت وراء قللها الحمراء وفاكهتها تحت خيمة مخططة باللونين الأزرق والأبيض ، وأخذت تصيح : « يا أيها الظِماء ! هوذا الماء ! » . فحذا حذوها خباز وأحضر

آجُرًا وبنى بجوارها مخبزاً ، مؤملاً أن يبيع الغرباء الخبز والكعك . ولما كان جمهور الزائرين في ازدياد مستمر ، وأخذ سكان مدن مصر الكبرى يفدون تباعاً ، شيّد رجل آخر فندقاً لنزول السادة وخدمهم وجمالهم وبغالهم . . وسرعان ما قامت أمام العمود سوق أحضر اليها الصيادون أسماكهم ، والبستانيون بقولهم وثمارهم . وثَمَّ مزيّن يقص للناس شعرهم في الهواء الطلق ، ويسلي الجمهور بأقواله الرائقة ، ونكاته الشائقة

وما لبث المعبد العتيق الذي شملته السكينة والسلام دهراً طويلاً ، ان امتلأ بجميع لغات الدنيا ومشاهدها غير المعدودة . وحوّل الفندقيون المغاور الى قاعات تحت الأرض سمروا بدعائمها المتهدمة اعلانات تعلوها صورة القديس بافنوس ، وعليها باليونانية والمصرية هذه الكلمات :

هنا يباع نبيذ التين والرمان وجعة « اونة » الاصلية



وعلى الحيطان المزدانة بنقوش متقنة جليـة — علّق الباعة البصل والسمك المشوي والأرانب المذبوحة والأغنـام المسلوخة. وفي المساء، انسلّت الجرذان — ضيوف الخرائب القديمة — هاربة الى النهر. واتلعت الكراكي أعناقها وهي تتنقل بحذر وتردد فوق الطنوف العالية التي تصاعد اليها دخان المطابخ وعربدة السكارى وصياح السقاة. وخطّط المسّاحون الشوارع، وشيّد البناؤن الأديرة والمعابد والكنائس. وما انقضت ستة أشهر، حتى أُنشئت بلدة بمخفر ومحكمة وسجن، ومدرسة يعلّم فيها شيخ فقيه أعمى...

وكان الحجاج لا عداد لهم. وبينهم كثيرون من المطارنة وكبار رجال الدين، أقبلوا وهم في غاية الاعجاب. وأتى بطريرك انطاكية الذي كان وقتئذٍ في مصر، مصحوباً بجميع حاشيته. فاستصوب كثيراً تصرف «صاحب العمود» الخارق العـادة. ووافقه على استصوابه رؤساء كنائس ليبية، في غياب اثناسيوس. ولما علم بذلك افرايم وسرابيون أتيا يعتذران عمّا فرط منهما، فأجابهما بافنوس:

— اعلما يا أخويّ أن الكفّارة التي أكابدها بالجهد تساوي التجارب التي تعرّضتُ لها، وقد هالني ما رأيتُ من كثرة عددها وشدة وطأتها. ان الانسان يُرى حسب الظاهر صغير الحجم. ومن

قمة العمود حيث وضعني الله أرى بني البشر يروحون ويغدون كالنمل . لكننا اذا أنعمنا النظر في الانسان من الباطن نجده عظيماً جداً ، عظيماً كالدنيا لأنه يسعها . هذه المشاهد المنبسطة امامي — هذه الأديار والمنازل والسفن والقرى ، وما أراه على بعد من حقول وترع ورمال وجبال — ليست شيئاً بالنسبة الى ما هو فيّ . ففي قلبي أحوي مدناً لا تُعد ، وصحارى لا تُحد . والشر ، الشر والموت ، يمتدان فوق هذا المتسع غير المحدود ، يُدثِّرانه كما يدثِّر الليلُ الارضَ . وفيّ أنا وحدي عالم أفكار شريرة . .

قال هذا القول ، لأن اشتهاء المرأة كان متسلطاً عليه ، ممتزجاً بلحمه ودمه . . .

***

وفي الشهر السابع أتى اليه من الاسكندرية وتلّ بسطه وسائس نساء عاقرات ، يرجون أن يُرزَقنَ أولاداً بشفاعته وبركة العمود . فحككن خواصرهنّ بالحجر . ثم اقبلت مواكب لا يبلغ الطرف آخرها من المركبات والمحفات والنقالات ، وازدحمت حول العمود القائم عليه رجل الله . وخرج منها مرضى في حالة مخيفة . وعرضت الأمهات على بافنوس أولادهن المصابين بالكسح والعمى

والسعال الديكي والخنَّاق وغيرها من الأدواء ، فوضع يديه عليهم . واقترب منه العميان متلمسين . وأظهر له المفلوجون ما هم عليه من الشلل التامّ والسقم المميت وانقباض عضلاتهم البشع . وأراه المقعدون أرجلهم المعوجة . وأمسك النساء المصابات بالسرطان نهودهن ، وكشفن عن صدورهن التي افترسها الرَّخَمُ الخفيّ . وجثمت امامه النساء المصابات بالاستسقاء ، وكن منتفخات كزِق الخمر . فباركهن كاهنٌ . وتقدم النوبيون المصابون بالبرص الفيلي بخطوات متثاقلة ونظروا اليه بعيون مخضلة بالدموع . فرسم علامة الصليب فوقهم . وأحضروا اليــه على نعش من بلدة « افروديتو بوليس » بنتاً صغيرة نفثت دماً ونامت ثلاثة أيام كاملة فكانت كأنها صورة من الشمع . وظنَّ أبواها أنها قضت نحبها فوضعا سعفة على صــدرها . فابتهل بافنوس الى الله فرفعت البنت رأسها وفتحت عينيها . . .

فلما شاع بين الناس أمر المعجزات التي عملها القديس ، أقبل الجمّ الغفير من المصابين بالداء الذي أطلق عليه الاغريق اسم « المرض الإلهي » من جميع انحاء مصر . فما شاهدوا العمود حتى تشنَّجوا وتمرّغوا على الارض واختبلوا وتكوّروا . ومما يكاد لا يُصدّق أن الحاضرين أصيبوا بدورهم بهذيان شديد والتووا

كالمصروعين . وتمرّغ الكهنة والحجاج والرجال والنساء مختلطين بعضهم ببعض . والتوت أطرافهم وفاض الزبد من أشداقهم وهم يلتهمون التراب بالحفنات ويتنبأون .

فشعر بافنوس ، من قمة عموده ، برعدة تمشي في أعضائه ، وصاح متجهاً الى الله :

— أنا التيس المغضوب عليه ، حمّال الذنوب ، أحمل في عنقي أدران هؤلاء الناس ، وهذا يا رب هو سبب امتلاء جسدي بالأرواح الشريرة .

وكان كلما مضى مريض وقد شُفي مما أصابه ، يحمله الحاضرون هاتفين هتاف الانتصار .

ولقد علّقت مئات العكازات حول العمود المُعجِز . وعلقت عليه النساء الشاكرات أكاليل الزهر والصور المنذورة . ودوّن فيه بعض الأغريق قطعاً من الشعر البليغ . ونقش عليه كل حاج اسمه حتى أصبح كله مغشّى بما لا يحصى من الحروف اللاتينية واليونانية والقبطية والقرطاجينية والعبرانية والسورية والسحرية .

ooo

وجاء عيد الفصح . فتدفق على مدينة العجائب هذه سيلٌ جارف من البشر حتى ان الطاعنين في السنّ حسبوا انهم عادوا

الى أيام الامراء القديمة . فكنت ترى فوق السهل الفسيح حلل المصريين المخططة وقد اختلطت ببرانس العرب ، وثياب النوبيين القطنية ، ومعاطف اليونانيين القصيرة ، وأردية الرومان الطويلة ، وسراويل البرابرة القرمزية ، وأثواب السراري الذهبية . وكانت النساء المحجبات يجتزن راكبات الحمير يتقدمهن خصيان سود يفسحون لهن الطريق بالعصي . وفرش البهلوانون على الارض سجادهم ولعبوا العاباً مدهشة امام جمهور من المشاهدين الذين عاينوها وكأنّ على رؤوسهم الطير . وعرض الحواة مشاهد غريبة من الثعابين والأفاعي ومدّوا أذرعهم ونشروا مناطقهم الحية . .

وهكذا كان حشدٌ عظيم يفيء ، ويتألق ، ويعفّر ، ويطنطن ، ويهدر ، ويجعجع . فمن شتائم الجمّالة وهم يجلدون جمالهم ، الى صياح التجار الذين كانوا يبيعون تعاويذ للوقاية من الجذام والاصابة بالعين ، الى ترانيم الرهبان وهم ينشدون آيات من الكتاب المقدس ، الى عواء المتسولين وهم يرددون أغاني الحريم القديمة ، الى ثُغاء الغنم ، ونهيق الحمير ، ونداء البحارة للمسافرين المتباطئين — هذه الاصوات كلها امتزجت بعضها ببعض فألّفت ضجيجاً يصم الآذان ، وزاد عليها زئاط أولاد الزنوج العُراة الذين كانوا يجرون من مكان الى آخر يعرضون للبيع البلح الرطب

وكانت جميع هذه المخلوقات المختلفة قد حُشرت تحت السماء الصافية الأديم في جو كثيف محمّل بعطور النساء وطيب الزنوج ودخان الطهي وأبخرة الصموغ التي اشتراها من الرعاة ، الأتقياء ليحرقوها بخوراً أمام القديس .

ولما جنّ الليل ، كانت النيران والشعل والمصابيح تضيء في كل مكان . فما كان ثمة شيء يُرى سوى أظلال حمراء وأشكال سوداء . وقام في وسط دائرة من المنصتين الجالسين القرفصاء شيخ هَرِم يمثل « خيال الظل » . فقص حكاية أحد القدماء الذي انتزع قلبه من صدره ودفنه في جوف شجرة سنط ، ثم حوّل نفسه الى شجرة ! . وعمل الرجل حركات كرّرها ظلّه بمبالغة مضحكة ، فهتف الحضور معجبين . واضطجع السكارى في الحانات على الأرائك وطلبوا الجعة والنبيذ . ومثلت امامهم راقصات مكتحلات العيون عاريات الصدور بعض المشاهد الدينية والمناظر المحركة للشهوات . وفي جانب آخر ، كان الشبان يلعبون النرد . والرجال المسنّون يتبعون البغايا في الظلام .

وفوق هذه الصـــور المتحركة كان العمود وحده ثابتًا ، وعليه بافنوس مراقبًا بين السماء والأرض . وارتفع القمر فجأة فوق النيل كذراع إلهةٍ عارٍ ، فأضاءت التلال بأشعة زرقاء ، وخيّل الى

بافنوس أنه يرى جسد تاييس مشرقاً في تألق الميـاه في كبد الليل الأزرق الياقوتي . . .

***

مرت الأيام وظلّ القديس فوق عموده فلما أتى فصل الأمطار اخترقت مياه السماء شقوق السقف وغمرت جسده فعجزت أعضاؤه المخدّرة عن الحركة . وأحرقت الشمس جلده وحمّره الندى فتشقق . والتهمت القروح الكبيرة ذراعيه وساقيه . بيد أن شهوة تاييس ظلّت تجيش في داخله وترعى في باطنه ، فصاح :

— يا إله القدرة،هذا لا يكفي ! زدني من التجارب والوساوس ! زدني من الأفكار الشريرة والشهوات الخبيثـة ! آتني يا رب شهوات الناس كلها كي أكفّر عنها جميعاً ! لست أصدق ما سمعته من بعض الدجالين عن كلبة أرجوس أنها حملت خطايا العالم ، ولكنّ لهذه الاسطورة معنى خفياً أدركه الآن . لأن آثام البشر تدخل حقيقةً أرواح الأولياء لتغرق فيها كما في هاوية . وعلى هذا فنفوس الأبرار مدنّسة بأدران أرجس جدّاً من التي في نفوس الأشرار ، لهذا أحمدك يا إلهي وأشكر فضلك لجعلك إياي بالوعة أقذار الكون !

***

وحدث يوماً أن انتشرت في المدينة المقدسة إشاعة ذات شأن، وبلغت الناسك ، وهي ان قائد اسطول الاسكندرية لوسيوس أوريلوس كوتا – قادمٌ .. وعما قليل يصل ...

كانت الأنباء صادقة . وكان كوتا الشيخ ، الذي خرج يتفقد الترع والملاحة في نهر النيل ، قد أبدى غير مرة رغبة في مشاهدة « صاحب العمود » والمدينة الجديدة التي أُطلق عليها اسم « ستيلوبوليس Stylopolis » .

وفي صباح أحد الأيام رأى سكان « مدينة العمود » النهر مغطى بالأشرعة ، وظهر كوتا على ظهر سفين مطلية بالذهب مشدودة بالأرجوان ، يتبعها اسطوله الصغير ، فخرج يصحبه كاتم سرّه حاملاً ألواح كتاباته ، واريستيه طبيبه الذي كان يشجوه حديثه .

سار وراءه خدم وحشم كثيرون ، وغطى الشاطىء بالأردية الرومانية وبذلات الجند الرسمية . فوقف على بضع خطوات من العمود وبدأ يفحص صاحبه ماسحاً جبهته خلال ذلك بطرف وشاحه . ولما كان فضولياً بطبعه فقد لاحظ اشياء كثيرة في رحلاته الطويلة حنّ لذكرها ، وعقد العزم على أن يكتبَ ، بعد أن أتم التاريخ القرطاجني ، كتاباً عن الأشياء العديدة التي رآها ، وبدا عليه أنه سُرَّ كثيراً بالمشهد الذي امامه . قال ، وقد عرق ولهث :

— إنه لشيء غريب ! وانها لحادثة تستحق أن تسجل . فالرجل كان ضيفاً عليّ يوماً من الايام . أجل ! . هذا الكاهن تعشى معي في العام المنصرم ، وبعدها خطف إحدى الممثلات . . .

ثم التفت الى كاتم سره ، وقال :

— سطّر هذا يا بني في ألواحي . كذلك ودوّن قياس العمود ، ولا تغفل الاشارة الى شكل القمة .

ثم مسح جبينه ثانية . وقال :

— لقد أكد لي الثقات ان كاهننا صعد فوق هذا العمود منذ سنة خلت ، ولم يغادره قط . فهل هذا في الامكان يا أريستيه ؟

فأجاب أريستيه :

— إنه في إمكان رجل معتوه أو مريض . لكنه مستحيل على انسان متمتع بقواه العقلية والبدنية . أوَلاَ تعلم يا لوسيوس أن أمراض العقل والجسد تمنح أحياناً المصابين بها قوةً لا يتمتع بها الأصحاء ؟ الحق أقول أنه لا وجود حقيقيٌ للصحة الجيدة ولا للصحة الرديئة . نعم ، توجد حالات متباينة لأعضاء البدن . وقد اتضح لي من دراسة الأمراض أنها أشكالٌ ضرورية للحياة . وقد وجدت في دراستها لذة اكبر مما في محاربتها .

ومنها ما لا يمكن إغفال الاعجاب به ، وهو ما يخفي تحت اختلاله الظاهري ، أعمق النظامات وأدقها ، كالحمى الرباعية مثلاً[1] وفي بعض الأوقات تكون أمراض الجسد وسيلة لترقية خواص العقل . واني لأضرب لك مثل « كريون » الذي كان في صغره ألكن غبياً فصار بعد أن هشم جمجمته بسقوطه من سلّم ، ذلك القانوني الضليع الذي تعرفه . ولا بدّ أن يكون هذا الكاهن مصاباً في بعض أعضائه الباطنية . ومع ذلك فهو غير متفرّد في نوع معيشته كما يلوح لك يا لوسيوس . تذكّر متريضي الهند الذين يستطيعون البقاء بغير حراك ألبتة لا عاماً واحداً وانما عشرين وثلاثين ، بل اربعين عاماً ! . .

فأجاب كوتا :

— قسماً بجوبيتر أن هذا ضلال مبين . لأن الانسان خُلق ليعمل ، والجمود جريمة ، لأنه مضر بالدولة . وإني لا أدري لأية ملّة أعزو هذه العادة المنحوسة . ويحتمل أن بعض المذاهب الاسيوية مسؤول عنها . لما كنت حاكماً على سورية ، شاهدت نصباً في أروقة مدينة الحيرة . وكان يعلوه رجل مرتين في كل عام ، ويبقى فوقه سبعة أيام . وكان الناس مقتنعين بأن هذا الرجل

---

(١) التي تأتي كل اربعة ايام

يتوسل للآلهة بحديثه معها فتنزل على سورية المنّ والسلوى . وقد استهجنت هذه العادة ، لكنني لم أعمل على ابطالها . لأني أرى انه لا يجوز للحاكم أن يستأصل عادات أهل البلاد ، بل عليه أن يرعاها . وليس للحكومة ن تلزم الناس عقيدة ، فان واجبها المحافظة على ما هو موجود منها ، سواء أغثاً كان أم سميناً ، فقد سنّته روح الزمان والمكان والجماهير . فاذا سعت الحكومة في محاربة دين من الأديان ، ظهرت مظهر الثائر العاتي ، وكانت حَرِيّةً بالبغضاء . هذا فضلاً عن انّ السبيل الوحيد للترفع عن خزعبلات العامة هو فهمها و إباحتها . وأرى يا أريستيه أن أترك ساكن مدينة السحب هذا في الجو بسلام ، معرضاً لشتائم الطير وغزواتها وحدها . وفائدتي ليست في البطش به ، وانما في استطلاع أفكاره ، وما ملكت أيمانه وعقائده .

ثم نفخ ، وسعل ، ووضع يده على كتف كاتم سرّه ، وقال :

— دوّن يا بنيّ أن خطف العاهرات والجلوس على العُمُد يُعدّ ان عند بعض طوائف المسيحيين أمراً محموداً ! ويمكنك أن تزيد أن هذه العادات دليل على عبادة آلهة الشهوات ! لكن علينا أن نسأل الرجل نفسه في هذا الموضوع .

ثم رفع رأسه ، وأظل عينيه بيده من الشمس ، وصاح :

— يا هو ! يا بافنوس ! إذا كنت تتذكر أنك كنت ضيفي ، فأجبني . ماذا تصنع في هذا المكان ؟ لماذا صعدت حيث أنت ولماذا تقيم ؟ وأية دلالة لهذا العمود في فكرك ؟

فلم يتنزّل بافنوس لاجابة كوتا ، لأنه كان يعدُّه وثنياً . لكن تلميذه فلافيان تقدم وقال :

— يا مولاي العليّ الشأن ! ان هذا القديس يحمل خطايا العالم ويبرىء الأمراض .

فصاح كوتا :

— يميناً بجوبيتر ! أسمعت يا أريستيه ؟ أن « ساكن مدينة السحب Le néphélococcygien » يزاول الطب مثلك ! فماذا تقول في هذا الزميل المعظّم ؟

فهز أريستيه رأسه وقال :

— يجوز أنه يفوقني في شفاء بعض الامراض ، مثل الصرع المسمى بين العامة بالمرض الإلهي ، وان تكن الامراض جميعها إلهية على السواء ، لأنها كلها تأتي من الآلهة . وللوهم تأثير في هذا المرض . وأنت ترى يا لوسيوس أن هذا الكاهن ، الجاثم هكذا فوق رأس معبودة ، يؤثر في أذهان المرضى تأثيراً أقوى من

تأثيري أنا المحني في معمل عقاقيري فوق هواويني وقواريري . توجد يا لوسيوس قُوى أشد بأساً من العقل والمعرفة .

فسأله كوتا :

— وما هي ؟

فأجاب أريستيه :

— الجهل والحماقة .

فقال كوتا :

— ان ما أراه امامي الآن لمن الأشياء التي يندر أني رأيت أشد منها شذوذاً . وآمل أن يروي يوماً كاتب قدير قصة تشييد « مدينة العمود » . ولكن لا يجوز للرجل الرزين العامل أن يعاق حتى بأندر المشاهد عن تأدية واجباته ، هيا بنا نتفقد الترع . الوداع يا بافنوس الصالح ! أو بالحري الى الملتقى ! اذا حدث يوماً أن نزلت الى الأرض وعدت الى الاسكندرية ، فأرجو ألاّ تنسى الحضور لتناول العشاء معي .

سمع الحاضرون هذه الكلمات ، فتلقفها فم بعد فم ، وأذاعها المسيحيون ورددوها فأضافت الى مجد بافنوس مجداً جديداً . وقد زينت المخيّلات الورعة هذه الكلمات وعظّمتها . وأشيع أن

القديس قد هدى ، من قمة عموده ، قائد الاسطول الى الايمان بالرسل وآباء « نيسيه » . وضمّن المسيحيون كلمات أوريليوس كوتا الأخيرة معنىً مجازيًا . فعدُّوا العشاء الذي دعا كوتا الناسك اليه عشاءً ربّانيًا ، وليمة روحية ، مائدة سماوية !! وألبست قصة هذا اللقاء زخارف تفاصيل عجيبة ، كان الذين ابتدعوها أول من صدقها !! فقالوا انه لما اعتنق كوتا الايمان بعد جدل طويل ، هبط ملك من السماء يمسح العرق عن جبينه ! وزعموا أن طبيبه وكاتم سرّه اهتديا مثله .

ولما اشتهرت المعجزة ، دوّنها شمامسة كنائس ليبيه الكبرى ضمن الوقائع الموثوق بصحتها !..

ومن ذلك الحين يمكن القول بلا تردد ان الدنيا من أقصاها الى أقصاها قد تملكتها الرغبة في زيارة بافنوس . وان كل المسيحيين في الغرب ، كما في الشرق ، ولووا أبصارهم الخاشعة شطره . وأوفدت أشهر مدن ايطاليا السفراء اليه . وكتب اليه قيصر روما قسطانس التقي ، الذي ظاهر الارثوذكسية المسيحية ، كتابًا قدمه القاصدون الرسوليون باحتفال مهيب ..

٭٭٭

ففى إحدي الليالي والمدينة راقدة في الطلّ عند قدميه ، سمع بافنوس قائلاً يقول :

— لقد صرت يا بافنوس شهيراً بأعمالك ، قويًا بأقوالك . لقد رفعك الله لرفعته ، واختارك لعمل المعجزات ، لتبرىء المرضى ، وتهدي الوثنيين ، وتنير الخاطئين ، وتزعج الجاحدين الأريوسيين ، وتعيد الى الكنيسة السلام . .

فأجاب بافنوس :

— فلتكن مشيئة الله !

فعاد الصوت يقول :

— قم يا بافنوس واذهب للقاء قسطنطوس الطاغية في قصره ، لأنه بدل أن يحتذي أخاه قسطانس في حكمته ، مال الى ضلالة أريوس وماركوس . اذهب ! سوف تفتح امامك الابواب النحاسية ، وسوف ترنّ نعلك فوق الممشى الذهبي أمام عرش القياصرة ، وسوف يغيّر صوتك الرهيب قلب ابن قسطنطين ، ويمتد سلطانك على الكنيسة . وكما تقود الروح الجسد ، كذلك تسود الكنيسة على الامبراطورية . سوف تعلو يابافنوس على الوجهاء والامراء والشرفاء . سوف تضع حدًا لجوع الناس وشراهتهم ، وعتوّ

البرابرة وفظاعتهم . وعند ما يرى الشيخ كوتا أنك على رأس الحكومة ، يبذل جهده ليحظى بشرف غسل قدميك . وعند موتك يؤخذ ثوبك الوبري الى بطريرك الاسكندرية أثناسيوس الكبير الذي شاب في المجد ، فيلثمه ويعدّه ذُخراً من ولي حميد — اذهب ، على الطائر الميمون !

فأجاب بافنوس :

— فلتكن إرادة الله !

ثم اجتهد في الوقوف ، واستعد للنزول ، لكن صاحب الصوت ناجاه قائلاً :

— اياك والنزول على السلّم ! فهذا ما يفعله الرجل العادي ولا يليق بمواهبك . قَدِّر سلطانك بأحسن من هذا يا بافنوس الملكي ! ومن كان ولياً قديساً مثلك يجب عليه أن يطير محلِّقاً في الجو — اقفز ! ان الملائكة بانتظارك لتتلقاك فاقفز !

فأجاب بافنوس :

— لتكن مشيئة الله كما في السماء كذلك على الارض !

ثم وازن ذراعيه الممتدّتين ، فكانا كجناحي طائر مريض

عاريين من الريش ، وأوشك أن يقذف بنفسه ، فرنّت في أذنيه قهقهة استهزاء مرعبة ، فسأل وقد أرهقه الجزع :

— من ذا الذي يضحك هكذا ؟ . .

فعوى الصوت ، يقول :

— آه ! آه ! اننا لا نزال في بدء صداقتنا وسوف تتقوى يوماً آصرة المحبة بيننا فتعرفني جيداً . هو أنا يا عزيزي الذي جعلك تصعد الى هنا ، ويحق لي أن أبدي سروري بإذعانك الذي أتممت به جميع رغباتي . فأنا مسرور منك يا بافنوس !

فتمتم بافنوس بصوت يتهدّج من الخوف :

— الى الوراء ! الى الوراء ! لقد عرفتك ، انك أنت الذي رفعت المسيح على ذروة الهيكل وأريته جميع ممالك الدنيا (١)

وسقط على الحجر فَزِعاً ، وفكّر :

— لماذا لم أعرفه من قبل ؟ انني أشقى من اولئك العمي والصم والمفلوجين الذين وثقوا بي . لقد فقدت كل دراية بالاشياء غير العادية . وصرت شرًّا من المعتوهين الذين يأكلون التراب

(١) يريد به الشيطان

ويقربون جثث الموتى . وعدت لا أميز ضجة جهنم من صوت السماء . لقد عدمت كل فطنة ، حتى فطنة الطفل الرضيع الذي يبكي عند ما يؤخذ عن ثدي أمه ؛ وفطنة الكلب الذي يقتفي أثر صاحبه بواسطة الشمّ ؛ والنبات الذي يتجه صوب الشمس ؛ فكنت ألعوبة الشياطين . وكذلك كان ابليس هو الذي أتى بي الى هنا . لما رفعني فوق هذا العمود ، صعدت معي الأهواء والكبرياء . فليست تجاربي هي التي تهولني ، فقد كابد مثلها انطوان فوق جبله ، وأودّ أن تمزّق سيوفها بدني أمام أعين الملائكة . نعم ! لقد توصلت الى إعزاز آلامي ، غير أن الله صامت لا يبدي ولا يعيد ، وصمته يحيرني ويدهشني . انه يتخلى عني وليس لي سواه . إنه يدعني وحيداً في مخاوف إعراضه . إنه يفر مني واني أروم الجري خلفه . هذا الحجر يلهب قدميّ بشواظ من نار ، فلأنطلق سريعاً ، فلأتركنّه . . وأرقَ أسباب السموات لعلي أدرك الله ! . .

وللحال أمسك بالسلم الذي كان قد بقي مستنداً الى جانب العمود ، ووضع قدمه عليه وهبط درجة فألفى نفسه مواجهاً لرأس الوحش الذي ابتسم ابتسامة غريبة . فتحقّق أن المكان الذي اتخذه لسلامه ورفعته لم يكن سوى أداة جهنمية لرزئه المبرم . فسارع في النزول الى الأرض وزلّت قدماه والتفّت ساقاه وتمايلتا ، ولكنه

وقد أحسَّ بظل العمود فوقه أكره نفسه على الجري . وكان الكرى قد أخذ بمقد كل جفن ، فاجتاز الساحة الكبيرة المحوطة بالحانات والنُزُل والفنادق ولم يَرَهُ أحد . واندفع الى درب مؤدٍ الى تلال ليبيه . وتبعه كلبٌ نابح لكنه وقف في منتهى رمال الصحراء فلم يعدها . وأمعن بافنوس السير في بلاد مسالكها مفاوز للوحوش الضارية . وخلّف وراءه الاكواخ التي هجرها مزيفو النقود . وقضى في فراره الموحش ذلك الليل والنهار الذي تلاه .

أخيراً ، وقد بلغ به الجوع والظمأ والإعياء حدَّ النزْع ، وهو لا يزال يجهل مبلغ بعد الله منه ، عثر على مدينة خيَّم عليها السكوت ، وقد انبسطت عن يمينه ويساره ممتدَّة أمامه الى ما وراء الأفق . وكانت مساكنها منفصلة بعضها عن بعض ومتشابهة كأنها أهرام قطعت الى منتصف ارتفاعها . تلك كانت أجداثاً ، محطمة الابواب . ومن خلال قاعاتها شخصت عيون الضباع والذئاب التي تطعم جراءها . وعلى مدخلها جثث الموتى ممدة وقد عرّاها اللصوص ونهشتها الحيوانات المفترسة . ولما اجتاز بافنوس هذه المدينة — مدينة الموتى — سقط منهوك القوى أمام قبر منفرد بقرب ينبوع يظلّله النخيل . وكان القبر كثير الزخرفة ولكنه بلا باب وفي داخله حجرة مملوءة بالأفاعي . فنهد قائلاً :

— هنا منزلي المختار ، هيكل توبتي وندامتي ، وخِباء حسرتي وانابتي

ثم دلف اليه ، وطرد الصلال بقدميه ، ولبث ملقى على الحجارة ثماني عشرة ساعة ، ثم ذهب الى الينبوع وشرب منه براحة يده ، وجمع قليلاً من التمر و بعض الحبوب من أغصان اللوتس فتقوّتها . واستصوب هذه المعيشة فجرى عليها . فما كان يرفع جبهته عن حجارة القبر من الصبح حتى المساء

* * *

ففي ذات يوم إذ كان مطروحًا على هذا الوجه سمع صوتًا يقول له :

— تأمّل في هذه الصور لتتعلَّمْ !

فلما رفع رأسه رأى فوق جدران الحجرة تصاوير تمثّل مشاهد مضحكة ومألوفة . وكانت قديمة العهد وغاية في الاتقان . بعضها يمثل طهاةً ينفخون في النيران بخدود منتفخة ، و بعضها يمثّل اناسًا ينتفون ريش الأوز أو يطبخون في الآنية شرائح الضأن ، و بقربهم صياد يحمل على كتفيه غزالة مزقتها السهام ، ومزارعين منهمكين بالزرع والحصاد ، ونساء يرقصن على نغمات الرباب والناي والعود . وفتاة تضرب بالطنبور وزهرة اللوتس تتألّق على شعرها الاسود

فدقَّ بافنوس جبهته بالحجارة ، وصرخ من شدة الفزع . وكانت الضاربة على الطنبور تترك الحائط في كل ليلة ، وتتقدم وتتكلم بصوت جلي ، ممزوج بأنفاسها البـاردة . ولما قاوم القديس هذه التجارب كلها ، قالت له :

— ملّك هواي فؤادك وأذعن لي ! ما دمت تقاومني فسأعذبك وانكّل بك . انك لا تعرف مبلغ صبر امرأة ميتة . سوف أنتظر اذا لزم الأمر حتى تموت ، و بوسعي ، لكوني ساحرة ، أن أضع في جثتك الهامدة روحاً تعيد اليها الحياة فلا تأبى إجابة ما رفضته الآن . فـكّر يا بافنوس في غرابة موقفك عند ما تنظر روحك السعيدة من علياء السماء فترى جثمانهـا يستسلم للخطيئة ! والله الذي وعد أن يرد اليك هذا البدن بعد يوم الحساب ونهاية الدهور سوف تعتريه هو أيضاً دهشة شديدة ! كيف يقدر أن يُحِلَّ في مجد سماوي جسماً بشرياً يسكنه شيطان وترعاه ساحرة ؟ انك لم تحسب حساب هذه المشكلة ، وربما لم يحسب الله لها أيضاً حساباً . إنه — والكلام بيني و بينك — ليس على شيء من الحذق والدهاء . وان أبسط ساحرة لتخدعه بسهولة . ولو لم يكن لديه رعده وجنادل سمائه ، لأخذه أطفال القرية بلحيته . الحق أنه ليس من الفطنة بمنزلة خصمه الثعبان المسنّ . فهذا الأخير فنّان عجيب . ولستُ على هذا الحسن والجمال الاّ لأنه أتقن زينتي ، وعلّمني كيف أضفر شعري ، وأجعل أصابعي

كالورد ، وأظفاري كالعقيق . وأراك قد استخففت به لما أتيت لتعيش في هذا القبر ، إذ أقصيت بقدميك الأفاعي التي كانت هنا وسحقت بيضها ، ولم تبحث عنها لتعلم هل كانت من أسرته . فأخشى يا صاحبي المسكين ان تكون قد سعيت إلى حتفك بظلفك ، وعلى نفسها جنت براقش ! ومع ذلك فقد أنذرت من قبل وجرى في علمك أنه موسيقار عاشق . فماذا فعلت ؟ انك تحدّيت العلم والجمال . فما أشق حظك وأعثر جدك ، أما « يهوه » فلن يجيء ليشد أزرك ، فهو ضخم بحجم الكائنات كلها ، فلا يستطيع التحرك لحاجته الى فضاء . واذا أتى بأقل حركة ، وهذا مستحيل ، انقلب الكون كله . . . يا ناسكي الجميل ، هاتِ قبلة !

لم يكن بافنوس يجهل ماتأتي به فنون السحر من غريب الفعال ، فحدث نفسه ، وقد ألحّ عليه الوهم والقلق :

— ربما كان الرجل المدفون هنا تحت قدمي عارفاً بسر الكلمات المسطورة في ذلك الكتاب المملوء بالألغاز ، في ضريح ملكي قريب من هنا . فبفضل هذه الكلمات يتخذ الموتى الاشكال التي كانت لهم على ظهر الأرض ، فيرون نور الشمس وبسمة المرأة

وكان أشد ما يخشاه أن تتعانق فتاة الطنبور والرجل الميت ، كما في الحياة ، فيراهما متلاصقين . . وخيّل اليه أحياناً انه سمع صوت قبلات خفيفة . . .

ملك الاضطراب زمام أمره . والآن ، وقد تخلّى عنه الله ، خاف الفكر كما خاف الشعور . وفي أحد الامساء ، بينا كان ساجداً كعادته ، قال له صوت مجهول :

— بافنوس ! ان على سطح الارض من الناس اكثر مما تظن . ولو أظهرت لك ما رأيت لمتّ من الخبل . فمنهم رجال لهم عين واحدة في وسط جباههم . ورجال لهم ساق واحدة يحجلون بدل المشي . ورجال من شجر تنمو جذورها في الارض . ورجال يغيرون أجناسهم ، وأناث يصرن ذكوراً . ورجال بغير رؤوس ولهم أيضاً عينان وأنف وفم في صدورهم – فهل تصدّق ، بذمتك ، ان المسيح قد مات لاجل خلاص هؤلاء الناس ؟

ورأى مرة أخرى رؤيا . رأى في نور ساطع جسراً وجداول وحدائق . وكان على الجسر أريستوبول وشيراس يركضان جواديهما السوريين ، وقد صبغ حب السباق وجنتهما بالاحمرار . وكان الشاعر كاليكرات ينشد أشعاره تحت إيوان ، والكبرياء الراضية تتهدّج في صوته وتشرق من عينيه . وكان زينوتميس في بستان يجمع تفاحاً ذهبياً ، ويلاطف ثعباناً ذا جناحين لازورديين . وهيرمودور يفكّر تحت شجرة لبخ مقدسة تحمل بدل الأزهار رؤوساً بشرية صغيرة ، أشرقت وجوهها وازيّنت كمعبودات المصريين ،

ونسـوراً وصقوراً ، وقرص قمر متألق ، بينما كان نسياس على حافة ينبوع يدرس ، فوق فلك حلقي ، حركات الكواكب المنتظمة . .

وعندئذ اقتربت من الراهب امرأة مقنّعة تحمل في يدها غصناً من الريحان ، وقالت له :

— انظر ! البعض ينشد الجمال الخالد و يطلب تأبيد حياته الفانية ، والآخرون قليلو الاكتراث ، ولكنهم باستسلامهم هـذا وحده للطبيعة الجميلة تراهم سعداء ذوي جمال وفي رغد من العيش يمجدون مبدع جميع الكائنات ، فالانسان هو أنشودة مطربة من أناشيد الله. وتراهم جميعاً يعدون السعادة جائزة والهناءة مباحة ، فاذا كانوا على حق صادقين ، فلشدّ ما تكون يا بافنوس غرًّا غافلاً

ثم زالت الرؤيا

* * *

وهكذا حاربت بافنوس التجارب والغوايات في جسده وعقله حرباً لا هدنة فيهـا . لم يدعه إبليس طرفة عين مستريحاً . وكانت وحدة ذلك القبر أعمر بالناس من مفارق الطرق في مدينة كبيرة . وضجّ الشياطين من حوله بالقهقهات المرتفعة . وقامت هناك ملايين من أشباح الموتى بأعمال الحياة العادية .ولما مضى في المساء الى الينبوع ، رقصت حوله المسخوطات مختلطات بإلهات الحقول . وقدنه في

دورانهن الفاسق . وعادت الشياطين لا تخشاه ، وأثقلت عليه بالمداعبات وغمرته بالشتائم البذيئة واللعنات واللطمات . وسرق منه يوماً شيطان، لا يزيد طوله عن طول ذراعه، الحبل الذي يتمنطق به. فناجى نفسه بقوله :

— أيها الفكر ، الى أين اقتدتني ؟ . .

فصمم على أن يشتغل بيـديه ، كي يمكن عقله من الراحة التي كانت تعوزه . وكان بقرب الينبوع أشجار موز كبيرة الورق ناميـة في ظل النخيل . فقطع جذوعها وحملها الى القبر حيث سحقها بحجر وحوّلها الى ألياف أوخيوط دقيقة مثلما شاهد صانعي الحبال يعملون. لأنه ارتأى صنع حبل بدل الذي سرقه الشيطان منه . فأحس الشياطين ببعض الانزعاج وكفّوا عن ضجيجهم. وأقلعت فتاة الطنبور عن السحر، واستكنّت على الجدار الملوّن . وشدّدَ بافنوس شجاعته وايمانه وهو يدق سيقان الموز، وحدث نفسه بما يأتي :

— سأتغلب بعون الله على الجسد ، أما الروح فقد احتفظت بالرجاء . وعبثاً تحاول الشياطين وهذه المرأة الجهنمية ان تدخل على نفسي الشكوك في طبيعة الله . سأجيبها بلسان يوحنا الرسول : « في البدء كان الكلمة ، وكان الكلمة الله » . إن ايماني بهذا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وان كان هذاالذي أؤمن به لغواً

باطلاً زدت إيماني به رسوخاً وثباتا . بل انه يجب أن يكون لغواً باطلاً ولو لم يكن كذلك لما كنتُ أؤمن به بل كنت أعرفه . فالآن لا تمنح المعرفةُ الحياةَ ولكنَّ الايمان وحده هو الذي ينقذ

عرَّض الألياف المنسولة للشمس والندى . وعُني في كل صباح بتقليبها لئلا تتعفن . وسرَّ باحساسه بأن سذاجة الطفولة قد انبعثت في نفسه . ولما جدل الحبل قطع الخوص ليصنع منها حصراً وسلالاً . فأشبهت حجرة الضريح مشغل صانع السلال . واستطاع بافنوس أن ينتقل فيها بسهولة من العمل الى الصلاة . بيد أن الله تعالى كان لا يزال معرضاً عنه، لأنه استيقظ في إحدى الليالي على صوت ثلُجت بسماعه أطرافهُ رعباً ، إذ عرف فيه صوت الرجل الميت

دعا الصوت مستعجلاً بهمس خفيف :

— هيلين ! يا هيلين ! تعالى استحمي معي ، تعالي سريعًا !

فأجابته امرأة لامسَ فمها اذن الراهب :

— لا أستطيع النهوض يا حبيبي ، ان رجلاً راقداً فوق صدري .

فأحسَّ بافنوس فجأة بخده وقد استقرَّ على صدر امرأة ، عرف انها الضاربة بالطنبور ، ولكنها تخلصت قليلاً ورفعت صدرها ،

فتعلق بافنوس تعلق اليائس بالجسد الناعم ، الدافىء ، العطر ، وصاح وقد اضنته مُنيةُ القضاء المبرم والرغبة في الموت الزؤام

— إلبثي ، إلبثي يا سماني !

لكنها كانت إذ ذاك واقفة بالباب ، فضحكت ، وفضّضت أشعة القمر ابتسامتها ، وقالت :

— وماذا يفيدك بقائي ؟ ان ظل الظل يكفي عاشقاً مثلك وُهب له مثل هذا الحدْس النيّر ، فضلاً عن إنك قد أثمت ، ففيم ترغب بعد ذلك ؟ وداعاً ! ان عشيقي يناديني . .

قضى بافنوس الليل في بكاء ونحيب ، ولما لاح الفجر ، فاه بضراعة أرق من شكاية ، قال :

— يا يسوع ! يا سيدي يسوع ! لماذا تتخلى عني ؟ إنك ترى الخطر المحدق بي . فتعال شد أزري أيها المخلّص الحليم . هوذا أبوك أصبح لا يحبني ولا يسمعني ، فاذكر انه لم يعدْ لي سواك . إنه لا يُرجى منه شيءٌ لي . إنني لا أستطيع إدراك كنهه ، وهو لا يرق لحالي . لكنك ولدت من امرأة ، وهذا ما يجعلني أطمئنّ اليك ، وارجو الخير على يديك . تذكر إنك إنسانٌ . انني اضرع إليك لا لأنك نور من نور ، وإله حقّ من إله حقّ ، بل لأنك عشت معدماً وضعيفاً على هذه الأرض حيث اشقى واعاني . ولأن الشيطان جرّب

جسدك ،ولأن عرق النزع ثلَّج جبينك .لانسانيتك يا معلم الانسانية اصلي واتوسل ، يا سيدي يسوع ، يا أخي يسوع !

ولما فرغ من ابتهاله ، وقَلَب كفيه ، اهتزّت جدران القبر بقهقهات مهيبة متتابعة . وقال له الصوت الذي سمعه فوق قمة العمود، استهزاء :

— إن هذا الدعاء جدير بصلوات ماركوس الضال . ان بافنوس اريوسي (١) ! بافنوس اريوسي !

فكأنما انقضّت صاعقة على الراهب ، فخرّ مغشياً عليه

. . . .


(الخير والشر)

. . . .

° ° °

لما افاق بافنوس وفتح عينيه ، رأى حوله رهباناً في حال سوداء، وكانوا يصبون الماء على صدغيه ويتلون التعاويذ ، وقد وقف كثيرون منهم خارج القبر حاملين سعف النخل

---

(١) الاريوسي هو من ينكر لاهوت السيد المسيح عليه السلام. — (المترجم)

قال له احدهم :

— سمعنا ، ونحن نجتاز الصحراء ، صيحات مرتفعة من هذا القبر ، فدخلنا ، فألفيناك طريحاً فوق الحجارة مغمى عليك . ولا ريب ان الشياطين صرعوك ، ولما شعروا بدنونا ولّوا هاربين . . .

فرفع بافنوس رأسه ، وسأل بصوت خافت :

— من أنتم يا إخواني ؟ ولماذا تحملون سعف النخل ؟ أوليس هذا لأجل دفني ؟

فأجاب أحدهم :

— ألا تعلم يا أخي أن أبانا أنطوان ، وقد بلغ من العمر خمساً بعد المائة ، قد أتاه نذير بأن نهايته دنت ، فنزل من جبل كلزان ، حيث كان معتزلاً ، ليبارك ابناءه الروحيين الكثيرين . . فها نحن أولاء ذاهبون حاملين السعف لنلقى أبانا الروحي . فكيف بقيت جاهلاً مثل هذا الحادث الجلل ؟ أفلم يأتِ الى هذا القبر ملك لينبئك ؟

فأجاب بافنوس :

— وا أسفاه ! لست جديراً بمثل هذا الفضل العظيم . وليس

سكان هذا الربع سوى عفاريت ووطاويط . صلوا من أجلي ، أنا بافنوس ، كبير رهبان أنصينا ، أشقى عباد الله ...

فلما سمعوا اسم « بافنوس » هزّوا سعفهم ، وردّدوا التسابيح ، وصاح الذي تكلم من قبل ، متعجباً :

— أفيمكن أن تكون أنت بافنوس ذلك القديس الذائع الصيت بأعماله ، حتى أن النـاس يعدونه بالغاً يوماً في الفضل مبلغ انطوان العظيم ؟ يا أقدس قديس انك أنت الذي هدى العاهر تاييس الصراط المستقيم ، وأنت الذي إذ صعد على عمود عال حملته الملائكة ، فرأى الذين يخفرون العمود ليلاً انتقالك الميمون الى السماء . وقد أحاطت بك أجنحة الملائكة في سحابة بيضاء ، وامتدت يدك اليمنى وباركت مساكن البشر . وفي صباح اليوم التـالي إذ لم يرك الناس ، ارتفع أنين طويل الى العمود غير المتوّج . على أن تلميذك فلافيان أذاع المعجزة وقام مقامك في تولي شؤون الرهبان . لكنّ رجلاً واحداً ساذجاً يُدعى بولس ، حاول أن ينقض ما أجمعت عليه الآراء ، فقد أكّد أنه رآك في حلم محمولاً بالشياطين .. فأراد الناس أن يرجموه ، وقد نجا من الموت بأعجوبة . وأنا « زوزيمس » رئيس هؤلاء المتنسكين الساجدين عند قدميك ، أركع امامك مثلهم ،

كي تبارك الأب مع الابناء ، ثم تخبرنا بالعجائب التي أنعم الله عليك بأن أجراها على يديك

فأجاب بافنوس :

— لست أستحقُّ شيئاً مما وصفتني به . فان الرب قد بلاني بأهول التجارب . ولم تحملني الملائكة ، بل انَّ حائطاً من الظل قام أمام ناظري وتقدَّمني . . لقد عشت في حلم ، وكل شيء من دون الله حلم . لما شخصتُ الى الاسكندرية سمعت في بضع ساعات خطباً كثيرة ، وعرفت أن جيش الضلال لا عدد له ، وقد طاردني ، وأحاطت بي سيوفه . .

فأجاب زوزيمس :

— علينا أن نذكر يا أبي الموقر ، أن الأولياء ، لاسيما المتنسكون منهم ، يُعرَّضون لتجارب مخيفة ، واذا لم تكن أذرع الملائكة قد حملتك الى السماء ، فمن المحقق أن الرب قد أنعم بهذا الفضل على صورتك ، إذ كان فلاڤيان والرهبان والناس شهوداً على صعودك الى السماء

فعزم بافنوس على الذهاب لتلقي بركة انطوان ، وقال :

— اعطني يا أخي زوزيمس سعفة ، ولنتوجه للقاء أبينا .

فأجاب زوزيمس :

— هيابنا ! ان الأوامر العسكرية تلائم الرهبان ، الذين هم جنود قبل كل شيء . ولأننا كلينا رئيسان فسنسير في المقدمة ، وأولاء يتبعوننا وهم يرتلون المزامير

بدأوا المسير ، وقال بافنوس :

— الله أحد ، لأنه الحق الذي هو واحد . والدنيا شتّى ، لأنها غيٌّ وضلال . على المرء أن يُعرض عن مشاهد الطبيعة كلها حتى التي تظهر أنها غاية في الطهارة والبراءة . فتنوّعها الذي يزيّنها لنا انما هو دليل على شرّها المستطير . أنا لا أقدر على رؤية حزمة من البردى فوق المياه الراكدة بغير أن تتشعّب نفسي الهموم وتساورني الكآبة . كل شيء تحسُّ به المشاعر وتدركه قبيح كريه . أصغر حبة من الرمل ذات خطر شديد . كل شيء يفتننا ويصيبنا بالإحن والنكبات . وما المرأة الأّ مزيج من كل هذه الغوايات السابحة في النسمات الرائقة ، وعلى الأرض المزهرة ، وفي المياه الصافية . فطوبى لمن تكون روحه وعاء مختوماً ! طوبى لمن يعرف كيف يكون أصمّ وأبكم وأعمى ، ولا يدرك كنه شيء في الدنيا ، ليدرك كنه الله !

فمكر زوزيمس في هذا الكلام ، واجابه بقوله :

— ينبغي لي يا أبي المحترم أن أقرَّ لك بآثامي مادمت قد كشفت لي عن ذات نفسك . وهكذا يعترف كلٌ منا للآخر طبقاً للعادة الرسولية . لقد حييت قبلما أترهب حيــاة الرذيلة . ضربت في أرجاء « مادورا » وهي مدينة مشهورة بغوانيها . وبحثت عن صنوف التمتع وضروب التلذذ . وكنت في كل ليلة أتعشى مع بنات الهوى والفتيات العازفات بالناي . وآخذ الى بيتي من تستهويني منهن . وليس في وسع قديس مثلك أن يتصوّر مطلقاً الى أي درك هوت بي شهواتي . يكفيني أن أقول لك انني لم أغادر كهلة صالحة أو راهبــة ، فأتيت المنكر ، وارتكبت كل محظور ومحروم . وقد هيجت حرارة مشاعري بالخمر ، حتى شهد لي أهل مادورا بأنني أشد السكيرين إغراقاً في رشف بنت الحان ، وأقدرهم على استفراغ الدنان . ومع ذلك كنت مسيحياً ، واحتفظت مع كل حماقاتي وضلالاتي بايماني بالمسيح المصلوب . وأخيراً ، استغرقت عيشة الخلاعة والاسراف كل مالي . وبدأت أشعر بغصص الفاقة ، واذا بي أرى أحد رفقاء مسراتي قد أصيب فجأة بداء عضال فظيع . فلم تعد ركبتاه تقويان على حمله ، وعصته يداه المرتعشتان ، وأُغمضت عيناه الخابيتان ، فما كانت تصدر من حلقه الأّ تأوهات مروعة . وكلَّ

ذهنه ، فهجع ، إذ مسخه الله حيوانًا تنكيلاً به لأنه عاش كالحيوان. ولقد كان لي في ضياع مالي تبصرة نافعــة ، لكن مثَل صديقي كان أبلغ وأنفع . وأثّر في نفسي بحيث جعلني أترك الدنيا على الفور وانزوي في الصحراء . وفيها تمتعت عشرين حولاً بسلام لم يكدّر صفوه شيء قط . فكنت أعمل مع رهباني حائكاً ، وبنّاء ، ونجاراً ، وكاتباً مع انه والحق يقال لم يكن لي نحو الكتابة الاّ ميل ضئيل ، إذ آثرت دائمًا العمل على القول ، وفضّلت الفعل على الفكر . وها هي أيامي ملؤها الفرح ، ولیالي بغير أحلام ، واني لأعدّ نعمَ الله تعالى عليّ فلا أحصيها ، لأنني احتفظت بالأمل حتى في إبّان اشد المعاصي هولاً . . .

فلما سمع بافنوس هذا القول ، رفع بصره الى السماء ، وتمتم :

— أترحم يارب هذا الرجل المدنس بهذه الخطايا كلها ، أترحم هذا الزاني ، أتكلأ بعين رعايتك هذا المنتهك للحرمات ، ثم تعرض عني أنا الذي كنت آتمر بأمرك ، وأنتهي بنهيك !؟ ما أشد غموض عدالتك يا إلهي ! وما أبعد طرقك عن الإدراك !

فمدّ زوزيمس ذراعيه قائلاً :

— انظر يا أبي الموقر ، ترى على جانبي الأفق صفوفاً طويلة

سوداء كأنها نمل راحل . اولئك اخوتنا ذاهبون مثلنا للقاء انطوان

ولما وصلوا الى الملتقى ، رأوا مشهداً بديعاً . كان جيش النسّاك يمتد ثلاثة صفوف في نصف دائرة كبيرة . فالصف الاول يتألف من سكان الصحراء الأقدمين ، بأيديهم الصلبان وقد تدلَّت لحاهم الى الأرض . والصف الثاني من الرهبان الذين تحت امرة « افرايم » و « سرابيون » ومعهم نساك النيل . ووقف وراءهم الزاهدون الذين توافدوا من معاقلهم النائية . وارتدى بعضهم أطماراً لا تكاد تستر أجسادهم السوداء الذابلة . وكان كثيرون منهم عُراةً غير أن الله قد كساهم شعراً كثيفاً كجزّة الغنم . وكانوا جميعاً يحملون السعوف الخُضر في أيديهم . فأشبهوا قوس قزح من زمرّد . ويصح تشبيههم بفرقة المرتلين المجتبين ، أو بجدران حية من مدينة الله . .

وكان المحفل منظماً تنظيماً تامّاً ، حتى ان بافنوس لم يجد أقلّ صعوبة في العثور على مرءوسيه من الرهبان . فاتخذ مكاناً بقربهم بعد ما احتاط في اخفاء وجهه بحجابه ليبقى مجهولاً عندهم ولا يكدر عليهم ترقبهم الديني . وبغتةً ، تعالى هتاف الجميع حتى بلغ عنان السماء:

— القديس ! القديس ! هوذا الولي العظيم ! هوذا حبيب الله الذي لم تتغلب عليه جهنم ! أبونا أنطوان !

ثم ساد السكوت ، والتصقت كل الجباه بالرمال . فتقدم انطوان من قمة اكمة في الصحراء ، يسنده تلميذاه المحبوبان ماكاريوس وأماتاس ، وسار الهوينا منتصب القامة ، يشعر الناظر اليه بأنّ فيه بقية من قوة فائقة . وقد سترت لحيته البيضاء صدرَه العريض . وانعكس عن جمجمته المصقولة اللامعة شعاع النور كما عن جبين موسى . وكان لعينيه نظر النسر ، وعلى فمه بسمة الطفل . فبارك قومه بأن رفع ذراعيه اللتين أوهنهما عمل شاق مدة قرن كامل . وجهر صوته ، لآخر مرة ، بكلمات المحبة الآتية :

— ما أجمل خيامك يا يعقوب ! وأخبيتك يا اسرائيل !

فارتفعت في الحال من أقصى الحائط الحي إلى أقصاه ، مثل قصف الرعد المتوازن ، أنشودة : **طوبى للذي يخاف الرب**

ثم تفقّد انطوان مع ماكاريوس وأماتاس صفوف الشيوخ والرهبان والنساك . هذا الرجل الذي رأى السماء وجهنم ، هذا الزاهد الذي حكم الكنيسة المسيحية من قلب معقله ، هذا القديس الذي ثبّت يقين الشهداء في أيام المحن والاضطهاد ، هذا اللاهوتي الذي صعقت فصاحته أهل الضلال — أخذ يخاطب ابناءه واحداً بعد واحد ، برقة وحنان ، ويودعهم وداعاً جميلاً في عشية ميتته السعيدة التي وعده بها الله الذي أحبّه

قال للرئيسين افرايم وسرابيون :

— انكما تقودان الجيوش الجرّارة ، وكلاكما ماهر ومتدرّب في فنون الحرب ، لذلك سوف تتقلّدان في السماء سلاحاً ذهبياً ، ويمنحكما ميخائيل رئيس الملائكة لقب قائدي قواته .

ولما رأى الشيخ بالمون عانقه وقال :

— هذا أعزّ أولادي وأفضلهم جميعاً . لروحه شذا عطري كأريج زهر الفول الذي يزرعه في كل عام .

ووجه الى الرئيس زوزيمس هذه الكلمات :

— انك لم تقنط من رحمة الله ، لذلك فسلام الله فيك وعليك ، وقد أزهرت زنبقة فضائلك على سباخ فسقك .

وكان كلامه مع كلٍّ منهم مملوءاً حكمة وارشاداً .

قال للشيوخ :

— رأى الرسول حول عرش الله أربعة وعشرين شيخاً في ثياب بيضاء ، وعلى رؤوسهم التيجان .

وقال للشبان :

— افرحوا وابتهجوا ، ودعوا الحزن للسعداء في هذه الحياة الدنيا .

وهكذا طاف مقدمة جيشه البنوي ، يمحض النصح ، ويبذر العظات . فلما رآه بافنوس يقترب منـه ، خرّ ساجداً ، يتنازعه الخوف والأمل ، وصاح غاصًا بآلامه المبرحة :

— أبتاه ! أبتاه ! أبتاه ! أغثني فاني من الهالكين . لقد وهبت روح تاييس لله ، وعشت فوق قمة عمود ، وفي قاع قبر . فتصلبت جبهتي من طول التصاقها بالرغام حتى صارت مثل ركبة الجمل ، ومع ذلك لا يزال الله معرضاً عني . باركني يا أبت فأنجو . هزّ الثغام فأطهر وأعود نقيًا أتلألأ كالثلج .

فلم يجبـه أنطوان . بل رشق رهبان انصينا بتلك النظرة التي ما كان بوسع أحد الثبات امامها . . ثم استقر ناظراه على بولس ، الملقب بالساذج ، فحدق اليه طويلاً ، ثم أشار اليه بالدنو منه . ولما أبدى الجميع دهشتهم لمخاطبة القديس رجلاً مختـل الشعور ، قال انطوان :

— ان الله قد أنعم على هذا الرجل بما لم ينعم به على أحد منكم . ارفع بصرك يا ولدي بولس ، واخبرنا بما تراه في السماء .

فرفع بولس الساذج عينيه ، وأشرق وجهه ، وانطلق لسانه ، فقال :

— أرى في السماء سريراً مزداناً بسجوف من أرجوان وذهب، تحيط به ثلاث عذارى ساهرات على حفظه، كي لا تقرب منه روح غير الروح المجتباة التي أُعِدَّ لها السرير . .

فبادر بافنوس يردد الشكر لله حاسباً أن هذا السرير رمز الى تمجيده . لكن انطوان أشار اليه بالصمت والاصغاء للساذج الذي تمم في ذهول الجذب ، قائلاً :

— العذارى الثلاث يخاطبنني قائلات : « ان قديسة على أهبة مفارقة الأرض ، تاييس الاسكندرية على وشك الموت ، وقد أعددنا لها مضجع مجدها ، لأننا نحن فضائلها :

« الايمان . والخوف . والحب »

فسأل أنطوان :

— وماذا ترى أيضاً يا بني الحبيب ؟

فنظر بولس بيله ، من سمت الرأس الى سمت القدم ، ومن المغرب الى المشرق ، ثم وقع ناظراه فجأة على كاهن انصينا ، فشحب وجهه من جزع قدسي ، وعكست حدقتاه لهباً خفياً ، وقال :

— أرى ثلاثة زبانيــة قد امتلأُوا فرحاً ، واستعدُّوا لقبض هذا الرجل ، وهم يشبهون برجاً وامرأة وساحراً . والثلاثة يحملون

أسماءهم موسومة بميسم من حديد حامٍ ، الأول على جبينه ، والثاني على بطنه ، والثالث على صدره ، وأسماؤهم هي :

« الكبرياء . واللذة . والشك »

لقد رأيت هذا كلَّه .

ثم عاد بولس إلى حالته الأولى من البساطة ، بعينيه الغائرتين ، وحنكه المعلّق

ولما نظر رهبان أنصينا الى أنطوان بقلق ، فاه القديس بهذه الكلمات :

— قد أعلن الله حكمه العادل ، فلنعبده ونحن سكوت .

ثم سار وهو يبارك الجوع . وكانت الشمس قد بلغت الأفق ، فزملّته بالمجد ، وامتد ظله خلفه — بمنّة من السماء — امتداداً عظيماً كبساط لا آخر له ، رمزاً الى التذكار الطويل الأمد الذي سيخلفه هذا الولي العظيم بين البشر . .

***

أما بافنوس فقد وقف مصعوقاً ، ولم يرَ ولم يسمع شيئاً غير الكلمات التي ملأت وحدها أذنيه ، وكانت : « تاييس على وشك

الموت ! » . لم يخطر ببـاله قط مثل هذا الفكر . فقضى عشرين سنة يتأمل في رأس مومياء ، ومع ذلك أدهشه تصوُّر أن الموت يغمض عيني تاييس !

« تاييس على وشك الموت ! » قول غير معقول ! « تاييس على وشك الموت ! » يا لشـدة الهول المروع في هذه الكلمات الاربع ! . « تاييس على وشك الموت ! » إذاً فما الحاجة للشمس والأزهار والغدران والبرايا جميعاً ؟ « تاييس على وشك الموت ! » فما فائدة الكون ؟

ثم وثب فجأة صارخاً : « اذهب لتراها ، لتراها مرة أخرى ! » وأخذ يعدو . ولم يدر أين هو ، ولا إلى أين يذهب . لكن الوجدان قاده وسدَّد خطاه . فسار رأساً الى النيـل . وكان سطحه مغشياً بشُرُع المراكب فقفز الى ظهر سفينة لبعض النوبيين . وهناك انبطح في مقدمتها ، تلتهم عيناه الفضاء ، وصرخ بحزن وغضب :

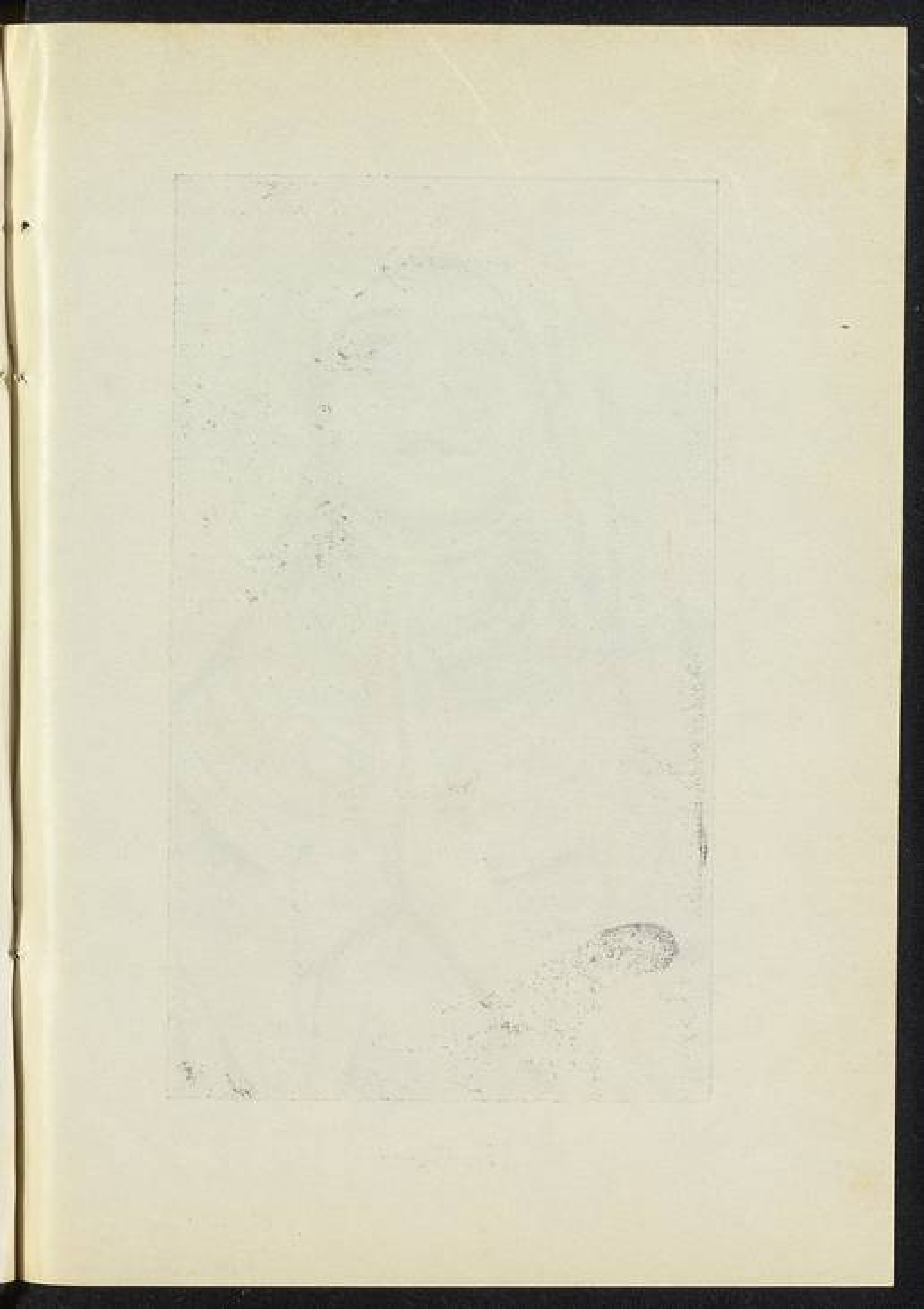
— تباً لي من مجنون معتوه ، لأني لم أحظ بتاييس لما سمح الزمان ! ياما أشدَّ حماقتي لأني اعتقدت أن في الدنيا شيئاً سواها ! يا ويح الجنون ! لقد فكرت في الله ، وفي خلاص نفسي ، وفـي الحيـاة الأبدية ، كأنما كل هذه تعدّ شيئاً مذكوراً جنب رؤية تاييس . كيف لم أدرك أن السعادة الأبدية انما هي في قبلة واحدة

من قبلاتها ، وان الحياة بدونها لا معنى لها وليست سوى حلم مزعج ؟ يالك من غبي أخرق ، تراها ثم لا تفتأ ترغب في طيبات عالم ثان ؟ يالك من نذل جبان ، تراها وتخشى الله ؟ الله ! السماء ! ما هما وما نصيبي منهما ؟ وهل يساوي ما يمنحانه لي أقل جزء مما كانت ستمنحه لي تاييس ؟ أفٍ لك من معتوه سخيف بحث عن رأفة الله وطلبها في كل مكان الأعلى شفتي تاييس ! أية يد غطّت عينيك ؟ ألا فليكن ملعوناً ذاك الذي أعماك حينذاك ! كنت تستطيع أن تشتري بثمن قصاص الآخرة دقيقة من حبها والتمتع بها فلم تفعل ! لقد فتحت لك ذراعيها ، المفطورين من لحم ممتزج بعطر الزهر ، ولم تملْ لذة الغرق في حضنها ، والاستناد الى صدرها العاري الذي لا يوصف !

لقد أصخت الى الصوت الحسود الذي قال لك : « أعرض عن هذا » . . فيالك من مغفل ، مغفل شقي ! آه يا للحسرات ! يا للندامات ، أوّاه يا لليأس ، يا لخيبة الأمل ! لحرماني أن أحمل الى الجحيم ذكرى تلك الساعة التي لا تنسى ولا تمحي ، صارخاً الى الله : « احرق لحمي ، جفف الدماء التي في عروقي ، اسحق عظامي ، غير انك لن تستطيع أن تنتزع مني التذكار الذي يعطرني وينعشني للأبد ، والى الأبد ! . . تاييس على وشك الموت ! ليتك يا الله



(تاييس القديسة)



تعلم كم أسخر من جهنمك ! تاييس على وشك الموت فلن تكون لي أبداً ، أبداً ، أبداً ! »

وبينا السفينة تتبع التيار السريع ، لبث طوال أيامه منكبًا على وجهه ، يكرر :

— أبداً ! أبداً ! أبداً !

ولما ذكر أنها وهبت نفسها للجميع إلاَّ له ، وأنها سكبت على العالم مياه الغرام وهو وحده لم يبلل منها شفتيه ، وقف في حالة عتوّ ونفور ، وولول حزنًا ، ونشج توجعًا ، ومزّق صدره بأظفاره ، وعضّ زنديه ، وحدث نفسه :

— ليتني أجد سبيلاً الى قتل من أحَبَّتْهم أجمعين

فملأته فكرةُ هذا التقتيل بحمياً لذيذة وحنق عذب ، ففكرَّ في ذبح نسياس ، على مهل رويداً رويداً ، بينا هو يحدق في قرارة ناظريه . ثم ما لبثت حميته أن خمدت فجأةً ، فبكى وتأوه ، ووهن العظم منه فارتدّ ضعيفًا وديعًا ، وسكَّن اضطراب نفسه حنوٌّ مجهول . تملكته رغبة الارتماء على عنق رفيق صباه ، يقول له :

« نسياس اني أحبك لأنك أحببتها . حدثني عنها ! اخبرني بما قالته لك . »

وكانت مرارة تلك الجملة : « تاييس على وشك الموت ! » لا تزال عالقة بألياف قلبه :

— يا أنوار النهار العسجديةً ! يا أظلال الليل الفضية ! أيتها النجوم ! أيتها السموات ! أيتها الاشجار المرتعشة قممها ! أيتها الوحوش الضارية ! أيتها الحيوانات الأليفة ! يا نفوس الرجال المتلهفة! ألا تسمعون : « تاييس على وشك الموت ! » . أيتها الأنوار الساطعة والأنفاس الصاعدة ، والعطور الطيبـة — امّحي وافني ! يا بهاء الكون ورواءه ، وأشكاله وأفكاره — اختفي واختبئي !

« تاييس على وشك الموت ! ... » تاييس كانت جمال العالم ينعكس حسنها على كل ما يقربها فيصبح زينة للناظرين .. ما كان ألطف ذلك الشيخ الهرم ، واولئك الحكماء الذين جلسوا بقربها في مأدبة الاسكندرية ! ما كان أمتع حديثهم وأرقه ! إن سرباً من الضحكات الرائقة حام حول شفاههم ، وضمّخ السرور خواطرهم . ولأن أنفاس تاييس هبّت عليهم ، فكلُّ ما قالوه فاح حباً ، وجمالاً ، وحقاً . ولقد خلع الالحاد الجميـل على أفواههم ثوبَ ملاحته . فأفصحوا ببلاغة عن الجلال البشري .. وا أسفاه ! ليس كل ذلك الآن الأ حلماً . تاييس على وشك الموت ! أوّاه ! ما أشد بداهة أني مائت لموتها ! ولكن .. أنّى لك الموت أيها النطفة القذرة

الجافة ، أنّى لك الموت أيها الجنين المنقوع في مرارة الضرّ وحزازة الدمع ؟ أيها السِقط الشقي هل يعلق بوهمك أنك ستذوق طعم الموت ، أنت الذي لم يعرف الحياة ؟ . لكن لعل الله يكون موجوداً فيقضي عليّ بعذاب الآخرة ! هذا رجائي ومشتهاي . أيها الإله الذي أمقته ، استجب لي ! اقذف بي الى جهنمك وبئس المصير . واني لكي أكرهك على فعل ذلك ، أبصق في وجهك . . يجب أن أجد جحيماً أبديةً لا ينطفىء سعيرها ، ولا تخبو نيرانها ، كيما أستطيع أن ابحّر فيها أبدية السخط التي احتوت عليها نفسي

. . . .

. . . .

وعند طلوع الفجر ، تلقت « ألبين » كاهن أنصينا في مدخل الصوامع . فقالت له :

— مرحباً بك أيها الأب الموقر في أخبية السلام . انك آت بلا شك لتبارك القديسة التي أعطيتنا اياها . أنت تعلم أن الله قد دعاها اليه . وكيف لا تعلم البشائر التي يحملها الملائكة من بادية الى بادية ؟ حقاً لقد دنت تاييس من نهايتها السعيدة ، فقد تممت أعمالها . وعليّ أن أخبرك بكلمات وجيزة عن سيرها في الزمن الذي قضته بيننا بعد رحيلك ، وكانت حبيسة الصومعة التي أقفلتها بخاتمك ،

أرسلت اليها مع طعامها نايًا كالذي تضرب به الفتيات اللواتي يحترفن حرفتها في الولائم والحفلات . فعلت ذلك لكيلا تتشعبها الهموم وتكتئب . وكي تظهر امام الله سبحانه من البراعة والمواهب ما لا يقلُّ عمّا أظهرته امام الناس . وقد أحسنت صنعًا وكنت صادقة الفراسة . لأن تاييس أخذت توقع يوميًا على النـاي مدائح « مخلّص البشر » . وقالت العذارى اللائي شاقتهن أنغام الناي الخفي : « انَّا نسمع عنديب الخمائل السماوية ، نسمع أوزّة يسوع المصلوب التي تحتضر » . كذلك قضت تاييس توبتها . وبعد ستين يومًا فتح الباب الذي ختمته من تلقاء نفسه ، وانكسر الختم الصلصالي من غير أن تمسّـه يد بشرية . فأدركت من هذه العلامة ان الله تعالى قد غفر للضاربة بالناي خطاياها . ومن ذلك الحين شاركت بناتي في عيشهن فكانت تعمل وتصلي معهن . وصارت لهن قدوة صالحة بما في حركاتها وكلماتها من حشمة ووقار . وكانت بينهن مثال الخفر والعفاف . وفي بعض الأوقات ، كان يتقسّمها الهم والشجن ، ويتناوبها الغم والحزَن ، غير ان هذه السحب ما لبثت أن تقشعت . ولما رأيت انها شديدة التعلق بالله ، منقادة اليـه بالايمان والأمل والحب . لم أخف أن أستخدم فنها ، بَلْهَ جمالها ، في تهذيب أخواتها . فدعوتها لتمثل أمامنا أعمال النساء الشهيرات ، والعذارى العاقلات اللواتي ذكرهن الكتاب المقدس . فمثلت استير ودبورة

ويهوديت ومريم اخت لعاذر ومريم ام يسوع . اني عاملة علم اليقين يا أبي الموقر بما ينال قداستك وورعك من جزع لذكرى تلك المشاهد التمثيلية . بيد أنك لو كنت رأيتها في تلك المشاهد الصالحة تتفجَّر في عبراتها الصادقة ، وتمدّ ذراعيها كالسعف نحو السماء ، إذاً لتأثرت أشدّ تأثر . سست النساء ورعيتهن زماناً طويلاً ، ومن مبدئي أن لا أقاوم طبيعتهن ، فليست كل البذور تنبت أزهاراً متشابهة ، وليست كل النفوس تطهّر بوسـيلة واحدة . ويجب أن نذكر أيضاً أن تاييس قد وهبت نفسها لله وهي لا تزال شائقة فاتنة في ريعان صباها . وأن تقدر مثل هذه التضحية ، التي ان لم تكن منقطعة النظير ، فهي بلا مراء نادرة الحصول . هذه الملاحة ، ثوبها الطبيعي ، لم تفارقها بعد ثلاثة أشهر من اصابتها بالحمى التي تكاد تودي بها . وكانت اثناء مرضها تطلب بالحاح أن ترى السماء ، فأمرت بأن تنقل في كل صباح الى صحن الدير قرب البئر تحت شجرة التين القـديمة ، التي في ظلّها كانت رئيسات الدير يقمن محافلهن . ستجدها هناك أيها الأب المحترم ، لكن خفّ واسرع ، ان الله يدعوها اليه ، ولا تلبث أن تلبي الدعوة . وفي هذا المساء يغطي الكفن ذلك المحيّا الذي فطره الله لافساد العالم واصلاحه ..

. . . . .

تبع بافنوس ألبين إلى الساحة المغمورة بنور الصباح . وكانت

تاييس راقدة على الفراش في ظل شجرة التين ، يغشاها بياض ناصع ، وقد تعارضت ذراعاها على صدرها ، ووقفت بجانبها امرأة مقنعة ، تردد صلاة النزع :

— ارحمني يا الله كعظيم رحمتك حسب كثرة رأفتك امح معاصيَّ !

فناداها :

— تاييس !

فرفعت جفنيها ، وولت مقلتيها البيضاوين صوب الصوت .

فأشارت ألبين الى النساء المحجبات أن يتراجعن بضع خطوات

وكرّر الراهب نداءه :

— تاييس !

فرفعت رأسها ، وخرج من بين شفتيها الباهتتين همس خافت :

— هذا أنت يا أبي ؟ . . أتذكر ماء الينبوع ، والتمر الذي لما هززنا الينا الجزع تساقط رطباً جنياً ؟ . . في ذلك اليوم يا أبي ، ولدت للحب . . للحياة .

ثم انقطعت عن الكلام ، وعاد رأسها فسقط .

دَهِمِهَا الموت ، وكلَّلَ العرق البارد جبينها . ومزّق جلال السكوت صوت يمامة نائحة . . ثم امتزجت تنهدات الراهب وزفراته بمزامير العذارى :

— **اغسلني كثيراً من اثمي ومن خطيئتي طهرني . لاني عارف بمعاصي وخطيئتي امامي دائماً .**

ثم جلست تاييس فجأة في فراشها ، وانفتحت عيناها البنفسجيتان ، وقالت وهي تحدق الى الأفق ، وقد مدت ذراعيها نحو التلال البعيدة :

— هوذا ورد فجر الصباح الأبدي !

لمعت عيناها ، وصبغت حمرة خفيفة وجنتيها . و بدت أحلى وأجمل مما كانت فى أى وقت من الاوقات . فركع بافنوس أمامها ، واحتضنها بين ذراعيه الأسمرين ، وصرخ بصوت بلغ من الغرابة مبلغاً أنكره هو نفسه :

— لا تموتي ! اني أحبك فلا تموتي ! اصغي لي يا حبيبتي تاييس . لقد خدعتك ومكرت بك . وما كنت الاّ معتوهاً شقياً . ان الله والسموات ليست شيئاً مذكوراً . ما من شيء له وزن وهو حق الاّ الحيـاة الدنيا متاع السرور ، والاّ الحب الجسدي . اني

احبك ! فلا تموتي لا تدعني للمنون ! ذلك يكون محالاً وامراً باطلاً . انك جميلة فتّانة آية الآيات . تعالي نتبادل الحب ونرشف كؤوسه . اصغي لي يا حبيبتي واسمعيني وقولي : « سأعيش لاني راغبة في العيش سوف أحيا اني أريد الحياة » . تاييس ، تاييس ، انهضي !

لم تسمعه . كانت عيناها تحدقان الى اللانهاية . .

تمتمت :

– السماء تُفتح . اني أرى الملائكة والأنبياء والقديسين . . . في وسطهم تيودور الصالح مملوء اليدين بالازهار . انه يبسم لي و يدعوني اليـه . . . يأتي اليّ ملكان . ها هما يقتربان . . . ما أجملهما ! . . . إني أرى الله .

تنهدت ابتهاجاً وانقلب رأسها على الوسادة بغير حراك .

ماتت تاييس .

فعانقها بافنوس عنــاق اليأس والقنوط الأخير . وقد التهمتها عيناه باشتهاء . . وغلّ . . وحب . . .

فزجرته ألبين قائلة :

– إخسأ يا لعين !

ووضعت أصابعها برفق على جفني المائتة . فتراجع بافنوس وهو يرتجف ، وعيناه تشتعلان باللهيب ، وأحسَّ بالارض تسيخ وتنشق تحت قدميه ..

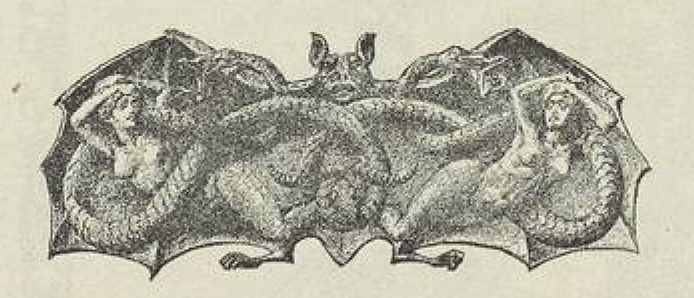
ثم رتّل العذارى نشيد زكريا :

— **نبارك الرب اله اسرائيل**

وما لبثت أصواتهن أن انقطعت في حلوقهن ، إذْ رأين وجه الراهب ، فولين ، مذعورات ، صارخات :

— وطواط ! وطواط !

فقد حلّت بيافنوس نقمة ربه ، فسخطه ، فاستحال الى شخص قبيح مروع ، حتى اذا ما مرَّ بيده على وجهه ، أحسَّ ببشاعة خلقته



فهرس



كتاب

السودان المصري

ومطامع السياسة البريطانية

بقلم

الاستاذ داود بركات

عميد جريدة الاهرام

هذا الكتاب العلمي الحديث الشائق ، هو ثمرة ذهن قوي مخصب ، وعقل راجح مستنير ، وسعة اطلاع لا حدَّ لها . وهو يبحث في هذا الموضوع الخطير بحثاً ممتعاً مفيضاً ناضجاً جامعاً من وجهاته الادارية والاقتصادية والتاريخية والاجتماعية والسياسية الخ. مع ذكر آراء كبار رجال السياسية الغربيين والمصريين

وهو أول كتاب من نوعه لا يستغني عنه مصري أو مشتغل بالمسألة المصرية خاصة والشرقية عامة .

ثمنه **٢٠** قرشاً

ويطلب من جميع المكاتب المشهورة



تأليف

غوستاف لوبون

وتعريب

الاستاذ محمد صادق رستم

اذا كنت من المهتمين بالتاريخ ، خصوصاً تاريخ « الحضارة المصرية القديمة » فاشتر هذا الكتاب الآن ، وثق انك ستجده من اثمن ما كتب في موضوعه . وقد حليناه بكثير من الرسوم اللازمة لفهمه ، مأخوذه عن الاصل الفرنسي .

ثمنهُ عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة . ويطلب من جميع المكاتب في مصر وسوريا وفلسطين والعراق او من ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر — وبريدياً بعنوان صندوق البريد رقم ٩٥٤ بمصر

كتاب

الأمراض التناسلية

وعلاجها وطرق الوقاية منها

تأليف

الدكتور فخري

طبيب الجلد والامراض التناسلية

في سنة واحدة أوشكت الطبعة الأولى من هـذا الكتاب أن تنفد. أحسن كتاب ظهر باللغة العربية حاوياً كل المعلومات اللازمة للطبيب ولأفراد الشعب عامة عن هـذه الأمراض وكيفية التعرض للعدوى بها وطرق معالجتها وأحسن ما يتبع عملياً لمنع العدوى بها.

كتاب حيوي للشبان والشابات يفهمهم الاخطار التي يتعرضون لها من أول التقبيل الى . . . . . ويفهمهم واجبهم الأدبي والصحي لتحاشي هذه الاخطار

يقع هذا الكتاب في ٣٣٣ صفحة بالقطع الكبير وبه اكثر من ٦٠ صورة تمثل المرض في الاعضاء التناسلية عند الذكور والاناث (وثمنه ثلاثون قرشاً)

(يطلب من المطبعة العصرية ، بشارع علوي بمصر ، او من حضرة مؤلفه بعيادته بشارع عباس نمرة ٨١ بمصر)

كتاب

رسائل غرام جديدة

بقلم

سليم عبد الأحد

مزين بصور عديدة

ثمنه عشرة قروش صاغ والبريد ثلاثة قروش

كتاب

المرأة وفلسفة التناسليات

تأليف

الدكتور فخري

طبيب الجلد والامراض التناسلية

اذا أردت أن تفهم « من هي المرأة ؟ » وتاريخ معاملتها عند الشعوب القديمة. وكيف تعيش المرأة ، وكيف تفكر ، وما تأثير طبيعة جسمها وعقليتها ونفسيتها على حياتها التناسلية وعلى حياتها الأدبية والاجتماعية . واذا أردت أن تعرف معنى جمال المرأة وكيف يتأثر بالعناية الصحية أو بالزينة الصناعية . واذا أردت أن تفهم حقيقة موقفها كفتاة ، وكأم ، وكواحدة حرة طليقة لا تخضع لأنظمة الزواج

اذا أردت أن تعرف كل شيء عن المرأة بصراحة فنية ودقة علمية



ترجمة

اسعد خليل داغر

القصص العصرية

مجموعة ممتعة تشمل ثمانين قصة أدبية غرامية مختلفة المغزى والاسلوب ومحلاة بكثير من الصور الرمزية ومترجمة بعبارة فصيحة قريبة المتناول لطيفة الاسلوب على طريقة أهل الغرب فى كتابة هذه القصص المستظرفة التى يتوخى بها امتاع الذهن بلذة السيرة المحكية وايصال الفائدة المقصودة الى العقل من طريق تلك اللذة باسلوب انشائي خاص تجتمع فيه السهولة والسلاسة الحاذقة الوصف الى رشاقة المحادثة وظرفها، الى حكمة سامية أو عظة كافة عن الشر داعية الى الخير، كما قال نابغة الشعر والنثر خليل بك مطران فى المقدمة التى كتبها لها

وتقع هذه المجموعة فى ما يقارب الخمس مئة صفحة وثمن النسخة عشرة قروش صاغ فقط . وتطب من جميع المكاتب أو من ملتزم نشرها — الياس انطون الياس — صاحب المطبعة العصرية — بمصر (صندوق البريد ٩٥٤ بمصر)

القاموس العصري

انكليزي وعربي – مصور

تأليف

الياس انطون الياس

ان جميع المعاجم الانكليزية عربية التي تقدمت « القاموس العصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين ، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا امامها من البيانات ما يُفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتنوعة ، وجمعها ومفردها ، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً للطالب الشرقي . واول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو القاموس العصري

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هـذا المعجم . واننا ننصح لكل من لم يطلع عليه للآن ، مكتفياً بما عنده من القواميس

العتيقة ، أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه فيرى بنفسه الفائدة العظيمة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه ١٣ مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧

والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى. ثمنه سبعون قرشاً والبريد خمسة بداخل القطر المصري وعشرة للخارج .

القاموس العصري
عربي — انكليزي
مُصَوَّر

تأليف

الياس انطون الياس

هو معجم لم يُنسج على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل

القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربيـة أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً لذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك لا يتسنى للطالب أن يتحقق من صحـة المقابل الانكليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه

إطلع عليه فتعلم أن اقتناءه ألزم لك من أي كتاب آخر مادمت من المشتغلين باللغة الانكليزية —

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحو ٥٢,٠٠٠ كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في جميع فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري . وثمنه مائة قرش والبريد خمسة قروش لداخل القطر المصري وعشرة للخارج

قاموس عربي وانكليزي

للغة المصرية الدارجة

تأليف

سقراط سپيرو بك

قد جمع هذا القاموس كل شاردة وواردة من مفردات وجمل واصطلاحات اللغـة المصرية الدارجـة في الكلام والكتابة .

ولا نغالي اذا قلنا انه لازم لكل مشتغل باللغة الانكليزية من أبناء مصر خاصة والشرق عامة لما يحويه من الكلمات التي لا يمكن وجودها في غيره من المعاجم العربية انكليزية — ثمنه مايه قرش صاغ والبريد خمسة قروش صاغ لداخل القطر وعشرة للخارج ويطلب فى جميع المكاتب ومن ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية بمصر



قاموس الجيب

انكليزي وعربي

Accessorial — 3 — Acctify

Accessorial اشتراكيّ. اضافي. مُلحق
Accessory اضافيّ. مُلحق. مُساعِد
Accident عارضٌ. عَرَضٌ. شِدَّة
Accidental عَرَضيّ ● اتفاقي. طارئ
Acclaim صفّق استحساناً || هلّل
Acclamation تهليل. هتاف الاستحسان
Acclamatory مُفرِح ● هتافي. استحساني
Acclimatize عوّد على طقس المنطقة
Acclivity علوة. مُصعَد. مرقى. عقبة
Accommodate لاءمه. اراح ● وفّق بين
Accommodation ملاءمة ● تسوية
Accompaniment مُرافقة. مُصاحبة
Accompany رافق. سار مع ● جارى
Accomplice شريك في الذنب او الجريمة
Accomplish انجز. اكمل. اتمّ. اجرى
Accomplished كامل. تامّ ● مُهذَّب
Accord قبول ● اتفاق. مطابقة
Accord " وفّق. سوّى ● طابق
Accordance وفاق. موافقة. مطابقة
According to بموجب. طبقاً لـ. بناءً على
Accordion آلة موسيقية كالارغن
Accost دنا. اقترب من ● بادأ بالكلام
Accostable سهل الوصول او الاقتراب
Accouchement نفاس. ولادة
Accoucheur طبيب مولّد. قابل
Accoucheuse مولّدة. [داية]. قابلة
Account محاسبة ● بيان. تقرير ● أهمية
Account حسب ● علّل. بيّن السبب

Call to —, ناقش الحساب. حاسب
Of no —, طفيف. قليل الاهمية
Take into —,... راعى. حسب حساب
Accountability مسئولية. مطالبة
Accountable مسئول. مطالَب. محاسَب
Accountant كاتب حسابات. [محاسبجي]
Accoutre سلّح. دجّج بالسلاح
Accoutrements اسلحة. عُدّة الحرب
Accredit فوّض الى. عيّن
Accretion ازدياد. نموّ. تكاثر
Accrual تجمّع. تراكُم ● ازدياد. نموّ
Accrue زاد. نما ● ارتفع. كثر
Accubation اضطجاع ● ولادة
Accumulate جمّع ● جمع. ركم
Accumulation اجتماع. تجمّع. ازدياد
Accumulator مجمّع ● خامة الكهرباء
Accuracy ضبط. اتقان. دقّة
Accurate مضبوط. متقن. دقيق
Accurse لعن. شتم. حرّم. دعا على
Accursed ملعون. مغضوب عليه
Accusant مشتكٍ. مقدّم الشكوى
Accusation شكوى. شكاية. تهمة
Accuse شكا. اتّهم بـ. ادّعى على
Accused (جنائياً) متّهم. مدّعى عليه
Accustom عوّد. مرّن. درّب على
Accustomed متعوّد. متمرّن. متدرّب
Acerbity حموضة ● فظاظة. شكاسة
Acetify حمّض. خلّل

ثمنه عشرون قرشاً والبريد ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج . وفي شهر أغسطس سنة ١٩٢٤ سيظهر صنوه العربي انكليزي وسيكون ثمنه خمسة وعشرون قرشاً فقط

التحفة المصرية

لطلاب

اللغة الانكليزية

تأليف الياس انطون الياس

أعيد طبع هذا الكتاب للمرة الرابعة في مدة وجيزة ، وهو مجموعة كبيرة جداً من المفردات والجمل والخطابات الاكثر استعمالاً ، خصوصاً المفردات والجمل المختصة بالمعاملات التجارية والادارية والقضائية ، وبالاختصار كل ما يكثر استعماله في الاعمال العمومية . لا يستغنى عنه أي طالب للغة الانكليزية ، فاسأل من تقدمك في درس اللغة الانكليزية عن هذا الكتاب فيخبرك بعظيم فائدته .

ثمنه ١٢ قرشاً والبريد ثلاثة

كتاب

منتخبات الترجمة

لطلبة التعليم الثانوي

عمل (محمد رفعت) مساعد امين المكتبة بديوان جلالة الملك

يمتاز هذا الكتاب على كل ما سبقه من نوعه ، لاجل تعليم الترجمة ، باشياء كثيرة اهمها طريقته المبتكرة في شرح عبارات القطع المنتخبة ومفرداتها الصعبة أمام كل صفحة باسلوب اصطلاحي يفيد الطالب في الترجمة واللغة الانجليزية معاً . ثم تنوع قطعه من حيث الصعوبة بحيث يلائم مقدرة كل تلميذ في القسم الثانوي وغيره

ثمنه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة قروش ،

ويباع في جميع المكاتب



تأليف

علي فكري

أمين دار الكتب المصرية

ظهر هذا الكتاب حديثاً وقد جمع من الحقوق والواجبات والآداب الاجتماعية ما يعرف به المرء ما له وما عليه ليعيش في راحة بال واسعد حال محبوباً من اخوانه منظوراً اليه بعين الاحترام : وهو اول كتاب في موضوعه

يقع في ٢١٢ صفحة وثمنه عشرة قروش مصرية ، واجرة البريد (مسجلا) ثلاثة قروش لداخل القطر وخمسة للخارج

يطلب من جميع المكاتب او من ملتزم طبعه ونشره
(الياس انطون الياس) صاحب المطبعة العصرية
بشارع علوي رقم ٥ — بمصر



هلمّ بنا ندخل في بوابة علم الاجتماع ونكشف اسرار الهيئة الاجتماعية ، الاسرار العجيبة الغريبة

ترى امماً عظيمةً راقية متمدّنةً حيوية ، تضرب في طول الكرة الارضية وعرضها ، وترى شعوباً متأخرة خاملة خامدة الحركة ، وترى جماعات همجية متوحشة منحطة جداً — اذا كانت هذه الجماعات كلها ابناء آدم وحواء ، فما سرّ تفاوتها في الرقيّ ؟ ففي « علم الاجتماع » تعلم كيف تكوّنت الجماعات والشعوب والأمم ، وكيف تنوعت وتفاوتت في رقيها

ترى جمهوراً متهيجاً متحمساً متهوّساً ، ثم ترى جماعات هادئة عاملة ، ثم ترى ناساً في مجالسهم يتناقشون ويقترعون ويقررون

اموراً . ثم ترى هيئات نظامية من جمعيات وشركات وحكومات الخ ، فما هو سر التهوس والتناقش والنظام ؟ . ثم ترى ازياء تتعاقب ، وعادات تتوالى ، وتقاليد تتوارث ، ورأياً عاماً يسود ، وقوانين تتقرر . فكيف تنشأ الازياء والعادات والتقاليد والقوانين ؟

في « علم الاجتماع » ترى العواطف والعقول تتصادم فتثير الجماعات ثم تسكنها ، وتتمخض الثورات الفكرية عن الانظمة والهيئات

ترى امماً ترقى واخرى تنحط ، وامماً تنمو وتعظم وامماً تتلاشى وتنقرض ، وامماً تستعمر وتستعبد وامماً تُسترَق وتعمل لغيرها . ثم ترى عقولاً تخترع وعقولاً توسع العرفان والعلم وعقولاً تصنع وتعمل . ثم ترى قوات الطبيعة تتساقط تحت قدمي الانسان الواحدة تحت الاخرى وهو يسخرها لخدمته ، فيستطيع بها أن ينشر أفكاره في لحظات حول الكرة الأرضية ، وينتقل من مكان الى مكان بأسرع ما يمكن ويغير طبيعة الاقليم بحيث تسهل المعيشة له في كل اقليم بين هجير خط الاستواء وزمهرير القطب . فما هي القوات الاجتماعية التي تقلب سطح الكرة الأرضية رأساً على عقب ؟

« علم الاجتماع » يبين لك ان الشهوة الجسدية ، والحب ، والذوق الجميل ، والعواطف ، فعلت كل ذلك وفي وسعها أن تقول للجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل

« فعلم الاجتماع » هو علم التكوُّن والنشوء ، وعلم العواطف المسيطرة على الهيئة الاجتماعية ، وعلم العقل المدرّب للعواطف ، وعلم الحب والجمال اللذين يرتفعان بالمدنية الى فوق

« علم الاجتماع » هو البوابة التي تدخل منها إلى عالم أسرار الهيئة الاجتماعية حيث تنكشف لك وترى العجب العجاب . هذا هو العلم الذي بسطه الاستاذ نقولا الحداد الكاتب الاجتماعي المعروف في هذا الكتاب الذي نحن في صدده بسطاً يدع كل قارىء يفهمه بكل سهولة

فهذا الكتاب الذي يصدر في آخر صيف سنة ١٩٢٤ هو الكتاب الوحيد في موضوعه باللغة العربية والمستوفي كل ما يخطر لك ببال من هذا القبيل . أفلا تشعر أنه يجب أن تطالعه وأن يكون في مكتبتك لكي تعود اليه كلما رمت أن تعرف منزلتك في الجماعة ومنزلة قومك في الامة ومنزلة أمتك في المجتمع الانساني ؟ وما هي وسائل الارتقاء لك ولقومك ولامتك ؟

كتاب

مختارات سلامه موسى

ليس بين كتاب مصر الان من هو اصرح برأيه وأجهر به من الاستاذ سلامه موسى الذي يعرفه جميع قراء الصحف والمجلات ، فهو كثيراً ما يقتحم الميادين التي تخشى اقتحامها الملائكة ، لا يبالي ان يصرح برأيه في الدين وفي الاشتراكية وفي المرأة ، وفي مثل هذه الشئون الاجتماعية ، غير متعمد فى كل ما كتبه اظهار براعة أو التباهي بمهارة وانما غايته التي لا يحيد عنها هي فائدة القاري٠ .

وليست هذه بالميزة القليلة القيمة في وقت نرى فيه عدداً غير قليل من كتابنا لا يبغى من وراء كتابته الا ان يقول عنه الناس كما يقولون عن البهلوان « ما ابرعه ! » في حين كان يجب ان يقولوا « ما أفيده »

ولسنا نشك في اننا نخدم جميع قراء العربية بجمع هذه المقالات النفيسة حتى يتيسر للجيل الجديد قراءتها والانتفاع بها دون ان يحتاج الى الكد في البحث عنها في متفرق المجلات والصحف

يظهر في شهر نوفمبر سنة ١٩٢٤

ويُطلب من جميع المكاتب او من ناشره

الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية — بمصر

(صندوق البريد ٩٥٤)

وثمنه عشرة قروش مصرية والبريد ثلاثة قروش



روايه الخير والشر

تظهر في شهر يناير سنة ١٩٢٥ — فاطلبها عند ظهورها

مسارح الأذهان

مجموعة أدبية فنية روائية في حقيقة الحياة، تأليف الاستاذ المتفنن البارع

خليل بيدس (صاحب مجلة النفائس)

هي قصص صغيرة لذيذة مصورة ، جمعت من كل فن، وضربت بكل سهم ، في الادب والاجتماع ، والحب والفلسفة ، في لغة سلسة هي السحر الحلال ، واسلوب رائق هو الشعر المنثور . . . .

ولا ريب أن الاستاذ بيدس ، صاحب النفائس والمؤلفات العديدة ، قد أثبت بكتابه الجديد « مسارح الأذهان » قدرة فائقة في فن الرواية ، وكعباً عالياً في عالم القصص مما يجعله بحق في الصف الأول من كتاب العربية والمتصدين لخدمة الناطقين بالضاد . . . . (يظهر في شهر اغسطس سنة ١٩٢٤)

يطلب من ملتزم طبعه ونشره (الياس انطون الياس)

صاحب المطبعة العصرية

بشارع علوي رقم ٥ - بمصر

وثمنه عشرة قروش والبريد ثلاثة قروش

خواطر حمار

وهي

مذكرات فلسفية وأخلاقية

على لسان حمار

كتاب نفيس وضعته باللغة الفرنسية الكاتبة الشهيرة الكونتس دي سيجور وترجمه الى اللغة العربية الكاتب العصري حسين افندي الجمل (بمصر الجديدة) وهو من أحسن ما اختاره الادباء لمطالعة ناشئة الفتيان والفتيات ومحبي الفكاهة ولذة المسامرات لما احتواه من الحكمة البالغة ، في الفكاهة السائغة ، والنقد الرائق ، في الاسلوب الشائق .

اذا قرأت هذا الكتاب وأنت على رأي الناس في قولهم : جاهل كالحمار ، عنيد كالحمار ، بليد كالحمار ، انتهيت منه وأنت على رأي المؤلفة تقول : زكي كالحمار ، وديع كالحمار ، عالم كالحمار .

وهو يُطلب من جميع المكاتب في مصر وسوريا وفلسطين والعراق ، أو من ملتزم طبعه ونشره الياس انطون الياس صاحب المطبعة العصرية — بمصر (صندوق البريد رقم ٩٥٤)

مطبوعات المطبعة العصرية بمصر

ص
١٠٠ القاموس العصري عربي وانكليزي تأليف الياس انطون الياس
٧٠ » » انكليزي وعربي » » » »
٢٥ قاموس الجيب عربي وانكليزي » » » »
٢٠ » » انكليزي وعربي » » » »
٣٥ » » » » وبالعكس » » » »
٥٠ القاموس المدرسي » » » » » »
١٠ التحفة المصرية لطلاب اللغة الانكليزية » » » »
١٢ الهدية السنية » » »والعربية » » » »
١٠٠ قاموس عربي وانكليزي (باللفظ) تأليف سقراط سبيرو
١٠ القصص العصرية (٨٠ قصة مصورة) ترجمة توفيق عبد الله
١٠ رواية تاييس مصورة (لاناتول فرانس) ترجمة احمد الصاوي محمد
١٥ » الزنبقة الحمراء (» ») » » » »
١٠ التربية الاجتماعية تأليف علي فكري
٥ خواطر حمار (مصور للاولاد والرجال) ترجمة حسين الجمل
١٠ مسارح الأذهان(٣٥ قصة كبيرة مصورة) تأليف خليل بيدس
١٠ الحضارة المصرية القديمة (لغوستاف لو بون) ترجمة صادق رستم
٨ مقدمة الحضارات الاولى » » » » »
٢٠ المرأة وفلسفة التناسليات (مصور) ، تألف الدكتور فخري
٣٠ الأمراض التناسلية وعلاجها وطرق الوقاية منها » »

ص	
١٠	رسائل غرام جديدة (مزين بصور) تأليف سليم عبد الاحد
١٠	الغربال ، بقلم مخائيل نعيمة عضو الرابطة القلمية بأمريكا
٢٥	علم الاجتماع (الجزء الأول في حياة الهيئة الاجتماعية) تأليف
٢٥	« « (الجزء الثاني في تطور الهيئة الاجتماعية) نقولا حداد
١٥	اسرار الحياة الزوجية ترجمة نقولا حداد
٣٠	ملقى السبيل (في مذهب النشوء والارتقاء) اسماعيل مظهر
١٠	حصاد الهشيم (مصور) للاستاذ ابرهيم عبد القادر المازني
١٠	مختارات سلامه موسى (تأليف الكاتب الاجتماعي الشهير)
١٥	في أوقات الفراغ ، تأليف الدكتور محمد بك حسين هيكل
١٢	مراجعات ، في الأدب والفنون - للاستاذ عباس محمود العقاد
١٥	الدنيا في اميركا للاستاذ امير بقطر
٢٠	أناتول فرانس في مباذله - لصاحب العطوفة الأمير
٢٥	« « « (ورق مخصوص) شكيب ارسلان
٣	كتاب الحقوق الوطنية كتاب مدرسي لفرنسيس مخائيل
٢٥	روح الاشتراكية تأليف غوستاف لوبون وترجمة محمد عادل زعيتر
١٠	فاتنة المهدي ، أو استعادة السودان (نشرت تباعاً في الاهرام)
٨	رواية الانتقام العذب ترجمة اسعد خليل داغر
٢٠	رواية باردليان (٣ اجزاء متوسطة الحجم) ترجمة طانيوس عبده
٢٠	« الاميرة فوستا (جزآن كبيران) « « «
١٦	« كابيتان « « « « « «
١٦	« الساحر العظيم « « « « «
١٠	« فارس الملك « « «



حضرة الاستاذ عباس محمود العقاد



مراجعات

في الآداب والفنون

بقلم حضرة الكاتب الكبير الأستاذ

عباس محمود العقاد

عني بنشره

الياس انطون الياس

صاحب

المطبعة العصرية

بالفجالة ، بشارع الخليج الناصري رقم ٦

(صندوق البريد رقم ٩٥٤ — مصر)

Published by
E. A. Elias
P. O. Box 954
Cairo, (Egypt)

كلمة

في اسم الكتاب

في هذه المجموعة مقالات شتى نشرتُ اكثرها في البلاغ أيام الأثنين التي وقفتها على الكتابة الأدبية بعنوان « في عالم الآداب والفنون » ونشرتُ القليل منها في بعض الصحف الأخرى والمجلات . وتفضل الاستاذ صاحب المطبعة العصرية فرأى أن يحفظها في كتاب يضمه الى السمط الأنيق الذي يتولاه بعنايته وتنضيده ، فسميته « مراجعات في الآداب والفنون » لانه بحث مستطرد في موضوعات مختلفة في الآداب والفنون وما اليها ، ولأن المراجعة هي طريقتي فيما اكتب من هذه المباحث على الاجمال

فالفكرة التي اكتب فيها ندر أن تكون بنت يومها وقل ان تخلو من تاريخ سالف تتنقل فيه كما يتنقل الكائن الحي في أدوار حياته ، ولكل فكرة أثبتها ميلادها ونشأتها وحوادث سيرتها وحظوظ أيامها ، فلا تزال تنمو وتكبر وتترقى

في تكوينها وترتيبها حتى تبلغ تمامها وتوفي على غايتها . ثم تجيء المناسبة لاثباتها فأراجع ماضيها وانظر اليها في هيئتها الأخيرة كأنني اب ينظر الى وليده الذى يراه الناس فرداً واحداً ويراه هو ابناء عدة تقلبت بهم الطفولة والشباب وتعاورهم النقص والكمال وتمثلوا له في صور متتابعة لكل منها مكانها في قلبه وخاطره وذكرياتها من ماضيه وحاضره ، ولعل النقص منها غير مقصر عن الكمال في موقع المحبة ومكان الاعزاز !

وسواء أكانت المناسبة التي تدعوني الى الكتابة كلمة استوقفتني في كتاب أو رأيا سمعته من قائل أو مشاهدة حركتني الى البحث فليس شيء من ذلك بفاصل الفكرة عن جذوعها التي نبتت عليها ولا هو مخرجها عن الاصل الذي امتزجت فيه أيامها بأيامي واتصلت سيرة حياتها بسيرة حياتي. فلو أن للخواطر يوم بعث تردَّد فيه الى مناشئها لخلتُ أن ستبعث معي في جسد واحد يوم ينفخ في الصور الموعود او لعادت معي الى حيث كنا في الحياة ولو كان لها الف شبه يربطها بآراء المرتئين وكتابات الكاتبين . فانما انا قد

عشتها وغدوتها فلا أتخيلني قائماً بغيرها كما لا يستطيع أحد أن يتخيل جسده قائماً بغير اعضائه أو يتخيل رأسه ويديه وقدميه وسائر جوارحه راجعة — يوم القيامة — الى جثمان غير جثمانه!

ولقد يرى بعض الناقدين انني أتأثر بما اقرأ فيما اكتب وانني أنحو هذا النحو او ذاك مما اعجب به من آراء المفكرين وأنماط التفكير. فليس لي أن أقول في هذا الرأي الا انني اعلم غير ذلك من شأني وانني لا أحسب تفكير الانسان الا جزءاً من الحياة ونوعاً من الأبوة. فليس يسرني أن تنمي اليّ أفكار كل من أقلتهم هذه الأرض من الادباء والحكماء والعلماء اذا كانت غريبة عني بعيدة النسب من نفسي، كما ليس يسرني ان ينزل لي كل من في الأرض عن أبنائهم وبناتهم ولو كانوا أبناء سادة وذرية ملوك! أقول ذلك لا أجد فيه ادعاء ولا عجبا ولكنني أقرر به حقيقة وأبين مذهباً. فمن شاء ان يعده من الادعاء والعجب فله مشيئته وليس عليّ أنا أن انازعه فهمه وتفسيره

***

ان المراجعة اذن هي طريقتي فى البحث ولا سيما في مقالات هـذا الكتاب . أراجع سيرة كل فكرة وأثوب بالنظر الى مصدر كل مشاهدة . وقد يحسن هنا أن ألمّ بأسلوب النظر الذي أميل اليـه بالفطرة وأوثره على سواه بعد التجربة ، فأقول فى ايجاز انني أنظر الى الدنيا نظرةً فيها من الشمول اكثر مما فيها من التفصيل ، وان الحياة والزمان والعالم من الاوائل التي لا أول لها الى الاواخر التي خاتمة لها كلها عندي جملة واحدة متماسكة ليست المظاهر الفردية فيها الا أجزاء عارضة تنال قيمتها بقدر ما تحتويه من ذلك « الكلّ » العظيم . وكأن الأشياء والشخوص الفردية في هذه الصفة عمله الورق التي لا قيمة لها بذاتها ولا بالذهب الذي تمثله ولكنما قيمتها الصحيحة بالجهد الحي الذي تساويه والثروة العينية التي تدل عليها . ومن شأن هذا الأسلوب ان يتخطى بعض الشيء مقاييس العرف وحدود الاصطلاح وتفاصيل الظواهر ، وفي ذلك تأويل كثير من الآراء التي

بسطتها في هذه المقالات ومنها تعليق الجمال بالفكرة الباطنة قبل الاجسام والاشكال

***

قد يقال : ولكن اليس في هذا النظر مجافاة للواقع الذي يبني عليه كل علم صحيح ؟ فأقول لا ! انما هـذا النظر يوسع الواقع ويمتد بحدوده الى آفاق أبعد من هذه الآفاق التي نحصر فيها قيم الأشياء وأقدار الأحياء . ومثل ذلك اننا اذا حكمنا على قدر الرجل بنصيبه في العرف الدارج — أي بما يسمونه « الواقع » — فقد يرجح المجرمون المداورون على أعظم العظماء وأصلح المصلحين ، وقد يكون أفشل الناس قدراً اولئك المخترعون والدعاة الذين يقضون حياتهم في هذه الدنيا ولا يعترف لهم بنصيب من النجاح والجزاء . فالواقع ان « رجال الاعمال » ومن يسمون أنفسهم برجال الحقائق المحسوسة لا ينظرون الى «الواقع» المقرر ولكنهم ينظرون الى جزء منه محصور في حيز الحاضر الراهن ، اذ ان الانسان الفرد لم يحسب في خلقته حساب مكان معين أو فترة محدودة بل حساب

صلات كثيرة بالكون كله وأجيال الحياة كافة ، وهذا هو الواقع الصحيح ولو عده اصحاب « الواقع المموه » ضربا من ضروب الخيال وطلسما من طلاسم الاوهام

***

بهذه المراجعة كتبت المراجعات ، وعلى هـذا النظر اعتمدت وأعتمد فيما أرى واكتب ، وعلى هذا العهد اتقدم بهذه المجموعة بين أيدي القراء ؟

عباس محمود العقاد

فهرس

ثبت الخطأ والصواب

اثبتنا فيما يلي بعض الغلطات التي يحسن الالتفات اليها في مواضعها قبل قراءة الكتاب

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٤١	١٤	النغمة الخفيفة	النغمة الخفية
٦٦	٩	موسومة	مرسومة
٧٥	٦	كما يبد	كما يبدو
١١٢	٥	يجين	يجبن
١١٧	١١	يفعل الانسان اقل مما يجب	يفعل الانسان اكثر مما يجب ؟ وما هو الخطأ بالنقص عن الحد غير ان يفعل الانسان اقل مما يجب؟
١١٩	٨	جسما ناحل	جسما ناحلا
١٢٣	٦	ان صاب اعتزم	ان أصاب اعتزم
١٤٦	١١	يشذ على	يشذ عن
١٤٨	٧	مصحفة	مصحفه
١٥٤	١٤	أخادعة	اخادعه
١٨٩	٧	كآحاد الفئة	كآحاد هذه الفئة
١٩٧	٢	الريبة	الغريبة
٢٤١	١٧	عن طريقته	على طريقته
٢٥٣	١٦	بسنة واربعة شهور	بسنة وشهور
٢٥٦	١٣	عن لسان	على لسان



كان من أسباب انصرافي عن الكتابة في الأدب هذه الفترة أزمات السياسة التي شغلت الناس في هذا البلد عما سواها ، وشيء من الشك تسرب الى عقيدتي في اصلاح الآداب العربية ألقى في نفسي أن الفروق في فهم الأدب وتقديره بين قوم وقوم وبين مثال ومثال انما هي فروق في العنصر والطبيعة قل أن يصلح منها الاطلاع أو يجدي فيها الارشاد والانتقاد . وكنت أرى المقياس الذي تقيس به الشعر والفن يختلف اختلافاً بعيداً عن مقاييسهما في عرف اكثر الخاصة والعامة وذوي الثقافة من القوم والجهلاء الآخذين بالسماع والتقليد ، فلعل أرق ما يرقى اليه الأدب في رأيهم أنه زخرف هندسي أو حلية تناط بجسم من الأجسام المشتهاة... تنفصل عنه فتموت وتبدو عليه فاذا هي أجمل منها في علبة الصائغ أو عيبة الجوهري . ! وليست

هي جمالاً من جمال الحياة ينبض فيه الدم وتسري فيه العروق وينمو نمو الطبيعة الحية أو يسبقها في وثبات النمو ويفضلها في نماذج الجمال! والأدب أن لم يكن كذلك فقد بطلت قداسته وتهدم هيكله وهزلت قرابينه وأصبح صناعة من صناعات السوق أرخص من سائر الصناعات ثمناً وليس بأشرف منها في المقاصد والأصول

وسأقول لك ماذا أعني بالزخرف الهندسي الذي أومأت اليه، فانما أعني به ذلك التزويق الذي لا يمت الى الحياة بسبب ولا يعمل فيه غير المسطرة والبركار وذهن هو في الأذهان ضرب من المسطرة والبركار — أرأيت العمارة العربية في بناية من بناياتهـا القديمة أو الحديثة؟؟ هي جميلة في بابها ولا ريب. ولها من الرونق ما يجتذب العيون ويستدعي التأمل ويقع في الأبصار موقع السجع والجناس في الأسماع، ولكن هل رأيت فيها قط صورة من صور الحياة النامية من زهر أو ثمر أو قسمات وجه أو مشابه عضو من الأعضاء؟؟ كلا! أنك لا تجد فيها أثراً لهذه الصور ولا تقع فيها موقعها لو رأيتها

وكذلك نجد الأدب في رأي المتأدبين على هذا الطراز الهندسي الذي تحل فيه الألسنة والأقلام محل المساطر والبراكير: خلا من روح الحياة وغابت عنه دلائلها حتى لو أمكن أن تخلو ألفاظ الكتابة من أثر الحياة خلو حجارة البناء منها لما أطل عليك وجه ناطق أو سمة متحركة من ذلك الأدب المزخرف الموزون، وكأنما الفرق بين العمارة

والشعر في هذه المقابلة هو فرق ما بين طبيعة الحجارة وطبيعة الكلام الملفوظ . . لا فرق ما بين الحياة في بناء الجدران والحياة في بناء الكلام

وقد تلقى الرجل تتوسم فيه العلم بالأدب الصحيح والبصر باقدار الكلام والتمييز بين صادقة ومكذوبه ونفيسه وزهيده ثم تصغي الى حديثه في هذه المعارض فتسمع عجباً . تسمع رجلا يحدثك عن آثار الفحول من شعراء الغرب وكتابه ويهش لما فيها من المحاسن والآيات ويروي لك عن آراء النقاد في النظم والنثر والقصص والأخبار ما ينبىء عن فهم مستقيم وحكم مصيب وتمييز مسدد ، ثم تكاد تنسى أنه ينقل اليك ما سمع وما قرأ حتى تخوض معه في حديث الأدب العربي ويأخذ في مطارحاته ومساجلاته فاذا بك قد حككت جلد الروسي فظهر لك التتري القديم على قاب شعرة أو شعرتين . . . . وإذا بك تسمع الألمعي المعجب بموليير ودي موسيه وسان بيف — لا بل المعجب بشكسبير وملتون وبيرون وهازليت ولسنغ وهيني يترنم ببيت أو أبيات من أسخف ما نظم ابن المعتز أو صفي الدين الحلي في تلك المعاني الهندسية والتشبيهات الشكلية والتعبيرات التي تقاس بالمسطرة والبركار أو تخبرك في اسمي ما تسمو اليه عن أحياء كأنها « تحت التمرين » لم تتأصل فيها الحياة ولم يوسع لها من الأفق الذي تعيش فيه الى ان تقضي مدة التجربة « على ما يرام . . . ! »

أو ربما تلقى الرجل يحدثك في الأدب العربي فيهزأ بتلك

التشبيهات ويزدريها ويتفكه بالضحك من زورقها الذي أثقلته حمولة العنبر ودمعها الذي يجري بلون البنفسج وهلالها الذي جعلوه في السماء سواراً واحتاجوا الى النقد فرهنوه بدرهم ..! ويوافقك على هذه المآخذ التي اشتهر أمرها وكثر عدد المتنكرين لها فتقول نعم! هذه ضالة سيقت الينا . . . وما نخال صاحبنا إلا صيرفياً حسن النقد عارفاً بالجيد والردىء من آدابنا العربية مميزاً بين الطلاوة البراقة والمعادن القيمة . فتقبل عليه وتأنس الى رأيه . لكنه لا يلبث أن ينشدك أبياتاً من نظمه أو نظم غيره يستحسن فيها ما يستهجنه هناك ويجل فيها ما كان يزدريه أمامك قبل دقيقتين ! وقد يكون الشبه خفياً في بعض الاحيان بين الأبيات الممدوحة والأبيات المزدراة ، ولكن الذي يدهشك ويخلف ظنك أحياناً أن ترى الأبيات في الحالتين على نمط واحد من المعنى والصياغة والذوق والاحساس — إن اشتملت على ذوق وإحساس. !فما باله يثني عليها هناك وينحي عليها هنا ؟ ؟ الأمر واضح . إنه مقلد في استهجانه للتقليد كما إنه مقلد في الأعجاب والاستحسان ، فهو مقلد مركب لعله شر من المقلد البسيط

وأناس آخرون نشأوا بين مقياسين للأدب لا أدري أيهما أحق بالمقت والأعراض : الأول مقياس الأديب المصري في الجيل الماضي يغشى المجالس بالنكات المبتذلة والنوادر الملفقة والمجون الذي يلتمس به الحظوة ويتقرب به من ذوي الجاه والثروة . والثاني مقياس الأديب

الأوربي في العهد الأخير يزجي ملالة القراء من حين إلى حين بثرثرة خاوية ونميمة عامة لا تختلف في شيء عن النميمة الخاصة وكلمات يسميها أدباً ونقداً وما هي الا هجسات لحظة وخطرات نعاس في اليقظة . والأول آفة الأدب في عهد الاستبداد والثاني آفة الأدب في عهد « الديموقراطية »

لقد كان للانسانية أسرة جامعة وكانت لها أبوة وأخوة ونسب وقرابة في اللحم والدم تبيح الأمر والارشاد وتأذن بالغيرة والنصيحة، فلما فشت آداب « العصر الحديث » ذهبت تلك الأسرة وقامت في مقامها «شركة مساهمة» تستأجر سادتها وحكامها وأنبياءها وكتابها وتحاسبهم على أعمالهم وعدد كلماتهم كما تحاسب الشركة المديرين والسماسرة والجباة والعمال ! فلا حق اليوم لصاحب فكرة في أن يرشد الناس ويجهدهم ولا شأن له بصلاحهم وفسادهم أو بصوابهم وخطئهم ، وانما كل واجبه أن يسري عنهم ويخدمهم ويلعب أمامهم كلما دعوه للعب على هواهم . فاذا فعل ما يأمرونه به نقدوه وإن هو ترفع عن هذه الصناعة طردوه ! وقل في أبناء هذا الجيل — بعد أن سرت فيهم عقيدة المساواة التامة بين جميع الناس — من يظن أن للأديب حقاً مقدساً في أن يرشد ويجهد وفي أن يجد ويبرم ، وقل فيهم من يظن أنه يبذل درهمه ليشتري به ما قد يستعصى عليه أو يسمو به فوق مكانه الذي اطمأن اليه ، ولم السمو وفيم المحاولة ؟

أليس الناس سواء ؟ أليس لكل حريته في أن يظهر للملأ بعيوبه ونقائصه وأن يبرز للقريب والبعيد « بشخصيته » ومقوماته ؟ بلى ..! فما حاجة الانسان إذن الى المزيد المجهد من صفات الكمال ودواعي الاحترام ؟

فليس الأدب الآن رسالة الحياة التي توحي بها شعراً أو نثراً على ألسنة المختارين من أصفيائها ، وليس الأدب الآن صلاة الروح التي لا تنبس بها حتى تتطهر من صغائرها وأدوائها ، وليس الأدب الآن مناجاة الاسرة الواحدة يتلقاها اخوانها من اخوانها وابناؤها من آبائها . وليس الأدب الآن نداء الرائد السابق يشير للأمم الى البعيد المنظور من آفاقها وأجوائها ، لا ليس الأدب شيئاً من ذلك ولا شبيها بشيء من ذلك ، وانما هو علالة السآمة وتزجية الفراغ وبضاعة لا شك أن بائعها هو الغابن وشاريها هو المغبون !

وليس من الصعب على النفس أن تهجر الكتابة في الأدب الذي يفهمه الأكثرون هذا الفهم ويقيسونه بهذا المقياس . وكاتب هذه السطور يقول ولا يجمجم في مقاله أنني لو علمت أن قصاري ما أسمو اليه بالأدب أن أروّح بأوراقي على وجه القارىء كما يروّح الخادم بالمروحة على وجه سيده المنصرف عنه بنعاسه وشجونه لما كتبت حرفاً ولا فتحت كتاباً ولا خترت — ان خيرت بين الاثنين — أن يروّح الناس على وجهي بدرهم أبذله على ان اروح

على وجوه الناس بما أبذل فيه كنانة نفسي وذخيرة عقلي وخلاصة ما انفقت من انفاس حياتي ، ولكني أكتب وأعلم أن ليست كل الواجبات على وحدي وأن ليست كل الحقوق للقارىء وحده ، وأعلم أنني أكتب فأتحدث بخير ما أتحدث به لسامعي فمن حقي عليهم أن يتيقظوا لما أحدثهم به والا يكلفوني المضي في الكلام وهم بين الأصغاء والتهويم . . !

***

وأني أحمد الله أن ليس من قراء الأدب الذي أحبه وأدعو اليه من يسومني أن أحمل المروحة في ساعة النعاس ، وأن ليس هؤلاء القراء من القلة بحيث يبدو لنا لأول وهلة ، فقد عرفتني رسائلهم المتفرقة وتحياتهم الطيبة والتفاتهم الى ما قدمت اليهم من كتبي ورسائلي أنني لم أكن أثقل عليهم حين كنت أخوض معهم في أحاديث غير أحاديث البطالة والفراغ ، وحين كنت أتعمد أن أقابلهم في غير موعد اللهو والتسلية ، وأنهم فئة يحسب حسابها ويؤبه لشأنها بجانب الفئة الكبرى من طلاب المراوح والمرطبات وهواة اقتناء الادباء على طريقة اقتناء الببغاوات والثعابين ! ، وما أراني أسر بنبأ من انباء مصر سروري بالنبأ الذي بلغني عنها من قبل هذه الفئة الصالحة

والآن وقد هدأت العاصفة السياسية بعض الهدوء وغلب الأمل على وساوس الشك والفتور نعود الى الأدب فنعطيه حقه

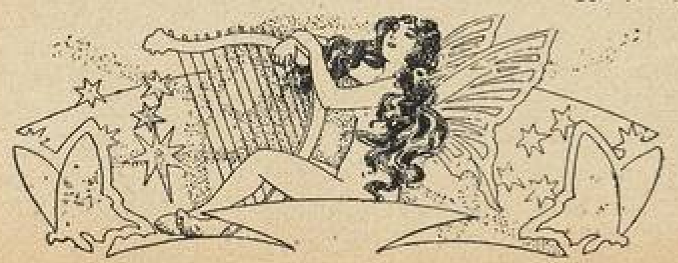
علينا يوماً في الاسبوع ونعتذر اليه بعض الاعتـذار — لا كله — من تركه في الأشهر الماضية أو مشاركته فيما له من حقوق الاقبال والعناية، فأنني لا أحسبني قد تركته كل الترك أو اشتغلت عنه بالسياسة كل الاشتغال

نعم لا أحسبني اشتغلت بالسياسة عن الأدب كل الاشتغال ولا نسيت عهدي في هذا الغمار كل النسيان . فأن النفس التي تفرغت للأدب تقصر عليه سرائرها وتمحضه زبدة ودائعها وتتخذ منه محراباً تتوجه اليه ومعقلاً تلوذ به لن يسعها أن تصدف عنه الى غيره أو تسلوه جد السلو في ساعة البعـد عنه ، وقد يشتغل الانسان بالسياسة للسياسة ويعمل فيها عمل من يتدله بطلعتها ويهيم بشمائلها ومن يخيل اليه أن العالم كله أصوات وأحزاب وقوانين وشرائع ومعارضة وتأييـد وأن الامور التي تطرح في معترك الأحزاب هي الامور التي تدور عليها حقائق الحياة وأسرار الوجود وأحكام القضاء . . . ! ولكن للعمل في السياسة على هـذا المنوال اناساً خلقوا له لست أظنني منهم ، بل انا لا أرى الذين ينكبون هذا الانكباب على السياسة الا كمن يطعن في الهواء أو يقبض على الماء أو يجري في دائرة مسدودة بلا انتهاء

أما السياسة كما أعرفها وأميل اليهـا فهي على صلة بالأدب كما أعرفه وأميل اليه ، لأنها تستهويني بالمبادىء الانسانية المطلقة لا بمبادىء

العصبية الضيقة ، وتتصباني بالنظرة الجمالية الفنية لا بالنظرة التي تحصر الحياة في الأنظمة والقوانين

أيها القارىء ! أتذكر ما يخامر نفسك في ميدان الصراع أو مضمار السباق ؟ ؟ أتذكر كيف يتشيع قلبك لأحد الموقفين في حادثة من حوادث التاريخ أو قصة من قصص الخيال حين ترى أحدهما في جانب الضعف والمروءة وترى الآخر في جانب القوة والخسة ؟ ؟ كيف تسمى تشيعك اللذني لذلك الموقف ؟؟ أتسميه تشيعاً فنياً أو تشيعاً سياسياً ان كان لا بد من قسمة أنواع الشعور الى هذين القسمين ؟؟ أما أنا فأقول إن ما يخامرك بين الموقفين هو على الأقل من قبيل السياسة الأدبية أو من قبيل الأدب السياسي، وأن العدة التي ينزل بها الأديب الى ميدانه لا تختلف عن عدة السياسي حين ينظر بتلك العين الى ذينك الموقفين . وكذلك كنت وأكون في سياستي التي اشتغل بها . وكأن الأدب عندي شجرة طعمت بغصن من السياسة فتغير طعم الثمرة بعض الشيء ولم تتغير التربة ولا الجذور





الصيام

بين انكار الذات وتقريرها

يقول قائل : وهل هذا من الآداب والفنون أيضاً ؟ ؟ ونقول نعم ، ولم لا يكون كذلك ؟ فأما إن كان الصيام ليس شيئاً غير جوع المعدة وتفتر الأعضاء فالحق أنه شأن غريب عن الأدب غرابته عن الدين ، وأولى به أن يكون من شئون الأطباء والطهاة الذين يعالجون الجوع بالدواء أو بالطعام ! أما ان كان رياضة من رياضات النفوس وباباً من أبواب التهذيب فللأدب فيه حصة كحصته في جميع مايعرض للنفس من الحالات والأطوار

وللصيام عند رجال الدين حِكم يختلفون فيها ويستكثرون منها تكبيراً لخطرة وتعظيماً لأجره . فيقولون إنه مران على الجوع ليشعر الأغنياء المكفيون بما يشعر به الفقراء المعوزون ، أو أنه تكفير عن الذنوب بتعذيب الجسد الذي اجترح تلك الذنوب ، أو أنه تطهير للجسم واستجمام له من آفات الطعام والشراب، أو أنه رياضة للنفس

على احتمال ما تكره والصبر عما تحب ، وهذه — فيما نرى — هي الحكمة الجديرة بهذه الفريضة التي لو لم يفرضها الدين لوجب على كل انسان أن يفرض على نفسه لونًا من ألوانها و يأخذ بطريقة من طرائقها لرياضة النفس وتربية الارادة

ونقول « ألوانها وطرائقها » لأننا لا تقصر الصيام الذي تُقصد به رياضة النفس وتهذيبها على ترك الطعام والشراب وما اليهما من مطالب الجسم الكثيفة وحاجاته الشائعة بين الانسان والحيوان ، فان النفس لا تكبر ترك الطعام وما اليه إلا اذا كان الطعام حظًا كبيراً لديها . وأي حاجة الى الرياضة النفسية يشعر بها من يمتحن قدرة نفسه على مغالبة الهوى بقدرة معدته على مغالبة الجوع؟؟ فانما تبين قيمة النفوس بقيمة ما تقوى على تركه والصبر عنه ، وانما يعظم الترك والصبر بقدر نفاسة الشيء المتروك أو المصبور عنه على نفسك ، ومن ثم يكون الصيام درجات تترقى في الحقيقة حسب الترقي في الحاجات والأشواق ، وربما كان أسهلها وأهونها الأمساك عن الطعام والشراب . فهو لهذا فريضة شائعة مكتوبة على عامة الناس وخاصتهم بلا اختلاف ، ولو كانت أمثال هذه الفرائض تخصص بفريق دون فريق لقد كان الاحري أن يخص صيام الطعام والشراب بمن يحسبون الامساك عنهما عظيمة مأثورة وتضحية شاقة وامتحانًا عسيراً للارادة ورياضة للنفس على مغالبة الأهواء ، وليست الأهواء كلها من شهوة الطعام والشراب

ولكنها كثيرة مستدقة قد يعجز عن مكافحة اضعفها من يقوي على الصوم شهوراً وأعواماً ولاء بلا انقطاع

ولم يكن أصل الصوم في نشأته الأولى رياضة للجسم أو للنفس على شيء من هذه الأشياء ، ولكنه على الارجح بقية من « عبادة الموتي » نشأ أولا من استشعار الحزن لفراقهم وترك الطعام والشراب بعدهم ساعات أو أياما الى أن تهدأ سورة الحزن وتبرد لذعة الألم ، ثم صارت للحداد أيام معدودة وشعائر معروفة وأصبح الصوم الطبيعي الذي لا كلفة فيه ولا مشقة صوماً مقرراً في العرف والعادة ، ثم اصطبغ بصبغة الدين حين عبد الناس آباءهم الغابرين وأقاموا لهم القبور والهياكل والكهانات، فانفصل شيئاً فشيئاً عن منشأة الأول واستقل على توالي العصور عن شعائر الحداد ، وان كنا نرى الى اليوم أن الحداد يتبعه الصوم عن كل الطعام أو عن بعضه أحياناً الى أمد يختلف بين الناس حسب اختلاف العادات

ولما ثبتت الكهانات وتفرغ النساك للعبادة كان الصوم أحد رياضاتهم الأولى التي راضوا بها نفوسهم على التقشف والزهد في الحياة وممارسة المكروه . ارضاء للآلهة التي كانوا يعبدونها ويتقربون اليها بالتوبة وهي لا تقبل في حكم الأديان كلها إلا مقرونة بما يؤلم النفس ويثقل عليها احتماله ، ثم تجرد الصوم من هذه الأغراض وتهذب من ضلالاته الأولى حتى امتزج بالتصوف الفلسفي والتأدب الروحي

وفرضه بعض الفلاسفة الحكماء على انفسهم لقمع هواها أو تهيئة ملكاتها الباطنة لما يسمونه حالة « الاشراق والصفاء » ، التي تعينهم على الوصول الى الحقائق واستكناه خفايا الوجود ، وقد يقتدي بعضهم بالنساك والزهاد فيستعين بالصوم على « انكار الذات » ونسيان النفس تقربا الى الله وعزوفا عن ملابسات الحياة

ولكن هل الصوم من دواعي انكار « الذات » المتنبهة او هو من دواعي اثباتها وتوكيدها ؟ ؟ وهل هو من أسباب نسيان النفس الشاعرة وسحق كبريائها أو هو من أسباب تذكرها وتقريرها وجودها ؟ ؟ أكاد أقول أن الصوم بجميع درجاته وأنواعه حيلة نفسية خفية لتقرير وجودها وتوكيد عزتها ورفض كل ما يسيء الظن بها في نظر صاحبها . وما أيسر أن نعرف ذلك ! حسبنا أن نراقب الحالة التي تناقض الصوم لنهتدي الى الحقيقة من المقابلة بين النقيضين . فأنظر على سبيل المثال الى أي رجل تعرفه ممن أرخوا العنان لشهواتهم وأجابوا نفوسهم الى أهوائها واسترسلوا في الغواية بلا رادع ولا مقاومة فهل ترى هذا الرجل « واجداً » نفسه مكرماً لها أو تراه مبتذلا نفسه فاقداً لها في غمار شهواتها وتيار أهوائها ؟ ؟ إنك لا ترى رجلا كهذا إلا قد ارتسمت على وجهه علامة احتقار هي قبل كل شيء موجهة الى نفسه لا إلى سواه ممن لعله يحتقرهم لأنهم يشبهونه في معيشته ولا يهتمون في الحياة بخير مما

يهتم به ، وكأنه بما يبدو على وجهه من تلك العلامة يقول : أنني أعرف من أنتم أيها الناس لأنني أعرف من أنا وأعرف ما أهتم به فلا أجد هنالك ما أجله وأوقره . وتلك شهادة على نفسه لا يقصدها ولكنها تنطق بدلالتها أرادها أم لم يردها وأظهرها في ثوبها الصحيح أم أظهرها في ثوب الانفة والكبرياء

ولست أعرف معنى «للنفس» في حالة الاستسلام والاسترسال التي نشاهدها فيمن يلبون حاجات نفوسهم ولا يقفون لها في شهوة من شهواتها ، فأن حكم هؤلاء في هذه الحالة كحكم الخشبة المنساقة في تيار الماء أو الحجر الهابط الى الأرض أو الريشة المتطايرة في الهواء ، أي أنه هو حكم الجماد المفقود في تيه النواميس الكونية بلا ادراك ولا شعور ولا ارادة ، ولا يزال الانسان شيئاً لا نفس له ولا استقلال لكيانه حتى « يمتنع » عن شيء يدفع اليه ويقف في وسط التيار الذي يحيط به . فهنالك «يجد» نفسه بعد اذ فقدها بالمطاوعة ونسيان « الذات » ويشعر بمعنى رفيع هو اسمي معاني الحياة لم يسم اليه إلا الانسان بين سائر الأحياء

فالأقرب الى الصواب أن تقول أن الصيام بجميع درجاته وأنواعه هو احدى وسائل النفس العديدة التي تثوب بها الى وجودها وتستقل بها عما حولها ، وأنه اذا ظهر في بعض جوانبه بمظهر « انكار الذات »

فهو في أعماقه تقرير للذات واثبات لقيامها بنفسها واستغنائها عما هو خارج عنها

ومن التجارب المكررة عندي أنني كلما ألمت بي نوبة ضعف وهانت على نفسي لا استرد الرضي عنها ولا أفلح في تسرية غمتها حتى أوفق الى عمل معنت أجرب به قوتها أو رغبة شديدة أروضها على التغلب عليها . فاذا أفلحت التجربة اطمأننت الى نفسي ورضيت عنها كما يطمئن المرتاب في قوة جسده حين يروض عضلاته بحمل الأثقال ومقاومة الشد والجذب ، وكلما كانت الرغبة أشد كان التغلب عليها أفعل في طرد الشكوك وأدعى إلى الغبطة وأقمن أن أبيح لنفسي بعدها ما كنت أخشاه عليها في حالة الضعف والارتياب

ولى صديق كثير الاطلاع على كتب الفلسفة العربية صريح الفكر سديد المنطق يناقش كل شيء ولا يصدق بشيء قط على السماع، وأعرف أنه لا يؤمن بالأديان ايمان اتباعها بها ولا تكاد تمضي ليلة عليه حتى يلهو بتحطيم برهان أو براهين من التي يبنيها المناطقة المتدينون ويتحصنون فيها على المنكرين ، ويظل لا سلطان عليه لغير عقله المستقل وطبيعته المتينة حتى يجيء شهر رمضان فيصومه صيام الاتقياء ويحرم على نفسه الشراب ويخلص في الصوم اخلاص من يبتغي به الجزاء ويعتقد فيه النجاة. وكنت أعجب لهذه الظاهرة النفسية الغريبة وأسأله عن تعذيب نفسه فى غير نية التدين أو الرياضة وأستطلع منه

العلة التي يعلل بها ذلك لعقله فيقول لي : أنني أستحي أن أرى في النهار مدخناً أو آكلا أو شارباً ولا أحب أن اضعف عن الصيام وحولي من يقدرون عليه

وأسأله : فاذا خلوت بنفسك ألا تشرب الماء اذا عطشت أو تأكل الطعام اذا وجدته على مقربة منك ؟ ؟

فيقول لا ! وهو صادق فيما يقول

وأسأله كيف يستقيم هذا في قياسك ؟ فيذكر لي أنه كان في شرخ شبابه لا يبالي أن يجهر بالأفطار حيث كان ولكنه جنح الى المجاملة مع السن والخبرة فأصبح يصوم أمام الناس ويأبي أن يعترف لنفسه بمراءاتهم ،فيصوم في الخلوة ويؤدي للصيام كل حقه مخافة الرياء . . !

وهذه ظاهرة من ظواهر الصراحة التي تفر من الرياء فتقع فيه، وهي ظاهرة تبدو غريبة لأول وهلة ولكنها في الحقيقة لا تعد غريبة في النفوس المتيقظة التي تراقب خواطرها وتعتمد في تقديرها لذاتها على مقياسها هي لا على قياس الناس لها . فأن هذه النفوس تفرق أن يظهر ضعفها لها اشد من فرقها من ظهور ضعفها لغيرها ، وتستخف كل ألم يزيل شكوكها ويعيد اليقين - بأي شكل من الأشكال - الى سريرتها ، اذ كان أكبر ما يهمها أن ترضى هي ضميرها الا أن يرضي الناس عنها، فهي لذلك تداري ضميرها اكثر من مداراتها للناس وتأبي أن تسلم بأنها ضعفت أمامهم فتحمل الشدة بينها وبين ضميرها لتدفع

عنها مظنة الضعف أو تقدم له كفارة عما بدر له منه ، ولا يداري الانسان نفسه إلا اذا كانت لها مقاييس للاخلاق والحياة غير المقاييس التي يتواضع عليها الناس ، وهذا – أي استقلال الانسان بمقاييسه – هو الصراحة بعينها وهو كما رأيت سبيل في بعض الأحيان من سبل الرياء . ! فما أعجب سرائر النفس وما أكثر ما فيها من البراقع والسراديب والدروب

ويخيل الى أن النساك الحقيقيين أصدق الناس شعوراً بذواتهم وأعظمهم رغبة في الاستقلال عما حولهم والتمرد على ضروراتهم ، وقد يبدأ الناسك منهم في الزهد والقناعة وشعاره في الحياة

اذا لم تملك الدنيا جميعاً كما تهواه فاتركها جميعاً

ولكنه قد يعلو في افقه حتى يرى في الزهد لذة ايجابية ويطلبه لذاته لا لانه وسيلته الباقية لارضاء نفسه بعد ان اعياه ارضاؤها بأن « تملك الدنيا جميعاً كما يهواه » . . . بل اقول ان الزهاد الحقيقيين لا يرضيهم من « تقرير الذات » ما يرضي الملوك وذوي السطوة واصحاب المطامع الكبيرة الذين يسحقون بأنانيتهم كل انانية تنهض في طريقهم . فأن هؤلاء يرضيهم ان يتغلبوا على الناس ويتحكموا في ظواهرهم ويقيسوا انفسهم بمقاييسهم ، اما الزهاد فلا يرضيهم هذا وانما يطلبون ما هو اكبر منه في السيطرة والتحكم: يطلبون ان يتحكموا

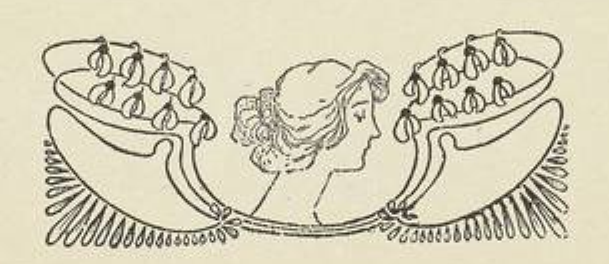
في ضرورات الحياة ومطالب الفطرة ونواميس التكوين ، يطلبون ان يذعن لهم كل شيء وان لا يذعنوا هم لشيء من قوانين هذا الوجود، وان احببت ان تستيقن من ذلك فمثل لفكرك زاهداً شرع في الزهد ثم نظر فألفى نفسه فجأة قادراً على كل ما يريد مستغنياً عن كل ضرورة متحكماً في كل ناموس من نواميس الكون افتراه إذن يصمم على نية الزهد ام يرى انه اصاب الكفاية مما اراد وان الزهد لا معنى له مع القدرة التي اوتيها في تسخير المقادير ؟ ؟

ومالنا وللفرض والتمثيل . حسبك ان تلقي بالك الى المعجزات والكرامات التي يرويها الناس عن الاحبار والنساك وما ينسبونه اليهم من خرق الطبيعة وتحريك الجبال وتجفيف البحار وارسال الرياح والأمطار والاستغناء عن الطعام والشراب واللباس والغطاء فتعلم طبيعة الزهد وانها طبيعة الهية لأنها تطلب ما ليس يقدر عليه الا « الاله »! فلا خطأ في قول القائلين ان نفس الزاهد تتوق الى مصدرها الأول او تسمو الى « واجب الوجود » ولكن الخطأ كل الخطأ ان يقال انها تنكر بالزهد ذاتها وتنفي عنها وجودها ، فما يكون لذي وجود ان يدحض وجوده بحال من الأحوال حتى الاعراض الزائلة والصور السطحية ناهيك بالنفوس الآدمية وضيعة كانت او رفيعة . غير ان الفضائل تتفاوت في السعة والضيق وفي القرب من عنصرها الأصيل والبعد عنه . فما يسمي « انانية » عند قوم قد يكون التضحية التي

ما بعدها تضحية عند آخرين وما يبدو كالقناعة لأول نظرة قد يكون الطمع الذي ما بعده طمع عند البحث في اصوله وغاياته . ثم اننا لا نقول ان الزهاد يفعلون ما ينسب اليهم من المعجزات والكرامات او انهم يدعون فعله وانما نقول ان الزاهد الصادق يأنف ان يخضع لما يخضع له الناس جميعاً عن طواعية ورضي ، وانه ليس ذاك الذي يقنع بأقل مما يقنع به الناس وانما هو ذاك الذي يطمح الى اعلى وادوم مما يطمحون اليه

***

ومغزى ما تقدم ان الصيام — بكل نوع من انواعه وفي كل درجة من درجاته — وسيلة من وسائل تقرير الذات لا يستغني عنه احد في مزاولات الحياة ولا بد لنا منه في كثير من الأحيان ، للشعور بما فينا من علو على الجماد المسخر واستقلال عن تيار الضرورات



الزهر والحب



كان للطبيعة في الأسبوع الماضي يومها المشهود عندنا في «شم النسيم» ، وكان ذلك اليوم عيداً من اعيادها في هيكلها القديم الذي لا تنصل له صبغة ولا يخفى له معلم ولا يزال مأموماً مطروقاً على تعاقب الآلهة وتناسخ الأديان وتبدل المصلين، وكان خليقاً من الناس بعبادة اجمل واطهر من عبادتهم التي يحيونه بها ، ولكنهم اذالوه كما يذيلون كل قداسة واضافوا اليه كما يضيفون الى كل دين وخلطوا السوق فيه بالهيكل كما يخلطون اسواقهم بهيا كلهم في كل زمان ، وجعلوه مائدة بطون منهومة وكان اولى ان يستقبلوا منه نزهة ارواح وافكار وفرحة قلوب وابصار

وكان في الأسبوع الماضي معرض لأزهار الربيع جمع فيه العارضون ثروة من الألوان والعطور وذخراً من البشاشة والرواء ومحفلا من الأرواح الباسمة والخواطر الناعمة التي ترف حول الرياحين رفيف الفراش حول المصابيح، والتي تعجب وانت تناجيها وتحس قربها وتستروح منها انس محضرها اهي تحية تبثها انت في الزهر ام هي تحية يبثها الزهر فيك ؟! وكنت اشهدها وأتنقل فيها من خميلة الى خميلة او من طائفة الى طائفة فيخيل الى اننا في موعد حسان تقبل اليه كل حسناء بزينتها وتفتنّ فيه بفتنتها وتبرز للعيون بجمالين من الوشي والصباحة وسكرين من النشر والهوى ! ويلج بي هذا الشعور ويتسرب في مناحي النفس وجوانب الخيال حتى لأستغرب من الأزهار سكوتها وسكونها وأحسبه وجوما منها واطراقا . . . فيبعد الشبه بينها وبين الحسان اللاعبات الضاحكات المبديات للزينة إبداء النعمة والسرور المتبرجات بالجمال تبرج المرح والدلال الطائعات فيما يبهجن به العيون من شارات الحسن وسمات السعادة ودلائل العطف والاقبال ، وارى كأنما تلك الأزهار المجلوبة من كل روضة معرض من معارض الجواري الأسيرات اللواتي يجلبهن باعة الجمال والشباب من كل رجاء من الارجاء وينتزعونهن من احضان الأمهات والآباء ويغرون — بما يسبغون عليهن من الحلي النفيسة والمطارف الغالية — انظار المساومين الغافلين عما وراء هذه المحاسن من الحسرات والالام ! واين الزهرة في الآنية

من الزهرة في روضتها الأريضة على غصنها النضير ؟ تلك حبيسة مجلوبة مكفوفة الأمل محدودة الحياة تذكرها فتذكر ثمنها وتاجرها وتفرج عليها كما تفرج على السلعة التي تقدرها بمقدار سعرها ، وهذه طليقة عزيزة تغازل الشمس وتلاعب الهواء وتدين بدين الحب والأمل وتقدرها انت بمقدار ما منحتك من السرور والاعجاب، وتنشدها في روضها كما تنشد المليكة الجالسة على عرشها ! فهي الزهرة كما خلقتها الطبيعة وهي البشرى التي تنطق بها الحياة في صوت من الاوراق والالوان ومعني من النضارة والنماء ، وكذلك يعشق الزهر وكذلك يعبد الجمال !

أما الزهرة في الآنية فتلك مخلوق مسكين في الطريق الوسط بين الزهرة المصنوعة من الورق والزهرة المؤثلة في الرياض ، وهي بأن تثير الاشفاق والرثاء أحرى منها بأن تثير الاعجاب والرجاء ، وكما ان الرق يسلب الانسانية معناها ويحيل الانسان الكريم الرشيد آلة للكد والسخرة كذلك رق الآنيــة يسلب الزهرة معنى التطلع والاستبشار ويحيلها آلة للزينة والتعلل لا تكاد توحى الى النفس من فرح الحياة إلا بقدر ما يلصق بها من ذكريات الرياض والفضاء

***

والربيع ربيع في النفوس لا فيما تراه من زخرف والارض والسماء — يحيينا بازهار خفية تتفتح في ضمائرنا أجمل وأبهج وأحب الينا من

هذه الازهار التي تفتح في الرياض ، ويحبونا بخصب في القلوب أغنى وأوفر من ذلك الخصب الذي ينبت منه الشجر ويزكو فيه الثمر ، ويصب في جوانحنا من حمياه كؤساً دهاقاً كالتي يسكر بها الطير فيصدح ويحتسي منها النسيم فيخفق ويعب فيها الفضاء فيصفو ويتألق ، ولولا الربيع الذي يشرق في النفوس لما أشرق الربيع في أرض ولا سماء ، ولولا الطيور التي تهتف لنا في الخواطر وترفرف في فسحة الامل لما أطربتنا الطيور التي تهتف على الاغصان وترفرف في الاجواء ، ولولا الرياحين التي تفتق عنها أكمام القلوب وترويها أفاويق الحياة لما أتقنا لريحانة تنجم بها ناجمة على الارض وتسقيها غادية في الفضاء . فما يعجبنا ربيع الارض ولا يسحر عيوننا ويحرك أشجاننا الا لانه صدى الربيع الذي في النفس ونغمة من نغماته ونفحة من نفحاته ، أو لأن الربيعين معا — ربيع النفوس وربيع الرياض — صدى قدره عظيمة مكنونة في كل شيء متغلغلة في كل مكان ونفحة من نفحات ربيع سرمدى حافل بالنور والخير والجمال

وكثيراً ما يسأل السائلون :ماذا يعجبنا من الازهار والرياحين ؟؟ وكأنهم اذ يسألون ذلك السؤال يحسبون أنها خلقت لتعجبهم و تسرهم فيحيرهم ويضني عقولهم أنهم لا يعرفون كيف يكون ذلك الاعجاب والسرور . . . ! وما خلقت زهرة واحدة من هذه الازهار لنا ولكنها خلقت لنفسها ، وما لبست تلك الألوان والمحاسن لتروقنا

ولكنها لبستها لأنها لا محيص لها عن لبسها ، وانما السر في كل ما يخامرنا من السرور بها أن للزهرة في الطبيعة معنى يوافق معنى في نفوسنا ويكون ظهوره دليلا على السرور الذي شاع في الاكوان قاطبة — وشاع في نفوسنا أيضاً — لا خالقاً لذلك السرور ولا سابقاً له في الوضع والترتيب، فنحن لهذا نبتهج حين يبتهج الزهر ونشعر بنمو الحياة فينا حين تنميه الحياة ونتوافي على موعد واحد من مواعد الطبيعة التي تعدها لامتاع أبنائها جميعاً بخير ما عندها من الهدايا والالطاف ، ونحن حين يشيع في نفوسنا الفرح بالحياة ويستخفنا الطرب بالوجود نستجمل كل شيء نراه — ولا نستجمل الزهر وحده — وننظر الى الموجودات كافة نظرة الخالدين الذين لا يرون فيها قبحاً ولا يحسون فيها نقصاً ، لأنهم ينظرون اليها بعين تنزهت عن الاحتياج الفاني والاعتبار الموقوت ، فلا يلمحون فيها إلا كياناً كاملا مطلقاً سكران ملء السكر بنعمة الوجود !

لماذا نطرب للزهر ؟ ؟ عجباً ! ألا تقول لماذا نطرب وكفى . . ! ! فاننا لا نطرب للزهر ولا الزهر يطرب لنا ، وانما نحن جميعاً نكرع من معين متقارب ونشرب الطرب بأقداح متشابهة . وهل تظن أن الزهر أولى بأن يكون جميلا بهيجاً محباً محبوباً حياً نامياً منا نحن الأحياء الشاعرين في أوان الربيع ؟ ؟ أيضوع الزهر ولا تضوع أرواحنا ؟ ؟ أيتفتح الزهر ولا تتفتح قلوبنا ؟ ؟ أينمو الزهر ولا تنمو شواعرنا ؟؟ أيجمل

الزهر ولا تجمل حياتنا ؟ ؟ أيطرب كل شيء تحت السماء ولا نطرب نحن حتى يجيء الزهر فيطربنا بألوانه وأعطاره وما يترقرق فيه من ماء النضارة والشباب ؟ ذلك ما ليس يخطر ببال . . ، وأحسب لو أن الربيع بقي لنا وخلا وجه الأرض من كل ناجمة ونابتة لما نقصت نشوتنا بجمال الحياة شيئاً ولا افتقدنا في خارج نفوسنا دليلا من دلائل الغبطة والشوق ولاغاب شيء من تلك الدنيا التي تشتمل عليها الضمائر والقلوب

***

بيد أننا اذا نظرنا الى الاسباب القريبة نجد للزهر جمالا يلقانا به من عنده قد يضاعف شعورنا بالجمال أو يوقظ فينا شعورنا الساهي في غمضة الاغفاء ، وليس يلحظ هذا الجمال إلا نفوس يسري الشعور الى عروقها الدقيقة وينبض في أوتارها البعيدة ويكبر الهمس الضعيف فيها كما يكبر الصدى في بعض القباب المتجاوبة – هذه النفوس قد مرنت على الاحساس ودربت على الجليل والدقيق منه واتصلت مسالكها من أظهر منافذ الاحساس الى أخفاها ومن أخفاها الى أظهرها ، فتهزها النغمة الخفيفة حين ينام غيرها على قرع الطبول وتجوبها الاشارة الطفيفة حين تمتنع منافذ غيرها على غير الدفع والاقتحام . وكأن لبصائر هذه النفوس مجاهر وأبواقا تجسم بها الصغير وتقرب بها البعيد فتبصر حين يغمض غيرها عينيه وتسمع حين يوصد غيرها

أذنيه ، أو كأن لها أثيراً روحياً يجتذب الاصوات من أبعد الابعاد كما يجتذب الأثير كلمات المتكلمين من وراء البحار السحيقة والسامعون لها في مواضعها يحسبونها قد ضاعت مع الريح

فللزهر رسالة الى هذه النفوس تنقلها من قريب وهي في الوقت نفسه تومىء الى أبعد آماد الطبيعة وأعمق قراراتها ، وهي تصغي الى تلك الرسالة فتسمعها على درجات متفاوتة من الوضوح والفهم ، فان سمعت أصواتها فمثلها في ذلك كمثل الذي يسمع نبضات البرق بعلامات الحروف دون أن يهتدي الى فك رموزها وتركيب الفاظها ، وان زادت على ذلك فقد سمعت العلامات وفكت الرموز وركبت الالفاظ وخلصت منها الى المعاني والاسرار ، وهي في الحالتين تتلقى من الزهرة حياة قد يحتاج غيرها الى كل عـدد الربيع وجنوده ليتلقى بعضها أو يحس قربها ، ثم هو لا يتلقى ذلك البعض ولا يحس ذلك القرب إلا على صورة غليظة شوهاء محرومة من دقة التفصيل ووضاحة التمييز

وربما تسنى لنا أن نحصر بعض صفات الجمال في الزهرة اذا حصرنا عناصرها التي تبدو لنا من قريب ،فالزهرة لون وشكل وعطر ولا تعدو صفات الجمال التي تشوقنا منها ان تكون في عنصر من هذه العناصر أو في مدلوله الذي يدل عليه . فأي تلك العناصر أغلب في جمال الزهرة ؟ وما المعنى الجميل من الألوان والاشكال والعطور التي تروقنا في الازهار ؟

فأما اللون فهو النور في اصباغه المختلفة وهو أول ما يلفتنا الى الزهرة ويبهر أنظارنا منها، والنور إن رجعنا به إلى أصوله الاولى مادة كل شيء ومنبع كل حياة . أو لم يظهر للباحثين ان جميع ما في هذا الكون من الاجسام يتركب من خلايا وأن جميع الخلايا تتركب من ذرات وأن جميع الذرات تتركب من كهارب وأن الكهارب انما تستمد وجودها من الاشعاع والانارة أو انما هي النور الذي صح فيه على هذا الوصف قول الصوفية انه هو المرئي والرائي وأنه هو الوجود والهادي الى الوجود ؟ وان رجعنا بالنور الى مظاهره السطحية فهو جلاء الابصار وغذاء الارواح يربو به الجسم وتترعرع فيه الحياة ويداوي به ما ليس يداوي بغيره من الادواء

فهو في أصوله البعيدة ومظاهره القريبة لا عجب أن يبهر أبصارنا ويسحر نفوسنا ويشرح صدورنا ولا بدع أن يكون مصدر كل جمال ومبعث كل روعة ولباب كل سرور ، ولست أشك لحظة في ان شعورنا بالنور — أو قل بالحركة الاولى والحرية الاولى — هو أصل كل شعور بالجمال في نفوسنا ،وان فرح العين بطلعة النور الرفيق عليها لا يختلف أي أختلاف عن فرحها بطلعة الزهر المتبرج في اصباغه ونقوشه ، وأن من شواهد ذلك ان جمال الزهر يكاد يتمشى على ترتيب الطيف الشمسي في أذواق المعجبين بالازهار . فتروقهم الالوان على حسب ما عندهم من السرعة والبطء في الانتباه ونري الذين يكفيهم القليل من التنبيه

يميلون الى الالوان القريبة الى الظلام ويتدرجون في ذلك على حسب اختلافهم في دقة الاحساس وسرعة الالتفات ، والمتخاطبون بلغة الازهار يرمزون الى قوة الاحساس الجميل الذي تمثله الزهرة وفاقا لترتيب لونها في ألوان الطيف الشمسي ، فمن الوردة الحمراء المتوهجة التي يمثلون بها اتقاد الحب واضطرام آلامه الى البنفسجة الحزينة الساكنة التي يمثلون بها الوداعة والسوداء — مجال واسع لتفاوت الاحساس بالزهر على درجات التفاوت في ألوان النور وامتزاج الاصباغ والنقوش

أما شكل الزهرة فقد يعجبنا منه التنسيق البديع أحياناً كما يعجبنا التنسيق في كل شيء ، ولكن الذي يعجبنا منه حقاً – فيما اعتقد – هو الدلالة التي يرمز اليها لا التنسيق الظاهر الذي قد يتفق لبعض الازهار وقد لا يتفق . وأول ما تدل عليه الزهرة الغضارة ثم اللهفة التي ترافق في الذهن ذكرى زوالها السريع . فكأنما هي بشكلها الغضير الرقيق رمز الى فرصة العيش التي تنادي الناس باغتنامها وتذكرهم بسرعة فراقها . ومن هنا كانت في شعر الأمم كلها رمزاً الى الشباب والى كل أمل جميل تتلهف عليه

وأما الرائحة فقد يخلو منها بعض الازهار فلا يفوته شيء من الرواء والبهجة ، وقد تعجبنا الرائحة في الزهرة كما تعجبنا في سواها ، وهي بعد لغز يقول النباتيون والمشرحون أنه مجهول الغرض في الزهرة كما

أنه مجهول الغرض في جسم الانسان ! فان صح ما يقولون فقد يكون الشك محيطاً بغرضها ولكن أي شك يا ترى يمكن ان يخالجنا في أثرها الذي تحدثه في نفوسنا ؟ فان اقل ما يقال فيها انها منبه لطيف للذهن يحرك القريحة ويسلس الاحلام ويرسل اعنة الخواطر ، وهي كالمنبهات في جميع خصائصها تلطف فتسر وتشتد فتؤلم ، وهي اذا اقترنت بالذكريات المحبوبة واجتمعت الى ما في الرياض من صفاء واشراق ونضرة في الالوان والاشكال تم بها جمال الربيع

ثم ان الزهرة بلونها وشكلها ورائحتها رمز الى هوى في النبات يتلاقي في اغواره العميقة بهوى مثله في الانسان ، هي رمز الحب ! هي وسيلة التزاوج بين القريب والبعيد من النجوم والاعشاب والاشجار والادواح ، وهي لهذا حبيبة الى العشاق توحي اليهم اسراراً لا توحي بها لكل ناظر

ولكني لا أريد هنا ان ازعم كما يزعم النشوئيون وغيرهم من الباحثين أننا نرى الأشياء جميلة لاننا ننظر اليها بعين الحب أو بعين العاطفة الجنسية كما يقولون . فقد يكون العكس أقرب الى الصواب وقد تكون العاطفةالجنسية نفسها اداة من أدوات التكوين تنهض بنا في طلب الجمال والكمال

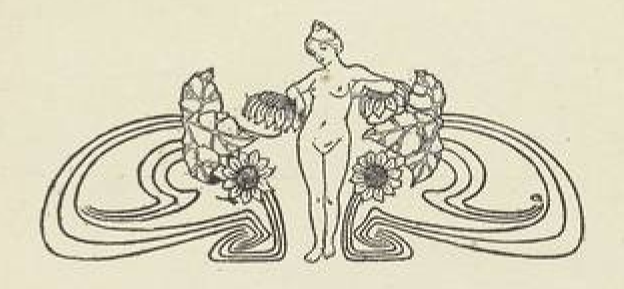
والا فما هي تلك العاطفة الجنسية ؟؟ أهي شيء مقصور على الانسان ؟ أهي شيء مقصور على الحيوان ؟ أهي شيء مقصور على

النبات ؟ أهي شيء مقصور على الجماد ؟ كلا ! بل هي شيء شائع في جميع هذه الكائنات وفيما هو اخفى منها عن العيان والتقدير : شائع حتى في الكهارب التي تتعانق سالبة وموجبة لتستوي بها الذرة الدقيقة التي لا تدرك الا بالحساب ، وهي حيثما وجدت مظهر للرغبة في التمام والدوام وهما أعلى ما يتصوره العقل من صفات الجمال في الكائنات . فما من كائن في هذا العالم الا وهو يسعي سعيه الحثيث الى ان يتم بصنوه المتمم له ويلتمس الدوام بواسطة الاتصال به ، وما من صفة مبثوثة في الكائنات هي الصق بطبيعة التكوين من صفة الرغبة في الكمال والدوام

فليست العاطفة الجنسية هي التي تخلق الرغبة في الجمال وانما الرغبة في الجمال هي التي خلقت العاطفة الجنسية بمظاهرها المختلفة في الكائنات ، ولقد تعودنا أن نحسب العلاقة بين الذكر والانثى أصلا للحب بجميع صنوفه وألوانه . ولكننا اذا واجهنا الحقيقة من وجهة أعم وأعمق تبين لنا ان هذا الحب بين الذكر والانثى هو فرع طارىء من أصل الهي قديم شامل للموجودات مستقر في طبيعة الوجود هو حب الكمال والدوام ، وليس الحب بين الذكر والانثى غاية في ذاته وانما هو واسطة من وسائط ذلك الحب الاصيل

والزهرة ياصاح ! الزهرة النحيفة التي تطويها في يدك قد تروي لك من فخامة هذه الاسرار ما تمتليء به آفاق الارض وأبراج الشموس

والاقمار . فاذا أخذتها بين أصبعيك فاذكر أنها رمز الحب ! واذا ذكرت الحب فاذكر أنه – في كل ما يحيط بنا من الظواهر والخفايا – هو رمز الجمال الآلهي والخلود السرمدى .



الاشكال والمعاني



قلت في مقال « الزهر والحب » ان شكل الزهر « قد يعجبنا منه التنسيق البديع أحياناً كما يعجبنا التنسيق في كل شيء ، ولكن الذي يعجبنا منه حقاً فيما اعتقد هو الدلالة التي يرمز اليها لا التنسيق الظاهر الذي قد يتفق لبعض الأزهار وقد لا يتفق. وأول ما تدل عليه الزهرة الغضارة ثم اللهفة التي ترافق في الذهن ذكرى زوالها السريع . فكأنما هي بشكلها الغضير الرقيق رمز الى فرصة العيش التي تنادي الناس باغتنامها وتذكرهم بسرعة فراقها . . . »

وقد لقيني أديب من المشغوفين بالتصوير فناقشني فيما أردت بهذه العبارة .وكان منحى فكره ان الجمال كله « شكلي » لا سيما الجمال في الفنون،وان الفن كالشريعة « لها الظاهر » كما يقول الفقهاء . . . . وهو

رأي يقول بهِ بعض محبي الجمال الصادقين في حبهم إياه ولكني أحسبهم يشغلون بلذة النظر اليـه عن الانعام في أسبابه ودلالاتهِ أو يصعب عليهم أن يجمعوا للجمال « نظرية » واحدة يفيئون اليهـا بتعليل كلما يعجبهم من محاسن الاشكال ، فيأخذون كل شكل على حدته ويظنون الجمال عالقاً بهِ لذاته لا لمعنى ينطوي عليه أو لدلالة يشير اليها . وربما صعب علينا أن نحيط « بنظرية » وافية للجمال تفسره في كل صورة وكل لمحة . ولـكني لا أرى ذلك مانعاً لنا من القول في غير ما تحرز ولا استثناء بأن الجمال في الفن والطبيعـة معنوي لا شكلي وان الاشكال لا تعجبنا وتجمل في نفوسنا إلا لمعنى تحركه أو لمعنى توحي اليه — لا فرق في ذلك بين أشكال الوجوه الآدمية والاعضاء الحية وبين مادون ذلك من الصور التي تخفي فيها معاني الحسن أو تبعد الشقة بينها وبين ما تومىء اليه

فالوظيفة في الحياة تسبق العضو الذي يمثلها والجسم الانساني نفسه لا يسعك أن تتصوره إلا معـبراً عن فـكرة أو وظيفة مجردة ، ولا قيمة للاعضاء في ذواتها بغير الفـكرة التي تعبر عنها والوظيفة التي تؤديها ، فلا فرق في الشكل مثلاً بين بروز الحدبة على ظهر الاحدب وبروز النهدعلى صدر الكعاب ! ولكن الحدبة معيبة والنهد مستجمل مرغوب ، وما ذاك إلا لاختلاف المعنى بينهما لا لاختـلاف الشكل

والصورة ولتباين الوظيفة التي يمثلها كلاهما لا لتباين الحجم والبروز . وقد يعاب بروز النهد كما يعاب بروز الحدبة اذا كان في شكله ما يخل بمعنى الصحة والشباب الذي يستجمل لأجله ، إذ من البداهة أننا لا نحب وزناً من اللحم والدم ولا رسماً من الهندسة ولا حيزاً في الفضاء حين نحب الصدر الناهد المفعم في شكله البارز المستدير ، ولكننا إنما نحب الفتوة والصحة والنضج ويقظة العاطفة وما إلى هذه المعاني من خوالج النفس ووظائف الحياة

وما من شكل تراه إلا يختلف موقعه في الذوق بحسب اختلاف الدلالة التي يدل عليها والوظيفة التي يقوم بها . فمن ذلك ان الضمور واليبس معيبان في عامة الاحياء غير أننا لا نعيبهما في كلب الصيد الهزيل المعقوف الذي لصق بطنه بظهره ودقت أطرافه وكادت تعرى من اللحم أعضاؤه ، لاننا إنما ننظر الى ما وراء ذلك من خفة الحركة وسهولة العدو ورشاقة الخطو ، ونغفل عن شكل « الهيكل العظمي » المتمثل لأعيننا حين نرى أمامنا حركة جميلة حرة منبعثة بلا وناء ولا عائق متلبسة بجسد ذلك الحيوان الذكي السريع . ولو تأملنا في سر ما يعجبنا من حركة الجواد الجميل حين يرفع عنقه ويشيل بذنبهِ ويتبختر في مشيتهِ لعلمنا اننا انما نعجب بالمرح والنشاط وامتلاء الوظائف بالحياة واغتباط الحياة الشاعرة بنفسها ، إذ تبدو لنا مجسمة في الصورة التي توائمها والهندام الذي يطاوعها فيما تريد

ومن تعود النظر الى المعاني الباطنة وراء الصور الظاهرة استطاع أن يخلّص فكره وقلبه من قيود ذلك التحتيم الضيق الذي يخيل الى أكثر الناس أن جميع ما نحسه من هذه الاشياء ان هو إلا قوالب مصبوبة أبدية لم تكن قط على غير الصورة التي نحسها ولن تكون أبداً على غيرها ... كأنما كل صورة وجود قائم بذاته لا يدل على معنى ولا يتغير بتغير المعاني التي يدل عليها . ! وليس أشأم على العقل والنفس ولا أبطل لعملهما من حصر كل شيء في صورته وحبس كل شيء في ظاهره وافتراض ان الصور سابقة للمعاني في ترتيب الوجود كما أنها سابقة لها في ترتيب المشاهدة والادراك . فان الحقيقة التي لا جدال فيها ان العقل المطلق لا يرى وجهاً ما لتحتيم صورة من الصور دون غيرها ولا يمنع أن تظهر الحياة نفسها في ألوف من الاشكال المختلفة غير أشكال الآدميين والأحياء المألوفة في الأرض التي نسكنها. وكم ذا يختلف الانسان عن الانسان في اللون والحجم والادراك والعمر وسائر المزايا والصفات ؟؟ وكم قد اختلف الانسان في حاضره عما كان في ماضيه البعيد المجهول أيام الوحشية والهيام بين الآجام ؟؟ فما كانت صورة « الحياة الانسانية » واحدة في زمن من الأزمان ولا هي بالقالب المصبوب الذي لا يقبل التغيير ولا يأذن بالزيادة والنقصان ، فلقد كانت هذه الحياة قابلة لأن تظهر في جسم ليست له هذه الجوارح التى تتمثل بها وظائفنا الآن، وقد كانت عسية أن تسلك في

تجسدها مسلكاً غير الذي سلكتهُ واستقامت عليه من قديم العصور ، وما أكثر الاعين التي نراها في الحشرات والدواب والطيور والاسماك وغيرها من أنواع الاحياء وأجناس الانواع وفصائل الأجناس ؟ ! ثم ما أكثر الاختلاف بينها في الالوان والاشكال والمواقع والتراكيب ؟ ! ولكن هل « النظر » فى ذاته إلا وظيفة واحدة تستخدم جميع تلك الآلات وتبدو فى جميع تلك الاشكال ؟ !

وقد سألت نفسي كثيراً : هل ينتظر في مستقبل الاجيال البعيدة ان يتغير جسم الانسان عن تركيبه الذي صار اليه أو هل يرجي ان يستفيد من ذلك التغير جمالا فوق الذي استفاده فى تدرجه من أطواره الاولى الى هذا الطور الذي هو فيه ؟ ؟ والجواب على ذلك نعم مادام مشتاقا الى حرية الحركة راغبًا في الجمال ! فان الحرية والجمال معنيان لا ينفصلان فيما اعتقد ولا يتم أحدهما بمعزل عن الآخر . وأخال ان الانسان كان موشكا ان يزداد جمالا فى الجسم واتساقا فى الهندام لولا اختراع الآلات والاستعانة بحيل الصناعة ، فانه كان يصبو الي حرية الحركة فيعتدل قوامه وتنطلق وظائف جسمه وتزداد قدرته على استخدام أعضائه ، فلما اخترع الآلات أصبح اعتماده على الفكر لا على الجسم في بلوغ ما يصبو اليـه من سرعة الحركة واتقاء عاديات الطبيعة ، وسهل عليه أن ينتقل من مكان إلى مكان وأن يطير في الهواء وأن يغوص تحت الماء دون أن يتحسن جسمه أو تزداد حرية

أعضائه ولباقة وظائفه . ولست أظن الجسم الانساني استفاد شيئاً يذكر من الحسن بعد ان ناب فكره مناب جسده في حرية الحركة والاستعداد للكفاح والتصون من أخطار الطبيعة والأحياء

وفي النظر الى الأحياء بهذه النظرة باب من المتعة الفنية لا يوصد وطريق من اللذة الحسية لا نهاية له ، ففي وسعك أن تحول الدنيا في كل لحظة تختارها الى متحف لاعداد لبدائعه ولا حائل بينك وبين آياته وروائعه ، ولبيان ذلك هب أن طائفا من السماء طاف بالارض كما طاف بمدينة النحاس « في ألف ليلة وليلة » فترك كل من فيها اصناماً من المعدن أو الرخام كالاصنام التى ينقلها الفنانون عن نماذج الحياة ! أفلا ترى حينئذ بين يديك متحفاً فنياً حافلاً بالتماثيل لا تميزه عن أبدع ما صنع الصانعون ولا تمل النظر الى صوره ومعانيه ؟ ؟ فاعلم ان هذا المتحف بين يديك في كل ساعة إن شئت أن تستجلى أصنامه وتماثيله فأبدأ حيث بدأت فى الطريق تجدها ماثلة أمامك تعرض عليك صوراً لا تحصي ومعاني لا تنفد غير أنها تجمع الى جمال الفن جمال الحياة وتتحرك في ثياب من اللحم والدم بدلا من أن تسكن في ثياب من المعدن أو الرخام . . !

ومتى التمست المعاني الباطنة من صور الناس الظاهرة فقد طابت لك الفكاهه وانفتح لك كنز التصور والخيال : هـذه صورة آدمية لو أعيد خلقها في مصنع الحياة لخرجت منه ملكاً سماويا لا ينقصه

حتى الجناح الذي تستعيره من لطافة روحها وطهارة أحلامها . وهذا آدمي آخر لو أعيد خلقه في ذلك المصنع لخرج منه نمرا لا تنقصه حتى البراثن التي يستعيرها من شراسة طباعه وضراوة أخلاقه ، أو لخرج منه حماراً تام الخلقة لا تبقى من جسمه ولا نفسه فضلة بعد خلق الحمار . . . ! فليست العبرة إذن بالصور الظاهرة وليست هي الفاصل بين درجات الاحياء وأنواع المخلوقات ، وانما العبرة بالصفات التي ترتسم عليها والمعاني التي تحمل شعارها ، حتى لقد تكون تلك الصفات والمعاني طائراً شادياً في فطرة آمية أو تكون ثعباناً قاتلا في مسلاخ إنسان

ومن فكاهات هذه الملاحظات انني كنت ألقى صاحباً لي يلازمه في أكثر الأحيان عشير طائش الرأي سريع البطر يجول بعينيه هنا وهناك ويختال برأسه اختيال البلهاء ، فكنت أقول له : يا صاحبي أن في عشيرك هـذا لشبهاً بالمعيز وما أحسبه الا جدياً متنكراً في زي الآدميين . . ؟ وكنا ندعوه لذلك « بالمعزاوي » لا نتحري في الكلمة صحة النسبة العربية ولكننا نقصد الفكاهة والمزاح ، ومضت على ذلك أسابيع ثم لقيني صاحبي وهو يغالب الضحك ويتكلف العتاب ويقول لي : أتذكر الشيخ فلاناً ؟

قلت نعم ! وما خطبه ؟

قال : أتذكر كيف كنت تدعوه « بالمعزاوي » وتقول أنك لا تحسبه الا جدياً متنكراً في زي الآدميين ؟

قلت فماذا تستغرب الآن من ذاك؟ أوقد عاد الرجل الى أصله؟

قال : إي والله لقد كاد ان يعود . ولقد فضحتني معه بسبب ذلك اللقب فضيحة لا يغتفرها لي ولا أزال أماريه فيها حتى اليوم ، وكنتُ دعوته منذ أيام الى منزلي وتركته عند الباب وسبقته الى غرفة الاستقبال لاهيء المكان وأفسح له الطريق ، ثم أطللت عليه من النافذة أناديه ليصعد فوجدته قد برح موقفه الى ساحة بجوار المنزل تجتمع فيها جمهرة من المعيز لا يتخلف عنها كبير ولا صغير من معيز الحي .! ووقف ثمة يتأملها ويتفرس فيها وهو غارق في تأمله اناديه ولا يستمع للنداء ... فنزلت اليه وأنا أعجب لامره وصحت به مرة بعد مرة ! فأقبل على كمن أفاق من ذهول وهو يقول : سبحان الله يا أخي إنني أحب هذه المعيز واشتاق ان أنظر اليها حيث أراها . . !

قال صاحبي فذكرت في تلك اللحظة لقبه بيننا ونظرت الى وجهه ولمحة عينيه والتفاتة رأسه وسحنة وجهه فو الله لكأنما رأيته لأول مرة في تلك الصورة وكأنما مسخ أمامي لتوه جدياً ذا اظلاف وذنب !! فانفجرت ضاحكا وتحاملت مكظوماً وهو يستغرب ذلك ويلتفت الي بدهشة وكبرياء تزيدان وجهه شبها بالمعيز ... فأكابد من مغالبة الضحك ما لا يطاق وأحاول أن اتعلل له بسبب يقبله

فلا يلهمني الله سبباً مقبولاً . ثم صعدنا وقد بدت عليه بوادر الغضب فاعتذرت اليه بما حضرني وظلات يومها كلما خطر لي ذلك الخاطر صرفته عني بجهد جهيد وتحاشيت ان أقابل وجه الرجل لئلا تقع عيناي على عينيه فتعاودني نوبة من الضحك لا أدري كيف أفسرها له ، ولكنه لحظ على ارتباكي وتحاشيّ النظر اليه وسلم علي إذ فارقني وهو حائر في أمري وأمره غاضب علي غضباً أذ هله عن توديع المعيز وهو يمر بها في منصرفه . !

قلت هذه قصة لو عثر بها قدماء الهنود لقرأناها في كتبهم برهاناً وجيهاً بين براهين تناسخ الأرواح . !

***

وبعد فأرجو ألا يفوت القارى ما قصدت اليه من هذا الاستطراد والتشبيه ، فانما أقصد أن الجمال لا يقوم بالاشكال المفرغة من المعانى ولا يتجلى للحس وحده دون القريحة . بل الشكل الجميل هو أداة المعنى الي الظهور وشأنه أن يتلاشي ساعة يبرز لك معناه وأن ينسيك نفسه كل النسيان حين يخلص بك الى ذلك المعنى المجرد . فأحسن الاشكال وأوفقها هو الشكل الذي تتخطاه الى دلالته ، وعالم الفن على هـذا هو عالم المعاني المجردة لا عالم الاشكال الملموسة . وما الفنان إلا ذلك الانسان الملهم الذي يوفق بفطرته لاختيار أشكال تُبرز المعاني وتخلو من العيوب التي تحجبها عن الخواطر

أو هو ذلك الانسان الملهم الذي يوفق لاختيار الاشكال التي تنسينا الاشكال وتؤدي عملها وما عملها إلا أن تساعد المعنى على الظهور، لا ان تشغل الناظرين بالظواهر عما وراءها من المعاني والدلالات .

وقد استحبوا البساطة في الفن واستدلوا بها على الطبع لانها شفافة عما وراءها لا تعوق معناها عن الوصول الى الخاطر بعقبات التكلف والتزويق وحواجز الاوضاع والتقاليد ، والجملة البليغة هي الجملة التي تبلغ بك الي فحواها بلا مبالغة في التحليه تشغلك بصياغتها عن دلالتها ولا قصور في التعبير يقف بك عند ألفاظها فيثنيك عن مضامينها، وكذلك قل في الصورة البليغة والزهرة البليغة والوجه البليغ

رأيت منذ أيام صورة « الام والابن » للمصور الانجليزي ه. و. دافيس – وهي صورة فرس مرضع ترأم مهرها الصغير – فما تمثلت حين رأيتها الا « الأمومة وحنانها وتضحيتها » بغض النظر عن الأم هل



هي امرأة أو فرس وعن الولد هل هو طفل أو مهر؛ ولو وضع المصور في موضع الفرس والمهر أمًّا آدمية وطفلها لما اختلف شعوري بها في جوهره لانني انما رأيت الحنان الماثل في الصورة وتجاوزت الشكل الظاهر الى ما وراءه ، أو لعل صورة الفرس والمهر أبلغ في تمثيل الحنان لأننا نستغرب أن تحل هذه العاطفة في قلب حيوان أخرس فيكون عطفنا عليه ألذ وأعظم وتأملنا في عجائب تلك العاطفة داعياً إلى الامعان في الشعور بها والتعمق في استحضارها . وتلك هي بلاغة المصور الذي ألهم أن يختار ذلك الشكل لتمثيل الحنان في أبلغ مظاهره وأعجبها ، فآثر صورة الحيوان في تمثيله على صورة الانسان

٭ ٭ ٭

وربما بدا هذا « التجريد » غريباً لبعض الذين ينتحلون المادية ويغرقون فيها على غير بصيرة، وربما عجبوا من هذا الولع بالمعاني المجردة وهذا الاستخفاف بالاشكال الملموسة في كلام لا يراد به التصوف ولا يكتب في مباحث التعبد ! ولقد كان من حق المنتحلين للمادية أن يعجبوا هذا العجب قبل جيل أو نصف جيل . فأما اليوم فأي حق لهم في ذلك وقد ذهب العلم بتجريد المادة الى حد القوة الخفية والحركة المطلقة وأصبحت الأجسام في أصولها فرضاً يقرب من فرض الأثير أو هو أعجب في التصور من الأثير ؟ ؟ وهب العلم لم يذهب الى شيء كهذا فأي عقل سليم كان يستطيع أن يفرق بين تعريف القوة

وتعريف المادة عند النظر إلى حقائق الاشياء ؟ فكل تعريف صحيح للقوة تدخل فيه المادة بكل شكل من أشكالها وكل طبيعة من طبائعها، اذ نحن لا نفرق بين المادة والقوة بأن الاولى جامدة والاخرى غير جامدة ولا بأن الاولى محسوسة والاخرى غير محسوسة . فان هذا تفريق لا يمس القوى والاجسام في جواهرها ولا يتناول الاشياء في ذواتها ، ولكننا إذا عرفنا القوة بأنها هي كل ما يقاومك اذا اعترضته



فقد نرى إذن أن القوة والمادة حقيقة واحدة أو أنهما كلمتان مختلفتان لمعنى لا اختلاف فيه

ومتى كانت المادة نفسها قوى معنوية تتعارض فتبرز للحس والعيان فاي عجب في أن يكون « الجمال » معنى حرا وانه لأقرب في النفوس الى التجريد والتنزيه ؟ !



ولادة فينوس (الزهرة) الاهة الجمال والحب

معنى الجمال

فى الحياة والفن

معنى الجمال واحد في الحياة والفن لا يختلف في جوهره وان اختلف في أوصافه ومظاهره . وقد ألمعت الى هذا الرأي في مقدمة «المطالعات» فوافق بعض الآراء وخالف بعضها وكان من المخالفين الاستاذ ميخائيل نعيمة [1] أحد أدباء العرب المعدودين في الولايات المتحدة ، فكتب إلي يقول من خطاب مسهب رقيق :

« أما نظرتك الى الحياة نظرة فنية فأجاريك فيها الى حد وأخالفك الى حد »

«مهما تسامى الفن يظل مقيداً بالمحسوسات ولا يكون فناً الا متى اتخذ له شكلاً محسوساً . فاذا قصرنا الحياة على ما نتناوله منها

(١) مؤلف كتاب « الغربال » المطبوع في المطبعة العصرية — بمصر

بالحواس امكن أن ندعوها فناً . غير ان في الحياة ما نشعر به ونعجز عن تأديته بكل ما لدينا من وسائل البيان الفني . وأي فن يقدر أن يصور لك خطرات فكرك — لا أقول طيلة نهارك بل في دقيقة واحدة ؟ بل أي فن يتمكن من تصوير كل تموجات الحب والبغض والايمان والشك — ولا أذكر سواها — في قلب بشري واحد ؟ ؟ فاذا كان في الحياة البشرية وحدها ما هو أبعد من الفن وفوقه فكيف بالحياة الشاملة التي ليست البشرية الا بعض بعضها ؟ ؟ »

وقد أجبت الاستاذ بخطاب قلت فيه ان اعتراضه الذي أبداه على وحدة المعنى في الحيـاة والفن قد يكون وجيهاً حاسماً لو أنني زعمت ان الحياة فن انساني يخلق الانسان ما فيه من تموجات الحب والبغض وقواعد الايمان ووساوس الشك . ولكنني لم أقل ذلك ولا أخال أحداً يقوله . وانما قلت ان الفكرة التي تتمثل في جمال الحياة هي الفكرة التي تتمثل في جمال الفن ، أما صانع الحياة وصانع الفن فيختلفان صنعاً ويتفاوتان قدرة ويستمد أحدهما أسرار الجمال من الآخر ولكنه لا يخرج عن نمطه ولا يشذ عن فكرته .

فاذا سألنا سائل كما يسأل الاستاذ نعيمة « أي فن يتمكن من تصوير كل تموجات الحب والبغض والايمان والشك » ؟ ؟ قلنا انه هو الفن الالهي الذي نحكيه نحن بفنوننا من وجهة ونستنبيء غاياته البعيدة

من وجهة أخرى ، فنلتزم حدوده اذا حاكيناه ونضيف اليها ونوسعها اذا نظرنا الى غاياته البعيدة

وقد أحببت أن أبين هنا ما أردته بوحدة الفكرة في الحياة والفن فأقول أولاً : إن الحرية في رأيي هي العنصر الذي لا يخلو منه جمال في عالم الحياة أو في عالم الفنون ، وإننا مهما نبحث عن مزية تتفاضل بها مراتب الجمال في الحياة لا نجد هنالك الا مزية « حرية الاختيار » التي يفضل بها الانسان الكامل من دونه من المرجوحين في صفات النفوس وسمات الاجسام ، ثم يفضل بها الناس عامة الأحياء ، ثم يفضل بها الاحياء طبقات النبات ، ثم يفضل بها النبات الاشياء الجامدة أو المادة الصماء ، على أن المادة الصماء نفسها تتفاضل في الجمال بحسب ما يبدو لها من حرية الحركة ومشابهة « الارادة » ، فتروقنا النيران والرياح والامواه وتطلق في نفوسنا خوالج الحياة ونعاطيها شيئاً من العطف لا نعاطيه لغير الاحياء ، وليس لها فضل ظاهر على عامة الجماد الا بما تخيله للناظر من حرية الارادة ومحاكاة الحياة

ولكننا نعود فنسأل : كيف تكون هذه الحرية ؟؟ هل تتأتى لنا حريتنا في فضاء مطلق لا عائق فيه ولا قوة نزن بها قدرتها ونعرف بها قيمتها ؟؟ وهل للحرية من معنى الا أنها تغلب العوائق التي تصدها أو تختار بينها اذا هي لم تقدر على مغالبتها ؟؟ فنحن اذا أردنا أن نمتحن « حرية » المسابق في العدو أقمنا له الحواجز وحددنا له

المسافة والوقت وقيدناه « بحريات » المسابقين الاخرين فألزمناه أن يبين سرعته بالنسبة الى السرعة التي تناظره وعرفنا مقدار حريته بمقدار القيود التي نهض بها والحدود التي تكاف مراعاتها . وكذلك الحياة فيما تمنحه من السعة لأبنائها انما تقيس حريتهم بما تسلطه عليهم من الضرورات والتكاليف وانما تخولهم إباحات الحقوق بحسب ما تحملهم من أوقار التكاليف والواجبات ، وتجلب لهم المسرات والافراح بقدر ما تحيله عليهم من الشدائد والآلام . ومن ثم ربما كان الأصوب والاوضح أن تقول ان الجمال هو « تغلب الحرية على الضرورة » وإن هذه الفكرة هي فكرة الجمال في الحياة وفي الفنون كلها من موسيقى وشعر وتمثيل وتصوير ورقص ورياضة

ما الجسم الجميل ؟؟ لا أظننا مستطيعين أن نجيب عن هذا السؤال بأصدق ولا أوجز من أنه هو الجسم الحر الطليق . وسواء أنظرنا الى الجسم في جملته أم الى كل عضو من الاعضاء على حدته فاننا لا نرى له صفة جمال الا وفي طيها صفة حرية وطلاقة ، فالجسم يعاب اذا عطلت احدى وظائفه والعضو يعاب اذا زاد أو نقص عن حد حريته . وكل وجه تنكر منه وصفاً من الدمامة لا بد أن تحس بعد تأمله ان مانعاً يمنع وظائف الحياة فيه عن حرية الحركة فيزيد أو ينقص في لمحة من ملامحه أو قسمة من قسماته . بل قد يتم « تناسب الشكل » في وجه قسيم صحيح ثم لا يعجبك ولا تنشط

اليه روحك لانك لا تحس فيـه ما يدل على حركة الحياة في نفس صاحبه ، وذلك ما يسمونه بثقل الروح ، وهو تعبير غاية في الدقة والعمق لو أنعمت فيه لاستوحيت منه معاني لا يوحيها الدرس الطويل والتمحيص الدقيق ، لانه يدلك على حقيقة الاحساس بالجمال في طبائع الناس وانه شيء ينافي « الثقل » ويصاحب الخفة والطلاقة

فلا شأن للتناسب في « جوهر » الجمال وانما هو تبع لحرية الوظيفة وحركة الحيـاة في الجسم ، وقد يضخم العضو في بعض الاحياء ويستدق في الاحياء الاخرى وقد يطول في بعض الانواع ويقصر في غيره ، ولكن الشأن الاول في استحسانه — على أشكاله المختلفة — لحرية الوظيفة فيه لا للضخامة والدقة أو للطول والقصر أو للنسبة بينه وبين الجسم الذي تركب فيـه . فلا تعيب الغزال ولا العصفور دقة الساق مثلاً ولكنها تعيب الانسان اذا نمّت فيه على الاعياء واختلال وظائف الاعضاء

ودع الاعضاء والاجسام وانظر الى الفضائل والاخلاق . فانك لا تجد خصلة معدودة فى الخصال الجميلة المحمودة الا كان فيها معنى من غلبة الحرية على الضرورة وحكم الارادة الباطنة على البواعث الخارجية ، فالشجاعة والأنفة والصبر والعفة وما شاكلها من المناقب المأثورة لا تحمد في الانسان الا لانها دليل على انه مالك لحريته يقود

البواعث الخارجيـة ولا ينقاد لها ويتصرف في نفسه تصرف القادر فى شئونه ، وانظر الى « التجمل » الذي يتصف به ذوو السمت والظرف تجده انما يظهر حيثما ظهر في هيئة واحدة : هي ألا يكون المرء مغلوبا على أمره في حركة من حركاته أو كلمة من كلماته أو سجيـة من سجاياه ، فيكون حزينا موجعا ولا يظهر الحزن والتوجع ويكون مريضا مدنفا ولا يئن أو يتململ ويكون غاضبا مهتاجا ولا يصخب أو يتفزز ، واذا اضطر الى التخفيف عن نفسه بحركة أو اشارة حاول أن يعطيها من هيئة الاختيار والتأنق ما يخفي الاضطرار والاندفاع فتلوح للناظر كأنهـا مقصودة موسومة وتعبر عن نفس لا تضيق بأمرها ولا ترتخي قبضتها على زمام مشيئتها

وفكرة الجمال في الحياة هي بعينها فكرة الجمال في الفنون . فلا فن بغير تطلع ولا تطلع بغير حرية . ولكن ينبغي أن نذكر أن الحرية تستلزم المنع وان الجمال هو غلبة الحرية على القيود أو هو ظهور الحرية بين الضرورات وليس هو بالحرية الفوضى التي لا يمازجها نظام ولا يحيط بها قانون . فلا عجب أن يمثل « الفن » قيود الجمال وأنظمته كما يمثل حريتـه وانطلاقه ، وأن نرى الفن حافلاً بالأوزان والأوضاع كما نراه حافلاً بالتطلع والرجاء

والفن بعـد هو صورة مختصرة من جمال الحياة نرسمها لأنفسنا لنتبعها بالأمل والاحتذاء ، وماذا تصنع أنت اذا أردت أن تختصر

المعاني والكلمات ؟؟ انك تأخذ منها صفاتها البارزة وخلاصتها الجامعة، وكذلك يصنع الفن إذ يجمع لديه في وقت واحد نظاماً أوضح من نظام الحياة وحرية أطلق من حريتها أو يستخلص من جمال الحياة عنصريه البارزين وهما النظام والرجاء.

وكأن الانسان قد أراد بالفن أن يتمم حرية الحياة أو يستدرك عجزها عن قهر ضروراتها التي تثقل عليها . فقد خلق الفن للانسان أجنحة قبل أن يطير في الهواء، وأنشأ لنا في الشعر أجيالاً من الابطال هزموا نواميس الكون وأحكام القدر وجمع في جسم واحد من رشاقة الاعضاء وملاحة القسمات ما تضن به الحياة على الكثير من الأجسام وأرسل أحلامنا في سماوات من الغبطة والكمال لا تفتح لأبناء الفناء، فتمت به آمال الحياة وأصبنا في عالمه حرية لا نصيبها في عالم الحاجة والاضطرار

وصفوة ما تقدم ان الحرية المنظومة أو الحرية التي تظهر بين قيود الضرورات – هي سر الجمال في الفنون كما أنها سر الجمال في الحياة . وان أمنية الانسان القصوى التي يتطلع اليها من الحياة والفنون هي الحرية لا القوة ولا الغنى ولا السعادة نفسها، إذ هو يطلب القوة والغنى ليكون حراً وهو ينال السعادة بفضل الحرية ولا ينال الحرية بفضل السعادة . وقد يخطر لك أن تسأل من يطلب القوة لماذا أنت تطلبها وما هي غايتك منها ؟؟ ولكنك لا تسأل من يطلب الحرية

هذا السؤال لان كراهة الموانع غريزة مركبة في جميع النفوس ان لم تقل في جميع الاشياء .

* * *

وبعد فقد يحسن أن ننبه الى أمرين ينظر فيهما من يود التوسع في نقد هذا الرأي ليستوفي بهما بيان الفكرة التي نذهب اليها . فالامر الاول هو أن الجمال ليس بصفة واحدة محدودة ولكنهُ صفات كثيرة منوعة تتراءى لنا في الاشكال والالوان والاصوات والمعاني ، وقد تجتمع هذه الصفات معاً فيتم الجمال ويتسق أو تتفرق فينقص أثرهُ ويختلف مدلوله – فمن ذلك انه ربما تهيأ لجسم حسن التكوين والهندام دلائل كثيرة على النشاط وحرية الاعضاء ولكنه لايروق النظر ولا يعجبنا الاعجاب الأكمل لانه أسود اللون – مثلاً – ونحن نحب أن نرى تلك المحاسن في جسم مشرق البياض ، ولا يبعد أن يكون سر تفضيل البياض في هذه الحالة أنه يطلق سمات الجمال ولا يمنعها، إذ كنا قد تعودنا أن نستشف منه دم الجسم يسري في أعضائه وينضح على اهابه ويجلو لنا بشاشة الحياة التي تمنعها البشرة السوداء

والأمر الثاني التفريق بين الاحساس بالجمال والرغبه في الاستيلاء على الشيء الجميل . فان الاحساس بالجمال يطلق النفس من أسرها ولكن الرغبة في الاستيلاء على الشيء الجميل قد توقع النفس في أسر

الحاجة . فاذا سلب العشق حرية العاشق وقيده بأهواء معشوقه فليس ذلك بحجة على أن الجمال ينافي الحرية في صاحبه أو في الناظر اليه





رأي شوبنهور

فى معنى الجمال فى الفن والحياة

ارثر شوبنهور فيلسوف ألماني متشائم عبوس الفكر ولكنه جريء على تشاؤمه ظريف على عبوسة فكره . وهو أشبه الفلاسفة المحدثين بالشعراء ، وأقربهم الى المتصوفة وأعرفهم بالحياة على ما في مذهبه من الولع بذم الحياة

وكأنه كان منكراً للحياة لا شاكيًا منها ، أو كأنه كان يعيب خلقتها عيب الزميل الناظر في عمل زميله لا عيب المخلوق الذي برحت به صروف المقادير وثقلت عليه وطأة القضاء ، فهو لا يصوب سهمه الى عصر من العصور ولا الى أنظمة الاحياء في جميع العصور ، ولا الى صور الحياة وهيئاتها ومايتناوله التغيير والتحسين من عروضها وصفاتها ، ولكنه يصوب السهم الى صميم الحياة نفسها بل إلى صميم كل حياة متخيلة حتى حياة الكون العظمى ! وقلّ في الناس من يوغل هذا

الايغال ويجتريء هذا الاجتراء . فهو لا يُسمعك صرخة ألم ولا ثورة نفس ولكنه يبدي لك ملاحظة الناقد المتأمل الذي كأنما يلاحظ على شأن بعيـد عنه يعرضه العارضون عليه ، والذين يحسبون شوبنهور كغيره من المتشائمين عبداً متمرداً على حكم الحيـاة صارخاً في قفاها يظلمون مذهبه أشد الظلم ويقفون به عند منتصف طريقه . فانما هو خصم عنيد للحياة صارخ « في وجهها » لم يعترف بسلطانها ولم « يعتمد أوراقها » ولم يسلم قط بحقوقها من أصلها حتى يقال انه متمرد عليها !

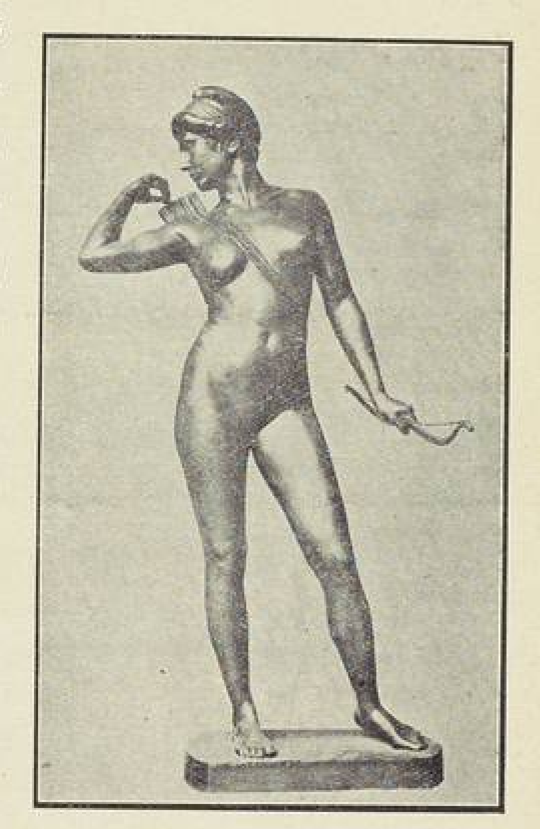
واني لأرى في هذه الجرأة من الطموح وحيوية الفكر ما لست أراه في تفاؤل الفلاسفة الآخرين الذين لا يكلفهم التفاؤل شيئاً كبيرا من جهد الفكر ورياضة النفس ، ولا يكونون فيه الا منقادين للقضاء انقياد الصخرة لقوة الجـذب والحيوان لغريزة الحياة ، ومن الغرائب ان يحتاج الفكر الى الحيوية حتى في الاجتراء على الحيـاة نفسها والانحاء عليهـا في أساس وجودها . ولكنها هي الحقيقة التي لا مراء فيها . وهي بعبارة أخرى أن حيوية الفكر تظهر في انكار الحياة والدعوة الى رفضها كما تظهر في انغماس المنغمسين فيها واعجابهم بحظوظها ومحاسنها . وربما كانت حيوية شوبنهور في اجترائه على أصول الحياة اكبر من حيوية تلميذه « نيتشه » في الاجتراء على أصول الآداب وفضائل الاديان ، وان كان نيتشه قد تخيل انه أبعد النقلة ووثب من النقيض الى النقيض حين تحول من انكار الحياة على مذهب شوبنهور

الى توكيد الحياة وارادة القوة على مذهبه هو الذي دعا اليه بعد ثورته على الاستاذ الكبير وعزوفه عن دين العدم وسنة الانكار ، وليس الفرق بين « لا » الكبرى التي كان يقول بها شوبنهور و « نعم » الكبرى التي كان يقول بها نيتشة إلا كالفرق بين النهي والامر من فم الجبار القدير الذي ينهي ويأمر بقوة واحدة وحق واحد ، فكلاهما لا يفوه به إلا قائل مطاع في « لائه » وفي « نعمه » مخول أن يشير بيده ذات اليمين أو ذات الشمال

ولشوبنهور فلسفة واسعة زاخرة طرق فيها مباحث الفلسفة على اختلافها بحماسة المتدين وزكانة المتصوف وبساطة الفنان ، وفصل فيها رأياً في معنى الجمال يشف عن غور عميق واحساس دقيق ونفس خلقت للحياة ولكنها صرفت الى انكارها بلفتة صغيرة في أداة من أدواتها أو بزيادة طفيفة أضيفت الى بعض مواهبها فجارت على بقيتها ، ورأيه في الجمال هو الذي يعنينا هنا وهو الذي أردنا أن نخصص له هذا المقال بعد أن بينا رأينا آنفاً في معنى جمال الحياة وجمال الفنون

وأقوم ما في رأي شوبنهور في معنى الجمال الفني هو قوله ان مهمة الفن هي فصل الشكل « القالب » عن المادة لا أن يحكي لنا الشكل والمادة معاً حكاية صحيحة محكمة . لان الفن موكل بالصور الباقية والنماذج الخالدة لا بالكائنات التي توجد في الحياة مرة واحدة ثم تمضي لطيتها غير مكررة ولا مردودة . فاذا أراد المصور أن يمثل إنساناً لفت

نظره فليس الذي يعنيه من ذلك الانسان انه فرد من أفراد نوعه مستقل بمادته وشكله وعمره، ولكن الذي يعنيه منـه أنه « قالب » يصلح أن يكون نموذجاً عاماً لافراد كثيرين أو للنوع كله، وهـذا النموذج هو الذي يأخذه المصور ويفصله عن مادته ليمثله مستقلاً عنها إما في تمثال أو صورة أو قصيدة من الشعر تنسيك الرجل الفاني بما تروي لك عنه من الاشكال الانسانية الخليقة بالدوام ومعانيهـا التي تعبر عنهـا تلك الاشكال. ويقول شوبنهور: « ان ابراز الشكل وحده بغير مادته جوهري في كل عمل فني. ولهـذا لم يكن تماثيل الشمع أثر في النفس من الوجهة الجمالية ولم تحسب من هذه الوجهة بين أعمال الفنون ولو أنها حين تجاد صناعتها أقمن مئـة مرة ان تخدع الناظر عن حقيقتها من أحسن تمثال وأجمل صورة، فلو ان الخداع بمحاكاة الحقيقة هو غرض الفن لكانت تماثيل الشمع في المكان الأول بين الآثار الفنية، غير أنهـا تبدو كأنها لا تمثل لنا الشكل وحده بل تنقل لنا الشكل والمادة معاً، ومن ثم توهمنا ان الشيء المحكي ذاته ماثل أمام أعيننا، فتختلف بذلك عن أعمال الفن الصادقة التي تبعد بنا عن الشيء الذي يوجد مرة واحدة ثم لا يعود الى الوجود أبداً: أعني الفرد، وتقـترب بنا الى الشيء الذي يوجد بلا انقطاع في الزمن الباقي الذي لا نهاية له وفي العـدد المطلق الذي لا حصر له وهو « الشكل » أو فكرته. فتمثال الشمع يبين لنا الفرد



نفسه أي ما يوجد مرة ولا يعود الى الوجود ولكنه مجرد من الحياة التي تعطي ذلك الوجود الزائل قيمته . فهو يبعث فينا قشعريرة كأنها قشعريرة الناظر الى الجثة الهامدة . . . .

ويشاهدان الصور المحفورة على النحاس الاسود تنم على ذوق أكرم وأرفع من الذي تراه في المحفورات المصبوغة والنقوش الملونة وان كانت هذه أحظى وأجمل عند من ينقصهم الذوق المهذب والنظر السليم . وسبب ذلك كما هو ظاهر أن المحفورات السوداء تعطينا الشكل وحده في هيئته المجردة التي

يتناولها الادراك أما اللون فهو شيء متعلق بحاسة النظر أو بالتفاعل الخاص الذي يقع فيها »

ويجوز لنا أن نزيد على الشواهد التي أتى بها شوبنهور ان الصورة الشمسية لا تعجبنا كما تعجبنا صور الفنانين الحاذقين لأنها تنقل لنا الشيء الحقيقي كما يبدو للحس في حين أن الصورة التي يرسمها الفنان تنقل لنا شكل ذلك الشيء كما يبد في نفس عبقرية واعية تنظر الى معاني الاشكال المجردة لا الى مادتها المحسوسة ، ونزيد عليها كذلك ان الوصف الشعري الذي يعنى باحصاء الموصوفات وترتيبها وحكاية أحجامها وسرد أعدادها وتقييد موادها وألوانها لا يعجبنا كما يعجبنا الوصف النفسي الذي ينفذ بنا لاول نظرة الى بواطن الموصوفات وطبيعة إحساس الناظرين اليها والمفكرين فيها . وليت شعراءنا الاحصائيين يفطنون الى ذلك ولا يعنتون أنفسهم في وصف الاشياء « كأنك تراها » فلا يبلغ من جهدهم في الوصف على هذا الاسلوب الا أن يمسخوا بطاقات البريد الشمسية التي تعيد المنظر « كأنك تراه » ولكنها لا تساوي في سوق الفن والتجارة اكثر من مليمين ! !

أما رأي شوبنهور في وصف الجمال فمبني على رأيه في كنه الحياة وما وراء الطبيعة

فهو يقسم الدنيا « الى فكرة وارادة » ويقول ان الدنيا « في

الفكرة » هي الدنيا المكنونة قبل أن تظهر في حيز الاسباب والقوانين وعلاقات الاشياء بعضها ببعض ، وان الدنيا « في الارادة » هي هذه الدنيا التي نكابد أوصابها وقوانينها ولا نذوق السرور فيها الا لسبب من الاسباب التي تدور عليهــا أغراضنا وشهواتنا . ولما كان سرورنا بالجمال سروراً بلا سبب ولا منفعــة فهو من قبيل الفكرة المجردة التي تحسها النفس المجردة وتنظر اليها كما هي في عالمها المنزه عن الاسباب والعلاقات . والسر في وضوح إحساسات الشباب وجمالها الكمالي هو كما يقول شوبنهور اننا في عهد الصغر نرى « فكرة النوع » وراء صورة الفرد إذ تلوح لنا لاول مرة ، لاننا نتمثــل في كل فرد نموذجاً جديداً لم تسبق لنا معرفة به ولم تظهر لنا أية دلالة أخرى عليه ، فالشجرة الأولى التي نراها تمثل لنا فكرة الشجر كله أي نموذج هذا النوع الجديد الذي لا عهد لنا به قبــل ذاك . ولا تقتصر على تمثيل شجرة واحدة زائلة كما هو شأنها عند من تواردت عليهم مناظر الاشجار الكثيرة ، « ولهذا نرى فيها الفكرة الافلاطونية التي هي في الحقيقة جوهر الجمال »

تلك خلاصة وجيزة جداً من رأي شوبنهور في معنى الجمال تطلع القارىء على مجمل فلسفته في هذا الباب ولا تغنيه عن الرجوع الى مطولاته . فأين نتفق في هذا الرأي وأين نفترق ؟ ؟ وأين يتساوى القول بأن الجمال « فكرة » والقول بأن الجمال « حرية » ثم أين

يتعارضان؟؟ يتساويان حين نذكر أن «الفكرة» في رأي شوبنهور لا بد أن تكون بعيدة عن عالم الاسباب والضرورات ومن ثم لا بد أن تكون مطلقة من أسر الاسباب والضرورات، ويتعارضان حين نذكر ان الحرية لا تكون بغير ارادة وان شوبنهور يخرج الجمال كله من عالم «الارادة المسببة» الى عالم «الفكرة» المجردة

وما الذي يرجح القول بأن الجمال «حرية» على القول بأن الجمال «فكرة» بعيدة عن عالم الارادة؟؟ يرجحه ان الجمال يتفاوت في نفوسنا ويتفاضل في مقاييس افكارنا، ولو كان المعول على ادراك «الفكرة» وحدها في تقدير الجمال لوجب أن تكون الاشياء كلها جميلة على حد سواء

ونوضح ذلك فنقول: لو كانت الشجرة جميلة لأنها فكرة «فقط» لما كان هنالك داع لتفضيل فكرة الانسان على فكرة الشجرة ولا صح لنا ان نزعم ان الناس أجمل من الاشجار، ولكننا نعلم ان فكرة الانسان غير فكرة الشجرة وان الفكرتين تتفاضلان في تقدير الجمال ولا بد ان يكون تفاضلهما بمزية أخرى، فما هي تلك المزية الأخرى؟؟

هي الحرية! فالانسان أوفر من الشجرة نصيباً من الحرية ولذلك هو أجمل منها وأرفع فى درجات الكمال، وكذلك تتفاوت «الفكرات» فلا يغنينا القول بأن الجمال فكرة عن القول بأن الحرية

هي المعنى الجميل في الفكرة أو هي التي تهب الفكرة ما فيها من الجمال

ويقرر شوبنهور ان المادة الصماء لا جمال فيها ولا أنس لديها وأنها تقبض الصدر وتثقل على الطبع ، فلم كانت كذلك ؟ ألأنها عارية عن الفكرة ؟؟ كلا ! فما من شيء محسوس إلا له فكرة مكنونة في رأي شوبنهور . ولكنها تقبض الصدر وتثقل على الطبع لأنها تمثل الركود والجمود أو تمثل التجرد من الارادة والحرمان من الحرية والخضوع المطلق للقانون والضرورة . وقد ذكر شوبنهور نفسه بعض هذه العلة وقال « ان الحزن الذى تبعثه المادة « غير العضوية » فى نفوسنا آت من ان هذه الماده تطيع قانون « الجذب » طاعة تامة فى حيث تتجه الاشياء . أما النبات فان منظره يشرح صدورنا و يسرنا سروراً كبيراً يزداد في نفوسنا كلما ترك وشأنه ، وسبب ذلك ان قانون الجذب يبدو لنا كالمعطل فى عالم النبات لأنه يتجه الى خلاف الجهة التى يجذبه اليها ذلك القانون . وهنا تتخذ ظاهرة الحياة لنفسها طبقة جديدة عالية بين طبقات الموجودات ننتمي نحن اليها وتتصل هي بنا ويقوم عليها عنصر وجودنا فترتاح اليها قلوبنا وتهش لها طبائعنا، وأول ما يسرنا في منظر النبات استقامته وانتصابه ويزداد منظره بهجة اذا بسق من بين الاجمة الملتفة سرحتان عاليتان فى الفضاء ، وقد سميت شجرة الصفصاف بالباكية لأن فروعها تتدلى الى الارض وتنحني فتطيع قانون الجذب بذلك الانحناء »

والى هنا يسبق الي ظنك ان شوبنهور سيخلص من هــذا القول الى نتيجته القريبة فيقول ان الاشياء تحزننا بما فيها من معانى الخضوع وتفرحنا بما فيهــا من معاني الحرية ، أو أنها تحزننا كلما قل نصيبها من الارادة وتفرحنا كلما عظم نصيبها من هذه الصفة ، ولـكنه يدع هذه النتيجة القريبة الى نتيجة أخرى لا تؤدي اليهـا هى أن الاشياء تحزننا كلما ابتعدت عن عالم الفكرة واقتربت من عالم الارادة وأنها تفرحنا كلما ابتعدت من عالم الارادة واقتربت من عالم الفكرة ، فيمشي مع « الحرية » شوطاً بعيداً فى وسط الطريق ولـكنه يفترق عنها فى مبدأه ومنتهاه

***

ولعلنا بعد إذ بينا ان الآداب والفنون هي أسمى مطالع الحرية واصدق تراجمها نكون قد بينا أيضاً ان الأمم المغلوبة تنشد الاستقلال حين تنشد الجمال ولا تختلس من رسالة الحرية وقتاً تنفقه فى رسالة الآداب والفنون





أصل الجمال

في نظر العلم



ألممنا في المقال السابق برأي أحد الفلاسفة في أصل الجمال ونريد الآن أن نلم برأي بعض العلماء في هذا الموضوع أو بالرأي الذي يراه العلم أقرب من غيره الى تعليل أصل الجمال وسر الشعور به ، وخلاصته ان الجمال وليد الغريزة الجنسية وعنوان أهواء التناسل ، أو الرغبة في حفظ النوع ، كما يسمونها في اصطلاح النشوئيين

يقول ماكس نوردو : « كل أثر ينبه في الدماغ — بأي شكل من الاشكال — مركز التناسل ، سواء أكان هذا التنبيه مباشراً أو

آتياً من تداعي الفكر وتساوق الخواطر فهو الأثر الجميل . وصورة الجمال الأول في نظر الرجل هي المرأة في سن النضج الجنسي والاستعداد لتجديد النسل ، أي المرأة في عنفوان الشباب والصحة . ففي محضر هذه المرأة يختلج مركز الغريزة النوعية من نفس الرجل بأقوى الاحساسات وأشد الخواطر وتثير رؤية « الظاهرة » وتصورها عنده أقوى بواعث السرور التي يمكن أن تستفاد من مجرد النظر أو التصور . وقد تعود الطبع أن يقرن بين صورة المرأة وفكرة الجمال فيغريه السرور الذي يستمده من ذلك بأن يصور كل ما يروقه أو يرى فيه معنى من معاني الجمال في صورة امرأة . فالأمة والشهرة والصداقة والمحبة والحكمة وغيرها وغيرها انما تمثل للحواس في هيئة مؤنثة ، ولكن لا أثر لكل ذلك فيما تدركه المرأة وتتصوره ، لأن رؤية شخص من جنسها لا تحرك بأي شكل من الاشكال مركز النسل من غريزتها ولا تجد المثل الأعلى من الجمال إلا في الرجل

أما ما يشاهد من ان المرأة تكاد تقيس الجمال كله بمقياس الرجل فسببه ان الرجل لتفوقه عليها في القوة يستطيع ان يوحي اليها برأيه وان يسيطر على أفكارها التي تخالف فكره ، ومع هذا نرى في الواقع فكرة الجمال عند الجنسين تتقارب ولا تتماثل كل التماثل . ولو أتيحت للمرأة القدرة على الاستقلال بالنظر وتحليل ماتشعر به ووصف

ما يدور بوجدانها لأثبتت منذ زمن بعيد ان مذهبها في الجمال يختلف من وجوه أساسية شتى عن مذهب الرجل فيه »

وهذا الرأي الذي أجمله ماكس نوردو هو رأي الكافة من العلماء الاطباء الباحثين في المسائل الجنسية ، وهو المعول عليه عند جمهورهم في تفسير ذوق الجمال والشغف بالفنون . فلا تفسير عندهم للفن والجمال إلا انه ميل مثقف من ميول الغريزة الجنسية ولا مكان للجمال في العالم – على هذا القول – ان لم ننظر الى الحياة بعين الرجل الذي يشتهي الانثى أو بعين الانثى التي تشتهي الرجل . ولا سبيل – على هذا – الى التحقق من ان الجمال شيء مستقل عن العاطفة الجنسية إلا على شرط واحد هو ان يكره الرجال النساء وان يكره النساء الرجال . . . وان تمتنع بينهم الصلة التي تنشىء النسل وتبعث الحب ، ثم ننظر بعد ذلك الى الدنيا فان رأينا فيها صورة جميلة فهنالك « فقط » يحق لنا ان نقول ان الجمال شيء والعاطفة الجنسية شيء آخر وأن ليس حب الرجل المرأة أو حب المرأة الرجل هو أصل الجمال في كل ما اشتملت عليه الحياة ! وأنت تعلم ان هذا الشرط غير ميسور ولا معقول فلم يبق لك إلا ان تسلم بأن الحياة نفسها لا جمال فيها وانما يأتيها الجمال من الواسطة التي تؤدي اليها . . . أي من العلاقة بين الذكر والانثى ! ولم يبق لك إلا ان تسلم بأننا لم نعط الحياة لنشعر فيها بالجمال بل أعطينا الجمال لكي نلد الاحياء البعيدين

عنا ليس إلا . . ! ولم يبق لك الا ان تسلم بأن النظر بطبيعته لا بد ان يرى الاشياء كلها دميمة شائهة . . إلا اذا كان نظر « ذكر » أو نظر « أنثى » فعندئذ يجوز له ان يرى الدميم جميلاً والشائه قويماً ويسوغ له التمييز بين الصور والالوان والمعاني والخواطر التي تفرق بينها الفوارق وتختلف فيها الاوضاع والاوصاف . . ! فهل علمت الآن الى أين يذهب منطق العلماء الذين يحصرون المعرفة والادراك في المعامل والارقام ولا يسمحون للفكر ولا للاحساس ان يخطو خطوة وراء التشريح والتحليل ؟؟ وهل علمت الآن قيمة الحياة عند هؤلاء العلماء الذين لا يجعلون للحياة نفسها قيمة وانما يجعلون القيمة كل القيمة لأن تتولد الحياة من اختلاف جنسين وان تنشأ من اجتماع حيين منفصلين ؟ ؟

ان الغريزة الجنسية لا ريب من أقوى غرائز النفس وأعمقها واكثرها تفرعاً وتوزعاً في جوانب الاحساس ودخائل التفكير ، وانها ولا جدال على اتصال وثيق بشعور الجمال ومطالب الفنون لا تراها منعزلة عنها فيما ينظمه الشعراء ويمثله المصورون ويغنيه المنشدون ، ولكن ليس معنى ذلك انها هي أصل كل شعور بالجمال وان الحياة نفسها لا جمال لها إلا من حيث انها علاقة بين ذكر وأنثى ووسيلة لاعطاء الحياة لمخلوق جديد ، فان الحياة غاية الغريزة الجنسية وليست هي الجسر الذي نعبره الى الحب والجمال . فان كانت الحياة في ذاتها

خلواً من معنى جميل أو مقضياً عليها بالحرمان من رؤية الكون في هيئة تسرها وترضيها وتوسع لها من أكناف الأمل وتضاعف لها من بهجه الوجود ، فأي شيء يزيد عليها من انقسام الاحياء الى قسمين ؟ ثم ما فضل البقاء المشوّه الذي تتوسل اليه باختلاف ذينك القسمين أو ذينك الجنسين ؟؟

أما اننا نصور الامة والشهرة والصداقة والمحبة والحكمة وغيرها في صورة مؤنثة فانما يدل على ان للجمال في أذهاننا معاني كثيرة غير معنى الأنوثة واننا نصور تلك المعاني في صورة المرأة لانها « الشخص المحسوس المحبوب » الذي تقدر الفنون على إبرازه للعيان . ولولا ذلك لما جاز التشابه بين مثال المعاني في الذهن ومثال المرأة في النظر ما دامت المرأة قد استأثرت بكل صفات الجمال في هذه الحياة .

ويقابل هذا أننا نصور الخواطر القوية في هيئة الرجولة ولا نستخلص من تصويرها كذلك ان العلاقة بين الرجل والمرأة هي أصل كل مافي الحياة من بأس وقوة وسبب كل ما يتصوره العقل من قدرة ونفاذ ، على ان تماثيل الرجال في الفن اليوناني والروماني لا تقل عن تماثيل النساء والاعجاب الفني بجمال جسم الرجل لا ينقص عن الاعجاب الفني بجمال جسم المرأة . فلماذا يعجب الفنانون بأمثلة الجمال في أجسام الرجال ان كان فى غريزتهم أن لا يحبوا الجمال ولا يتخيلوه الا في أجسام النساء ؟؟ أتقول هنا أيضاً ان المرأة لتفوقها على الرجل

في القوة استطاعت ان توحي اليه برأيها وأن تسيطر على أفكاره التي تخالف فكرها ؟؟ أم تقول ان المصورين والممثلين انما عنوا قديماً بجمال الرجولة لتعجب به الناظرات من النساء دون الناظرين من الرجال ؟؟ ثم علام يدل تصويرنا بعض المعاني المحببة الى النفس في صور الاطيار والغزلان وما نحا هذا النحو من فصائل الاحياء ؟؟ وعلام يدل تمثيلنا المجاعة والقسوة والضغينة والنميمة في هيئة الانوثة وليست هي مما يرتبط بالغريزة الجنسية ولا هي مما يخطر على الذهن من قبل العلاقة بين الرجال والنساء ؟؟ وهل كان من اللازم ان نتخيل جميع المعاني المحبوبة والمكروهة في صور الرجال ليقال ان هذا التصور لا يتوقف على غريزة النسل وغرام الذكور بالاناث ؟!

٭ ٭ ٭

وفي مشاهدات الحياة كثير ممـا يدحض ذلك الرأي ويلفت القائلين به الى مواطن الزلل فيه . فالغريزة الجنسية مودعة في جميع الاحياء والنبات ولكن جمال الاشكال والالوان لا يُقسم لها جميعاً ولا يكون حظها من الجمال على قدر حظها من الغريزة الجنسية ، والزهرة التي تجتذب الذبابة اليها بألوانها ونقوشها لتنقل منها اللقاح الى أناثها هي أجمل في شكلها ولونها من تلك الذبابة التي لا تحتاج الى الالوان والنقوش لتنجذب الى أناثهـا ، ولو كانت الغريزة الجنسية هي سر

التفاتها الى الالوان والنقوش لوجب أن تطلبها في أناثها قبل أن تطلبها في الازهار والانوار

وقد عرفنا بالخبرة ان أحب الناس للجمال هم أرفعهم نفوساً وأسلمهم أذواقاً وأحسنهم تهذيباً وأشوقهم الى المتع المعنوية والخصال الكريمة ، وعرفنا بالخبرة كذلك ان الغريزة الجنسية قد تتم وتقوى في أناس لا حظ لهم من رفعة النفس وسلامة الذوق وحسن التهذيب ومتعة الروح وكرم الخصال ، ولايزيد الانسان في حب الجمال والفطنة اليه بنسبة الزيادة في الغريزة الجنسية ولا يكون نصيبه من النسل بقدر نصيبه من لذة المحاسن الطبيعية والفنية أو قدرته على فهمها وابتكارها ، فغريزة التناسل قد توجد بمعزل عن حب الجمال،وحب الجمال قد يوجد بمعزل عن غريزة التناسل،ولا معنى لأن يقال اننا نستجمل المرأة لان غريزة التناسل تسوقنا اليها وتضطرنا الى حبها،اذ لو كان الامر كذلك لأغنتنا تلك الغريزة عن الجمال ولاصبحت كلمة « المرأة » مرادفة لكلمة المرأة الجميلة وأصبح وصف الجمال فضولاً لا يضيف الى الأنوثة شيئاً من عنده ، وانما الاولى أن يقال ان غريزة التناسل تعجز بمفردها عن سوق الاحياء اليها فتتخذ من الجمال شركاً توقعهم به في أسرها وتستميلهم به الى حظيرتها ، وكلما عجزت الغريزة عن تنبيه النفس وحضها على مؤاتاتها زادت حاجتها الى معونة الجمال وعظم

اعتمادها على هذا المدد الغريب عنها ، فكأنه الحلوى التي يكسى بها الدواء لتشتهيه النفس اذا عجزت المنفعة البحتة عن الترغيب فيه .

* * *

ومما لا مراء فيه ان الحب يرينا من فتنة الحياة مالا نراه بغيره وان جمال المرأة أغلى محاسن هذه الدنيا المشهودة . بيد أن الحب لا يخلق فتنة الحياة وليس جمال المرأة هو كل ما في الدنيا من المحاسن، ولكنهما يصبغان الدنيا بهذه الصبغة لانهما يوقظان القلب ويذكيان الشعور ويبعثان كوامن الوجدان فيتفتح لما حوله ويرى مالم يكن يراه ويستوعب ما كان يلمحه بطرف العين ويستحسن ما كان في غفلة عن حسنه قبل أن تتراءى الدنيا لخواطره في ثوبها الجديد . وكذلك تفعل الخمر حين تركض بالشعور وتلهب الدم فانها تري النشوان من المحاسن مالم يكن يراه في صحوه وتضاعف إحساسه وعطفه فيشعر بسرور هذا العطف في داخل نفسه ويشعر في الدنيا ببهجة تخفى على من حوله . ولذلك قيل ان الحب سكر أو أنه ضرب من الجنون

وقد أشرنا الى أن الغريزة الجنسية وسيلة لا غاية وجزء من الحياة وليست كل ما في الحياة ، أما الغاية الحقيقية فهي التمام والبقاء وليست البقاء فحسب ، لأن الانواع تتقدم وتجمل ولا تبقى على حالة واحدة . ومتى كان التقدم والتحسن غاية من وراء الغريزة الجنسية

فلماذا نحصر الجمال كله في نظرة الجنس الى الجنس ولماذا نقول ان الجمال تابع لغريزة النوع – ولا نقول ان غريزة النوع تابعة للرغبة في الجمال ؟ ؟ كيف نعلل ان هناك نوعاً أجمل من نوع آخر ان لم يكن هناك مقياس عام للجمال غير المقياس الذي ينظر به كل نوع الى نفسه ؟ ؟ وكيف نعلل الاختلاف بين الامم العالية والامم الوضيعة في تذوق محاسن الطبيعة ولذات الفنون ان كانت حاسة الجمال مقصورة على غريزة النسل التي قل أن يمتاز فيها انسان على انسان بل قل أن يمتاز فيها الانسان على الحيوان ؟ ؟ فان الامم العالية تدرك من آيات هذا الوجود مالا تدركه الامم الوضيعة ولكنها لا تفضلها في قوة الغريزة الجنسية ان لم نقل أنها دونها فى قوة هذه الغريزة ، ولا يسعنا – وان غلونا في جمود العلم — ان نقول ان النظرة النوعية وحدها هي التي تجعل الاوروبي يرى امرأته أجمل منظراً وأحلى شمائل من الزنجية المتبدية في خرائب خط الاستواء

ولسنا نخطيء حقائق العلم المقررة إذا قلنا ان « الجمال » هو غاية الحياة وان الغريزة النوعية هي إحدى وسائله — أو هي أقوى وسائله الى تلك الغاية . ان هذا لأصدق من القول بأن الفنون الجميلة نزعة جنسية محولة عن غايتها كما يزعم الباحثون في المسائل الجنسية من جماعة الاطباء « والنفسيين »

وان الغريزة النوعية لا تفهم الا على أنها مظهر جسدي للرغبة

في التمام والبقاء وهي هي الرغبة التي يسعى اليها الفن من طريقه فيسبق اليها الغريزة بمراحل لا تعبرها الا في الزمن الطويل ، فالحب والفن يسعيان معاً الى وجهة واحدة ويتعاونان معاً على المسير في سنن واحد، ولهذا يشتاق الحب الى الفن ويشتاق الفن الى الحب ، ولهذا يجور الشغف بالفن أحياناً على غريزة النسل فلا يهنأ الفنانون بالنسل الموفق السعيد . ولا ينمو حب الجمال في الفنانين على حساب الغريزة النوعية الا لانهما شريكان متكافلان يزيد في أحدهما ما ينقص من الآخر، فلا بأس على هذا المعنى أن تقول ان الغريزة الجنسية هي نزعة فنية ظاهرة في ثوبها الجسدي وليست النزعة الفنية هي الغريزة الجنسية الحائدة عن الطريق





في الاساليب

كنت أتصفح الرسائل الأدبيـة التي كان ينشرها « أناتول فرانس » في صحيفة « الطان » فانتهيت الى المناقشة التي دارت بينه وبين شارل موريس على الأدب الحديث وأساليب المستقبل وفيها يقول بعد كلمات اقتبسها من رسالة ذلك الأديب : « كلما أنعمت النظر بدا لي أنه لا جميل إلا السهل ! فقد فرغت من ذوق الغوامض وصرت أرى ان الشاعر أو القاص الذي لا يعاب هو الذي يتجنب ان يكلف قارئه أي تعب ولو كان هيناً وان يجشمه أية صعوبة ولو كانت طفيفة . وخير له ان يفاجىء التفات القارىء ولا ينتزعه منه انتزاعاً وان يحذر التعويل على صبر القراء المطلعين وان يعتقد أنه لا يُقرأ إلا اذا قرىء سهلا . فللعلم حق الانتبـاه والتأمل علينا وليس للفنون ذلك الحق لأنها بطبيعتها تسر ولا تفيـد ووظيفتها ان تعجب ولا وظيفة لها غير ذلك . فيجب ان تكون جذابة بغير شرط ... » ثم

قال «وهناك فرق بين قصيدة تغنى ومقالة تكتب في الهندسة الوصفية، ومن الواجب ألا تكلفنا مسرات الفنون أقل مشقة»

وفي وسعك ان تقول ان أناتول فرانس لم يُبدِ هنا مذهبه في أسلوب الفن وحده وانما أبدى مذاهبه في كل شيء من معضلات هذه الحياة التي ينبغي — على رأيه — ألا تكون لها معضلات على الاطلاق! فلا يعنينا ان نحس من هذه الحياة خيراً وراء الظواهر التي تتراءى لنا بنفسها ولا تفرض علينا اكثر من النظر اليها. واذا قيل لنا ان في الكون أسرارا لا يسهل التأدي اليها وان للنفس اغواراً لا تطفو على وجه الحروف الأبجدية ولا تطير على السنة الشعراء والقصاص، وان للجمال معاني محجبة لا تبرز للناس في ثياب الحمام في كل حين — فذلك لا يضيرنا ولا يزحزحنا عن رأينا ولا يمنعنا ان نتمطى على الكرسي الوثير ونطبق اجفاننا الكسلى وننفث قليلا من الدخان في الهواء نتبعه بآهة لطيفة تنم على الذوق المترف والطبع الأنيق! ثم نقول: «لا! لا! أي حق للطبيعة أو للحياة في ان تتعبنا وتثقل علينا؟؟ انما حقها الوحيد ان تدعنا نتملل قليلا اذا نحن شئنا ان نتخذ من ذلك دليلا سهلا على الرشاقة المدللة والتخنث المحبوب! أما اذا هي أبت ان تعرض علينا محاسنها كلها ونحن خادرون في بهو السمر فلتذهب بها حيث تشاء ولتحجبها عن الانظار أو تعرضها على الاشقياء الذين يطيقون فتح الاجفان والسعي على الاقدام.! فانا

لا نرى فرقاً بين الطبيعة والقهرمانة التي ننقدها أجرها على ان تجلو أمامنا كل ما عندها من التحف والمطربات ونحن في مقاعدنا سادرون بين الاقداح والدخان وألحان التهويم والفتور . وليس من شأن الظرفاء الناعمين ان يشغلوا أنفسهم بمصاعب الحياة أو يسمحوا لخواطرهم الوادعة ان تسألها عن خباياها واسرارها وتشاطرها همومها وأشجانها وان يتألموا وينقبضوا اذا قيل لهم ان الدنيا عبث عابث وان يجتهدوا وينقبوا اذا قيل لهم أنها جد خطير مستور المقاصد والغايات . كلا ! كلا ! انما نحن وما ذاك ؟؟ وما للحياة وللناس تشغلهم بما يشغلها وتمتحن ضمائرهم بما يمتحن ضميرها ؟؟ انما على الناس واجب واحد هو ان يسروا وهم نائمون غافلون ، وعلى الحياة واجب واحد هو ان تسرهم ولا تتقاضاهم ثمناً من الفكر أو من الاحساس لذلك السرور ؛ فان تجاوزت هذا الحد وأبت ان تنقل محاسنها لكل من يصفق لها بيديه وهو مستلق على سريره فجزاؤها الاعراض والاهمال وعليها ان تبحث عن الجن والملائكة لتريهم ما عندها . . . ، أو تنشيء لها خلقاً جديداً غير الآدميين تتسلى بهم الى ان يقبل هؤلاء ان يتنزلوا بعض التنزل فيعاملوها بغير ما يعاملون به الخادم التي تحمل لهم المائدة وتنتظر الأمر على أضعف همسة وأقرب اشارة ! »

***

إننا لا نشوه فلسفة أناتول فرانس إذ نصورها في هذه الصورة

الهزلية وانمــا نحكي ملامحها على الهيئة التي تستحق بها نصيبها من السخرية والضحك ، والحقيقة ان من اسخف السخف ان يقال ان مسرات الشعر والكتابة والفنون عامة لا تحتاج الى التأمل والانتباه وأنها مطالبة بأن تعرض نفسها على الناظرين ليلتفتوا اليها حين يشاءون بلا جهد ولا استعداد

نعم ان الجمال سهل معجب ولكن سهل على من ؟؟ و بعد ماذا ؟ على الذين يقدرونه ويحبونه ، و بعد الخبرة والممارسة والتذوق والتهذيب، فليس معنى السهولة في جمال الفنون انه رخيص مباح لكل من يرمقه بجانب عينه ولا أنه غني عن التأمل والتفكير ، ولكن معناه انه سهل سائغ لمن يستعد له استعداده ويبذل فيه ثمنه ، وكذلك الثمرة الشهية سهلة سائغة لمن يشتريها ويغرسها ولكن ليس معنى ذلك أنها تمطر من السماء أو تطرح على التراب أو تنمو كما ينمو نبات السحر الذي لا يسقي ولا يتعهد ولا يقام عليه بالعلم والاختبار . وان سهولة الفنون لغالية « صعبة » على من يريد الوصول اليها مبتكراً أو مجتنياً بل هي قد تغلو وتصعب حتى تستدعى من التأمل والانتبـاه ما لا تستدعيه الهندسة الوصفية وما هو اعضل منهـا في المعلومات والمعقولات

ولو كان الغرض من اشتراط السهولة في الجمال ان يكون سهلا على كل من يطلبه بلا تفاوت في الدرجات والمواهب لما كان في الشعر

كله قصيدة واحـدة جميلة أو حقيقة بأن توصف بالجمال . فان شعر شكسبير سهل على بعض القراء ولـكنه من الألغاز والمعميات على أناس آخرين ، وان هؤلاء الآخرين قد يطيب لهم شعر بيرون ولـكنه اذا قرىء على من دونهم في الفطنة والشعور عابوه واستثقلوه او كابدوا في فهمه الصعوبة التي تنفي صفة الجمال في رأي أناتول فرانس ومن جرى مجراه ، ونسوق الشواهد من شعراء العرب فنقول ان المتنبي مثلا صعب على من يستسهل البحتري والبحتري صعب على من يستسهل الشعراء العذريين ، والشعراء العذريين صعب على من يستسهل ابن معتوق والبهـاء زهير ، وهكذا الى ان نهبط الى طبقة تستصعب شعر هؤلاء جميعاً ولا تجد السهولة «الجميلة» إلا في الازجال الغثة والأناشيد الوضيعة وما في منزلتها من الشعر المبتذل الركيك . فاذا جعلنـا السهولة ميزاناً لنا في الفنون واتخذنا الشيوع عنواناً على السهولة فقد نتمادى في ذلك حتى يصبح لثغ الاطفال في عرفنا نماذج البلاغة العليا ثم تنحدر البلاغة « سفلا ! » حتى تنتهي الى فحول الشعراء وأئمة الـكتاب والفصحاء !

***

فلا بد لنا إذن من التسليم بأن كثيراً من الشعر والـكتابة قد يوصف بالجمال وهو مع ذلك صعب مغلق على طبقات كثيرة من الناس ، وان أسهل الشعر ربما كان أشيعه وأسيره ولـكن لا يلزم

من ذلك انه هو أبلغه وأقرب به الى الجمال والاتقان . وان ليست المعاني العامة هي أصدق المعاني وأولاها بأن تنظم في القصيد وتوصف في البيان وإلا لحكمنا على كل شعور رفيع يختص به العلية المثقفون بأنه شعور كاذب ومعنى غير صحيح ، وان الشعر الذي يسهل فهمه على سواد الناس ربما كان أسعد حظاً من الشعر الذي يفهمه النخبة القليلون ولكنه لا يكون من أجل ذلك أجود عنصراً ولا أحق بالاصغاء والانشاد

وانما تمدح السهولة في الأدب ثم تدل على النبوغ والمقدرة اذا أدى بها الأديب المعاني التي يؤديها غيره بمشقة واعتساف . أما اذا ضرب صفحاً عن تلك المعاني فلم يشعر بها ولم يعالج نظمها وتصويرها وتعداها الى غيرها مما لا يصعب نظمه وتصويره فأي فضل له فى سهولته وأي مقدرة له في اجتناب المأزق الذي تختبر به المقدرة وتستبرأ به الدعوى ؟ ذلك كالرجل الهزيل الذي يبصر الجبار الضليع يرفع الصخرة من الارض ويسير بها الهوينا وهو يتصبب عرقاً ويتماسك جهداً فيقول لا ! حاشاي ان اتصبب مثله عرقاً أو أتماسك جهداً ! انني لاربأ بنفسي عن ذاك ! انني لارفع هذه الحصاة من الارض وأعدو بها أمامه وهو محني الظهر متئد فى مشيته وأنا منتصب القامة خفيف القدمين !

***

بيد ان السهولة لا تجد لها نصيراً أسوأ من أولئك الذين يجعلونها وحدها أساس البلاغة ومحورها ويقولون أنها هي دون المغنى كل ما يطلب من الشعر الرائق والنثر المستعذب ، ويوردون على ذلك أبياتاً اتفقت الأذواق على استحسانها والاعجاب بها ولكنها في زعمهم خلت من المعاني ولا فضل فيها لغير « الصياغة اللفظية » وطلاوة العبارة ، وأشهر ما يوردون من ذلك قول كثير :

ولما قضينا من منى كل حاجة ... ومسح بالاركان من هو ماسح
وشدت على حدب المطايا رحالنا ... ولم ينظر الغادي الذي هو رائح
أخذنا بأطراف الاحاديث بيننا ... وسالت باعناق المطي الاباطح
نقعنا قلوباً بالاحاديث واشتفت ... بذاك قلوب منضجات قرائح
ولم نخش ريب الدهر في كل حالة ... ولا راعنا منه سنيح وبارح

أو قول العتابي في وداع جارية :

ما غناء الحذار والاشفاق ... وشآبيب دمعك المهراق
ليس يقوى الفؤاد منك على الوجـ ... ـد ولا مقلتا طليح المآقى
غدرات الأيام منتزعات ... ما جنينا من طول ذاك العناق
ان قضى الله ان يكون تلاق ... بعد ما تنظرين كان تلاق
هوني ما عليك واقني حياء ... لست تبقين لي ولست بباق
أينا قدمت صروف المنايا ... فالذي أخرت سريع اللحاق

غُر من ظن ان تفوت المنايا وعراها قلائد الاعناق
كم صفيين متعا باتفاق ثم ريعا بغربة وافتراق
قلت للفرقدين والليل ملق سود أكنافه على الآفاق
أبقيا ما بقيتما سوف يرمى بين شخصيكما بسهم الفراق

والقطعتان ولا ريب من أعذب الشعر وأسلسه وهما كذلك خلو مما تعود النقاد ان يسموه « بالمعاني » في الشعر ، ولكنا لا نقول مع القائلين أنها طلاوة لفظية ليس إلا . . ولسنا نحسب الفضل في استحسانهما للحروف والكلمات كما يحسبون ، فان في الشعر شيئاً غير الألفاظ « والمعاني » الذهنية وهو « الصور » الخيالية وما تنطوي عليه من دواعي الشعور ، وأبيات هاتين القطعتين حافلة بتلك الصور التي تتوارد على الخيال كما تتوارد المناظر للعين في الصور المتحركة ، فيكاد القارئ ينسى كلماتها وحروفها وهو ينشدها لما يستشفهُ فيها من الأخيلة المتلاحقة وما يصحبها من الخواطر الحية المتساوقة . ولو أن الأبيات الأولى نقلت الى اللوحة لملأت فراغاً من الشريط المصور لا يملأه أضعافها من قصائد « المعاني » وقصص الوقائع ، لأنها تنقل لك صور الحجيج غادين رائحين يجمعون متاعهم و يشدون رواحلهم ويحثهم الشوق الى أوطانهم بعد ان قضوا فريضتهم التي فارقوا من أجلها ديارهم وأصحابهم ، ثم تنقل لك صور البطحاء تعلو فيها أعناق

الابل وتسفل وتنساب أحياناً كما تنساب الأمواج كرة بعد كرة وفوجاً بعد فوج ، ثم تنقل اليك في المنظر نفسه صور الركبان أقبل بعضهم على بعض جماعات جماعات يتجاذبون أطرافاً من الحديث ويتطارحون آلافاً من الروايات والأنباء ويذهبون في ذلك كل مذهب تلم به الأذهان في حشد كثير مختلف الاوطان والأعمار متباين التجارب والاطوار ، ثم تنقل اليك صورة القائل وما في نفسه من الشجن واللوعة وما يحركه من ذاك الى التسلي بالحديث واللياذ بغمار الناس ، ولا تفوتك من تلك الصورة قصة كاملة تنبئك عنها « القلوب المنضجات القرائح » وتدل عليها رائحة السآمة التي تنسم عليك من قوله « ومسح بالاركان من هو ماسح » ... كأنما تمسيح الأركان لم يكن همه الذي يعنيه من تلك الرحلة وكأنه كان يتوسل به الى مآرب يشغله عن الاركان ومن يمسحها من الماسحين ، والى جانب هذه المناظر والخواطر حواش شتى يضيفها الخيال وتمليها البديهية . فاذا أنت من الأبيات الخمسة في واد يموج بالمشاهد ويتتابع بدواعي الشعور ، وفي ذلك على ما نرى شيء غير اللفظ السهل الذي يحسب قوم من النقاد انه كل ما في هذه الابيات من فضيله الجودة ومزية الاعجاب

أما أبيات العتابي فتروي لك قصة وافية من موقف وداع بين فتاة غريرة لا عهد لها بشدائد الأيام ولا صبر لها على مصانعة الحوادث ورجل مستسلم للخطوب عنده من لوعة الفراق مثل ما عندها ولكنه

يسري عنها ويخفض من جاشها ويريد أن يحمل على كاهله وحده مصيبتها بفراقه ومصيبته بفراقها ، فيعوذ بالصبر حيناً وبالحكمة أحياناً ويستجمع لهذا الموقف كل ما أفادته التجارب من العبر وما علمته الصروف من التجمل ، ثم يغلبه لاعج الهم ويضيق به التأسي فلا يكفيه منه أن الناس يفترقون في الحياة ويلتقون ولا يرضيه ان العشاق يمتعون بالصفاء ويحرمون ، بل يذهب الى التأسي بفراق المنايا ، بل الى ذلك القضاء الأبدي الذي يضرب بين الفرقدين بسهمه وان أملى لهما في البقاء ومد لهما في آماد اللقاء ، وحول ذلك الموقف تاريخ نفسين يجول الخيال من ماضيهما القرير وحاضرهما الأليم ومستقبلهما المريب في مسرح يتعاقب عليه الحب والصفو والأمل والشجو واليأس والعذاب وكل ما يحيك بالنفس ويدور بالخلد من ضروب الاحساس والتفكير في هذا المجال . وليس ذلك كله بالبداهة لفظاً بحتاً وكلاماً سهلاً خلا من كل معاني الجمال إلا حلاوة السهولة التي فتن بها أناتول فرانس وأمثاله من فلاسفة الاندية الناعسة والكراسي الوثيرة والجمال الذي يشتري هو الناظرين ولا يشتريه الناظرون . . !

وفحوى ما تقدم ان الصور الخيالية والمعاني الذهنية هي الاصل في جمال الاساليب في الأدب والفنون ، وان الفنان لا يطالب بأن يكون سهلاً لكل انسان ولا يقيد بالمعاني والخوالج التي يتساوى في التفطن لها والتأثر بها جميع الناس

(في الاساليب)

٢

الاسلوب الافرنجي

الاسلوب الافرنجي هو كل اسلوب معيب في رأي فئة من النقاد يحسبون في هـذا العصر أنهم حذقوا ملـكة اللغة وورثوا سليقة البلاغة العربية ، وكل أسلوب ركيك مستضعف فهو عند هؤلاء النقاد من الاساليب الافرنجية التي طرأت على اللغة بعد اختلاط الشرق بالغرب ومعالجة الترجمة من لغات الافرنج الى لغة العرب ، كأن الركاكة شرط أصيل يشترطه الافرنج في كلامهم ولا يقرون البلاغة عندهم إلا اذا شيبت بشيء منه . ! وليس الأمر كذلك ولا هو مما يخطر على بال ناقد رشيد ، فان الافرنج يعيبون الركاكة كما نعيبها وينتقدون ضعف التأليف كما ننتقده ويعنون أشد العناية باجتناب الخطأ في النحو والصرف والقواعد الأساسية المتفق عليها . ولـكن نقادنا الذين يجهلون اللغات الافرنجية يفوتهم ذلك ويختصرون المسافة اذا استعرضوا الاساليب ، فما استحسنوا منها فهو للعرب خاصة وما استهجنوا فهو للافرنج عامة ! ويحسبون ان الصحيح القويم من العبارات لايمكن ان يكون إلا عربياً وان السقيم المعوج منها لا يمكن

ان يكون إلا أعجمياً ، بطبيعه فى اللغات لاتتحول عنهـا ولا يد فيها للمتكلمين بمفرداتها وتراكيبها . وهذا هو الخطأ الذي نود ان نكتب عنه لنرد العيوب الى أصولها ونوجه بنقد الاساليب الى وجهة أقرب الى الهداية وأقمن بالتوفق للأسباب الصحيحة

* * *

كان قراء اللغة العربية وبعض اللغات الافرنجية يحسبون ان كثرة الفصل بين الجمل خاصـة من خواص الاسلوب الافرنجي تطرقت الى لغتنا من الترجمة أو من محاكاة كتاب الغربيين في رصف الجمل وتقسيم العبارات . ولست أشك في ان الافرنج أقل منا استعمالا لحروف العطف والصلات اللفظية الظاهرة وان بعض المقتدين بهم نقلوا عنهم هذه العادة الى الكتابة العربية فاحسن منهم من احسن وأساء منهم من أساء. ولكنى اعتقد ان الفصل بين الجمل خاصة من خواص التفكير قبل ان تكون خاصة من خواص حروف العطف وصلات الالفاظ ، وأرى ان كتاب الافرنج اكثر منا عناية بوصل المعاني وترتيب الموضوعات وان ظهر على ترجمة أساليبهم أنها أقرب الى التفكك والانقطاع بين الجمل والفقرات ، وأرى من ناحية أخرى ان البلاغة العربية لم تخل من الفصل الكثير في أساليب أفصح الفصحاء وأقدر الكتاب والمنشئين ، بل هـذا القرآن الكريم تتوالى فيه الآيات أحياناً بلا صلة لفظية بينها غير الصلة التي تفهم من سياق الكلام

وتؤديها علامات الترقيم احسن أداء . وسأفتح المصحف الساعة على أول الآيات التي تصادفني وهي هذه الآيات من سورة آل عمران: « ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم الا خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وان الله لا يضيع أجر المؤمنين — الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم . الذين قال لهم الناس ان الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم الله ايماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل » وهي آيات تقع منها علامات الترقيم موقع حروف العطف في اكثر مواضع الفصل والوصل ولا يؤخذ عليها ذلك عند قارىء من قراء العربية الأقدمين او المحدثين، وقد حفظها الناس ومثلوا بها للبلاغة العالية قبل ان تنقل أساليب الافرنج الى اللغة العربية بعدة قرون

***

وتارة يصفون بالتفرنج كل اسلوب لم يحذ فيه صاحبه حذو العرب الجاهليين والمخضرمين الذين سبقوا الكتابة والكتاب وغبروا في عهد البداوة على فطرتهم الأولى البعيدة عن العجمة والحضارة

وقد نفهم غرضهم من ذاك اذا قصدوا الرجوع الى اسلوب النظم

في الجاهلية ، لأننا نحفظ من شعر ذلك العصر قصائد وأبياتاً يجتمع لنا منها نمط في الشعر يصح ان يسمى اسلوباً يقتدي به ويطبع على غراره

أما اذا قصدوا الرجوع الى اسلوب النثر في الجاهلية فأين هو ذلك الاسلوب وأين هي الكتب والرسائل التي وضعت فيه ؟؟ أننا لا نروي من كلام الجاهليين المنثور إلا فقرات مبتورة وأمثالا موجزة وخطباً مشكوكا فيها هي في ذاتها فقرات وأمثال لا صلة بينها ولا وحدة بين أجزائها ، ويمكن ان نستخرج من هذه البقايا المشتتة رأياً في ذوق البلاغة الموجزة عند العرب ولكننا لا نستطيع ان نستخرج منها مذهباً في الاساليب المسهبة والمباحث المستفيضة التي تجري فيها المعاني والمعلومات شوطاً أبعد من غاية المثل السائر والكلمة العائرة

وليس الذي نرويه من قصائد الجاهليين بالنموذج الذي يقتدي به فى النظم لانها في الغالب أبيات مبعثرة تجمعها قافية واحدة يخرج فيها الشاعر من المعنى ثم يعود اليه ثم يخرج منه على غير وتيرة معروفة ولا ترتيب مقبول . وفي تلك القصائد – غير التفكك وضعف الصياغة – كثير من العيوب العروضية والتكرير الساذج والاقتسار المكروه والتجوز المعيب الذي يؤخذ من روايتهم له ان الشعر لم يكن عندهم فناً استقل به صناعه الخبيرون به وانما كان ضرباً من الكلام يقوله كل قائل ويُروى المحكم منه وغير المحكم على السواء

* * *

وأضعف من القول السابق في التفريق بين الاسلوبين الافرنجي والعربي ان يجعلوا من خصائص الاسلوب الأول استعمال الكلمات الدخيلة التي لم تسمع عن العرب في الجاهلية وصدر الاسلام، فان أمثال هذه الكلمات قد دخلت في شعر الجاهلية ونثرها وفي القرآن الكريم وسمعت في الخطب المأثورة التي نقلت عن الصحابة وبلغاء الامويين، ولم يخل منها كتاب واحد من أمهات كتب الأدب في عصر من العصور، وربما وجدت في قصيدة واحدة للاعشي أو لطرفة بن العبد اكثر مما تجد من هذه الكلمات الدخيلة في قصيدة عصرية، ولا نذكر جماعة المتأخرين من الشعراء والكتاب فى أبان الدولة الاموية أو الدولة العباسية التي نقل فيها من اسماء الثياب والطعام وأدوات الزينة ومصطلحات العلوم والفنون ما قد يربي على جميع ما نقلناه نحن في العصر الحديث

* * *

وبعضهم يأخذون على ما يسمونه بالاسلوب الافرنجي قلة المحسنات البديعية والاستعارات المجازية يظنونها من مزايا بلاغة العرب وهي في الحقيقة قسط مشاع بين جميع اللغات اذا هي صدرت عن الطبع المرسل ولوحظ فيها الاعتدال والذوق السليم. فما كان العرب اكثر مجازاً واستعارة من أمم الغرب ولا عُهد في بلغائهم المطبوعين

الولع بهذه المحسنات التي أفرط فيها المقلدون وطلاب البلاغة على جهل بأسرارها وعجز عن التقليد الصحيح فيها . ولقد عاب النقاد والثقات الاكثار من المحسنات الصناعيــة وعدوها بدعة مستحدثة على اللغة العربية واستحبوا فيها ان تكون في الكلام «كالخيلان في الوجنات او كالحلية في الثياب» وان تجيء عفواً بلا كلفة مصنوعة ، أو تقصد قصداً ولـكن لتوضيح المعنى وتجميله وليس للعرض على الانظار والمباهاة بالاحتيال والاقتدار

***

ولـكنّ أوجه كلامهم فى اختـلاف الاسلوب الافرنجي عن الاسلوب العربي هو ما يرجع الى الذوق والملكة ، إذ يقولون ان للغة العرب ذوقاً خاصاً وملـكة مستسرة في تراكيبها هي أشبه شيء بالملامح الدقيقة التي تراها العين ولا يصفها اللسان ، أو هي روح اللغة التي تسري في معانيها وتنتظم تراكيبها ولاتحدها الضوابط والتعريفات. وذلك كلام قديم قيل في اللغة العربية كما قيل في غيرها وكتب فيه ابن خلدون فوفى الغرض حيث قال : «ان المتكلم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرى الهيئة المفيدة لذلك على أساليب العرب وانحاء مخاطباتهم وينظم الكلام على ذلك الوجـه جهده · فاذا اتصلت مقاماته بمخالطة كلام العرب حصلت له الملـكة في نظم الكلام عن ذلك الوجه وسهل عليه أمر التراكيب حتى لا يكاد ينحو فيه غير

منحى البلاغة التي للعرب . وان سمع تركيباً غير جار على ذلك المنحى مجه ونبا عنه سمعه بأدنى فكر بل وبغير فكر إلا بما استفاده من حصول هذه الملكة . فان الملكات اذا استقرت ورسخت في محالها ظهرت كأنها طبيعة وجبلة لذلك المحل . ولذلك يظن كثير من المغفلين ممن لم يعرف شأن الملكات ان الصواب للعرب في لغتهم اعراباً وبلاغة أمر طبيعي ويقول : كانت العرب تنطق بالطبع . وليس كذلك . وانما هي ملكة لسانية في نظم الكلام تمكنت ورسخت وظهرت في بادىء الرأي أنها جبلة وطبع ، وهذه الملكة كما تقدم انما تحصل بممارسة كلام العرب وتكرره على السمع والتفطن لخواص تراكيبه . وليست تحصل بمعرفة القوانين العلمية في ذلك التي استنبطها أهل صناعة اللسان . فان هذه القوانين انما تفيد علماً بذلك اللسان ولا تفيد حصول الملكة بالفعل في محلها. واذا تقرر ذلك فملكة البلاغة في اللسان تهدي البليغ الى وجوه النظم وحسن التركيب الموافق لتراكيب العرب ولغتهم ونظم كلامهم . ولو رام صاحب هذه الملكة حيدا عن هذه السبيل المعينة والتراكيب المخصوصة لما قدر عليه ولا وافقة عليه لسانه لأنه لا يعتاده ولا تهديه اليه ملكته الراسخة عنده . واذا عرض عليه الكلام حائداً عن أسلوب العرب وبلاغتهم في نظم كلامهم أعرض عنه ومجه وعلم أنه ليس من كلام العرب الذين مارس كلامهم . وربما يعجز عن الاحتجاج لذلك كما يصنع أهل القوانين النحوية والبيانية .

فان ذلك استدلال بما حصل من القوانين المفادة بالاستقراء وهذا أمر وجداني حاصل بممارسة كلام العرب حتى يصير كواحد منهم »

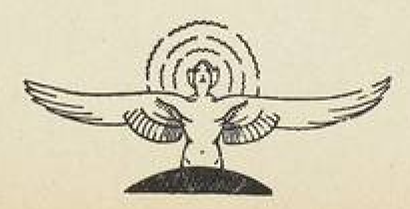
فهذا الكلام على كونه غامضاً لا يصلح الاحتجاج به كما يقول ابن خلدون هو أوجه آرائهم في هذا المعنى وأجدرها بالبحث والتدبر. فالملكة العربية هي الفارق الاكبر بين الأساليب الأصيلة في اللغة والاساليب الطارئة عليها ولا سيما في أنواع الكتابة الانشائية التي تقتصر العناية فيها على صياغة الجمل القصيرة ولا يلتفت فيها الى إطراد المعاني وسياق التفكير. فان أظهر ما تكون البلاغة العربية في الجملة القصيرة وفي الخطب التي هي سلك مجموع من الجمل القصيرة كما قدمنا. ولكن ما مزايا هذه « الملكة العربية » ولأي شيء نحتفظ بها ونجتهد في تحصيلها ؟؟

ان من مزايا هذه الملكة ما هو مستمد من أسلوب التفكير الذي خص به الذهن العربي دون أذهان الأمم الأخرى، كالسحنة التي تعرف بها وجوههم واللون الذي يميز بشرتهم واللهجة التي تنطق بها ألسنتهم، فلا فضل فيه غير أنه تفكير عربي وليس بتفكير مصري أو هندي أو أوربي، وليس من الضروري أن تكون هذه المزايا حسنة كلها وان يحتذي الكتاب والشعراء حذوها في الصغائر والكبائر إلا اذا كان من الضروري ان نجعل لنا أنوفاً كأنوف العرب ورؤسا كرؤسهم وأعضاء تحكي أعضاءهم في الشكل والحجم

والحركة . ولا يقول بذلك أحد ولو كان من أشد الغالين في حب العرب والتعصب للشمائل العربية ، وانما الشأن للعادة في استحسان المزايا اللغوية التي من هـذا القبيل فاذا تغيرت العادة تغيرت معها اسباب الاستحسان

ومن مزايا الملكة العربية ما يحسن في الذوق لأنه يفيد الكلام قوة ووضوحاً ويزيد المعاني صقلا و بياناً و يعصم اللسان من الاسفاف والركاكة ويمده بذخيرة من أساليب التعبير ينفق منها في الكلام والكتابة . فهذه المزايا هي التي نحتفظ بها ونتوسع فيها ونضيف اليها ما يوائمها ويتمشى معها من مزايا اللغات الأخرى ، ونتصرف فيهـا تصرف صاحب الدار في داره فلا تقف حيالها مقيدين مأسورين كأننا نترجم عن غير أنفسنا ونلفظ بغير ألسنتنا ونفكر بغير عقولنا التي ركبها الله في رؤسنا ، وما من شرط في كل ذلك غير المعرفة والاحسان

لنذكر أننا في عصر « انساني » لجميع الناس حصة فيه — وفي اللغات خاصة — فلا نحسب ان عالم القول والكتابة مستقل عن عالم الحياة الذي اشتركت فيه المعالم والازياء وتقابلت فيه الأمم من كل جيل ومكان





علم الاخلاق

الى نيقوماخوس

(تأليف ارسطو — ترجمة احمد لطفي السيد)

من العقول ما هو بالظواهر الطبيعية أشبه والى معالم الكون أقرب . تطلع عليه ولو لم تكن لك فائدة من الاطلاع عليه ، وتحب أن تراه كما تحب أن ترى نجم القطب أو جبال هملايا أو شلالات نياغرا ، وتنشده كأنه عقل « الناس » الذي لا يستأثر به انسان دون انسان وليس بعقل شخص من الأشخاص كان حياً على ظهر هذه الارض في يوم من الايام . فهو منظر لمن يراه ويدرسه ويستعيره لنفسه ساعة التأمل فيه وليس بحصة موهوبة لصاحبه الذي يُنسب اليه ، وهو هبة انسانية عامة لكل شعب ولكل فرد ، بل هو هبة طبيعية يؤتاها الانسان كما يؤتي النور والهواء وخصائص الحياة ، فلا نصيب لصاحبها منها غير نصيب الأمين من الأمانة التي أودعها ليوصلها الى ذويها ، وكأنه لا امتياز له في الأمر إلا أنه هو الذي وقعت عليه القرعة في حمل تلك الأمانة فكان لذلك أمينها المجتبي

لها بغير اجتباء ! وقد يبدو لك أنه لا حق لمن كان كذلك في أن يفتخر بالعقل الذي عهد اليه لأنه عقل لا ترى عليه طابع الملكية الشخصية ولا يمنعك مانع أن تدعيه مع صاحبه وأن تأمنه على حصتك فيه . ! فهو منحة الهية عامة لأنه أكبر من أن يكون صفة شخصية خاصة . وكذلك كان عقل « ارسطو » الكبير الذي لو ظهر عقل بغير واسطة لكان هو أولي العقول أن يظهر للناس مجرداً من واسطة الجسم مستغنياً عن أدوات الحواس والاعصاب

***

عرفت اللغة العربية ارسطو قبل عدة قرون وأخذت بنصيب من هذا العقل الشائع كما أخذت بنصيب من المدنية والتاريخ ، ولكنها لم تحفظ لنا أثراً من آثاره الكاملة ولم تبق لنا من قضاياه وآرائه الا ما تفرق في أثناء الكتب من نبذ مبتورة تنسب اليه تارة وتغفل من النسبة تارات . فلا نخطيء اذا قلنا ان أكمل آثاره في اللغة العربية هو هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن ، وهو كتاب علم الاخلاق الذي نقله عن الفرنسية الاستاذ الفاضل احمد لطفي السيد وأتم طبعه في العام الماضي ، فبر به لغته أصدق البر ورد اليها حقاً وافياً من حقوقها بين اللغات في المعلم الاول ، وجاءنا بدليل جديد على ان هذه اللغة أصلح في عصرنا حالا وأوفر قسما فى العلم والأدب مما كانت في إبان المدنية العربية والدولة الاسلامية . لاننا تقابل بين

ترجمة كتاب الاخلاق وبين ما اطلعنا عليه من بقايا ارسطو في الكتب المتفرقة فنجد التفاوت واضحاً بين الترجمتين ونرى مواضع كثيرة يبز فيها الاستاذ لطفي من تقدموه في الدقة والفهم وصفاء العبارة ، وقل أن نرى موضعاً ينعكس فيه هذا الحكم ويظهر فيه فضل للمتقدمين على الاستاذ في هذه الامور

***

ولا يفهم من قولنا أن عقل ارسطو من العقول التي تحب ان تطلع عليها ولو لم تكن لك فائدة منها ان كتب الحكيم قليلة الفائدة أو أنها مكتوبة لغير قراء هذا الزمان . فأن مباحث ارسطو تحمل فائدتها لكل زمان ويقرأها المتأمل وهو على يقين من أنها تنفع ذهنه وتفتق قريحته ولو لم تكفل له الوصول إلى الحقيقة و المنفعة العملية في كل حين . ولست استثني من ذلك المباحث التي عفى فيها الحديث على القديم وسلكت فيها التجارب العصرية طريقاً غير طريق الفلسفة اليونانية . فان العقل الكبير لا يضل كل الضلال وان نقصته الوسائل وقصرت به الأسباب . ولا يزال عقلا كبيراً حتي في الخطأ الكبير الذي يقع فيه ، فهو كيفما كان «موضوع» خالد لا يسهل علينا اجتنابه ولا يجمل بنا أن نحكم عليه بظروفه دون طبيعته التي هي ألزم له وأدل عليه من الظروف ، وربما كانت فائدة كتاب الاخلاق لنا نحن المصريين خاصة أكبر من فائدته لليونان الذين كتب لهم وللشعوب

الغربية التي تعني به الى هـذه الايام على وفرة ما لديها من آثار الفلاسفة في الاخلاق والآداب

ذلك أن سواد الأمة المصرية – وكثيرا من الشرقيين – يفهمون من الاخلاق أنها فضائل سلبية تبعد الانسان عما يشينه وتنهاه أن يقتل وأن يسرق وان يعتدى على غيره وان يبخل أو يجبن أو ينقاد لشهواته و يشتغل بصغائره

ويفهمون من جهة أخرى أن القانون الاخلاقي سواء أكان آمراً بالفضائل أم ناهياً عن الرذائل هو سيطرة خارجة عن الانسان تملى عليه ما يفعل وما يترك وتجيز له او تحرم عليه ولا شأن له هو في جميع ذلك غير الطاعة والاذعان. ولا نعرف شيئاً أو بلَ على الاخلاق ولا أشد إيذاء للهمم من تمكن هذة العقيدة المنكوسة في الضمائر واعتبار الانسان عبداً للقانون يساق الى الخير أو قوة سلبية لا تحسن من الاعمال الا ان تجتنب القبيح وتبتعد عن الضرر. وهذه هي العقيدة التي يمحوها مذهب ارسطو في الاخلاق جهد ما تستطيع المذاهب الفلسفية أن تمحو أمثال هذه العقائد. فان أجمل ما في كتاب ارسطو انه سجل فيه خلائق اليونان الايجابية وجعل الفضيلة كلها في العمل والانشاء لا في التخلي والسكون، وهـذه هي مأثرته التي يعدها له شراحه قبل كل مأثرة في هذا الـكتاب

فالعمل الخاص للانسان باعتباره كائنا مختلفا عن النبات والحيوان

انما هو وحي الانسان من داخل نفسه وقانونه الذي تمليه عليه فطرته وهو عند ارسطو « فاعلية النفس واستمرار افعال يصاحبها العقل » ثم يجب أن نحقق هذه الشروط « طول حياة تامة بأسرها . لأن خطافة واحدة لا تدل على الربيع ، لا هي ولا يوم صحو واحد . فلا يمكن أن يقال ان يوم سعادة واحداً بل ولا بعض زمن من السعادة يكفي لجعل الانسان سعيداً محظوظاً » ويزيد على ذلك أن « ليس سواء البتة أن يوضع الخير الأعلى في حيازة بعض الملكات أو في استعمالها ، أي في مجرد القابلية ، أو في الفعل ذاته . ان القابلية يمكن أن توجد في الحقيقة من غير أن تنتج أي خير . مثال ذلك في رجل ينام ، أو في رجل يبقى غير عامل لأي سبب آخر . أما الفعل فهو على ضد ذلك لا يمكن البتة أن يكون في هذه الحالة ما دام انهُ بالضرورة يُفعل وانه فوق ذلك يُفعل حسناً – ان الأمر هنا كالحال في الالعاب الاولمبية . فليس أجمل الرجال وأقواهم هم الذين يأخذون التاج . انه لا يأخذه إلا المتنافسون الذين يشتركون في المنازلة . فبينهم فقط يكون الظافر . كذلك أولئك الذين يسيرون سيرة صالحة هم الذين يستطيعون أن يتطلعوا في الحياة الى المجد والسعادة »

فلا فضيلة إلا في قيام « الانسان » بعمله الخاص الذي يمتاز به على عامة المخلوقات ، ولا سعادة لذلك الانسان بغير الفضيلة

٭٭٭

وارسطو أقرب الى العلماء منه الى الفلاسفة . فهو لا يبحث عن العلل الاولى والاسرار الخفية ولا يعني بغــير تقرير الوقائع واستقراء الحوادث . ولم يدع هو انه وصل الى علل الاخلاق الاولى واسرارها الخفية بل قال في صراحة « ان سبباً مماثلا للسابق يضطرنا ان لا نبغي الصعود الى العلة في جميع الاشياء على السواء . فأنه في كثير من الأحوال يكفي أن يبين بجلاء وجود الشيء كما يفعل بالنسبة للمبادىء ، لأن وجود الشيء هو مبدأ ونقطة ابتداء . ومع ذلك فان من المبادىء ما قد اكتشف وعرف بالاستقراء ومنها ما اكتشف بالحساسية ، وأخرى بنوع من العادة ، وأخرى تأتي من أصل آخر . فينبغي تعلم معالجة كل واحد من هذه المبادىء بالطريقة التي توافق طبعه ، وذلك أفضل ما يبذل من العناية لتحديد بيانها . ان لهذه المبادىء أهمية كبرى في الاستنتاجات وفي النتائج التي تستخرج منها . فقد أصاب من قال : ان المبدأ أو البداية هو أكثر من النصف في كل شيء ، وانه وحده يكفي لايضاح كثير من النقط في المسائل التي يناقش فيها »

ولهذا لا تجد في كتاب ارسطو أريحية الشعر وخشوع الايمان ولا تلك الفلسفة الجميلة المنغومة التي برع فيهــا استاذه أفلاطون وامتزجت بجميع آراء فيثاغوراس . بل هو أول من فصل بين

الرياضيات الرمزية والفلسفة الصوفية وبين حقائق الاستقراء وعلوم الاختبار والاحصاء. وآراؤه في الاخلاق مأخوذة كلها من مراقبة الحياة العملية في بلاد اليونان والقياس على ما يفعله الناس وما يمدحونه وما يذمونه من الفضائل والعيوب. لكنه مع هذا لم يخل من « مثل أعلى » للفضيلة هو أسمى ما يرتفع اليه العقل ويصبو اليه الخيال. فأن من دواعي العجب ان مذهبه العملي هذا في طلب السعادة ينتهي به الى تقرير غاية للانسان لا يعدوها الخيال وان جمح ولايطمح النظريون الى أبعد منها وان أوغلوا في التخمين والتنزيه. فالانسان الفاضل عنده هو الانسان السعيد. ومن ثم يجب ان تصدر الفضائل منه عن سجية وطواعية لا يشوبها ألم ولا اقسار! والى أين يذهب الانسان بالخيال أبعد من هذا المقام الرفيع؟ اننا لنعلم أن من الفضيلة أن يقدم الانسان على ما يكره قضاء للواجب، وان الواجب الذي يلذك أن تعمله لا فضلَ لك فيه. وارسطو لا ينسى ذلك في بعض كلامه فيقول: « حينئذ يشترط فيمن يسمى شجاعاً الصبر على المشقات المؤلمة كما قد قيل. لذلك نرى ان الشجاعة لكونها أمراً صعباً جداً يكون الثناء عليها هو في غاية الانصاف. لأن احتمال الألم أصعب من الامتناع عن اللذة، ولكنه يعود فيقول: « ومع ذلك ينبغي ان نفهم ان غاية الشجاعة هي دائماً شيء لذيذ جداً، وان الظروف المحيطة بها هي وحدها التي تحجب عنها جاذبها القوي. يمكن أن يشاهد

بسهولة شبه هذه الظاهرة في مباراة الجماز . فان الغاية التي يقصدها المصارعون هي حقاً لذيذة جداً لديهم . انما هي التاج ، انما هي الكرامات التي يطمعون فيها ، غير ان الضربات التي تصيبهم مؤلمة ، لان المصارعين على كل حال هم من لحم وعظم . وكل التعب الذي يلقونه حقيق بأن يكون شاقاً جداً » ثم يمعن في ذلك فيقول « .. يكون الموت والجروح عند الرجل الشجاع اموراً شاقة ، وانه لا يتعرض لها الا اذا كان مكرهاً . انه يقتحمها لان اقتحامها جميل ولأنه يكون من العار ألا يفعل ، ولكن كلما كانت فضيلته كاملة و بالتبع سعادته تامة كان أسفه من الموت أشد ، لأن الحياة بالنسبة لرجل كهذا لها كل قيمتها ، وحرمانه النفس أنفس النعم التي هو يقدرها حق قدرها . ذلك انما هو ألم شديد ومع ذلك لا ينقص من شجاعته شيء بل ربما زادت لأنه يؤثر على كل هـذه النعم الشرف الذي يكسبه في الحروب » وإذن — على رأي ارسطو — لا يكون الانسان في شجاعته الا مختاراً بهذه الكيفية بين أمرين أو عدة أمور ! »

***

ولانصراف ارسطو عن البحث في علل الفضائل الأولى الى البحث في الأعمال الفاضلة المشاهده بالحس كان معياره الارجح للأخلاق ان يوازن بينها بالدرجات والمراتب لا بالكنه والمصدر . فكل فضيلة عنده حد وسط بين رذيلتين ، وكأن الاختلاف بين

الفضائل والرذائل في تفسيره لا يكون الا من قبل الاختلاف بينها في الدرجات والزيادة والنقصان — وهو رأى منتقد عابه عليه كانت بحق فقال : « ان الاختلاف بين الفضيلة والرذيلة لا يمكن أن يكون مسألة درجات بل لا بد أن يعتمد على معادنها الطبيعية أو قوانينها . ولنطبق هنا مذهب ارسطو فنقول ان القصد حد وسط بين رذيلتين هما الاسراف والبخل ، فهل نري أن البخيل لا يعود بخيلا اذا زاد مقدار نفقته ؟ ؟ أو هل ترى ان المسرف يصبح فاضلا اذا نقص مقدار ماينفقه من الثروة ؟ ؟ ان التفسير (أولاً) لا يبين لنا الحد الذي يجب على كل منهما أن يقف عنده و (ثانياً) هو في الواقع تحصيل حاصل اذ أن أرسطو يقول « ان الانسان يجب عليه أن يجتنب الخطأ بالزيادة عن الحد والخطأ بالنقص عنه » فما هو الخطأ بالزيادة عن الحد غير أن يفعل الانسان أقل مما يجب . فكأن النتيجة ان الواجب هو أن لا تفعل أكثر ولا أقل من الواجب » وهذا هو تحصيل الحاصل كما يقول « كانت » لأن تعريفنا الواجب بأنه شيء لا يزيد ولا ينقص عن الواجب هو من اللغو الذي يشبه قول القائل :

كأننا والماء من حولنا　　قوم جلوس حولهم ماء

***

إلا اننا نقول مع هذا ان ارسطو قد اتبع أسلم الطريقين ونجا من أكثر الاخطاء التي يستهدف لها الباحثون في فلسفة الاخلاق ،

وانه حين تساهل في تحري العلل الاولى واجتهد في الاستقراء القريب والمشاهدة المحسوسة غبن الفيلسوف اللدنى فيه ولكنه أنصف العالم المدقق وعوض على القراء من ذلك الغبن أحسن عوض ، وانه كان قمينًا أن يستهدف لاكثر من ذلك من الاخطاء لو انه عالج العلل الاولى ثم أخذ نفسه بالتأليف بينها وبين الاخلاق في جميع الدقائق والتفاصيل ، فما منعه التساهل في استقصاء العلل الاولى ان يصحح لنا نماذج الفضائل وأن يصور لنا تمثالا متقن الصنعة من الانسان الكامل في عالم الوجود وفي عالم الخيال — وليس يغض من عمله هذا انه كان يلحظ الانسان من الجانب اليوناني الذي كانت تجلوه آداب عصره وتواريخه ومأثوراته ، فتلك سنة لا محيد عنها أن يتخذ المصور نموذجًا له من الهيئات التي يألفها والبيئة التي يعيش فيها . على ان الاتفاق بين الناس في حدود الفضائل العامة أيسر من الاتفاق بينهم في أذواق الملامح والألوان التي يترسمها المصورون .





بشار

شخصيته

لبشار شخصية ذات مفتاح قريب يدلنا على مذهبه في الشعر والحياة ويفسر لنا الكثير من أخلاقه ونوادره . ومفتاحها هذا هو وصفه الجثماني الذي اتفق عليه مترجموه وطابقتهم عليه بعض ابياته وأشعاره . فقد وصفوه بانه كان ضخم الجثة مفرط الطول تام الالواح ، ورووا أن أديباً « دخل عليه وهو نائم في دهليزه (كأنه جاموس) فقال يا أبا معاذ : من القائل

ان في بردى جسما ناحل　　لو توكأت عليه لانهدم

فقال أنا ؛ فقال ، من القائل أيضاً :

في حلتي جسم فتى ناحل　　لو هبت الريح به طاحا

قال أنا . قال : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله اني لأرى لو أن الله بعث الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك ! »

وقد عاش الرجل سبعين سنة ومات بضرب السياط المبرح لا بمرض أصابه ولا بضعف الشيخوخة . سمعوه يؤذن وهو سكران في غير وقت الأذان فأتوا به وجلدوه حتى أشرف على التلف ، فهو في تلك السن التي تسكن فيها النفس وتهدأ فيها شرة الطبع وتفتر نزوات الحياة لم يزل كأنه في سن الفتوة ومجانة الصبا ودفعة الحيوية العارمة . فكان وافي الجثمانية شديد الحيوانية من اصحاب ذلك المزاج الذين يغلب عليهم اللهو والفجور والشغف باللذات والملاهي وما تسوله غواية اللحم والدم وتغري به المطالب الجسدية والشهوات الحسية ، فما كان له إلا أن يطيع طبيعته الحيوانة وينغمس في ذلك التيار الذي تدفعه اليه ، ولكن انى له بذلك وقد ولد أعمى وليست مجالس اللهو والمجون مما يليق بالعميان وأصحاب الآفات ولا هي بالموضع الذي يزاحمون فيه أهله فيفلحون في الزحام؟ فكيف تراه يصنع ؟ أيقهر طبيعته حذراً من العبث به والسخرية منه وإيثاراً للوقار الذي يجمل بنكبته والتدين الذي يطمئن به الى مصيبته ؟ ذلك وجه قد يخطر له لو كان حب الوقار والكرامة أرجح لديه من لذة القصف والدعابة ، ولو انه ولد كالمعري في بيت التقوي والعلم ونشأ من طفولته نشأة مهيأة للدرس والتوقر لجاز أن يكبح نفسه وان ينهنه من بواعث طبعه ، ولكنه نشأ في بيئة أهون شيء عليها الوقار والكرامة . فكان أبوه مولى طيانًا من السبي وأمه امرأة ترضى أن تتخذ عبدها زوجًا

لها ، وكان الفقه في الدين أبعد ما يتصور من أبي بشار وأغرب ما مني به الناس منه ! – قيل انه كان يضرب بشاراً ضرباً مبرحاً لهجوه الناس « فكانت تقول له أمه : لم تضرب هذا الغلام الضرير ؟ أما ترحمه ؟ فيقول : بلى والله اني لا رحمه ، ولكنه يتعرض للناس فيشكونه الي ، فسمعهُ بشار فطمع فيهِ وقال : ان هذا الذي يشكونهُ اليك مني هو قولي الشعر وأني ان أتممت عليهِ أغنيتك وسائر أهلي . فاذا شكوني اليك فقل لهم : أليس الله عز وجل يقول « ليس على الأعمى حرج » فلما أعادوا الشكوى على أبيهِ قال لهم ذلك فانصرفوا وهم يقولون : فقه برد أغيظ لنا من شعر بشار ! »

فطبيعة بشار وتربيته قد أرادتا بهِ ان يكون كما كان ماجناً خليعاً مستجيباً لشهوات الحس ومطالب الجسد . وكان لا بد له ان يوطن نفسهُ على ما يلقى من السخرية والعبث في سبيل ذاك ، وان يستهدف للضحك والابتسام والولع بهِ والتغامز عليهِ ، وان يخلع الحياء فلا يبالي بشرف ولا دين ولا يراقب الناس في أمر من الأمور التي تجتذبهُ وتستهويه والتي يضاعف الحرمان من النظر رغبته فيها وتكالبه عليها ، فلم يكن أحد غيره أحق بأن يقول

من راقب الناس لم يظفر بحاجتهِ وفاز بالطيبات الفاتك اللهج

ومن عادة التمادي في اللهو أنهُ يضعف التقية ويضري بخلع الحياء وقلة المبالاة . فأولى بالذي يجنح الى اللهو – وهو قليل المبالاة بفطرتهِ–

ان يزداد بهِ هذا الخلق رويداً رويداً حتى لا يعنيهِ مدح ولا قدح ولا يزعهُ شرع ولا ضمير ولا يحفل حرمة من الحرمات التي يقدسها الناس ويستعينون بها على النزوات والأهواء. وقد بلغ الأمر ببشار الى هذا الحد فكان لا يستبقي نسباً ولا مودة ولا ديناً ولا سمعة إلا ما يمسهُ منهُ الضرر ويحول بينهُ وبين ما يريد. فهو يهجو سيبويه فيقول فيهِ

« سباويهِ يا ابن الفارسية ما الذي

« تحدثت عن شتمي وما كنت تنبذ! »

وبشار نفسهُ ابن فارسي من الموالي!

وهو يهزأ بمكان الشعراء ولا فخر له بغير الشعر الذي يتكسب بهِ. فقد سمع عقبة بن رؤبة يقول: أنا وأبي وجدي فتحنا الغريب للناس واني لجدير ان أسده عليهم. فقال بشار: ارحمهم رحمك الله! فقال عقبة: اتستخف بي وأنا شاعر ابن شاعر ابن شاعر؟؟ فقال بشار إذن أنت من أهل البيت الذين « أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً » يريد ان يتهكم بحسب الشعراء ويزدري ذلك النسب الذي افتخر بهِ صاحبه!

وربما كان من هذا الاستخفاف نظمه الشعر في الاغراض المسفة الركيكة كقوله في مدح جاريته

ربابة ربة البيت تصب الخل في الزيت

لهـا عشر دجاجات ودِيكٌ حسن الصوت

ومنهُ أنهُ كان لا يتحرج من تكملة الكلام بما يحضره من الاسماء والمفردات التي لا وجود لها في اللغة . فقال في بعض غزله

صببت هواك على قلبه فضاق وأعلن ما قد كتم
وقالت هويت فمت راشداً كما مات عروة غماً بغم
دسست اليها « أبا مجلز » وأي فتى إن صاب اعتزم
فما زلت حتى أنابت له فراح وحل لنـا ما حرم

فسأله سامع : ومن هو أبو مجلز ؟؟ فقال وما حاجتك اليهِ ؟؟ ألك عليهِ دين ؟ أتطالبهُ بطائلة ؟؟ هو رجل يتردد بيني وبين معارفي في رسائلي . !

ومات حماره فزعم أنهُ رآه في النوم فانشده

سيدي خذ بي أتانًا عند باب الاصفهاني
تيمتني يوم رحنـا بثنـاياها الحسان

⁂

ولهـا خـد أسيل مثل خـد الشنفراني

فقيل له : وما الشنفراني ؟ فقال ما يدريني ؟ هذا من غريب الحمار ، فاذا لقيتموه فاسألوه عنهُ !

وكان كثيراً ما يحشو شعره بهذه الاسماء الملفقة لقلة صبره على التجويد والتمحيق

وإن من الهزل ان يحسب لبشار رأي في الدين والعصبية فيقال أنهُ كان معتزليًا أو مسلمًا على هذا المذهب أو ذاك . فما كان لذلك كلهُ شأن عنده يشغله اكثر من ساعة سمر أو كلمة يرسلها في قطعة من الشعر للمداعبة والاغراب وأغاظة بعض المتحرجين على عادة المتهتكين والخلعاء في العبث بمن يظهرون العفة والصلاح ، وقد نشأ بشار في أوائل عهد المدنية العباسية أي في ذلك العهد الذي راجت فيهِ الأزياء الفكرية والذوقيـة كما تروج الأزياء عامة في عهود المدنيـة والعمران ، وكانت الذندقة من أزياء الظرفاء أو كان الظرف من أزياء الزنادقة كما قال ابو نواس « تيه مغن وظرف زنديق » ! فكان بشار يتخذ له كل يوم زيًا من هذه الأزياء التي يتحلى بهـا ظرفاء عصره ورواد مآلفه ، ويغشى مجالس المعتزلة ليتلقف منهم ما يخوضون فيهِ من النحل الغريبة وما يتحذلقون بهِ من الأقاويل المعتسفة . فتارة هو على رأى القائلين ان ابليس خير من آدم

ابليس اكرم من ابيكم آدم　　فتبينوا يا معشر الاشرار
النار عنصره وآدم طينـة　　والطين لا يسمو سمو النار

فهل هذا جد يسمي بالمذهب في الفلسفة أو الدين !! وما لبشار ولآدم ان كان أفضل من ابليس أو كان ابليس أفضل منه ؟! ومن هم معشر الاشرار الذين يحنق عليهم بشار لغضهم من قدر ابي الشياطين

ورفعهم من قدر ابي اخوانه الآدميين ؟؟ هذه تسلية ودعابة وزي من أزياء التظرف لا أكثر ولا أقل .

وتارة هو على مذهب الجبرية الذين يسقطون الحساب والتكلف:

طبعت على ما فيّ غير مخير هواي ولو خيرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطي وأعطي ولم أرد وقصر علمي أن أنال المغيبا
فأصرف عن قصدي وعلمي مقصر وأمسي وما اعقبت الا التعجبا

ويعود فاذا هو مؤمن شرعي يذكر الموت ويخشى الحساب

كيف يبكي لمحبس في طلول من سيفضي لحبس يوم طويل
ان في البعث والحساب لشغلا عن وقوف برسم دار محيل

وأبلغ من ذلك في هذا الباب قوله :

بدا لي ان الدهر يقدح في الصفا وأن بقائي ان حييت قليل
فعش خائفاً للموت أو غير خائف على كل نفس للحمام دليـل
خليلك ما قدمت من عمل التقي وليس لأيام المنون خليل

وما ذاك لان الايمان أو الكفر يكرثه ويعنت فكره فيطول فيه تقلبه وبحثه ولـكن لانها دريئة تنجيه من الأذى و خواطر يتفكه بها «الظرفاء» و يوسعون بها على أنفسهم من قيود الادب والشريعة، وقد رووا أنهم وجدوا في أوراقه كلاماً يقول فيه أنه هم بهجو رجل ثم ذكر قرابته من رسول الله فعفى عنه . ويستدلون بذلك على أنه كان متشيعاً صادقاً في التشيع لآل البيت . ولـكن الرواية في ذاتها

لا تصدق لاننا لم نعهد في شعراء العرب ان يدونوا خواطرهم ونياتهم ولا سيما من كان مكفوفاً يحتاج الى من يكتب عنه . ولا ننفي تشيع بشار للعلويين فانه كان من البصرة وفيه عرق من الفرس ولم يكن راضياً كل الرضي عن دولة بني العباس ، فاذا تشيع فلا غرابة في ذلك . ولكن الغرابة ان تظن به الحماسة للشيعة أو لغيرهم وهو من تعلم من المجون وقلة المبالاة

وأنت لا تجد حتى في هجو بشار أثراً قوياً لمرارة البغض الصادق والغيظ الشديد على من ينحي عليهم بالهجاء ، فانما كان هجوه صناعياً وفنياً كما نقول نحن في هذا العصر ، وكان أشبه بالعصا التي يذود بها من يتعرض له ثم يلقيها من يده الى حين الحاجة . وربما تبرم بالدنيا وصدق فيه قول الاصمعي إنه « كان من أشد الناس تبرما بالناس » وإنه كان يقول : « الحمد لله الذي حجب بصري » فقيل له لم يا أبامعاذ ؟ فقال لئلا أرى من أبغض . ولكننا حريون ألا نبالغ في هذا الخلق الذي وُصف به وألا نرى فيه اكثر من أنه عادة أصحاب اللهو إذ يستثقلون من الناس من لا يجدون عندهم حظاً من السرور والسمر ، ثم لا يكلفون انفسهم مؤونة الحقد عليهم والتغيظ منهم ، ولا شك في أن بشاراً كان ينقم على العمي أحياناً ويشعر بالحسد للذين رزقوا البصر من حوله فيضجر من الناس ويتبرم بالدنيا كلما الم بنفسه ذلك الخاطر ، غير انها نوبات لا تطول عند صاحب

هذا المزاج ولا تتعمق في سريرة نفسه ، فما كان بشار بالرجل الذي يجعل من المصيبة حرماً معزولاً يحفه بسياج من الوحشة ويجله عن الذكر والعزاء ويتقدم اليه ليل نهار بقرابين من المضض والكراهية ، وإنما هي لحظة عارضة يأسي فيها ما يأسي ثم تنقضي فيذكر مصيبته في شعر الغزل والمزاح ويتخذ منها لعبة يتفرج بها على الناس . قيل « أنه جلس على بابه وحده وليس معه خلق وبيده مخصرة يلعب بها وقدامه طبق فيه تفاح واترج . فمر به رجل يقال له دهمان الغلال فلما رآه وليس معه أحد تاقت نفسه الى أن يسرق ما بين يديه فجثا قليلا حتى مد يده ليتناول منه . فرفع بشار المخصرة خلسة وضربه ضربة على يده كاد يكسرها . فقال الرجل : قطع الله يدك يا ابن . . . ! أأنت أعمى ؟ ؟ فقال بشار يا أحمق ! فأين الحس . ؟ ! »

وقيل « أن رجلا سأله عن منزل ذكره له فجعل يفهمه والرجل لا يفهم . فلما يئس منه بشار اخذ بيده وقام يقوده الى المنزل الذي يبتغيه وجعل ينشد في طريقه

اعمى يقود بصيراً لا ابا لكمو ... قد ضل من كانت العميان تهديه

وظل يقوده حتى وصل به الى المنزل ثم دفعه الى داخله وقال له هذا هو المنزل يا أعمى ! »

وما من حب في الخير جشم بشار نفسه ان يهدي الرجل الى

المنزل الذي ضل عنه،ولكنها فرصة أتيحت له فأراد ألا تفوته حتى يسخر بالعمي وبالبصر في آن واحد !

ويقل في فكاهة بشار السخر الذي مصدره الاهتمام بالأمور والجد في شئون الحياة ، كسخر ابن الرومي النافذ الحاد أو كسخر المعري الشاحب الرزين ، ويكثر في هـذه الفكاهة السخر الذي مصدره اللعب وقلة الاكتراث وذلك الأيذاء الأبليسي الذي يبدر من النفس عفواً بلا تعمل ولا حماسة ولا التهاب ، وليست تنقصه أسباب هـذه الفكاهة . لأن الذكاء وممارسة اللهو وفتور النخوة والتعرض لدواعي المزاح والتناقض بين معيشة الانسان والمعيشة التي تنبغي له وتنتظر منه — كل أولئك من أدوات الفكاهة التي اشتهر بها بشار وأعانته عليها الفطرة والعادة فحببت الناس فيه واخافتهم منه . ومن دأب ذوي العاهات الذين ينغمسون في غمار الحياة ان تكثر فيهم الدعابة المضحكة لأنهم عرضة لها في كل حين ، فلا بد لهم من سلاح حاضر يتقون به ما يصيبهم منها ويديرون به الفكاهة على من يقصدهم بها ، وبمثل هذه الدعابة سار ذكر بشار بين الظرفاء والظريفات في عصره وصار بما اشتهر به من الغزل ووقائع الغرام أعجوبة في احاديث الناس يودون رؤيتها والتعجب منها ، وبلغ من ذلك ان جواري المهدي — وكان من أشد خلفاء بني العباس غيرة على المحارم — « سألنه ان يريهن بشاراً وقلن له : لو أذنت له يدخل

الينا يؤانسنا وينشدنا فهو محجوب البصر لا غيرة عليك منه ؟ فأمره فدخل اليهن واستظرفنه وقلن له : وددنا والله يا أبا معاذ أنك أبونا حتى لا نفارقك ! قال نعم ونحن على دين كسرى . ! » ونوادره في ذلك كثيرة لا نظنه كان يفرغ منها

أما شعره فرصين صحيح في الاكثر الأعم مما وصل الينا منه ، وهو يقسمه قسمين بدوي تغلب فيه الجزالة والجفوة وحضري تغلب فيه الرقة والنعومة . فاذا نظم فى اغراض الشعر القديمة كان أقرب الى لغة الأعراب التي لا تشوبها دماثة الحضارة واذا نظم في الغزل والمجون كان أقرب الى اللغة المألوفة الشائعة التي رقت حواشيها وسلسلت عباراتها ، ولا اختيار له في ذلك وانما هو اختيار الموضوعات وحكم الصياغة وما يوائمها . وقد كان يُدل بسلامة لفظه وجودة نظمه ويقول لمن يسأله في ذاك : « ومن أين يأتيني الخطأ وقد ولدت هنا ونشأت في حجور ثمانين شيخاً من فصحاء بني عقيل ما فيهم أحـد يعرف كلمة من الخطأ ؟ وأما نساؤهم فأفصح منهم . وايفعت فأبديت الى ان أدركت ، فمن أين أذن يأتيني الخطأ ؟؟ »

وروح شعره هو الروح الذي يعرف به أمثاله من ذوي الطبيعة الحيوية والمزاج الدنيوي الذي يتخيل الاشياء كما يحسها في عالم الواقع القريب ويراها كما تبدو في صور المعيشة المعهودة وحقائق البيت

والسوق ، فلا الهام في شعره ولا حنين ولا أشواق ولا بدوات ولا خيال ، ولكنها تجربة الدنيا تملى عليه ما ينظم من الحكمة والوصف والغزل والهجاء فلا يمتاز فيها عن سواد الناس بغير اللسان اللبق والقدرة على النظم والتعبير ، وأحسبه أصلح أدباء العرب لأن تؤخذ من شعره الشواهد الكثيرة على أساليب « الطريقة الطبيعية الواقعية » التي اشتهر بها بعض أدباء فرنسا على الخصوص في القرن الأخير.

فاذا قرأت له هذه القصة الصغيرة في قوله :

عجبت فاطم من نعتي لها ... هل يجيد النعت مكفوف البصر
بنت عشر وثلاث قسمت ... بين غصن وكثيب وقمر
درة بحرية مكنونة ... ما زها التاجر من بين الدرر
أذرت الدمع وقالت ويلتي ... من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتي بدد هذا لعبي ... ووشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معهُ يا أمتي ... .
أقبلت في خلوة تضر بها ... واعتراها كجنون مستعر
بأبي والله ما أحسنهُ ... دمع عين غسل الكحل قطر
أيها النوام هبوا ويحكم ... وسلوني اليوم ماطعم السهر

أو قرأت له قصته الاخرى التي يقول فيها :

حسبي وحسب الذي كلفت به ... مني ومنه الحديث والنظر
. . . .

أو عضة في ذراعها ولها فوق ذراعي من عضها أثر
أو لمسة دون مرطها بيدي والباب قد حال دونه الستر
. . . .
واسترخت الكف للعناق وقا لت ايه عني والدمع منحدر
انهض فما انت كالذي زعموا أنت وربي مغازل أشر
يا رب خذلي فقد ترى ضرعي من فاسق جاء ما به سكر
أهوى الي معضدى فرضضه ذو قوة ما يطاق مقتدر
ألصق بي لحية له خشنت ذات سواد كأنها الابر
. . . .
أقسم بالله لا نجوت بها فاذهب فأنت المساور الظفر
كيف بأمي إذا رأت شفتي أم كيف ان شاع عنك ذا الخبر
قد كنت أخشى الذي ابتليت به منك . فماذا أقول يا عبر
قلت لها عند ذاك يا سكني لا بأس ! إني مجرب خبر
قولي لها بقة لها ظفر ان كان فى البق ماله ظفر

فكأنك تقرأ صفحة من زولا أوجي دي موباسان ، ومثل هذا الغزل لا علو فيه ولا هيام لأن الشهوة فيه أغلب من الحب والعطف والمناجاة ، وغير عجيب مع هذا أن يقال أن الشيوخ والزهاد كانوا يهيبون بالمهدي أن يكف بشارا عن الغزل وأنه نهاه عنه وحرمه جوائز المدح التي كان يحتال على دس الغزل فيها

وربما كان من العبر التي لا بأس بالتنبيه اليها أن بشارا هذا على ما علمت من قوة جسمه واتساق خلقه وطول عمره لم يسلم من فدية الادب التي يفرضها على أبنـائه والتي يقول بعض الكتاب الاطباء انها حق للفن على الفنان يأخذه من عقله أو من نسله أو من حواسه أو من خلقه ولا يعفي منها أحد له اشتغال مطبوع بالآداب والفنون ، وأما فدية بشار فهي بصره الذي فجع فيه وهو جنين في بطن أمه ، فكان ذلك أول خلل اعتراه في التركيب وقد تكون له علاقة حميمة بالمزاج والاعصاب ، ونسله الذي فقده في حياته ورثى منه في هذه الصفحات ولداً وبنتاً صغيرين ، ولم نعرف بعد من سيرته أنه أعقب غيرهما خلفا من الذكور أو الاناث

ولا يتسع المقال الان لا كثر من هذه العجالة فلنرجيء الكلام المفصل في بشار الى فرصة أخرى ولنشكر الأديب الذي اجتهد في جمع ما اهتدى اليه من شعره شكراً يكافيء جهده وقصده . وبودنا لو استطعنا أن نقف عند ذلك ولكننا مضطرون الى أن نلاحظ له بعض المآخذ في مجموعته : منها أنه لم يدقق في رواية بعض الابيات وان كانت قليلة لا تعيب المجموعة ، ومنها أنه أورد فيها أبياتاً كان الاجمل حذفها والاعراض عنها لافراطها في الفحش والبذاء . ولا يجوز الاحتجاج بكثرة أمثال هذه الابيات في كتب الأدب المعدودة فان لكل عصر أدباً غير آداب العصور التي تقدمته . وهذا فضلاً عن

أن كتب الأدب في عصور الدولة العربيـة كانت تخط لمن يتعمد نسخها ولا تطبع للعامة بعشرات الالوف ، فهي أشبه بالرسائل الخاصة منها بالكتب المعروضه لجميع الانظار



٢

غزله

عاش بشار أيام حياته كما قال

قد عشت بين الندمان والراح والمز
هر في ظل مجلس حسن

وكان كثير الشعر عامة وكثير الغزل خاصة . فلم يبق من شعره ولا غزله الا القليل المشتت الذى عفت عنه الايام وسلم من ضغينة الامراء المهجوين وحجر الفقهاء المتنطسين ، ونسي أكثره في حياته وبعد موته لاشفاق الادباء والظرفاء من روايته والتغني به ، ولكن القليل الذي بقي من غزله فيه دلالته الكافية للناقد الأدبي وان لم يكن فيه الغناء للرواة والمستطلعين

ولا ينتظر القارىء أن يسمع من غزل بشار تلك النغمة الساحرة التي ترتفع بالنفس الى عالم الاحلام والاشواق وتسبح بها في فراديس الافراح والاشجان ، ولا يرج أن يطالع منه وصفاً للحب كأوصاف اولئك الشعراء الكماليين الذين يجعلون المرأة المحبوبة أقنوماً ماثلا للعيان يجمعون فيه كل ما خامر نفوسهم من المعاني الخفية والآمال الممنوعة والمحاسن التي لا أسماء لها في لغة اللسان والمواجد

العطشى الى غير مورد . فكل اولئك غريب عن طبعه بعيد من مشربه كما قلنا في الفصل السابق . وانما كان غزل بشار وصفاً للذات الحس التي يباشرها أو يشتاق اليها ، وكان حبه حباً « للنساء » لا حباً « للمرأة » . . أو هو كان حباً للانثى التي يراها واحدة في كل امرأة على اختلاف الصفات وتعدد الاسماء ، فليس يحتـاج الشاعر إلا لأن يكون « حيواناً » ذكياً لينظم مثل ذلك الغزل ويجيد فيه أحسن الاجادة ، بل هو قل أن يحتـاج الى البصر — فضلا عن النفس — ليهديه الى من يؤثر بالحب ويختار للمتعة . فربما أغنته عن ذلك طبيعته الحيوانية التي ترضيها كل طبيعة حيوانية تقابلها وتكمن له ثَم وراء تباين الافراد وتغير الاسماء والصفات

وقد ترى كثيراً من العشاق الشهوانيين يتطلعون الى ما وراء الحس ويلجأون الى الخيال يستعيرون منه محاسن أوصاف يضيفونها الى محاسن الوجه الظاهرة وشمائل الجسد المرموقة ، ليضاعفوا من السرور بلذاتهم ويغرقوا في الاستمتاع بصبواتهم . أما بشار فقد أخذ الحس عنده مكان الخيال واغراه فقد البصر باستحضار ما فاته من « المحسوسات » التي لا يقنع بها المبصرون ، فاذا طمح المتغزلون الذين يشبهونه في الذوق والمزاج الى سمة معنوية محلاة بزينة الخيال يخلعونها على الصور المنظورة والملامح المألوفة — فحسبه هو أن يطمح بوهمه الى ما وراء السمع واللمس من محاسن العيان التي حجب عنها ،

وأن يجعل تلك الصور المنظورة والملامح المألوفة أقصى شأو الظنون وغاية شوط الخيال ، فلا يخرجه التوهم عن حيز الحواس وان غلا فيه وأبعد الرحلة في بواديه

ومن هنا ترى أن مكان « المحاسن المتخيلة » من شعر بشار قد خلا وصفر إلا من فلتات قليلة يقلد فيها غيره على السماع ولا يعتمد فيها على الشعور والابتكار ، وشُغل ذلك المكان كله بتصور الألوان والاصباغ واستنشاق الروائح والطيوب ، فكان لا يشبب بامرأة الا تخيلها في ثيابها ووشيها ولون بشرتها وصبغة ما عليها من الزينة والحلى . وهو صاحب المثل السائر في قوله

وخذي ملابس زينة ومصبغات فهو أفخر
واذا دخلت تقنعي بالحمر . ان الحسن احمر

وله من هذا النوع يصف طيفاً في المنام

ولقد تعرض لي خيالكمُ في القرط والخلخال والقلب

وفي وصف حسناء

ومصفرة في الزعفران جلودها اذا اجتليت مثل المفرطحة الصفر

وفي أمنية

وما حاجتي لو ساعد الدهر بالمنى كعاب عليها لؤلؤ وشكول

وقوله في فتاة

كأنها صورت من ماء لؤلؤة فكل جارحة وجه بمرصاد

وفي هذا المعنى :

وتخال ما جمعت عليـ ـه ثيابها ذهباً ودرا

وفيه :

وحوراء من حور الجنان غريرة يرى وجهه في وجهها كل ناظر

وقد ينقل الوصف أحياناً مما يُرى الى ما يُحس فيصف الهوى والجمال كأنهما شيء « مصبوب » على القلب والجسم . كقوله :

اذا نظرت « صبت » عليك صبابة

وكادت قلوب العاشقين تطير

وقوله :

« صببت » هواك على قلبه فضاق وأعلن ما قد كتم

وقوله :

من فتاة « صب » الجمال عليها في حديث كلذة النشوان

وأكثر من ذلك ولعه بالطيب فانه يدخله في الغزل والمدح ويلهج به ويستنشق فيه العرف الذي يشمه والوجه الذي يتصوره ، فهو عنده رائحة ومنظر ولذة حسية وخبر عما لا يراه . ويبلغ من ولعه به انه يذكره في وصف نعال المهدي وهو يمدحه فيقول :

تشم نعلاه في الندىّ كما يشم ماء الريحان منتهبا

أما في الغزل فقد ذكره في مثل هذا المعنى فقال :

اذا وضعت في مجلس لك نعلها تضوع مسكاً ما أصاب وعنبرا

وقال وقد زاره فتيات خمس يسألنه شعراً ينحن به :

باكرن عطر لطيمة   وغمسن في الجادي غمسا

وقال في عبدة :

هوى صاحبي ريح الشمال وانه   لأشفى لقلبي أن تهب جنوب
وما ذاك إلا انها حين تنتهي   تناهي وفيها من عبيدة طيب

وقال فيها :

عبيدة مالك مسلوبة   وكنت معطرة حالية

وقال يوصي زائرة :

وتوق الطيب ليلتنا   انه واش اذا سطعا

وقال :

يا رحمة الله حلي في منازلنا
حسبي برائحة الفردوس من فيك

وحتى بيته الذي عيب عليه وهو :

واذا أدنيت منها بصلاً   غلب المسك على ريح البصل

انما جاءه من ناحية هذا الولع الشديد بالطيب وتعوده أن يجمع فيه صور الملاحة المغيبة عنه

على انه قد برع في الاستدلال بالمشمومات والمسموعات على محاسن العيان حتى لقد كان يدرك بسمعه ما لا يدركه إلا البصراء . قيل انه كان في مجلس فيه نساء وكانت احداهن تكثر الضحك

فالتفت بشار الى جاره وقال له : أرأيت فلانة هذه ؟ ألست تراها حسنة الأسنان ؟ ؟ فقال له جاره ويحك ! وكيف عرفت هذا ؟ ؟ قال انما تكثر من الضحك دون صويحباتها لتبدي جمال ثناياها !

وكان أنزه ما يتغنى به بشار من محاسن النساء الحديث والسمر ، وكان يحب أحاديثهن ويكرر وصفها ويفتن في تجميلها والترنم بها . وهي أبعد لذاته من المحسوسات وأقربها الى المعنويات . ومن قوله في ذلك :

وحديث كأنه قطع الرو   ض وفيه الصفراء والحمراء

ومنه :

ودعجاء المحاجر من معد   كأن حديثها ثمر الجنان

ومنه :

ولها مبسم كثغر الاقاحي   وحديث كالوشي وشي البرود

ومنه :

وكأن رجع حديثها   قطع الرياض كسين زهرا
وكأن تحت لسانها   هاروت ينفث فيه سحرا

ومنه :

لقد عشقت أذني كلاماً سمعته   رخيماً وقلبي للمليحة أعشق

ومنه :

واني ليجري بيننا حين نلتقي   حديث له وشي كوشي المطارف

ومنه :

وبكر كنوار الرياض حديثها ، تروق بوجه واضح وكلام

ولكنك ترى من هذا الشغف بحديث المرأة انه كان يسمع منه ويرى في وقت معاً ، وانه كان يشرك فيه حاستين بحظ حاسة واحدة ، ويصغي اليه أصواتاً مسموعة ثم يتصوره ألواناً منظورة فيها الصفراء والحمراء وأصباغ المطارف والأزهار والثمار ، لأنه — كما قلنا — كان يصرف الخيال الى استيفاء ما فاته من حظ البصر ويتمم على هذا النحو ما يقصر عنه اللمس والشم والسماع

***

وقد كان أناس في عصر بشار يعجبون لتشبيبه بالنساء وميله الى مجالسهن ويخيل اليهم أن من فقد البصر فقد معه أداة الغزل وسببَ استحسان المرأة واستوت عنده جميع النساء في كل شيء. وليس العجب إلا أنهم يعجبون من غزل الأعمى ويحرمونه الطبيعة الانسانية لأنه حرم الاحساس بعينيه ، إذ ليس بصر العينين إلا رائداً للنفس إلى اختيار شكل من أشكال « المرأة » وترجيح صفات منها على صفات أخرى ولكنه لا يوجد الاشكال والصفات ولا يخلق الميل بين الرجال عامة والنساء عامة ، وليس هو بعدُ بالوسيلة التي لا وسيلة غيرها للاختيار والترجيح . ولبشار أقوال شتى في تفنيد لوم اللائمين لا نخال أحداً من الشعراء قال أصدق منها ولا أبلغ في تعليل

عشق العميان بل المبصرين من بعض الوجوه ، ونجتزىء منها بقوله :

وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الاذنان إلا من القلب
وما الحسن إلا كل حسن دعا الصبا
وألف بين العشق والعاشق الصب

وقوله :

يا قوم أذني لبعض الحي عاشقة والأذن تعشق قبل العين أحياناً
قالوا بمن لا ترى تهذي فقلت لهم الأذن كالعين توفى القلب ما كانا

وليس هذا الكلام من قبيل « حسن التعليل » الذي أغرم به البيانيون ولكنه هو التعليل الصحيح الذي نعرف مصداقه في جميع العاشقين والمعشوقين سواء منهم المكفوفون والمبصرون ، فما اكثر ذوي الأبصار الذين يسلطون قلوبهم على عيونهم وأسماعهم وعقولهم فلا تبصر إلا ما تراه ولا تسمع إلا ما توده ولا تعقل إلا ما تشتهيه وتتمناه ! فاذا هم أحجى من المكفوفين بتصديق حكمة بشار :

وما تبصر العينان في موضع الهوى
ولا تسمع الاذنان إلا من القلب

***

ان العشق شوق من انسان إلى إنسان آخر قائم على اختلاف الجنسين ، أو هو في الحقيقة قائم على اختلاف الصفات التي يمثلها كل

من الجنسين ويتمم بها كلاهما ما ينقص الآخر . وهذا الاختلاف بين الذكورة والأنوثة عريق في طبائع الأشياء أحسب أن المادة نفسها لا تخلو منه وأن انقسام الذرات الدقيقة إلى كهارب موجبة وكهارب سالبة إن هو إلا ضرب من « الجنسية » الاولى التي تدعو الى التآلف بين جميع الأجسام . فاذا تركنا تقسيم الأحياء إلى ذكور وإناث وقلنا في موضع ذلك التقسيم أن الاشياء كلها ترجع الى طبيعتين احداهما فاعلة مؤثرة والأخرى قابلة متأثرة — ففي وسعنا أن نقول حينئذ أن الذكورة والأنوثة شائعة في جميع الكائنات ابتداء من الموجب والسالب وانتهاء الى الرجل والمرأة ، وجاز لنا أن نقول ان من صفات الذكورة ما يوجد أحياناً في النساء كما ان من صفات الانوثة ما يوجد أحياناً في الرجال ، وسواء أنظرنا في الاختلاف بين الرجل والمرأة الى الخصال الجسدية أم الى الخصال الأدبيـة فأول ما يظهر لنا انه اختلاف بين صفات فاعلة مؤثرة تبدو في العزيمة والبأس والصلابة والعمل والغلبة وصفات قابلة متأثرة تبدو في الصبر والحنو والعطف والنعومة والتسليم ، فطبائع الرجل مبتدئة نافذة وطبائع المرأة ملبية قابلة ، والعشق بينهما هو الشوق الذي يجمع بين طبيعتين تسكن كل منهما إلى الأخرى ولا تتم وتهدأ إلا بالارتياح اليها

وقد كان بشار من أحس الناس بالأنوثة الجسدية وأرغبهم في الاتصال بها والاستراحة اليها والاستماع إلى حديثها ، وكان في كثير

من غزله يمثل المرأة « مؤنثة » متكسرة باكية تلين لشدة الرجولة وخشونتها وتستعذب الخضوع لسطوتها وأثرتها . فانظر الى قصيدته التي أوردناها في الفصل السابق والتي يقول منها :

أذرت الدمع وقالت ويلتي   من ولوع الكف ركاب الخطر
أمتي بدد هذا لعبي   ووشاحي حله حتى انتثر
فدعيني معه يا أمتي :   . . . .
أقبلت في خلوة تضربها   واعتراها كجنون مستعر
بأبي والله ما أحسنه   دمع عين غسل الكحل قطر

أو قصيدته الأخرى التي يقول منها :

واسترخت الكف للعراك وقا   لت إيه عني والدمع منحدر
انهض فما أنت كالذي زعموا   أنت وربي مغازل أشر
يا رب خذلي فقد ترى ضرعي   من فاسق جاء ما به سكر
أهوى الى معضدي فرضضه   ذو قوة ما يطاق مقتدر
الصق بي لحية له خشنت   ذات سواد كأنها الأبر

الخ الخ

فانك ترى في هذه الأبيات رجلاً حيواناً يصبو الى المرأة الحيوان وجسداً مذكراً يشتاق الى جسد مؤنث يجاوب طبعه ويرضي أثرته . فلم تكن به من حاجة إلى النظر بالعين والتفريق بين هيئات

النساء لأنه خلص من جسد المرأة الشاخص للعيان الي انوثتها وطراوة طبعها ، ونقل الى هذا الشعور بها كل لذات النظر ومحاسن المشاهدة

فهو يفهم « الانثى الجسد » ذلك الفهم الخليق بطبيعته الحيوانية ولذاته الحسية ولكنك لا تقرأ له بيتاً واحداً يسمو به الى ادراك « النفس » الأنثوية وما فيها من حلاوة صافية ورحمة سماوية وكنوز عطف تغذي بها وجدان الرجل وترضعه بها روح الحياة طفلاً كبيراً كما أرضعته من قبل وهو طفل صغير . ذلك ضرب من الغزل لا تقرأه في شعر بشار وأمثاله ولا تجده في الشعر العربي إلا أبياتاً متناثرة في مئات الدواوين ومعاني هائمة بين قصائد العذريين





٣
بشار والهجاء

كان أول ما نظم بشار من فنون الشعر الهجاء . قيل انه نظمه وهو في السابعة وإنه كان يهجو الناس فيشكونه الى أبيه فيضربه ضرباً مبرحاً فلا ينتهي ويقول لأبيه « أن هذا الذي يشكونه اليك مني هو قول الشعر واني ان أتممت عليه أغنيتك وسائر أهلي » !

وكان آخر ما روي له من الشعر الهجاء . فقد اقذع في ثلب الخليفة المهدي فوشي به الوزير يعقوب بن داود لحقده عليه ، فما زالوا يتعللون له حتى سمعوه يؤذن وهو سكران في غير أوان الاذان فضربوه حتى أشرف على التلف ومات من ألم الضرب ، فهو قد أصاب بالهجاء وأصيب به من مطلع حياته الى خاتمتها ، ولكنه مع هذا لم يكن هجاء مطبوعاً ولا كان هذا الباب من الشعر مجاله الذي برز فيه بين الشعراء

وأريد بالهجاء المطبوع ذلك الشاعر الذي يولد بفطرته ناقماً

هاجياً لا يرضي عن شيء ، ولا يستريح الى مدح أحد ولا يكف عن النقـد والعيب ، كلفاً بهما واندفاعاً اليهما لا جلباً لـكسب أو درءاً لمساءة . أو ذلك الشاعر الذي أوتي من الفطنة وسعة المخيلة واستعداد الطبع ما يفتح له معاني الهجاء إذا أراده ناقماً أو غير ناقم ومعتمداً ما يقول أو عابثاً فيه . ولست أعرف في الأدب العربي غير شاعرين اثنين نابهين بهـذه الصفة هما : دعبل بن علي الخزاعي ، وعلي بن العباس « ابن الرومي »

أما دعبل فقد كان صاحب طبيعة من تلك الطبائع النابية النافرة التي تخرج على « المجتمع » وتثور به ولا تزال في حرب معـه لا مسالمة فيها ولا مهادنة إلى أن يواريها الموت في ثراه ، وكان غاضباً أبداً على الناس ينكر عرفهم ويشذ على اجماعهم ويهجو أفرادهم بأسمائهم وهو انما يهجو الناس جميعاً في أشخاص اولئك الافراد . وهو القائل

إني لافتح عيني حين أفتحها على كثير ولكن لا أرى أحداً !!

وكان يهيم على رأسه في البلاد سنين عدة تنقطع فيها أخباره وتخفى آثاره ثم يظهر حيث كان فجأةً وقد أثرى وغنم ليبدد ما جمعه في اللهو والقصف ثم ينقلب الى شأنه من الاباق والتطواف في ارجاء الارض ، وربما لقي الشراة أو قطاع الطريق في بعض رحلاته فيجالسهم ويؤاكلهم ويأمر غلاميه أن يغنيا لهم ويعرفهم ويعرفونه

فلا يمسونه بأذى ولا يذكرهم بسوء ، لأنهم أبناء نحلة واحدة يؤلف شملهم النفور من الناس ويوفق بينهم الشذوذ عما تواضعوا عليه من الآداب والدساتير . فهو قاطع طريق بفطرته التي ولد عليها وان لم يحمل السيف ولم يخرج للفتك والغيلة ، بل لقد قيل أنه قطع الطريق في بعض أيامه فعلا « وانه كان يكمن للناس بالليل فرصد يوماً صيرفيًا طمعاً بما معه ففتك به ولم يجد في كمه إلا ثلاث رمانات في خرقة فخرج هاربا من الكوفة لاشتداد الطلب عليه » وما كان هجوه لو بحثت في أسبابه الا ضرباً من قطع الطريق على الناس اشتهاء في أكثر الاحيان للذة الصيد والقنص ونزوة المطاردة والتخويف لا طمعاً في المال أو طلباً للترات . فما اتفق الناس على امام إلا هجاه وألح في هجائه وان أحسن اليه واجزل له العطاء . ولا ترك أميراً ولا وزيراً ولا والياً إلا ناله بلسانه عرضاً أو قصداً ولو كان من أبناء قبيلته ومن خاصة المفضلين عليه ، فلما مات الرشيد ودفن بطوس الى جوار قبر الرضا قال فيه :

قبران في طوس خير الناس كلهم — وقبر شرهم . هـذا من العبر
ما يُنفع الرجس من قرب الزكي ولا — على الزكي بقرب الرجس من ضرر

وقال في المأمون

أيسومني المأمون خطة جاهل — أو ما رأى بالامس رأس محمد
اني من القوم الذين سيوفهم — قتلت أخاك وشرفتك بمقعد

شادوا بذكرك بعد طول خموله واستنقذوك من الحضيض الاوهد

ولما نهض ابراهيم بن المهدي للخلافة — وكان عاكفاً على الغناء — قال يتهكم به وباجناده .

يا معشر الاجناد لا تقنطوا وارضوا بما كان ولا تسخطوا
فسوف تعطون حنينية يلتذها الامرد والاشمط
والمعبديات لقوادكم لا تدخل الكيس ولا تربط
وهكذا يرزق قواده خليفة مصحفة البربط

وقال في المعتصم :

وقام أمام لم يكن ذا هداية فليس له دين وليس له لب
وما كانت الانباء تأتي بمثله يُملّك يوماً أو تدين له العرب
ولكن كما قال الذين تتابعوا من السلف الماضين إذ عظم الخطب
ملوك بني العباس في الكتب سبعة ولم تأتنا عن ثامن لهم الكتب
كذلك أهل الكهف فى الكهف سبعة خيار إذا عدوا وثامنهم كلب
واني لأعلي كلبهم عنك رتبة لأنك ذو ذنب وليس له ذنب

وجاءه نعي المعتصم وقيام الواثق فارتجل هذين البيتين

الحمد لله لا صبر ولا جلد ولا عزاء اذا أهل البلى رقدوا
خليفة مات لم يحزن له أحد وآخر قام لم يفرح به أحد

وقال في المتوكل :

ولست بقائل قذعا ولكن لأمر ما تعبدك العبيد !

وهذا هجاؤه للخلفاء واحداً بعـد واحد ، أما الوزراء والولاة والقواد فكان كأنما يجترىء عليهم ويولع بهم على قدر ما عرفوا به من الغضب والسطوة وحدة الخلق . فكان المأمون يقول : أترون رجلاً يجترىء علي أبي عباد ولا يجترىء علي ؟؟ وأبو عباد هذا هو الذي يقول فيه دعبل :

اولي الأمور بضيعة وفساد أمر يدبره أبو عبـاد

. . . .

وكأنه من دير هرقل مفلت حرد يجر سلاسل الأقياد

وهو رجل « حديد جاهل » كما وصفه مولاه المأمون

وقد روجع دعبل في هذه الاهاجي التي كان يقتحم بها غضب الملوك والأمراء وأخطار العداوات وأحن الصدور فكان يقول : « أنا أحمل خشبتي على كتفي منـذ خمسين سنة لست أجد أحداً يصلبني عليها » وقال له أبو خالد الخزاعي الاسلمي : « ويحك ! قد هجوت الخلفاء والوزراء والقواد ووترت الناس جميعاً فأنت دهرك كله شريد طريد هارب خائف ، فـلو كففت عن هذا صرفت هذ الشر عن نفسك ! فقال ويحك ، أني تأملت ما تقول فوجدت أكثر الناس لا ينتفع بهم الاعلى الرهبة ولا يبالي بالشاعر وأن كان مجيداً اذا لم يخف شره . ولمن يتقيك على عرضه أكثر ممن يرغب اليك في تشريفه ، وعيوب الناس أكثر من محاسنهم ، وليس كل

من شرفته شرف ولا كل من وصفته بالجود والمجد والشجاعة — ولم يكن ذلك فيه — انتفع بقولك . فاذا رآك قد أوجعت عرض غيره وفضحته اتقاك على نفسه وخاف من مثل ما جرى على الآخر ! »

وهذا كلام يقبله العقل من حيث ينظر اليه دعبل ، ولكنه قد أخطأ طبعه ولم يعرف نفسه إن كان قد ظن أنه هجا من هجاهم لهذه العلل التي انتحلها وأودعها فلسفة الهجاء العربي كله ! فانه لم يُعف من الذم مسيئاً ولا محسناً ولم يبق من وجوه عصره على بخيل ولا كريم، فلم يكن قدحه في المطلب بن عبد الله بن مالك الذي ولاه ولاية أسوان ووهبه الجزيل من الهبات دون قدحه في الوزراء والولاة الذين حرموه وتعقبوه لأنه بدأهم بالذم والتشهير ، مع أن المطلب بن عبد الله من خزاعة التي هو منها ، فهو يمت اليه بصله من القرابة وصله من الاحسان ويستشفع اليه بكل شفاعة تنجيه من ذلك اللسان ، ولكنه هكذا خلق هاجياً مطبوعاً لا يأوي الى الناس ولا يكف عن ذمهم والعيب عليهم ولو غمرته الثروة وبات أغنى الخلق عن عطاء الممدوحين والمذمومين ، وكان كثيراً ما يعرض بأصحابه في الهجاء لغير علة يعرفونها كما قال وهو يهجو ابن أبي دؤاد

ولو سكت ولم تخطب الى عرب لما نشبت الذي تطويه من سببك
عد البيوت التي ترضي بخطبتها تجد فزارة العكلي من عربك

فلقيه فزارة العكلي وقال له : يا أبا علي ! ما حملك على ذكري

حتى فضحتني وأنا صديقك قال : يا أخي والله ما اعتمدتك بمكروه . ولـكن كذا جاءني الشعر لبلاء صبه الله عز وجل عليك ! ومن هذا أنه هجا أبا نصر بن جعفر بن محمد بن الاشعث فقال فيه :

ما جعفر بن محمد بن الاشعث　　عندي بخير أبوة من عثعث !

فلقيه عثعث وقال له : « عليك لعنة الله ! أي شيء كان بيني وبينك حتى ضربت بي المثل في خسة الآباء ؟ » فضحك وقال « لا شيء والله الا اتفاق اسمك واسم ابن الاشعث في القافية ! أو لا ترضي أن أجعل أباك وهو اسود خيراً من آباء الاشعث بن قيس ؟! »

وكانت في دعبل تلك الدعابة التي تجـدها في هؤلاء الناقمين المتبرمين الذين تضيق صدورهم وينفد صبرهم فيضحكون بالناس ويضحكون الناس منهم . وكان قوم من خزاعة يدعون أن جدهم كلم الذئب وانه جاء الى النبي عليـه الصلاه والسلام « فحدثه أن الذئب أخـذ من غنمه شاة فتبعه فلما غشيه بالسيف قال له : مالي ومالك تمنعني رزق الله ؟ قال : فقلت يا عجبا لذئب يتكلم . . ! فقال أعجب منه أن محمداً نبي قد بعث بين أظهركم وأنتم لا تتبعونه !! فبنوه يفخرون بتكليم الذئب جدهم » فـكبرت هذه الحماقة على صبر دعبل وضاق بهذه الدعوى فقال يهجوهم

تهتم علينا بأن الذئب كلمكم !　　فقد لعمري أبوكم كلم الذيبا

فـكيف لو كلم الليث الهصور اذن　　أفنيتم الناس مأكولا ومشروبا

هذا السنيدي لا فضل ولا حسب　　　يكلم الفيـــل تصعيداً وتصويبا

ومن دأب أصحاب هذه الطبائع النافرة الملول أنها تنفس عن نفسها بشيئين : بهذه الدعابة التي تخفف مرارة الجد وترقق حواشي البغضاء ، وبالعقيدة التي يتخذونها من قوة ما يجيش بقلوبهم من السخط والكراهية . والعقيدة سواء أكان منشؤها الحب أم البغض انمـا تقوم بأمل يحييها ويثبتها ويعينها على حبها او بغضائهـا . فما كان من السهل على دعبل — أو أي انسان مثـله — أن يسخط على الناس ويهجوهم وينكر جميع حالاتهم بغـير أمل يتوق اليه ويصب عليه كل ما في نفسه من قوة الشعور النافر والعطف المعكوس ، فمن لم يؤمن بشيء لم يثابر على حب ولا على بغض ولم يصبر على رضى ولا على نقمة . ومن أضاع الامل أضاع الايمان ثم أضاع الشعور بنوعيه من خير وشر ومن حدب ونفور . وكذلك من أضاع الشعور فقد فتر أمله وتراخى جلده وسدت دونه منافذ الايمان

ولـكن دعبلا كان رجلا شديد الشعور بالنقمة فلم يفتر ايمانه وانعقدت هذه الشدة في نفسه على التعصب لآل البيت من العلويين والامل في انتصارهم وظهور أمرهم وغلبتهم على أعدائهم ، وجمع نقمته على « المجتمع » كلها في كراهة من يكرهون العلويين ويغصبون حقهم ويقعدون عن نصرتهم . وخيل اليه أنه لم يكن ينبو بالناس الا لأنهم أجحفوا بآل البيت وخذلوهم ومالأوا عليهم أعداءهم ، والحقيقة أنه لم

يتعصب لآل البيت الا لأنه كان ينبو بالناس ويجد في اعتقاد الظلم الذي حاق بآل البيت معواناً له على كراهة الظالمين والسخط عليهم والشوق الدائم الى تبديل حالهم . ولو أفلح هؤلاء المظلومون في أيام دعبل لرأينا أن ذلك السخط على « المجتمع » لم يذهب من نفسه ولم يلطف من نزوة الهجو التي في طبعه ، ولسمعنا له في هجائهم مثل ما سمعنا من هجائه لظالميهم ، فهو « هجاء مطبوع » قد ولد ليذم ويبغض ويصل الى المدح والحب من طريق الذم والبغضاء ، وهو في تكوينه كله قصيدة هجاء حية تلقي الناس أبداً بالتجهم والعبث والشذوذ

* * *

أما ابن الرومي فلم يكن مطبوعا على النفرة من الناس ولم يكن قاطع طريق على « المجتمع » في عالم الادب ، ولكنه كان « فناناً » بارعاً أوتي ملكة التصوير ولطف التخيل والتوليد وبراعة اللعب بالمعاني والاشكال ، فاذا قصد أحداً أو شيئاً بهجاء صوب اليه « مصورته » الواعية فاذا ذلك الاحد أو الشيء صورة مهيأة في الشعر تهجو نفسها بنفسها وتعرض للنظر مواطن النقص من صفحتها كما تنطبع الاشكال في المرايا المعقوفة والمحدبة ، فكل هجوه تصوير مستحضر لاشكاله أو لعب بالمعاني على حساب من يستثيره . كقوله في هجو صاحب لحية طويلة

وليحة يحملها مائق   مثل الشراعين – اذا أشرعا
لو قابل الريح بها مرة   لم ينبعث في خطوه أصبعا
أو غاص في البحر بها غوصة   صاد بها حيتانه أجمعا

وفي آخر :

ان تطل لحية عليك وتعرض   فالمخالي معروفة للحمير
علق الله في عذاريك مخلا   ة ولكنها بغير شعير !
لو غداً حكمها اليّ لطارت   في مهب الرياح كل مطير

وفي مغنية :

تضغط اللحن الذي تشدو به   غصةٌ في حلقها معترضة
فأذا غنت بدا في جيدها   كل عرق مثل بيت الارضة

وفي أصلع :

ووجه يأخذ من رأسه   أخذ نهار الضيف من ليله

وفي أحدب :

قصرت أخادعه وطال قذاله   فكأنه متربص أن يصفعا
وكأنما صفعت قفاه مرة   وأحس ثانية لها فتجمعا

وفي قصير أعور أصلع :

أقصرٌ وعورٌ   وصلع في واحد ؟
شواهد مقبولة   ناهيك من شواهد
تخبرنا عن رجل   مستعمل المقافد

أقمـأه القفد فأضحى قائماً كقاعد

وفي مغن معلم صبيان :

أبو سليمان لا ترضى طريقته لا في غناء ولا تعليم صبيان
له اذا جاوب الطنبور محتفلاً صوت بمصر وضرب في خراسان
عواء كلب على أوتار مندفة في قبح قرد وفي استكبار هامان
وتحسب العين فكيه اذا اختلفا عند التنغم فكي بغل طحان !

وفي طويل الأنف :

واذا نهضت كبا بوجهك للجبين المعطس
ان كان أنفك هكذا فالفيل عندك أفطس
واذا جلست على الطريق ولا أرى لك تجلس
قيل السـلام عليكما فتجيب أنت ويخرس

وفي ثقيل :

كأن بغداد لدن أبصرت طلعته نائحة تلتدم
مستقبل منـه ومستـدبر وجـه بخيل وقفا منهزم

وفي طيلسان :

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا يتجنى على الرياح الذنوبا
طيلسان اذا تنفست فيه صاح يشكوا الصبا ويشكو الجنوبا
تتغنى احدى نواحيه صوتاً فتشق الاخرى عليه الجيوبا
فأذا ما عذلته قال مهلاً ! لن يكون الكريم الا طروباً

وفي وجهه هو

أهيم بالخرد الحسان وما يصـ ـلح وجهي إلا الذي ورع
كي يعبد الله في الفلاة ولا يشـ ـهد فيهـا محافل الجمع

وهكذا وهكذا مما ازدحم به هجوه ومدحه ووصفه وعامة شعره من هذه الاشكال السهلة الصحيحة التي تكاد تسلـكه في عداد الرسامين كما سلكه نظمه في عداد الشعراء . فلو نقل المصور ديوانه بريشته لملأ به مجلدات ضخاماً من خير ما تستنبطه القريحة الفنية من صور الهزل والجـد ومعاني التهجين والتحسين . ومثل هذا الشاعر يهجو حيث شـاء بأداته الحاضرة كالرسام الذي يحمل « مصورته الشمسية » ليلتقط بها المناظر التى تروقه وتسترعيه أينما كان

* * *

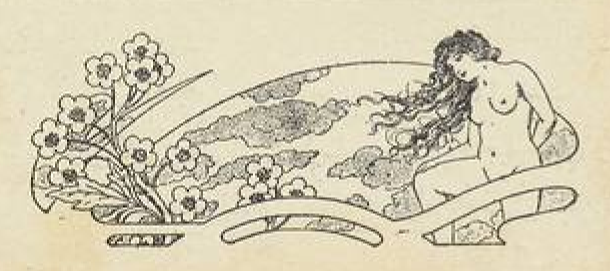
أما بشار فلا هو من طراز دعبل ولا هو من طراز ابن الرومي ، لم يكن عنده من مرارة الخلق وحدّة العقيدة ما يقيم حربه على الناس فيهجوهم صادقاً في شعور الحفيظة عليهم وان أخطأه الصدق فيما ينعتهم به من المساوىء والعيوب ، ولم تكن له أداة ابن الرومي من ملكة التصوير المطبوعة التي لا تخذله فى مواقف التمثيل والتشويه . ولـكنه كان رجلا يحب المجتمع وينغمس فيـه . وكان هجاء كل بضاعته من الهجاء أن يجمع أقبح العيوب وأشين الرذائل التي تزري بصاحبها فيقذف بها على من يهجوه ويصوغها شعراً تسهل روايته

وتتقي معرة انتشاره ، فاذا هو هجاء لا عمل فيه لقريحة الشاعر غير نظم الكلمات وجمع العيوب ! وكلما أعوزته البراعة وصدق الشعور بالغ في الاقذاع وأفحش فى الهجروجاء بكلام لايصلح منه للنقل في الصحف والكتب المهذبة إلا القليل الذي لا طعم له ، وما كان ليخيف الناس لو لا شناعة المثالب التي يلصقها بهم وخبث الدعاوي التي يفتريهـا عليهم ، أما قدرته على التصرف في معاني النقد وفنون الهجو فلم تظهر في شيء من شعره الذي تخلف في الكتب ولا نظنها ظهرت في شعره المفقود وحده ثم لم يبق لها أثر يدل عليها في هذه البقية المحفوظة .

وانما أ كثر بشار من الهجو على قلة أدواته عنده وضعف سليقته فيه لاسباب شتى دعاه اليها عصره وميل نفسه وحالة معيشته : منها أنه أدرك الشعراء الهجائين فى صـدر الدوله الأموية وسمع روايات الناس عن مناقضاتهم ومباهلاتهم وعرف هوى الرواة في حفظ مساجلاتهم ورغبة الامراء والولاه في التحريش بينهم ، فأحب أن يقتدي بهم لينبه ذ كره وينقل شعره وروي عنه انه قال : « هجوت جريراً فأعرض عني واستصغرني ولو أجابني لكنت أشعر الناس . ! »

ومنها أن الهجاء كان باباً من أوسع أبواب الكسب في ذلك الزمان ، وهو كان يقول اذا ذ كرت له كثرة أهاجيه « إني وجدت الهجاء المؤلم آخذ بضبع الشاعر من المديح الرائع . ومن أراد من الشعر أن يكرم في دهر اللئام على المديح فليستعد للفقر وإلا فليبالغ في الهجاء

ليخاف فيعطى » . ومنها ان الهجاء كان في عصره كالامتحان للشعراء المتنافسين يكون أقدرهم وأبلغهم في رأي الناس من يفحم خصمه ويسير على الألسنة نقده وذمه . فأذا كثر الشعراء في بيئة واحدة حول مرتزق واحد فلا ندحة لهم عن التهاجي والتباهل ليعرف أيهم أمضى لسانًا واكثر افتنانًا وأجدر بأن يمنح ويتقي وأن يحفظ كلامه ويروي ، ومنها ان الايقاع بين الشعراء كان من لذة بعض الأمراء والولاة ليلهوا بالتغاير بينهم والاستماع الى نوادرهم وأهاجيهم على نحو مما كان معروفًا شائعًا في مصر الى حين قريب من الايقاع بين المجان والخلعاء في ليالي الافراح والمواسم ، ومنها أن بشارًا كان أحوج الشعراء الى أن يخافه الناس ويسكتوا عنه ويحذروا الاستخفاف بشأنه ، وكان سليطًا لا يستحي ولا يخشى على عرضه ولا على أعراض الناس فلم يكن يمنعه من الوقوع فيهم مانع ولا يتكلف في ذلك منازعة نفس أو مصاداة لائم . فقد تمت له بذلك أسباب الميل الى الهجاء والاكثار منه وان لم تتم له فيه سليقة مسعدة وملكة مجيدة





مثل من التصوير في شعر

ابن الرومى

علاقتـه بطيرته

أشرت الى ملكة التصوير في هجو ابن الرومي وسائر شعره ، وقلت في مقدمة مختاراته انه « ينظر الى الأشياء بعين مصور صناع لا يفوتها لون من الالوان التي تنسجها خيوط الشمس في ائتلاف أو اختلاف وفي سطوع أو خفوت ، فاذا أضفت الى ذلك مقدرته في تصوير الحدب والصلع والقصار وأصحاب اللحى الكثيفة والأنوف الغليظة أمكنك أن تقول أيضاً : ولا يفوتها شكل من الاشكال . فهو فنان لا تنقصه إلا الريشة واللوحة بل لا تنقصه هاتان لأنه استعاض عن الريشة بالقلم وعن اللوحة بالقرطاس . فاكتفى بهما وأثبت في النظم البديع ما لا تثبته الألوان والأشكال »

وقد استشهدت بابن الرومي في هذه الخصلة لان ملكة

التصوير الصادق أظهر ما تكون في شعره بين عامة شعراء العرب من المشارقة والمغاربة والأقدمين والمحدثين ، ولا أعرف شاعراً يسبقه في هذه الخصلة البارزة المتجلية على غير قصدٍ في كلامه الجيد والرديء على السواء ، والتي أحسبه من أجلها قد خُلق على فطرة المصور وطبع على الاتقان في صناعة الرسم لو ساعفته أسبابها وأملت له البيئة في دواعيها . فلو انه نبغ في أمة تروج فيها هذه الصناعة لشهدنا من آثار ريشته مثل مانشهد الآن من آثار لسانه ولضارع المصور منه الشاعر ان لم يفقه ويغمره بالشهرة والاتقان .

وليست ملكة التصوير غريبة عن الشعر . فان النفس الفنية جبلة واحدة تختلف ما تختلف ولكنها تتفق في المعدن الأصيل الذي يجمع بينها عند دقة الاحساس وحب الجمال ، وهي انما تختلف من ناحية « الحاسة » التي تُبلّغها رسائل الجمال والوسيلة التي تعبر بها عما يخامرها من إلهاماته وخواطره . فالشاعر لا يخلو من ملكة الألوان والأشكال والفطنة الى الحركات والأنغام ، والمصور لا يخلو من معاني الشعر واصداء النغم التي تراها العين معكوسة على صور الاشياء ، والموسيقي لا يخلو من السرور بمحاسن المناظر والمعاني التي يترجم عنها في أصواته والحانه ، وكلهم – لو أمكننا أن نتخيل قرائحهم بمعزل عن الأبصار والأسماع والأيدي والألسنة – أسرة من التوائم لا تعرف الواحد منها إلا حين يرتدي علامته من اللباس !

أما ابن الرومي فقد كانت الملكتان فيه — الشعر والتصوير — متقاربتين أيما تقارب ممزوجتين أيما امتزاج ، وكان لا يعجب بشيء إلا وللملكة المصور نصيب من ذلك الاعجاب ، ولا يشتهي شيئاً إلا وللنظر حظ منـه حتى الطعام ! ولقد شهروه بالنهم لكثرة وصف الطعام في شعره ولكني أراه منهوماً بحواسه ومذاوقه — و بالنظر منها على التخصيص — أكثر مما أراه منهوماً بمعدته وأحشائه

فانظر الى قوله في الأكلة التي يشتهيها

خذ يا مريد المأكل اللذيذ — جرداقتي خبز من السميذ

لم تر عين ناظر مثليهما — فقشر الحرفين عن وجهيهما

. . . .

حتى ترى بينهما مثل اللبن — مقسومة كأنها وشي اليمن

واعمد الى البيض السليق الاحمر — فدرهم الوسـط به ودنر

وترب الاسطر بالملح ولا — تكثر ولكن قدراً معتدلا

وردد العينين فيـه لحظا — فان للعينـين منـه حظا

ومتع العين به مليا — واطبق الخـبز وكل هنيا

أو انظر الى قوله في « الزلابية »

رأيتـه سحراً يقلي زلابيـة — في رقة القشر والتجويف كالقصب

كأنما زينة المقلي حين بدا
كالكيمياء التي قالوا ولم تصب
يلقي العجين لجيناً من أنامله
فيستحيل شبابيكا من الذهب

أو قوله في الرقاق :

ما بين رؤيتها في كفه كرة — وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة — في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

بل انظر الى كل ما قاله في أوصاف الطعام تجد نهم النظر والذوق منه أشد من نهم المعدة والاحشاء ، وسرور المصور فيه حاضراً عند كل سرور يتملاه وكل لذة يشتاق اليها . وهذه هي الملكة الشاعرة المصورة الشفافة التي تحدثك عن شعور وحياة في أجد الجد وأهزل الهزل بلا اختلاف بين الموضوعات والاطوار

وقد أحببت أن أورد له في هذا المقال نخباً من قصيدة واحدة في المدح أبين بها الفرق بين الشاعر الذي ينظم ويقلد ولا ينظر والشاعر الذي يستوحي نفسه وينظر الى الدنيا حتى في قصائد المدح التي نعدها أخلى الكلام من أغراض الشعر ومعاني الحس وبدائع النظر الفنان ، ولو شئت لأتيت على عشرات من مدائحه كلها تصلح للاستشهاد بها في هذا السياق ، ولكني أنقل ما يتسع

له المقام وأعني النونية التي قالها في تهنئة عبيد الله بن عبد الله يوم المهرجان . وهذه بعض أبياتها على غير اطراد :

مهرجان كأنما صورته　　كيف شاءت مخيرات الاماني
واديل السرور واللهو فيه　　من جميع الهموم والاحزان
لبست فيه حفل زينتها الدنـ　　ـيا وزافت بمنظر فتان
واذالت من وشيها كل برد　　كان قدماً تصونه في الصوان

***

زُخرفت يوم نعمه حجرات　　جِدّ موطوءة من الضيفان
ونراءت بها تهاويل رقم　　قائمات بزينة المزدان
ثم قام الكماة صفين من كـ　　ـل عظيم في قومه مرزبان
كلهم مطرق الى الارض مغض　　وعلى سيفه هنالك حان
وتجلى على السرير جبين　　ذو شعاع يحول دون العيان
يمكن العين لحظة ثم ينهي　　طرفها عن ادامة اللحظان
فله منه حاجب قد حماه　　كلَّ عين ترومه بامتهان
فاستوى فوق عرشه بوقار　　وبحلم من الحلوم الرزان
ثم قام الممجدون مثولاً　　ضاربين الصدور بالاذقان
ليس من كبرياء فيه ولكن　　كلُّ وجه لذلك الوجه عان
فثنوا سؤدد الامير وعدوا　　فيه آلاءه بكل لسان
وقضوا من مقالهم ما قضوه　　ثم آبوا بالرفد والحملان

***

ثم سام الامير سومَ الملاهي وخلا بالمدام والنـدمان
وقيـان كأنهـا امهات عاطفات على بنيهـا حوان
مطفلات وما حملن جنيناً مرضعات ولسن ذات لبـان
ملقمات أطفـالهن ثديًا ناهـداتٍ كأحسن الرمان
مفعمات كأنها حافلات وهي صفر من درة الالبان
كل طفل يدعى باسماء شتى بين عود ومزهر وكران
أمّه دهرها تترجم عنـه وهو بادي الغنى عن الترجمان
أوتي الحكم والبيـان صبيًا مثل عيسى بن مريم ذي الحنان
لو تَسلى به حديثـةُ رزء لشـفى داء صدرها الحران
عجبًا منـه كيف يسلي ويلهي مع تهييـجه على الاشجان
فترى في الذي يصيخ اليـه أمرات المحزون والجذلان
وتغنته بالمـدائح فيـه كل غيداء غادة مفتـان
ذات صوت تهزه كيف شاءت مثل ما هزت الصبا غصن بان
يتثنى فينفض الطل عنـه في تثنيـه مثل حب الجمان
جهوري بلا جفاء على السـ ـمع مشوب بغنـة الغزلان

فتأمل هذه الأبيات هل ترى فيها إلا صوراً تتوالى عليك بالمناظر التي تبصرها العين والخواطر التي تتلقاها النفس والحركات التي تؤلف بين ما ترى وما تحس تأليف الشريط المتحرك لما انطبع

عليه من الاشكال والفصول ؟ وتأمل الشاعر هل تراه في قصيدته إلا كالرسام الذي بسط أمامه لوحته وأقبل على الوجوه والأشكال يتفرسها ويطيل النظر في ملامحها وشاراتها وما تشف عنه من المعاني وتشير اليه من الدلائل ويراقبها في التفاتاتها ومواقفها وحركاتها لينثني بعد ذلك الى لوحته فيثبت عليها ما توارد على بصره وقريحته من الالوان والمعارف والهيئات من حيث هي تحفة فنية تستهوي الحواس والاذواق ! ؟ فهو يبدأ برسم زينة المهرجان واختيال الدنيا بمنظرها فيه وبرود الوشي التي أذالتها للناظرين واللهو والسرور الذي شمل كل شيء وأديل له من جميع الهموم والاحزان ، ثم يرسم حجرات الأمير بزخارفها وتهاويلها وقيام الكماة فيها صفاً بعد صف مطرقين الى الأرض مغضين بالأبصار حانين على السيوف ، ثم يرسم الامير على سريره وقد طلع على الجمع بوجه مهيب يمكن العين منهُ لحظة ثم ينهاها عن ادامة اللحظان فيهِ ، وعليهِ وقار الامارة وسمات الحلم والرزانة بين قوم يعنون له ويجلون قدره من الحب والتبجيل لا من الصلف والكبرياء ؛ ثم يرسم المادحين بين يديهِ يرتلون عليه الثناء « ضاربين الصدور بالاذقان » وينصرفون من حضرته بالعطايا والحملان ، ثم يرسم القيان الكواعب حانيات على العيدان حنو الامهات على الاطفال بنهود مفعمات ولكنها « صفر من درة الالبان » ، ثم يرسم أثر الغناء على وجوه السامعين فاذا هو

شجن وسلوى وأمرات من الحزن والجذل وطرب يشوبهُ السكون وسكون يشوبهُ الطرب ، ثم يرسم الصوت نفسه فاذا هو يهتز « مثلما هزت الصبا غصن بان »

يتثني فينفض الطل عنهُ في تثنيه مثل حب الجمان
جهوري بلا جفاء على السـ ـمع مشوب بغنـة الغزلان

فلا تزال في القصيدة تتنقل بين أبياتها من صورة الى صورة ومن منظر الى منظر ومن حركة الى حركة حتى تأتي عليها وقد استعرضت في خيالك متحفاً واسعاً من الاشكال والخطوط عملت فيهِ القريحة والنظر واشترك فيهِ الفن والاحساس وروى لك أصدق الرواية عن عين تلمح فتعي ونفس تحس فتستوعب وخيال يدخر الجمال المنظور فيثري بالالوان والسمات ، ولو وقف مصور في موقف ابن الرومي من ذلك المهرجان لما زاد عليه بعد ذلك التفرس الانعام — إلا أن يجري الريشة على اللوحة بصورة بعد صورة مما قد امتلأت بهِ عينه وانطبع في قريحته

***

واذا بلغ من تهافت النفس على التهام الأشكال المختلفة هذا المبلغ فلا جرم تترك فيها أثراً قوياً من حسنها وقبحها ومما توحيه من بواعث الفرح والنشاط أو بواعث الفزع والوجوم ، فأما الحسن في تلك الاشكال فيزدهيها ويطربها ويحثث آمالها وتأنس منهُ البشرى

الجميلة والفأل السعيد ، وأما القبيح فيقبضها ويروعها وتتوجس منهُ العاقبة السيئة والطالع المشئوم ، وهي إذا غلت في الانقباض خليقة أن تتطير بالقبح وأن تقرن بينهُ وبين كل شر تتوقعهُ وكل نذير تخشاه ، ومن هنا خطر لي أن « التشاؤم » الذي اشتهر ابن الرومي بالإفراط فيهِ قد يكون قريب العلاقة جداً « بذوق الجمال » الذي طبع عليهِ أو « ملكة التصوير » التي تفتأ تزحم خياله بالمناظر والهيئات

ولم أقرأ نادرة من نوادر « التشاؤم » التي تروى عن ابن الرومي إلا رأيت السبب الأكبر فيها للتشاؤم أحد عاملين اثنين : هذه «الملكة التصويرية» وملكة أخرى فنية هي « تداعي الفكر وتساوق المعاني » التي كان ابن الرومي يؤلف بها بين أقصى الخواطر وأقصاها بحرف يصحفهُ أو معنى يعكسهُ أو مناسبة تهيؤها له قريحته المتوثبة الحافلة

فهو كان يتشاءم « بالتشويه » حيث رآه ، وكان يكره أن يقع نظره على أحدب أو أعور أو دميم أو أصلع . بل كان يكره أن يطلع الناس منهُ على الصلع حين أصابهُ « فكان لا يزال معتماً ويغضب اذا سئل عن ذلك ، وسأله بعض الرؤساء لمَ تعتم ؟ فقال بديهياً »

يا أيها السائلي لأخبره عني لم لا أراك معتجرا
أستر شيئاً لو كان يمكنني تعريفه السائلين ما سُترا

ومن كان يتشاءم منهم ابن طالب الكاتب وفيهِ يقول :

أُزيرق مشئوم أُحيمر قاشر لاصحابه، نحس على القوم ثاقب
وهل أشبه المريخ إلا وفعله لفعل نذير السوء شبهٌ مقارب
وهل يتمارى الناس في شؤم كاتب لعينيه لون السيف والسيف قاضب
ويدعى أبوه طالبا وكفاكم بهِ طيرةً ان المنية طالب
ألا فاهربوا من طالب وابن طالب فمن طالب مثليهما طار هارب

ومن قوله « ان الفأل لسان الزمان والطيرة عنوان الحدثان » ونظمه شعراً فقال :

لا تَهاون بطيرة أيها النَّظا ر واعلم بأنها عنوان
قف اذا طيرة تلقتك وانظر واستمع ثُمَّ ما يقول الزمان
فَلَمَا غاب عن عيونك عنوا ن مبين، وللزمان لسان

فهو يربط بين الظواهر والبواطن بذلك الرباط الموهوم ولا يرى الظاهر القبيح إلا عنواناً لحادث مشئوم ينذر بهِ الزمان

وقال ابن الناجم « دخلت عليهِ في علتهِ التي مات بها وعند رأسهِ جام فيهِ ماء مثلوج وخنجر مجرد لو ضرب بهِ صدر خرج من ظهر، فقلت : ما هذا ؟

قال الماء أبلّ بهِ حلق فقلما يموت انسان إلا وهو عطشان، والخنجر ان زاد عليَّ الألم نحرت نفسي . ثم قال : أقص عليك قصتي تستدل بها على حقيقة تلفي . أردت الانتقال من الكرخ الى البصرة فشاورت صديقنا أبا الفضل، وهو مشتق من الأفضال، فقال : اذا

جئت القنطرة فخذ عن يمينك وهو من اليمن ، واذهب الى سكة النعيمة وهي من النعيم ، فاسكن دار ابن المعافى وهو مشتق من العافية . فخالفتهُ لتعسي ونحسي . !

« وشاورت صديقنا جعفراً وهو مشتق من الجوع والفرار ، فقال : اذا جئت القنطرة فخذ عن شمالك وهو من الشؤم ، واسكن دار ابن قلابة وهي هذه . ! لا جرم قد انقلبت بي الدنيا . ! وأضر ما عليَّ العصافير في هذه السدرة تصيح سيق سيق . . . فها أنا في السياق . . »

وهذا مثل من الطيرة التي كان يوسوس له بها « تداعي الفكر » — وهي ملكة تكثر في أصحاب الفنون يضمون بها الخاطر الى الخاطر بتصحيف يسير في اللفظ أو المعنى وبمناسبة دقيقة من الخيال الصحيح أو الوهم الكاذب . فيصلون بها بين الطرفين يراهما عامة الناس على أشد البعد والتناقض ، ويلتمسون بها المشابه والمغازي حيث لا شبه ولا مغزى لمن لم يوهبوا هذه السرعة في توارد الفكر وتساوق المعاني والالفاظ

فغيرُ بعيد أن تكون « طيرة » ابن الرومي مبالغة منحرفة من ذوق الجمال وسرعة الخاطر تَناهى بها الى هذا الشطط خبلُ الأعصاب ومضاضة الغبن وقلة فهم الناس إياه وطوارق أحداث لم تدعهُ حتى أسلمتهُ الى ذلك المصرع الحزين .



أدب المنفلوطي

لم أكتب عن أدب المنفلوطي على أثر وفاته لأسباب شتى يرجع بعضها الى شواغل السياسة وبعضها الى التحرج من مناقشة الحزن بالنقد والتقدم الى تشريح الفقيد الراحل في موقف التشييع والتأبين ، فأبيت أن أقول فيه غير ما أعلم . أو أن أكذب على الموت مداراة لجلاله وتوقيراً لقطوبه وهيبته ، وكرهت أن أشيعه الى مرقده الأخير بغير ما يجمل في ذلك الموقف من الثناء والعزاء لأني أراه أكرم وأجدر بالرفق والمجاملة من أولئك الذين تقال فيهم كلمة الحق وتستخلص من حياتهم عبرة الاخلاق وحكمة الحوادث وهم بين أيدي النعاة والمشيعين . فالآن وقد مضى على وفاته عام وأيام وقد سألني بعض الادباء أن أخصه بكلمة من الكلمات التي أكتبها في هذه الصحيفة – أرى من الراجب عليّ أن أتعرض له بالنقد والتقدير لأقوم له ببعض حقه وأدل على مكانه من أدب العصر الحديث في رأيي . اذ لا شك ان المنفلوطي قد كان صاحب «مكان» في هذا الأدب يُعتد به ولا يحسن اغفاله

لقد كان المنفلوطي أحد أولئك الادباء القلائل الذين أدخلوا

« المعنى والقصد » في الانشاء العربي بعد أن ذهب منه كل معنى وضل به الكاتبون عن كل قصد

وليس يظهر فضل هذه الخطوة المباركة الا للذين وقفوا على بقية من أساليب الانشاء في الجيل الذي غبر قبل نبوغ المنفلوطي واخوانه ، فقد كانت الكتابة في ذلك الجيل قوالب محفوظة تنقل في كل رسالة ويُزج بها في كل مقام وتُعرف قبل أن يَمس الكاتب قلمه ويليق دواته ، وكانت للمعاني القليلة المحدودة صيغ وقوالب لا يعتورها التصرف والتبديل الا عند الضيق الذي لا محيص عنه والافلاس الذي لا حيلة فيه ، وكانت أغراض الكتابة كخطب المنابر تعاد سنة بعد سنة بنصها ولهجة القائها ووحدة موضوعاتها ، كأنها تعاد من آلة حاكية لا تفقه ما تقول على آلات حاكية مثلها لا تفقه ما تسمع ! وانحصرت الذخيرة اللفظية — التي تتناول منها الاقلام — في أسجاع مبتذلة وأمثال مرددة وشواهد مطروقة وآيات من القرآن تُقتبس في غير معارضها ويحذر المقتبسون أن يغيروا مواضع نقلها وترتيب الجمل التي تسبقها وتلحق بها كحذرهم من تغيير حروفها وكلماتها . فاذا جمعت هذه الذخيرة المحفوظة بين دفتي كتاب فقد جمعت عندك كل ما خطه المنشئون من قبل وكل ما في نيتهم أن يخطوه من بعد واستغنيت عن الأقلام والاوراق والمحابر وأدوات الكتابة كلها ومنها المنشئون والمحبرون !

هكذا كانت حاله الأنشاء في الجيل الذي سبق جيل المنفلوطي واخوانه من المنشئين . غير انها لم تكن كذلك حين أخذ المنفلوطي في الكتابة وظهر في عالم الأدب . لأن الكتابة في الصحف والمجلات وترجمة المؤلفات الغربية وانتشار الاساليب المختلفة من أسفار الآداب العربية القديمة اضطرت الأقلام قبل ذلك الى اختيار الالفاظ المقصودة واقتسرت المترجمين والكاتبين على العناية بالمعاني التي يفهمونها ، فنشطت الكتابة في تعثر وسلكت على نهجها القديم في بطء وتحير ، وبقي فيها أثر من ذلك الجمود كأثر النقاهة في الوجه تعرفه في نزارة المادة وصعوبة التوفيق بين المعاني الطارئة والعبارات الميسورة وفقر الكتاب وعجزهم عن التصرف فيما بين أيديهم من ثروة التعبير

فمزية المنفلوطي في هذا الدور الناقه الهزيل انه بريء من آثار تلك النقاهه ومشى بقدمين على النهج الجديد الذي دخل فيه المعنى والقصد على الانشاء العربي . وقُل ما شئت فى تينك القدمين وفى ذرع خطوهما واستقامة سيرهما على النهج الجديد : ليكن فيهما ما فيهما من الضعف والعيب أو ليكن عندهما ما عندهما من الرخاوة والكسل ، فانهما بعد كل ما يقال فيهما قدمان آدميتان وليستا بعضوين من الخشب المنجور

وقد تقدم المنفلوطي الى هذه المزية أدباء قليلون في مصر أشهرهم

المويلحي الكبير فالمويلحي الصغير . وكانا كلاهما أذكى منه جنانًا وأعرف بفنون الادب وأقدر على النقد الاجتماعي وأفطن الى الفكاهة وأوسع اطلاعًا على شؤون الحياة ، ولكنه كان أحدث منهما عهدًا وأبعد من ذلك العصر الذي وصفناه فمال الى الاسلوب المرسل وسلم من تكلف السجع ونقل الصيغ والقوالب ، فكان لذلك أدنى الى الكتابة الحديثة المطلقة وأسعد حظًا بهذه المزية التي أحرى بها أن تُحسب لأيامه لا لجرأته وحسن اختياره . أما المويلحي الكبير فكان يتعمد السجع حين يحتفل بالتفخيم والتنميق ، وأما المويلحي الصغير فلعل الذي قيده بالسجع في كتابه « حديث عيسى بن هشام » انه وضعه على نسق المقامات واختار له اسم راوية كأسماء رواتها فالتزم فيه ما كانوا يلتزمونه في مقاماتهم من الاسجاع والاوضاع

***

ذلك هو مكان المنفلوطي في أدب العصر الحديث على وجه الاجمال . ولكن ما مكانه في عالم «الادب» عامة اذا أردنا ان ننظر الى الأدب من وراء البيئة والظروف بل من وراء الاجناس واللغات ؟؟

أقول أولا ان المنفلوطي منشيء وليس بكاتب ، أو هو يحسب مع أصحاب الانشاء اذا قسمنا الادباء الناثرين الى كتاب ومنشئين

والفرق بين الكاتب والمنشيء فى عرفى هو : ان الكاتب «انسان» قبل أن يكون حامل قلم وصائغ كلام ، وفضيلته فضيلة نفس شاعرة

مدركة لا فضيلة لسا ن وعبارة ، وأحسن مواهبه تبقى له كاملة ناطقة اذا هو تُرجم من لغة الى لغة أو حيل بين قارئه وبين بلاغة لفظه وأسلوب ادائه

وأنت تعجب بالكاتب لصفة تأنسها في نفسه وعقله ثم تعجب بأسلوبه لانه وسيلة الى ابراز تلك الصفة في الصورة التي توائمها ، فاذا سُئلت أن تفصل بين الكاتب وكتابته في تقديرك لم تدر كيف تفصل بينهما لأنك تحس حينئذ أن كتابته جزء منه وعضو من أعضائه ، بل هي الصق به من جميع أعضائه وجوارحه لأنها خلاصة حياته وزبدة نفسه وعقله وتاريخ خلايا جسمه وروحه

وفي كل كاتب شيء من طبيعة النبوة ، لأنه يحمل رسالة « خاصة » من لدن الحياة الى اخوانه في الحياة . ولهذا كان لا بد للكاتب من هبة خارقة يحس بها ما لا يحسه سواد الناس ويفهم بها ما لا يفهمون من أسرار هذه الدنيا وعجائب الغيب والشهادة ، فان لم تكن له هذه الهبة فقوةٌ تقدح هباته المألوفة وتستفزها الى البروز والاحتدام وتتجافى بها عن سبيل أمثالها المعبّد في نفوس الآخرين فتبدو كأنها أجنبية غريبة عما يألفونه بينهم من هذه الهبات ، فان لم تكن له تلك القوة فجانب من جوانب الطباع يراه الناس فيه مكبراً مشروحاً يدرسون عليه ذلك الجانب من النفس البشرية كما يدرسون الاعضاء الدقيقة وراء المجاهر المعظمة وعلى الرسوم

الواسعة المفصلة ، فاذا كان التيمن أو التشاؤم أو الحب أو البغض أو الدعة أو الكبرياء أو الحسد أو البر أو غير ذلك من الخلال خفياً ضامراً في عامة النفوس فربما كان فيه ظاهراً مفسراً يتيح لك أن تتأمله وتفحص عن بواعثه وتستقصي غاياته كما لا يتاح لك ذلك من مراقبة ألوف من الناس ، فان لم يكن فيه جانب من هذه الجوانب المكبرة فملكة تصبغ المشاهد الدارجة بلون لا تراها به كل عين ولا تخلعه عليها كل بصيرة . وقد تتفق هذه المزايا كلها للكاتب أو لا يتفق له إلا بعضها ، ولكنه لا بد أن يكون على الحالين نموذجاً خاصاً يحمل رسالته التي لا يغني عنه أحد في ابلاغها والتي تشعر وأنت تقرأها انها رسالة « وشفر » في آن واحد ، وانها لو انفصلت عن صاحبها لضاع معها الشفر الذي يفك رموزها وتتوقف عليه فوائدها

والكاتب جماله في الاسلوب جمال المعدن الصحيح لا جمال الزيف والطلاء ، فبياضه بياض الفضة وحمرته حمرة النحاس واصفراره اصفرار الذهب ولمعانه لمعان الماس . وكل شيء فيه له قيمته الطبيعية التي لا مبالغة فيها ولا تمويه عليها . فهو يذكرك أبداً بالطبيعة الصادقة واللباب المكنون

أما المنشيء فيختلف عن الكاتب في هذه الخلال . فانك تقرأه وكأنما تشعر بالقشرة المطلية تحت يدك ويُؤتَى اليك أنه يخدعك ويحاول أن يبيعك الشيء الزهيد الذي تراه في كل مكان باسم غير

اسمه وقيمة أغلى من قيمته ، فأنت تبصر فيه لون المعدن ولا تسمع رنته وتروز ثقله ، وتعلم أن السر كله في الصقل الظاهر ولا يعجبك أن تتطلع الى اللباب المستور وراءه ، ويخيل اليك أنها صناعة آلية قد يبرع المخترعون غداً فيحدثون للآداب آلة تصقل الكلام كالآلات التي اخترعوها لصقل المعادن ! وقد يعن لبعض المنشئين أن يفتح له مكتباً لتوشية كلام غيره كهؤلاء الكتبة الذين يدبجون الرسائل للمستكتبين في أغراض نفوسهم التي لا ينوب عنهم فيها سواهم .

وليس للمنشيء رسالة خاصة يؤديها من لدن الحياة ويضيع شفرها اذا لم يقم هو بادائها ، ولكنه — على أحسن ما يكون — صاحب زينة يسرك أن تنظر اليها وتجري يدك عليها ، وتفقدها كلها اذا أردت أن تنقلها من لغتها التي كتبت فيها الى لغة أخرى تحفظ معناها وتنفي قوالبها وألفاظها ، فليست فضيلته فضيلة « انسان » يخاطب جميع الناس بلغة الحياة ولكنها فضيلة حروف لا حياة فيها واصداء لا ارتباط لها بمعانيها

وخير ما يكون المنشيء ان يكون تزويقه في أسلوب الفكر وأسلوب الصياغة معاً ، كما كان « أوسكار وايلد » في انجلترا و « تيوفيل جوتييه » في فرنسا و « بديع الزمان » في اللغة العربية . فهؤلاء قد تبقى لهم بعض ملاحتهم اذا نقلوا من لغة الى لغة وخسروا وشي أساليبهم ورنة ألفاظهم ، لأن سوانح أفكارهم قد تبهر النظر

بألاعيبها ورقصاتها ولآلاء أصدافها كما تبهر الآذان نغمات كلماتهم وتراكيب عباراتهم . على ان المعاني المزوقة قلما تنجلي عن قيمة نفيسة وجمال دائم

والمنفلوطي اذا نظرنا اليه بهذا النظر لم نقل فيهِ إلا انه منشيء لبق الصناعة كثير التزويق في الصياغة قليله في المعاني والأفكار ، أو هو — اذا بالغنا في انصافه — أقرب الى جماعة المنشئين منه الى جماعة الكتاب



٢

المنفلوطي والنفس الانسانية

قرأت في بعض ما رُثي به المنفلوطي أنه كان « كاتب النفس الانسانية » يريد القائل أنه كان رحمه الله يبكي آلام النفس ويستبطن أهواءها وأشواقها ويعطف على آمالها وهمومها ويكشف عن فضائلها وأدوائها ، كما يُروى عن كبار الكتاب الملهمين الذين سبروا أغوار الطبائع واخترقوا حجب الاذهان والبصائر وعرفوا من سرائر « النفس الانسانية » انماطاً لا يدركها الحصر وأحوالاً تحسب من تصفحها ان الانسان في هذه الحياة خلائق لا نهاية لها ولا مشابهة إلا على البعد بين أنواعها وفصائلها

ولست أرى في كل ما وُصف به ذلك الفقيد صفة هي أبعد من الحقيقة وأدل على الجهل بالنفس من هذه الصفة التي يُظن لأول نظرة أنها أصدق صفاته وأحراها بالقبول .

ولا أقول ذلك لأن المنفلوطي كان قليل البكاء في قصصه ومقالاته أو كان مغلق النفس على الحزن والاسى بطبيعة مزاجه ، ولكن لأني أرى أن غزارة الدموع شيء والاحساس بمصائب النفس الانسانية شيء آخر . فالاطفال هم اكثر الناس بكاء وأغزرهم دموعاً

ولكنهم أغرب الناس عن الحزن وأنآهم عن لواعج الآلام وتجارب الأيام ، والنفوس التي تلقي الحياة بالوجوم والانقباض ولا تعرف فيها غير الشكوى والاشفاق انما هي نفوس عجزت عن تجربة الحياة وابتلاء ما فيها من الخير والشر والفرح والحزن فقنعت منها بتلك الخشية الضعيفة التي تبدو للنظر القريب في ثوب الرأفة والحنان وبتلك القشعريرة المجفلة التي تسري في الجلد لأدنى الملامسة وأهون المقاومة ، مثلها في هذا مثل « السابح » المقرور يقف على شاطئ البحر فيقترب منه في خوف وحذر ويغمس فيه أطراف أصابعه في تردد وأناة ثم تسري في جسده قشعريرة الماء فيرتد عنه ويحجم عن خوض عبابه وهو يتهم البحر ويرثي للسابحين فيه ! فليس ذلك الرثاء رثاء السابح الذي جرب البحر وصارع أمواجه ومارس حيتانه واقترب من أعماق قيعانه وارتفع على متون أثباجه وتذوق فيه نشوة السباحة مرة وشارف فيه وهلة الغرق مرة أخرى ، ولكنه رثاء السابح الذي لم يجرب البحر ولم يعرف منه الا تلك القشعريرة الجلدية التي هي أول حدود البحر في عالم الاحساس ! وأحرى بمثل هذه القشعريرة أن تسمى « رحمة الجلد » لا رحمة القلب وصوت الشاطئ اللين لا صوت البحر الواسع العميق ، ولو أن ذلك « السابح » قذف بنفسه في الماء قبل أن يجسه بأطراف أصابعه وتحرك فيه بملء قوته قبل أن يقف على شاطئه لعلم أن صرخة البحر الجائش غير صرخة الرمل

البليل ، وان الرثاء الذي خامره على حافته هو الحقيق من السابحين بالرثاء ، وان الحزن في غمار المـاء قوة وشعور ولـكنه على الحافة الندية خوف من القوة وهرب من الشعور

* * *

وربما كان أدب المنفلوطي أصدق الأمثلة وأقربها الى توضيح الفرق بين ليونة الطبع — وان شئت فقل دماثته — وبين صدق الاحساس وسرعة العطف على الآلام والاشجان ، فان كثيراً من الناس يخيل اليهم أن الطبع الذي يصفونه بالدماثة والرقة هو أصدق الطبائع حساً وأسرعها الى العطف على مصائب النفوس والاصاخة الى شكاية البائسين والمحزونين ، وليس أخطأ من هـذا الخطأ في فهم حقيقة العطف الصحيح الذي انما يتفجر من سعة الاحساس وغزارة العواطف ويقظة القلب لا من تلك الدماثة التي تفتأ باكية شاكية أو من تلك الرقة التي تشفق أن تذوب من الهباء !

وانظر الى أبطال المنفلوطي في قصصه ومقالاته فكيف تراه يعطف عليهم ويرثي لآلام نفوسهم وأشجان ضمائرهم ؟ أتراه سريع الاحساس بما يعتري النفوس ويخامر الضمائر أم تراه لايلتفت اليها ولا يشعر بحالها حتى يبلغ بها الرزء أقصى ماتنتهي اليه الأرزاء ويجرعها الدهر صبابة العذاب وقرارة الـكدر والبلاء ؟ ؟ وما ظنك بقلب لا يستدر العطف على المصاب حتى يجمع عليـه بين ضنك الفاقة وتبريح السقم ويأس

الحب ووحشة العزلة وذلة اليتم وسائر ما يحيق بأشتات المعذبين في الأرض من صنوف الشقاء وضروب الهوان والحرمان ؟ وما ظنك بعين لا تجود بالدمع على السكير أو المقامر أو المنكوب حتى تخرجه من الدنيا شريداً مسلوباً أباً لأيتام يتضورون من الجوع وزوجاً لأيم تتبلغ بثمن العفاف؟ ؟ أتظن أن قريحةً تلد هؤلاء الأبطال المساكين وتسأل لهم الرأفة بتلك الكوارث والأهوال قريحةٌ تجيب داعي العطف القريب وتسرع الى الاحساس بالألم الضئيل أو هي على خلاف ذلك قريحة لا تبصر من مصائب النفوس إلا ما جل وعظم وأوشك أن يتساوى فيه القساة والرحماء وأن يتلاقى عليه الأعداء والاصدقاء ؟

فأشقياء المنفلوطي كلهم إما فتى مات أبوه وجار عليه كفيله وضن عليه بابنته التي يحبها وتحبه ونبذه من بيته إلى حيث لا مال ولا مأوى فما زال به الفقر والوله حتى أسلماه الى اليأس والسقم وما زال به اليأس والسقم حتى أسلماه الى الموت العاجل في ريعان الشباب ، وإما رجل غره الرفقاء وزينوا له الخمر فشرب منها كأسه الأولى فأدمنها فتلف بدنه وضاع مورد رزقه وغدر به أصحابه ورفقاؤه واصطلحت عليه آفات الفاقة وأوجاع العلل وعثرات الجد ثم طال ثواؤه في البيت بلا طعام ولا فراش ولا عزاء حتى ثوى في مضجعه الأخير ، وإما فتاة غوت فقادتها الغواية الى الفجور وقادها الفجور الى الداء وانتهى بها الداء الى العـدم فالنسيان فالموت الشائن المبين ، وهكذا وهكذا .

بحيث ترى أن ليس للناس عند المنفلوطي مصائب غير هذه المصائب الجسيمة وأشباهها التي يبصرها الأعمى ويسمعها الأصم ويجتمع فيها الجوع والداء والذل والموت بلا افتراق ولا تنويع ، وهي على فداحتها وثقل وطأتها ليست مما يسمى بمصائب « النفس الانسانية » وآلام الضمائر الحية لأنها مصائب وآلام يشترك فيها الانسان والحيوان ويعرفها كل من يعرف الجوع والمرض والموت من هذه الاحياء .

وانما مصائب النفس وآلام الضمير تلك التي يتفرد بها « الانسان » الشاعر وهو تام المآرب من طعام وشراب ومتاع وسلطان ، وهي تلك التي تجلبها له نوافل الكمال التي يعلو بها عن الأحياء الدنيا وعن بني آدم الذين يشبهونها في المطالب والهموم . وليس من الضروري أن يُمنى الانسان بالجوع والضر والتبريح جميعاً ليجرع من كأس الشقاء ويأخذ بنصيب من لذعات الحزن والضيق وأشجان الأسف والكآبة . فربما ملك وساد وتمت له نعمة المال والبنين ودانت له المتعة والصحة وهو في ضميره مع هذا في سورة لا تهدأ وحرب لا قرار لها ولا سلام ، وربما عشق وأسعده العشق وهو في حيرة السعادة نفسها على حال من القلق يشبه الكرب والشقاء ، وربما شيب له الصفو بالكدر لأنه بلغ غاية الصفو أو مذق له النعيم بالسآمة لأنه أوفى على مدى النعيم ، وربما كانت خلاصة هذه الآلام الرفيعة ألما واحداً يتخللها جميعاً وترى فيه كأنما

« الانسانية » تشتاق الى مرتبة فوق مرتبتها وسعادة فوق سعادتها وحاجات من العيش والوجود فوق حاجتها ، فهو ألم التشوف الى ما وراء الانسانية من حظ الحيـاة والحنين الى « المجهول » الذي لا يحده الحس ولا تحيط به الأفكار . وذلك هو الألم الذي لم يعطف عليه المنفلوطي قط ولم يجعل للانسانية نصيباً منه في كل ما ألف أو ترجم

* * *

ونظرة المنفلوطي الى الاخلاق من فضائل ورذائل كنظرته الى ألوان الشعور من مسرات وآلام . أي انها نظرة لا تنفذ الى بواطن « النفس الانسانية » ولا تشملها بالعطف الواسع والفهم السـديد والادراك السليم ، لأن الانسان عنده إما صاحب فضيلة و إما صاحب رذيلة ولا وسط هنالك بين الحالتين ، والعمل من الاعمال عنده إما أبيض وإما اسود ولا مزيج هنالك بين الصبغتين ، وحدود المحاسن والمساوىء عنده كأنها مقسومة على رقعة من الورق لا في طبيعة حية يتصل بعضها ببعض ويتوشج فيها الخير بالشر والحسنة بالسيئة والقوة بالضعف والصعود بالهبوط ، فليس من الجائز في عرفه أن تكون النفس الواحدة معتركا للفضائل والرذائل تنتصر فيها هذه تارة وتنتصر فيها تلك تارة اخرى ، وأن يكون العمل الواحد خليطاً من الخير والشر يميل بعضه الى الصلاح والكمال ويميل البعض الآخر الى الطلاح والقصور ، وذلك لأنه يحكم على الاخلاق والطبائع

بأسمائها وتعريفاتها لا بما يحسه من العطف عليها وعلى أصحابها ، فيخطيء هنا في تفصيل الاخلاق كما يخطيء هناك في تصوير الشعور ، ومصدر الخطأين واحد هو ان « النفس الانسانية » التي يعهدها ويعطف عليها نفس ساذجة محدودة يقل فيها التركيب وتعدد الجوانب ويُبلغ مداها في الغور والذروة بأقرب مسبار

* * *

ولكننا نقدر المنفلوطي ولا نريد أن نبخسه حقه ونكر عليه أثره . فلا بدَّ لنا أن نقول إن النفوس التي يعهدها ويعطف عليها اكثر عدداً واحوج الى التثقيف والتعليم من النفوس التي لا عهد له بها ولا صلة عطف بينه وبينها . وان نظرته الى الاخلاق والشعور أقمن أن تفيد قراءه وتحظى لديهم من كل نظرة سواها ، ولعلها — لولا ما نأخذه عليه من الليونة والرخاوة في أكثر كتاباته — أصلح زاد لهم من غذاء الفكر والعاطفة ، بل لعلهم كانوا في حاجة الى منفلوطي يظهر لهم لو لم يظهر لهم هذا المنفلوطي الذي عرفوه وأقبلوا عليه



في مثل هذا الشهر ، منذ عامين ، مات السيد درويش . واذا قلت السيد درويش فقد قلت إمام الملحنين ونابغة الموسيقى المفرد في في هذا الزمان . مات والقطر كله يصغي الى صوته . وسمع نعيه من سمعوا صوته ومن سمعوا له صداه من مرتلي ألحانه ومرجعي أناشيده ، فما خطر لهم — إلا القليلين — أنهم يسمعون نبأ خسارة خطيرة وان هذه الأمة قد فجعت في رجل من أفذاذ رجالها المعدودين

كان ذلك النابغة الفقيد رحمه الله قد نبه ذكره قبل موته بعامين أو قراب ذلك ، واشتهر اسمه وذاعت أغانيه والحانه فطافت القطر أجمعه وطبقت المدن والقرى وانبسطت منها مائدة سرور واسعة الأكناف تناول منها كل غاد ورائح وتضيفها كل طارق وواغل ، وكان لكل قلب في عالم السماع نصيب من قلب صاحبها ولكل لسان حظ من وحي لسانه ولكل مسمع خبر من أخبار روحه الهائم في أسعد ساعاته وأجمل أوقاته ، فكان يرسل اللحن في الرواية

أو القصيدة أو الأغنية الصغيرة فما هي إلا أيام حتى تتجاوب بها الأصداء في أنحاء البلاد فيهتف بها المنشدون على الملاعب وتترنم بها العازفات في أندية الأسر ومجالس البيوت وينطلق بها الصبية في السبل والاسواق وتغدو مصر السامعة كلها كأنها فرقة واحدة وقف منها السيد في منصة الاستاذ فهو يملي عليها وتسمع وهو يبدأ لها وتتبع: كلٌ على قدر طاقته من الفن وعلى حسب حظه من جمال الصوت وحسن الاداء والاصغاء، وما بالقليل على الرجل الفرد في هذه الدنيا أن يمون أمة كاملة بهذه المؤنة المحيية وأن يجلب لها سروراً لا تجلبه لنفسها بما تصبح فيه وتمسي من جهاد الحياة، وأن يهدي اليها ساعاتِ صفو وأريحيــة ترتفع بها الى ملأ الغبطة والنعيم وترجح بأعوام تنقضي في شقاء العيش وأعمار تمضي في أسر كأسر الأنعام وقيود كقيود السجناء، إي والله ان ساعة سرور واحدة لهي ساعة حياة بل هي ساعة خلود، وان ساعة خلود لهي أنفس من عمر مسخر وأغزر من وجود كوجود الجماد يستوي فيه الدهر الطويل واللحظة القصيرة، وأجدى على النفس الشاعرة من كنوز الأرض وذخائر البحار. وما بالقليل على السيد درويش أن يمون أمة كاملة بهذه المؤنة العلوية يوماً واحداً لا أعواماً عدة ولا بعض عام.

ولكن الأمة الكاملة — مع هذا — عجزت عن قضاء حق الرجل الفرد فمات بينها وهي لا تعلم أنها أصيبت من فقده بمصيبة

قومية ولم تبال حكومتها أن تشترك في تشييع جنازته واحياء ذكره كما تبالي بتشييع جنازات الموتي الذين ماتوا يوم ولدوا والمشيَّعين الذين شيعتهم بطون امهاتهم الى قبر واسع من هذه الدنيا يفسدون فيها من اجوائها ما ليست تفسده العظام النخرات والجثث الباليات

أتقول مع هذا ؟ ؟ بل ما لنا لا تقول ان الرجل قد أهمل في حياته وبعد مماته ذلك الاهمال القبيح لأجل هذا ؟ أوليست آدابنا هي تلك آداب الشرق الجامد الذليل الذي تعاورته الرزايا وران عليه الطغيان ؟؟ أوليست آداب هذا الشرق المسكين تعلمنا أن العزيز العظيم من يسيء الى الناس وأن المهين الحقير من يتوخى لهم الرضى ويوطىء لهم أسباب السرور ؟ أوليس من شرع الاستبداد وسنن آدابه أن يكون الرجل عظيماً لأنه يطغى ويقهر ويكسر النفوس ويحني الظهور ويعفر الوجوه ؟

أوَ ليس هذا أعظم ما رأينا من العظمة في هذا الشرق الآفل منذ علم أبناؤه انهم صغراء حقراء فلن يكون الذي يتقدم اليهم بالرضى والسرور إلا أصغر منهم صغراً وأحقر منهم حقارة ؟ ؟

بلى وآسفاه . ! ان دفائن الاستبداد ما برحت عالقة فينا بدخيلة السرائر نفضها فلا تنتفض إلا ذرة بعد ذرة ونزن المنفوض منها فاذا هو لا يزيد في الهباء ولا ينقص راكد ذلك التراث الدفين ! فما يزال العظيم عندنا عظيماً بازرائه من الآخرين وما يزال تمحيض

السعادة لطلابها عندنا عملاً من أعمال الأذلاء الماهنين ، وأنت لا تعرف انك في أمة أحرار حقاً كارهين للاستبداد حقاً إلا إذا رأيت بينهم لعظماء المطربين شأناً لا يقل عن شأن أندادهم ذوي المواهب والأعمال والاقدار . فان المرء في مثل هذه الامة لا يكبر إلا بما يمحض الناس من صفو وسعادة ولا يسعدهم أحسن السعادة إلا بما يحيي فيهم من نبيل الشعور وجميل الأمل ورفيع التفكير والتخييل . فهو إذا غناهم أحسن الغناء كان عندهم كمن يفتح لهم أحسن الفتوح ويسوسهم أحسن السياسة ويعلمهم أحسن العلم ويصلي بهم أحسن الصلاة ، وهو كبير بنفسه لأنه كبير الأثر في نفوس الآخرين بعيد المدى في تشريف الحياة وتطهيرها وتهذيب أبنائها وتحبيبهم في محاسنها ومطامحها ومسراتها . أما الأمم التي لا حظّ لها من الحرية ولا يدَ لها في تعظيم العظيم منها لأنه يعظم بينها غضبت عليه أو رضيت عنه وأعجبت به أو أنكرته فتلك ماذا يبلغ من شأن المغني المطرب بينها ؟ بل ماذا يبلغ من شأن كل من يسعدها ويسرّي عنها كروبها ؟ ان كروبها لكروب حقيرة ، وان أحقر منها لسعادتها وان أحقر من هذه وتلك لمن يمسح عنها تلك الكروب ويجلب لها تلك السعادة !

فلا غرو يكون فيها « الفنان » عامة والمغني خاصة خليعاً من خلعائها وماجناً من مجانها ، بضاعتهُ أن يضيع عليها وقت اللهو الذي هو فضلة من وقت العمل الضائع . . . أو العمل الذي لا يستحق أن يعمل

ولايبيح الانسان أن يعلو بهامته عن مراتب الحيوان ، وهو انما يضيع عليهم وقت اللهو باحياء الردىء فيهم من الشعور والذميم فيهم من الأمل والوضيع فيهم من التفكير والتخييل . فلا غبن عليه ولا نكران لحقه أن يعيش في هذه الأمم زحافة آدمية تمشي على بطنها وتحمد الله انها لا تسحقها باقدامها ، وكذلك عهدنا المطربين والمغنين في مصر الى زمن غير بعيد .

ولو كان السيد درويش واحداً كآحاد الفئة لما ليم كبيرٌ ولا صغير على اهماله ولا لحق هذه الامةَ ضير من غفلتها عن تمييز ملكاته وتكميل شوطه . ولكنه رأس طائفة وطليعة مدرسة : رأس طائفة لم يتقدمها متقدم وطليعة مدرسة لم يسبق لها مثيل في تاريخ الموسيقى المصرية ، ولا أحاشي أحداً ممن اتصل بنا نبأهم في العصر الأخير

فضل السيد درويش — وهو اكبر ما يذكر للفنان الناهض من الفضل — انه أدخل عنصر الحيـاة والبساطة في التلحين والغناء بعد أن كان هـذا الفن مثقلاً كجميع الفنون الأخرى بأوقار من أسجاعه وأوضاعه وتقاليده وبديعياته وجناساته التي لا صلة بينها وبين الحياة . فجاء هذا النابغة الملهم فناسب بين الالفاظ والمعاني وناسب بين المعـاني والالحان وناسب بين الالحان و « الحالات النفسية » التي تعبر عنها ، بحيث تسمع الصوت الذي يضعه ويلحنه ويغنيه فتحسب ان كلماته ومعانيه وانغامه وخوالجه قد تزاوجت منذ

القدم فلم تفترق قط ولم تعرف لها صحبة غير هذه الصحبة اللزام

ولم يكن الغناء الفني كذلك منذ عرفناه وانما كان لغواً لا محصل فيه وألحاناً لا مطابقة بينها وبين ما وضعت له . فربما كان « الدور » مقصوداً به الحزن والشجو ولحنه أميل بالسامع الى الرقص واللعب ، أو مقصوداً به الجذل والمزاح ولحنه أميل الى الغم والكآبة ، ولم تكن الأنغام والاصوات عبارات نفسية وصوراً ذهنية ولكنها كانت مسافات وأبعاداً تقاس على كذا من الآلات وتربط بكذا من المفاتيح ثم لا محل فيها بعد ذلك لقلب يتكلم ولا لقلب يعي عنهُ ما يقول — وعلى هذه السنة درج الغناء عهداً طويلاً الى أن أدركه المغنيان الشهيران عبده ومحمد عثمان فنفحاه بعض التنقيح بيد انهما لم يخرجا بهِ من حيز التقليد ولم يردا اليه نسمة الحياة ، وكانا فيما صنعاه في هذا الفن كالذي يطلق الطائر السجين من قفصه وينسى انه مقصوص الجناحين كليل العينين يحس قضبان القفص حوله أينما سار

٭٭٭

حدثني بعض أصدقاء الشيخ سيد الذين حضروه في تلحين أدواره ومقاطيعه انه كان اذا قصد التلحين أخذ الورقة التي كُتب فيها الكلام شعراً أو نثراً فقرأها في نفسه قراءة متفهم متأمل يستشف روح معانيها و إيماءآت ألفاظها ومضامين اغراضها ، ثم يتلوها جهرة لتصحيح كلماتها وفواصلها ، ثم يرفع الصوت مؤدياً كل

جملة بما يوائمها من لهجة الدهشـــة أو الغضب أو الحنان أو الفرح أو الزهو أو الوجوم . فاذا تم له ذلك هداه اختلاف اللهجات في تلاوة الجمل الى اختلاف الالحان التي تناسبها ، فيخلو بنفسه هنيهة ثم يعود الى رفاقه وقـد أفرغ عليها الحانها الدائمة فلابستها بعد ذلك التفهم والانعام ملابسة الأهاب المشرق الصحيح لجوارحه السليمة القوية ، فتسمعها كأنك تسمع تفسيراً موسيقياً لدقائق المعـاني وكوامن الاحساس أو ترى صوراً طيفية تنسجها لك الموسيقى من خيوط النغم ونياط القلوب ، وطريقته في استيحاء الموسيقى طريقـة العبقريين الغربيين إذ يستفتحون أبوابها بين مناظر الليل والنهار واصداء الرياح والأمواج ولمحات البروق والنجوم ، فكثيراً ما كان يبيت عند شاطيء البحر ليالي متواليات يصغي ويتوسم ويغمغم ويترنم الى أن يسلس له النشيد كما يريد ، وكثيراً ما أحيي الليل الى الفجر يستقبل أنداءه وأنواره ويترجمها شدواً بديعاً يطلع على الأسماع بمثل الفجر في حلل الانداء والانوار ، ولحنُه في رواية هدى حيث تظهر أشباح الأجداد عند القناطر الخيرية في مطلع الفجر قد صيغ في ذلك المكان في تلك الساعة بعد ليلة ساهرة لم يغمض له فيها جفن ولم يكف لحظة عن التهيؤ « للقدر » المأمول والوحي السعيد

وكان الشيخ سيد يستعير بعض الانغام القديمة ليعيدها على أغان جديدة هي بها أشكل وعليها أكيس وأجمل ، ثم لا يخفي الاستعارة

ولا يدعي ما ليس له على عادة بعض الادعيـاء عندنا ، فأذا وضع اللحن مبتكراً أو مستعاراً حرص غاية الحرص على أن يؤديه المنشدون كاملا مضبوطاً كما أُوحي اليه ونقل عنه ، فلا يطيق أن يتصرف فيه متصرف أو يعبث به عابث من عشاق التزويق والترطيب . وبلغ من فرط غيرته على صناعته انه سمع ليلة احدى الفرق تنشد الحانه في بعض الروايات فهاله ما وجد فيها من التحريف وجن جنونه من الغيظ والهياج وجعل يصيح : أهذه موسيقاي ؟ أهـذه موسيقاي ؟ ثم أغمي عليه لتوه وقيل لى انه ظل بقية حياته يرغبونه في العمل مع تلك الفرقة بالأجر الغالي والتوسل الكثير وهو يأبى عليهم أشد الاباء

***

وترى السيد فترى منه رجلا موسيقياً بخلقه وخليقته . فكان رحب الصدر قوي الحنجرة أهرت الشدقين واسع المنخرين عالي الجبين ، وكان ما شئت من جزالة الصوت ووفائه وتجوفه وامتداده ومطاوعته إياه في أصعب الالحان وأسهلها مطاوعـة لم نسمعها لمغنٍ غيره ، وجُبل الرجل على شـدة الايمان وطيب القلب فكان يتصدق على الفقراء ويصفح عمن أساء اليه ويؤثر الخـير والحسنى ويبتعد عن اللجاجة والاذى ، وآفته الكبرى انه استهتر ببعض المخدرات في أول شبابه فأفسدت صحته على ما فيها من قوة عظيمة وصلابة نادرة

وعالج الاقلاع عن هذه العاده الوبيلة قبل موته فاعتزم التوبة الصادقة عن المخدرات جميعاً . ولكن لم تفده هذه النية لأنه مات بعد ذلك بأيام قليلة في شرخ شبابه ولم يتجاوز الثلاثين من عمره

اما مولده فكان في الاسكندرية في سنة ١٨٩٣ م من أبوين فقيرين ، وكان أبوه نجاراً معنياً بتعليم أبنائه فأدخله مدرسة تسمى شمس المعارف يتعلم فيها التلامذة تجويد القرآن وانشاد القصائد وتمثيل الروايات الصغيرة في ختام السنة على عادة أكثر المدارس في ذلك العهد ، فظهرت هناك موهبته الغنائية وزين له بعض اخوانه إحياء الليلات الخاصة ففعل ونجح فيها نجاحاً أغراه بالمثابرة والمزيد ، ثم انتظم في مسجد ابي العباس لتلقي الدروس الدينية فمكث فيه الى أن توفى أبوه وتركه ولا عائل غيره لصغاره وأهله ، فعمل مع صهره في بيع الأثاث أياماً ثم اختلفا فانفصل عنه واشتغل بالنقاشة فالعطارة يحترفها بالنهار ويحضر الليالي الساهرة والموالد التي يدعي اليها للغناء وترتيل المولد عند ابناء حيه الاقربين ، وكان يعطى في الليلة عشرة قروش في ذلك الحين ! ثم تألفت في الاسكندرية فرقة تمثيلية فاتصل بها مطرباً لها وسافر معها الى الشام ولقى هناك الشيخ الموصلي وبعض أساتذة الصناعة فاخذ عنهم الكثير من اصولها وفوائدها ؛ وعاد من ثم وقد كلف بتعليق علامات النوطة والاطلاع على كتب الموسيقى والتوفر على

دراسة مراجعها الميسورة لقراء العربية ،وأنشأ له فرقة للغناء في القهوات فاستقل بنفسه في تأليف الادوار وتلحينها ونبغ في ذلك نبوغاً لفت اليه عشاق هذا الفن وأساتذته ، فأعجبوا به وشجعوه وذكروه بالثناء

ويعرف أخصاؤه انه وضع كل دور من أدواره في حادثة من حوادث غرامه فلم يخل من فضل للحب عليه في اذكاء قريحته وتهذيب فنه وإغرامه بصناعته، وكأنه طبع على حب التجديد وسلامة الذوق فكانت نفسه تعاف لوازم المغنين التي طفقوا زمانا يرددونها في جميع الأغاني والأناشيد « كياليل وياعين » وما شابه ذلك مما هو في الغناء كوصف الطلول والنياق في الشعر والادب ،وقد عدل عنها بتة في أدواره الأخيرة ونبذ التكرير الذي لا معنى له فلا تسمعه منه الا في « اسطوانات » يؤخذ فيها بملأ صفحاتها الأربع وقد لا تحتاج مادتها الى أكثر من صفحتين أو ثلاث ، ولما اشتهر أمره في الاسكندرية نصح له بعض عارفيه بالانتقال الى القاهرة فانتقل اليها وعُرف فيها فضله وبدأ فيها صناعة التلحين المسرحي الجديد في اللغة العربية ، فبذ كل منافس وجاءت له في هذه الصناعة آيات بارعات تشهد له بجودة الفهم ودقة الذوق وخصوبة الخيال ، وما زال يتفرد في تلحين الروايات المختلفة حتى عرض عليه اربعمائة جنيه في تلحين رواية قبل موته بشهور

ولم يكن هذا الاقبال وهذا الاعجاب ليخدعاه عن جلالة فنه الذي

وقف عليه حياته أو يميلا به الى الدعة واستمراء هـذا الربح الوافر

المضمون ، فتاقت نفسه الى التبحر في فنون

الموسيقى العالية وأجمع عزمه على ادخار المال والسفر



الى معاهد الغرب المشهورة ليستقصي فيها اصول الموسيقى وفروعها على كبار الاساتذة المنشئين . ولو أُملي له في العمر حتى ينجز هذه العزيمة لكان لمصر منه نابغة في فن الموسيقى وعلمها لا يقصر عن أكبر النابغين بين أعلام الغربيين ، ولكنه فوجيء بالموت الباكر وهو يتأهب على ابواب مستقبلة المجيد ، فذهب بموته ذلك الاجتهاد المكسوب وذهب معه ذلك الأمل المنظور

* * *

على انه اذا كان قد فاته أن يسبح في آفاق الموسيقى العالية وان يهبط الى سراديب أسرارها الخفية فأن له لحسنات في بعض الأغاني والالحان الصغار لا ندري كيف كان يسبقها السابقون ولو اجتمع لها كل من في الارض من المنشئين والعازفين



خواطر في الاخلاق

حول شخصية غريبة — الطاغية

من الأبيات المنظومة التي يحفظها كل تلميذ مصري في صغره هذا البيت المشهور في تزكية علم التاريخ

ومن وعى التاريخ في صدره　　أضاف أعماراً الى عمره

ولكننا نظن ان التمثيل اولى بهذه التزكية من التاريخ . لأنه يعرض لنا الأعمار وأطوار الحياة فتشربها نفوسنا وتتغذى بها أرواحنا ونعود بعد رؤيتها وكأننا عشنا كل عمر من تلك الأعمار واستخلصنا لأنفسنا كل طور من تلك الأطوار . واذا وُجدت للنفوس حالات وطبائع يعز على الحياة أن تصوغها في قالب واحد من اللحم والدم فقد يخلق التمثيل ذلك الشخص الذي عز على الحياة فيخرج لنا الطبائع النفسية والمواهب العقلية كاسية بالجسد المنظور تعمر في الاذهان مالا يعمره المولودون في الاجساد

٭٭٭

ومن «الشخصيات» التي عرضها علينا التاريخ والتمثيل معا شخصية «قيصر بورجا» الريبة العجيبة التي ظهرت في ايطاليا في عصر النماذج النادرة من رجال السيف والريشة والقلم ، والتي عد

(قيصر بورجا)

منها التاريخ في نحو جيل واحد أسماء كأسماء ليوناردو دافنسي وميكالانجلو ورافائيل وسافانرولا ومكيافلي وكولمبس ! وكلهم — بعد استثناء روفائيل — كانوا أبطالا غريبين عجيبين قل نصيبهم من «الانسانية» واشتد التقارب بينهم وبين الخلائق العلوية أو السفلية. فهم في الخير والشر اما مردة جبابرة تعنيهم «الفكرة» التي استحوذت على قلوبهم اكثر مما يعنيهم الاحياء الذين يعيشون بينهم ، وأما سحرة أبالسة يتقلبون في جو الخبث والجريمة كما تتقلب السمكة في الماء بلا استغراب ولا تهيب ولا ندم. فليوناردو الذي كان يترك المدينة تحترق تحت عينيه وينظر الى السماء ليرصد حركات الطيور ويستخرج منها قوانين الطيران ، وميكالانجو الذي كان يخلق العمالقة في الابدان والصروح ، وسافانرولا الذي كان يبغض الفن الجميل حبا للتقشف واحتقاراً لهذا العالم الفاتن المطرود من رحمة الله ! وماكيافلي الذي كان يبشر الملوك والامراء بدين الفتك والقسوة وكتاب الخديعة والنفاق ،

وكولمبس الذي كانت تضيق به الارض لانه يبتغي فيها طريقاً الى الغرب من بحر الظلمات وينشد الهند فتعثر قدماه بعالم جديد !

كل اولئك كانوا في مختلف المناهج والدروب رواد عوالم جديدة أو كانوا هم أنفسهم عوالم غاصة تمشي في أثواب رجال .

وما كان النابهين في ذلك العصر الا أن ينبتوا كما نبت أولئك الجبابرة اخلاطاً من القوى العلوية والسفلية لا يعنيها أمر الناس كما تعنيها مقاصد السماء وجهنم . او لم يكن العالم كله في عصرهم ميدانا تتقاتل فيه السماء وجهنم بما لديهما من الملائكة والشياطين ليهوي به الظافر الى مغاور ظلام أو ينجو به الى معارج نور ؟

***

أما «قيصر بورجا» فكان انموذجاً غريباً غامضاً بين هذه النماذج يستحق أن يخلق في الدنيا ليكون طرفة من طرف الفن ان لم يكن رجلا من رجال التاريخ ! كان وسيما رشيقاً قوياً يحسن الرقص ويركب الخيل ويصارع الثيران ويتلهى في ساعات الفراغ بطي قضبان الحـديد بين يديه ! وكان فارساً شجاعاً وسائساً حصيفاً وحاكما رفيقاً برعاياه جميل الادارة والتصريف ، وكان الى كل هذا قاتلا مجرماً بفطرته يقتل في هدوء وراحة بال كاجرام الذئب والثعبان أو كاجرام السيف الذي يقطع الأعناق والفأس التي تهشم الرؤوس بلا كلفة ولا تبكيت ضمير . قتل أخاه وهو في العشرين من عمره على

أثر ليلة راضية قضياها عند أمها يودعانها قبل السفر! ثم قتل زوج اخته وقيل إنه انما قتله وقتل أخاه من قبله لانهما كانا يقاسمانه سرير تلك الاخت التي كانت تضمد بين الاخوين! ولم يكن هذا الفتى الرشيق من طلاب المجالس وعشاق الملاهي والصبوات كدأب أمثاله «الدنيويين» ولكنه كان في حياته الخاصة كثير الخلوة يميل الى اعتزال الرجال والنساء ولا يقبل على موائد الشراب ، فهو دنيوي لا يألف الناس ومجرم مطبوع شديد الضراوة لا ينفر من سريرته كما ينفر المجرمون من سرائرهم ، وهو عبد مخلص لمطامعه ولكنه سيد للجريمة يسوقها الى يده غير منساق اليها بدافع من الغضب والاضطراب ، وهو وسيم الطلعة ممسوخ الطوية ولكنه قادر على اخفاء ما في قلبه فلا ينضح على وجهه الصبوح أثر من خبايا ذلك القلب المظلم الكنود ، أو لعله لا قلب هناك ولا مجاهدة في الاخفاء بل خواء أصم لا يشعر بنفسه ولا يدري بما يقع فيه

هذه صورة مجملة حفظ التاريخ خطوطها لذلك الطراز العجيب من الآدميين . غير ان المؤلف الذي أظهره على المسرح أراد ان يمحو من تلك الصورة بعض الظلال وان يصقل ما بقي من سوادها بصقال المعاذير . فكان قيصر بورجا الذي أنشأه روفائيل سباتيني في رواية الطاغية (١) خلقاً آخر غير الذي أنشأه التاريخ ،

(١) مثلت هذه الرواية للمرة الاولى في الاسبوع الماضي على مسرح رمسيس

وربما كان أجمل وأقرب الى الآدمية من الرجل الذي عاش بين أواخر القرن الخامس عشر وأوائل تاليه وبقيت لنا اخباره ونوادره ، ولكنا نفضل الصورة الأثرية الغامضة على هذه النسخة الجديدة اللامعة ! ونرى ان مؤلفنا الطيب هذا لم يرزق من خصب الخيال وصدق الفراسة ما رزقه زميله الروسي « مرجكفسكي » الذي ألهمته البداهة والذوق الفني مالا تلهمه « الاخلاق » والمداراة لسباتيني ومن على شاكلته . فجاء في روايته « الرائد » بأتقن « بورجا » وأتقن « مكيافلي » يهتدي اليهما الاختراع ويرضاهما الواقع المحفوظ

***

قلنا إن « قيصر بورجا » كان أنموذجاً غريباً بين الآدميين ، ولكن استاذ الشكوكيين وشفيع النقائص في زمانه (أناتول فرانس) يقول ان بورجا موجود في كل مكان مخبوء في كل انسان . كالظلم في طبائع الاحياء القوة تظهره والضعف يخفيه ، ويزعم « ان هؤلاء الأسبان الرومانيين (يعني أسرة بورجا) لم يخلقوا – على قدر ما نعلم – بقلوب مخالفة لقلوب كافة الناس ولا بعقول مخالفة لعقولهم ، وان عادة الاجرام التي طال فيهم عهدها لم تستأصل جذورهم من أرومة الانسانية ولم تقطع ما بينهم وبينها من عروق دامية يمتون بها اليها . . .

« . . . كلا ! ان البورجيين ما كانوا أعاجيب في الخلق بمعنى هذه الكلمة الصحيح ، وما كانت طبيعتهم الخلقية مشوبة بأية

آفة دخيلة مستسرة في تركيب البنية . فانهم لم يختلفوا في أفكارهم ولا في شعورهم عن أبناء سافيلي وجايتاني واورسيني الذين كانوا يعيشون حولهم . وانما كانوا خلائق عنيفة في ابان عنفوان الحياة . وكانوا يشتهون كل شيء وما كانوا في هذه الخلة إلا من بني الانسان ، وكانوا قادرين على أن يفعلوا كل شيء وهذا الذي أخرج منهم اولئك الجناة المرعبين ، ألا ان من الخطر أن نعمي أنفسنا عن هذه الحقيقة . فان في الجماعات الانسانية كثيراً جداً من البورجيين : أعني كثيراً جداً ممن ركب في طباعهم سعار الشره الى المال واللذات . ولا يزال في جماعتنا عدد كبير منهم يجوزون فيه ببنية شائعة دارجة ويخشون من رجال الشرط ! انما هي الحضارة التي تستنفد دوافع الطبيعة . أما الاساس في الانسان فذاك لا يتغير وذاك فظ شديد الأثرة والغيرة مطبوع على الشهوة والضراوة »

أفكذلك الانسان حقاً ؟ أو يبعد الانسان من مثل الانسانية وينفصل عن أساسها كلما ابتعد من مثال قيصر بورجيا وانفصل عن طرازه ؟ ان الآراء لا تتفق في هذا ولكن الرأي الذي نقلناه من مقالات أناتول فرانس شبيه به بل شبيه بالنغمة التي أذاعتها في هذا الزمان العقول المستنيرة التي أطفأت كل نور غير ما تسميه نور العلم الحديث !! وفي طليعتها زمرة العقول الفرنسية لأنها عقول الطلاوة والحقائق التي يستبد بها الفكر ويأبى عليها أن تلجأ الى حمى السريرة

وحظيرة المجهول . فالقول الفصل عند جمهورهم الآن ان الاخلاق طوارىء لا أساس لها في غير العرف وضعف تبرأ منه الطبائع القوية والارادة السليمة ، ويقول جورج دوماس وهو باحث فرنسي آخر « ان حالة الغم والتعب تلائم بزوغ الندم . فتنقض عقائد العرف في هذه الحالة على الروح المتعبة لتغمرها ثم لا تزال بها تتقلب فيها وترتع في جوانبها . والندم هو العلامة على ان عقائد العرف — وان شئت فسمها العادات الاخلاقيــة — قد ظفرت بغرائزنا ولا يتم هذا الظفر على الأغلب إلا في نوبات الغم والفتور ، ومن ثم يسوغ لنا أن نصل الى هذه النتيجة وهي : ان الحياة الصحيحة « غير خلقية » بطبيعتها وان الضعف والمرض والآداب الخلقية متزاملة بطبيعتها »

***

وقد يكون من اللغو هنا أن نرجع الى أدوار الهمجيــة الأولى لنتخذ منها حكماً على اصول الأخلاق ومثلها العليا . إذ كيفما كانت أخلاق الانسان في تلك الأدوار فليس من المسلم به أن حالة الهمجية هي الحالة الطبيعية الصحيحة بأي معنىً من معاني الصحة في الجسد أو العقل ، ولا من المفروض انها الطبيعة كأحسن ما يمكن أن تكون. فماذا يريد أن يقول ذلك الباحث الذي ينقب عن الضمير والآداب والاخلاق في الفطرة الهمجية فلا يجدها أو يجدها على غير ما نعرفه في هذه الازمان ؟ انه لا يستطيع أن يصــل من ذلك التنقيب

الى نتيجة تنفي أي شيء مما يثبته نصراء الأمثلة العليا في الآداب والأخلاق

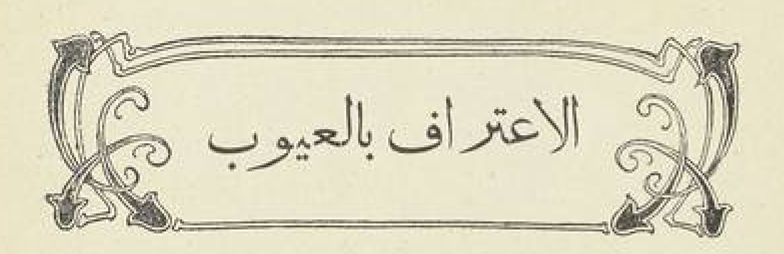
ولا يفيد الغاضين من أصول الآداب والأخلاق في تلك المباحث العقيمة والحقائق الناقصة أن يستكشفوا لنا رجلاً قوياً ميت الضمير أو عبقرياً عظيماً يقترف الجرائم ويستبيح الموبقات. فان هذه الكشوف المكشوفة للجميع لا تنتهي بهم إلا الى نتيجة بدهية من قبيل تحصيل الحاصل. لأنها لا تختلف عن القول بأن سوء الخلق عيب قد يكون في العظماء الأقوياء كما يكون في الصغار الضعفاء، ومن الذي قال غير ذلك؟ من الذي كان يحسب ان العظمة تنفي جميع العيوب؟ على أن ما يلاحظ على اولئك العظماء قد يقابل بملاحظة أخرى هي أصح وأجدى، وهي ان عيوب الخُلق تفشو في الضعفاء كلما اشتد بهم الضعف وعجزوا عن مكافحة الاغراء والتحريض، وانما يجوز لنا أن نبني على ذلك أن الخلق قوة واضحة وأن الجريمة والغواية ضعف وسقم

ومن خطأ التفكير أن يفهم باحث كجورج ديماس ان الأخلاق مزاملة للضعف لأن الندم يظهر على النفس في نوبات الغم والفتور. فان الندم ليس بأول ما يشعر به الانسان من بواعث الأخلاق ولكنه عاقبة تأتي بعد شعوره بقوانينها وتمكن تلك القوانين من ضميره وإحساسه. وسواء أكان الندم أول الشعور الأخلاقي أم

كان هو آخره فمما لا ريب فيه أنه ليس بالشعور الوحيد الذي تظهر به النزعة الأخلاقية في نفس الانسان . فان من الناس لمن تراه أقوى ما يكون حين تأخذه النزعة الأخلاقية وحين يقدم على المكروه أو يقمع هواه عما يحب بسلطان من القوة لا يقدر عليه الواهن الهزيل . وليس في استطاعة أحد أن يقول ان الضعف يخلق الآداب لأنه والندم يتزاملان أو يتجاوران . فمن قال ذلك كان كمن يقول ان ضعف الأبدان يخلق جراثيم الأمراض لأن هذه الجراثيم تسطو على الضعفاء وتجتنب الاقوياء

لا ! ليس قيصر بورجا بالمثل الشائع للنفس الانسانية وليس من الطبيعة الصحيحة أن يتجرد الانسان من العطف بينه وبين الطبائع الأخرى حين تتاح له أسبابه . ولتنكر « الحفريات » و « وظائف الاعضاء » كل واجب يثبته الضمير وتؤمن به البصيرة فلن يسعها أن تنكر هذه الحقيقة الجامعة وهي أن الواجب أساس الحياة واننا نصون الحياة ونحبها لأننا مقيدون بواجبها لا لاننا مختارون فيما نحب ونكره منها . وما دامت للانسان حياة فعليه واجب ، وما دامت تحيط به في هذه الأرض قوة اكبر من قوته وحياة اكبر من حياته فعليه — شاء ذلك أو لم يشأ — واجب فوقه ومثل عال أعز من الحياة

———•••———



الاعتراف بالعيوب

قال لي صاحب معجب بأناتول فرانس — أو مقدس له — على أثر ما كتبته في الاسبوع الماضي « عن قيصر بورجا » : اذن أنت من دعاة التستر والمداراة في الاخلاق ؟ ؟ وقبل أن يسمع جوابي في ذلك سألني : أو ليس الأفضل للعلم والبحث والأجدر بكرامة العقل والنفس أن نعرف « الطبيعة الانسانية » على حقيقتها وأن ندرسها كما هي على بينة بكل حسناتها وعيوبها

قلت ذلك أفضل ولا ريب . ولكن أ أنت على يقين أن هؤلاء الكتاب الذين يسمون أنفسهم تارة « بالطبيعيين » وتارة « بالواقعيين » ويسهبون في شرح شهوات الانسان وتهوين شرها وتوطين النفوس على الاقرار بها والارتياح اليها — أ أنت على يقين أن هؤلاء الكتاب يعرفون « الطبيعة الانسانية » على حقيقتها ويدرسونها على بينة بكل ما فيها ؟

والحقيقة اننا لا نرى جهلاً بهذه « الطبيعة الانسانية » اكبر من الجهل الذي يحرك تلك الاقلام باسم العلم والمعرفة والبحث

الحديث والدرس الصحيح . فما كانت « الطبيعة الانسانيــة » قط خلواً من حيز كبير فيها تهيمن عليه « الحقائق المطلقة » التي لا يحيط بها العلم وتنهضه وتنهض الطبيعة الانسانية كلها الى طلب الكمال والتغذية بالراحة واللذة ابتغاء ذلك المطلب المتجدد . ما كانت الطبيعة الانسانية قط خلواً من جانب موقوف على « المجهول » يوحي اليها أن ما تعلمه من شأنها أقل مما تجهل وان حياتها في هذه الأرض خاضعة لذلك « المجهول » كل الخضوع من جميع جهاتها وان كانت هي لا تعرفه ولا تملك الوسائل التي تسلك بهـا الى معرفته . فأين مكان هذا « المجهول » في آداب الطبيعين والواقعين ؟ أي حساب في كتاباتهم يحسبونه لذلك العالم المستتر الذي لا يفيدنا أن نغمض الأعين عنه وأن نفترض بيننا وبين أنفسنا انه في حكم العدم لأننا لا نقيسه بالأشبار ولا نزنه بالدراهم ولا نطرحه على مائدة التشريح ؟ أي شيء تراه في أقوال اولئك الطبيعيين والواقعيين يدلك على انهم يدركون اننا نقيم في دنيا تسير بنا من حيث لا نعلم الى حيث لا نعلم وليس في دنيا نسيرها نحن الى ما يسرنا ويرضي شهواتنا وتقف بها نحن عند ما يؤلمنا ويسوءنا ؟ ان اولئك الطبيعيين والواقعيين يصفون لك الانسان كأنه مخلوق مقتضب من الدنيا التي نجم فيها لا يطالب بأن يحسب فيها حساباً لشيء غير ما يعلم ويفهم ولا أن يمتنع من شيء إلا ما يعرف له علة ظاهرة من المبـدأ الى الختام ولا أن يسعى الى شيء إلا ما فيه له سرور وحظوة .

ويسألون : ما بال الانسان يحرم على نفسه اللذائذ التي تسره وتعجبه ؟ فان وجدوا لذلك مانعاً فلا يكون ذلك المانع إلا انها تصيبه بضرر عاجل أو آجل في جسده !! ويفوتهم ان تلك اللذائذ لو كانت انما خلقت لتسره وتعجبه — لا لأمر آخر وراء هذه الغاية — لما صح أن يكون فيها ضرر له ولا محظور يصده ، ولكانت مباحة له مأمونة العاقبة كلما سره أن ينال منها ما ينال

فكأن الانسان الطبيعي الواقعي هو ذلك الانسان الذي يعترف بالشهوات ويدين بها ويطمئن اليها ولكنه لا يعرف ان مجاهدة الشهوات ونكرانها من مطالب الطبيعة والواقع فى بعض الاحيان ! وحجته في هذا أن الشهوات موجودة قوية في الغرائز والميول !! كأنه كان يريد أن يسلم بمجاهدتها وهي معدومة أو ضعيفة لا تحتاج الى المجاهدة . . ! وهذه هي الطبيعة الانسانية كما يفهمونها . ! الطبيعة التي تجحد كل ما لا تفقه وتأبى أن تبذل « للمجهول » حصة من حظوظها ومسراتها لأن هذا المجهول لا يظهر لها ولا يقنعها في المعامل الكيمية والمجلات الدورية بحقه الدائم المفروض عليها ! هذه هي طبيعتهم الانسانية فهل هي « الطبيعة الانسانية » على حقيقتها؟وهل هم يدرسونها كما هي على بينة من كل ما فيها ؟

لا . فما طبيعة الانسانية في هذا العالم المسيطر عليها إلا كالجندي في الجيش الكبير . لا بد له فيه من طاعة ليس يعرف لها

سبباً وليس يلتمس لها علة. وسيبقى الانسان كذلك — وان قال بلسانه غير ذلك — ما بقي جزءاً محكوماً في هذا العالم المجهول . وسيبقى « للحقائق المطلقة » حصتها فيه سواء عليها أ أصلح بينها و بين تفكيره ومعلوماته أم وقف كلاهما من صاحبه على طرفي النقيضين

***

وما كانت شهوة من الشهوات الشيطانية التي يخرجها من قماقمها في هذا العصر كتابُ الواقع والطبيعة معدومةً أو منسيةً في العصور الماضية — أي في تلك العصور التي قضت عليها الأديان والعقائد أن تسدل الستار على شهوات الجسد أو تنظر اليها بعين الريبة والتوجس ، ولا كانت اللذائذ بغيضة الى الناس أيام كانوا يعفون عن ذكرها بهذا البذاء الذي تورط فيه كتاب العصر الحديث ، ولا كانت « الطبيعة الانسانية » التي يلفقونها سراً مدفوناً مكتوباً عليه أن يلبث في قبره الى أن تبعثه معجزات « الريالزم والناترالزم » في القرن العشرين ! كلا ! ما كان شيء من ذلك كذلك وانما الذي كان ان القدماء قد أحسوا ما نحس وأحبوا منه ما نحب وأبغضوا منه ما نبغض ثم زادوا علينا أن جعلوا للمستقبل نصيبه ورصدوا للغيب المجهول قربانه . وكانت علومهم ومعارفهم لا تناقض « الحقائق المطلقة » في أزيائها التي ظهرت لهم يومئذ بها . وبعبارة أخرى لا تناقض الأديان والعقائد وما هو في حكمها من المذاهب

والفلسفات . فلما جاءنا العلم الحديث يخلع تلك الأزياء ويمزقها ويرد كل لحمة فيها وسداة الى نسيجها حسبنا أنها كانت أثوابًا لغير لابس وأغطية قائمة على هواء وخلطنا بين الحقائق التي لا وجود لها والحقائق التي لا تقبل الحصر والاحصاء والتي ستظل أبداً مطلقة من كل قيد لا تبدو للأعين إلا في كساء من الرموز والكنايات . ومن حقنا نحن أن ننفي كل ما نقدر على نفيه بالدرس والبحث والتفكير ولكن هل من حقنا – مهما بلغ الغرور منا – أن نؤكد ان الحقائق يجب أن تكون كلها محدودة محصورة قابلة للترتيب والتبويب لأننا نحن لا نقدر على أي ادراك للحقائق في غير هذه الهيئة وبغير هذه الوسيلة ؟ أفي العقول السليمة عقل واحد يشك في ان « الحقيقة المطلقة » موجودة وان كنا نحن لا نستوعبها ولا يمكننا أن نصل الى استيعابها ؟ ومتى كانت هذه الحقيقة موجودة بيننا محيطة بنا فأي عقل سليم يحيك فيه الظن بأنها بعيدة منا مغلولة الأيدي عن الوصول الى عقولنا ونفوسنا والظهور في أخلاقنا واعمالنا واتخاذ الاشكال المحدودة المحصورة التي تستوي بها بين أفكارنا وهواجسنا ؟ ؟ أنقول ان العلم الثابت المقرر لا يقبلها على هذه الصفة ولا يدري كيف يوفق بينه وبينها ؟ حسن ! لندع العلم اذن وشأنه فيما يدريه وما لا يدريه ، ولنعلم اننا نحن نملك هذا العلم ونسخره فيما نريد أما الحقيقة المطلقة فهي تملكنا وهي

تسخرنا فيما تريد، ثم هي التي تلهمنا أن نوفق بينها و بين العلم على بعد ما بين الظواهر من خلاف

لقد ظهرت « النسبية » على يد « إينشتين » في أوائل هذا القرن ونعتقد نحن أنها ظهرت على النفوس مشرباً في الأخلاق قبل أن تظهر على الورق مذهباً في العلوم . ومضى على الناس قبل « النسبية » زمان طويل كفروا فيه بكل رأي مطلق في الفضائل والمحامد وقاربوا بين أعلى المحاسن وأوضع المساوىء بسلم ملتوي الدرجات من الشبهات والاحتمالات . فلا فضيلة تحمد على اطلاقها ولا رذيلة تذم على اطلاقها . لا شيء – وان عظم – إلا وفيه جانبه من الصغر ولا شيء – وان صغر – إلا وفيه جانبه من العظمة . إفعل ما شئت فلك مشبه في فعالك بين الكبراء والممدوحين ، واترك ما شئت فلك مشبه في تركك بين العاملين والمقتدرين . وقد يضر الخير وقد ينفع الشر وقد تحسن النية والثمرة زرية قبيحة وقد تقبح النية والثمرة شهية جميلة . وهكذا وهكذا من فروض هذه « النسبية » التي مشت فيها المحامد الى جانب المثالب ولحقت فيها المساوىء بأذيال الكمالات ، والتي سجلتها الاخلاق قبل أن تسجلها العلوم فأصبح لكل مليح وجه من الدمامة ولكل دميم وجه من الملاحة و بطل الجهد في طلب الاتم الاكمل مذ صار أرفع العلو قريباً من أوهد الحضيض في هذا الاعتبار

***

وتقدمت « الديموقراطية » قبل ذلك فوسعت للفرد من الحرية الى حدها الاقصى وجعلته غرض نفسه يفعل ما يروقه وينبذ كل حق للأمة أو للانسانية عليه فيما يخصه . فأصبح السرور هو دين العهد الجديد لأنه مطلب يعرفه كل فرد ويتوق اليه بسائق من طبعه غير ناظر الى عواقبه فيما بعد لذته وحريته .

وربما كان من آثار الديمقراطية في الاخلاق — غير هذا — انها أزاحت الستار عن أسرار سياسة الأمم فزال غشاؤها الذي كان يحجب فضائحها وخبائثها واشترك الصغير والكبير في فهم ضروراتها وحبائلها وعلم العلية والسفلة ما يكمن وراء الفتوح والغزوات والألقاب والمظاهر من الخسائس والدنايا فالتبس عليهم الأمر وضعف الوازع الأدبي في ضمائرهم وساءت ظنونهم بأصول الاخلاق ومقاييس الاقدار ووقر في أذهانهم أن مقادير الأمم - بله الافراد — لعبة في أيدي الشهوات والأكاذيب بعد أن كانت ولا سلطان عليها في رأيهم لغير الله والمجد والشرف والأبهة والجلال

***

ومن دأب المدنية أنها تعقد التآلف بين نقائض النفس الواحدة كما تؤلف بين أشتات الأمم البعيدة واخلاط الشيع المتنافرة ، فيلتقي خير ما في النفس وشر ما فيها وجهاً لوجه في كل حادثة وكل يوم ويتعود الانسان أن يطمئن الى عيوبه المعهودة وان ترتفع الكلفة

بين خصاله المشروعة وعاداته المحظورة ، فلا يتجهم حميدها لذميمها ولا يخجل شريفها من وضيعها . ثم لا تلبث الحواجز بينهما أن تقترب أو تتصل ولا تزال العادة تُضعف النفرة وتمحو الغضاضة حتى يجرؤ أردأ مافي النفس وأسوأ ما تحتويه من الخبايا المكتومة على البروز جنباً إلى جنب في وضح النهار مع أشرف سجاياها وأفخر مكارمها وطيباتها

وهذه العادة المدنية هي سر التسامح الذي يمتاز به الحضرى على سكان الريف وابناء الامم الجافية ، وانمـا مداره كما رأيت على التسامح بين أجزاء النفس الواحـدة والتفاهم بين الجانب المشرق الظاهر منها والجانب المظلم المستور

ولكن لاتسامح المدنية ولا تبذل الديمقراطية ولاانهيار العقائد القديمة القائمة على أسس « الحقائق المطلقة » — لا شيء من ذلك بقادر على أن يخرس في الفطرة الصادقة القوية ذلك الصوت الآمر الذي يفتأ يهتف بالانسان في أعمق اخلاده أن «للمجهول» حساباً يحسب ، وأنه هو جزء محدود من كلٍ لا حد له ، وأنه بعد أن يُوفّي نفسه حظها و بعد أن يرعي للمجتمع حقه وبعد أن يرضى في هذه الأرض من يلزمه الرضى — يبقى وراء ذلك دَين دائم لافكاك منه يتقاضاه صاحبه من سرورنا وأهوائنا وآمالنا وأفكارنا . وما صاحبه إلا ذلك الدائن الذي يلف النفس و « المجتمع » والانسانية والحياة بأسرها في اطواء قدره

وقضائه ، والذي لا يمكن أن يكون معدوماً موهوماً ثم لا يمكن أن يكون موجوداً حقيقياً ولا يتقاضانا قربانه المختار من صفوة ما نملك ونخبة ما نحب

* * *

أن الانجليز يعلمون كل ما يعلم الفرنسيون من المعارف ويمارسون كل ما يمارسه أولئك من الشهوات ويفهمون كل ما يفهم جيرانهم الاذكياء من « الطبيعة الآدمية » والحرية الديمقراطية ، ولكنك لا ترى في مسارح لندن ما تراه في مسارح باريس ولا تقرأ في اللغة الانجليزية ما تقرأه في اللغة الفرنسية من كتب الخلاعة والمجون ولا تشعر بالاباحة في بيئة الانجليز كما تشعر بها في بيئة الفرنسيين ، ولم ذاك ؟ ؟ أمحض رياء ونفاق كما يقول ظرفاء فرنسا الهازلون ؟ كلا ! وإنما جعل الانجليز كذلك من جعلهم من أصدق الناس إيماناً وأصدقهم شعراً وأصدقهم رزانة وأصدقهم بداهة في استكناه طبائع بني الانسان ، جعلهم كذلك خلق متين يذكر الحرية ولا ينسى الحدود ويحس بالجانب المحجوب في هذه الدنيا كما يحس بالجانب المكشوف

لنا أن نعرف « الطبيعة الانسانية » ولكن علينا ألا ننسى أن الانسان لم يصعد في سلم الخلق انساناً ليظل حيواناً في كل شيء . ولنا أن نعترف بالشهوات والعيوب ولكن علينا ألا نتخذ من هذا الاعتراف نشيداً نتغنى به غناء الافتخار ونحرق حوله بخور البشرى والانتصار



عند الصحراء

أخيلة وأشباح

صحراء الماظه القريبة الى المدينـة لا الصحراء الـكبرى التي يستوي فيها الخراب على عرشه الأكبر ويقيم حوله من الوحشة والخوف أغوالَ الخيال حُراساً لم يذللها القيد ولم يروضها اللجام .

وهذه الصحراء « الماظة » ليست بالصغيرة في مساحتها ولا بالهينة في مراكبها لأنها تبدأ عند تخوم القاهرة وتضرب الى الشرق في بوادي الشام وجزيرة العرب . ولـكنها — لقربها الى المدن واحاطة العمار بها في كل موضع — تبـدو للوهم كأنها الوحش المـكبوح أحدق به نطاق الأسر من كل صوب ! أو كأنها صحراء بيتية صناعية أعدها الناس حول ديارهم لإيحاش أنفسهم من فرط الأنس بالعمار كما يعدون الشلالات والغيـاض في ساحات البيوت وأرباض المدن ، محاكاةً لشلالات الطبيعة النائية وغياضها المتأشبة في مجاهل الأرض والزمان

وتارة تعكس هذه الصحراء الصغيرة من روحها على المدينة الجديدة التي نبغت في جوارها نبوغ الجزر البركانية في عرض البحار، فيخيل اليك أنك تنظر حيالها الى مضارب خيام في العراء نفحتها نافحة من السحر أو تنزلت عليها كلمة من كلمات الله فانتفضت في أما كنها عمائر وقصوراً ومنائر وبروجاً يوشك أن يزول عنها السحر فتنطوي عن النظر وتدع الشاخصين اليها يعركون الجفون دهشة وذهولاً . فأنت ان شئت من هذه الصحراء في بادية بيتية، وأنت ان شئت من هذه العمائر في مدينة بدوية، وكلا النظرين يوفق لك من غريب الشعور ما لا يتفق في المدينة ولا في الصحراء!

***

والصحراء — ككل منظر جليل — تريك الحياة على وجهين مختلفين أبعد الاختلاف : هذا غاية في العظمة والسمو وذاك غاية في الصغر والمهانة . تنظر الى النملة الضئيلة فيها وهي تدب على الأرض الموات بين الشقوق والأخاديد فتملأ من نفسك فراغاً شاسع الأطراف عميق الأغوار خفي الشعاب مجهول البداية والنهاية موصولاً بالأبد الذي لا أول له ولا مقياس لقربه وبعده : فراغاً تدركه على حين غرة قائماً أبداً كالهاوية المسدودة بين الجماد الميت الذي تراه ثم حينما وليت ببصرك وبين هذه المخلوقة الصغيرة التي تبصر وتسمع وتأمل وتخشى وتحب وتبغض وتعرف لها وجوداً تؤثمن

عليه وتستقل به وتواجه به الكون قاطبةً في فترة عابرة من الزمن، فتقوي عليه بحياتها اكثر مما يقوي هو عليها بأرضه وسمائه ومائه وهوائه وحره وبرده وكل حركة من حركاته وناموس من نواميسه، وتقف هـذه المخلوقة الصغيرة في جانب وتلك الصحراء المترامية في الجانب الآخر فاذا هي أعظم منها قدراً وأهول منها سراً وأضخم من كل ما فيها من الآكام والهضاب والزلازل والاعاصير، وتحدق أنت بعينيك هذا البرزخ السحيق الذي لا يُعبر ولا يحد فتستعيد في ضميرك سياحة الحياة من آزالها المجهولة وأصولها المستورة، وتعلم أنها ان كانت تقاس بالعمر بسبعين أو ثمانين أو مائة دورة من دورات الأرض في الفضاء فانها بالكنه والطبيعة سياحة لا مبدأ لها ولا ختام ولا أوج لها ولا قرار

إن الحياة في المدن رخيصة مبتذلة لأنها كثيرة مألوفة يقاس بعض بمقياس بعض. أما في الصحراء فلا مسحة على الحياة من ذلك الابتذال ولا هي تقاس إلا الى الموات المنتشر في كل مكان الذي بينه وبينها مالا يحد ولا يدرك ولا يتخيل. وما رأيت حياة في صحراء الا تصورت المعجزة الكبرى تعاد فجأة على مشهد مني في ومضة من نور النجوي والاطلاع: معجزة الحياة تظهر لأول مرة بين أحضان الجمود والعماء! ويالها من ومضة بارقة تنير الاكوان كلها في طرفة عين بنور نافذ كنظرة الله. فهل لمحتها؟ هل تخيلتها؟ هل شعرت بها؟

إن لحظة تقضيها في استحضار تلك المعجزة لتجزينك عاجلا بسياحة الحياة التي حدثتك عنها كاملة شاملة تفيء اليك جملة واحدة كأنك أعطيت حيـاة كل حي ووجود كل موجود وبلغت العمق الذي لا تكون الحيـاة فيه الا ال « حياة » مطلقة مجردة لا أنواع فيها ولا أفراد ، فلا هي حياة انسان ولا هي حياة حشرة ولا هي حياة شيخ ذابلة ولا هي حياة طفل نامية ولكنها هي هي ال « حياة » التي يعب فيها جميع الأحياء في جميع الأحيان على حد سواء . وإذا ألهمتك الحشرة الدارجة في الصحراء هذا الشعور فقد أكبرتك ورفعتك وأطلعتك على آصرة الرحم التي بينك وبينها وأرتك في كل جسم حي هيكلاً مقدساً ينبغي أن يصان كأنه طراز مفرد لا مثيل له في هذا الوجود .

* * *

وتنظر الى الصحراء من وجه آخر فتهون عليك الدنيا وما فيها وتصغر عندك الحياة ومن يحرص عليها . ترى أمامك فضاء يحسر عنه الطرف على هذا الكوكب الذي يسكنه الانسان بين كواكب لا عداد لها في السماء ، وتراه قد فقـد ذلك الانسان ولم يشعر له بفقدان أو وجود ولم يعبأ له بحياة أو ممات ولم يحفل بمقام أو مغيب . وترى الى جانب ذلك الفضاء الغامر بقعة ضيقة من الأرض يحشد فيها الانسان جموعه وينشد لديها آماله ويفرق فيها من أوجاله ويحصر

لديها همه في العالم، ويحسب ان هذا العالم الذي لا نهاية له خواء بلقع إن لم يسعد هو بما يصبو اليه في تلك البقعة المكتظة بمن يزاحمونه عليها و يذودونه عن أنحائها، وما هي؟ بقعة كسائر البقاع لو أُلقيت في الصحراء لضاعت في جوفها كما تضيع فيه ألوف النجاد والوهاد، وماذا يدع بعده عليها مما يميزها عن تلك النجاد والوهاد؟ لا شيء. أو شيء كلاشيء..!

* * *

والقمر مأنوس المحضر حيثما ظهر، متبوع الخطوة أينما خطر، تبسم لك نضرته على الحدائق والمروج وتروعك طلعته على البحار والامواج ويستخفك لألاؤه فى مجالس الصفو والحبور، ولكنه فى بعض لياليه — ولا سيما فى المدن — يلوح لك انه يهبط بالسماء الى الارض ويقترب بها من منازل البشرية الوضيعة ويقوم لها فى عليائه مقام الخادم الحامل المصباح لملاهيها والمضيء لها الطريق في غواياتها ودياجيها، ويُعرّي للناس وجهها المحجب بالظلام المحروس بجنود الكواكب فتقول هذه السماء وهذه الارض قريب من قريب تلمسها الاعين وتهم بها الاكف! فلا حجاب هناك من ظلمة الغيب المتراكب ولا تلك العيون التي لا عداد لها تهولك بالسر المكنون الذي تفتح عليه جفونها سرمداً بلا هداية ولا وجهة ولا دلالة

أما في الصحراء فالقمر أبداً مهيب السمت موفر الحرمة يغض من الانظار ولا تغض منه الانظار، ان أخطأته حلية الجلال لم تخطئه حلية الحزن والألم . وأبصره على تلك السهوب الهامدة فريداً شاحباً مشدوهاً يتنقل في أجواز الفضاء بلا أمل ولا مقصد ولا اطمئنان فيشبّه لي هيئة الحسناء الواهلة جنت من الحزن على حبيب فقيد فجعها الموت في متعة عطفه وأنسه فلاذت بالقبور تهيم بينها على غير هدى وتحملها اللوعة الكاسفة الى غير قرار . ويجتمع لي ذلك الشبه الكئيب من شحوب القمر وانفراده وطوافه الذي لا يهدأ واقترانه بسمة الملاحة وخاطر الجنون في آداب الأمم ومن موات الصحراء وسكون المقابر الذي يخيم عليها،فيعوض هذا الحزن الشامل عندي ما غاب من هيبة السماء في ليالي الظلام

* * *

ان الصحراء تريك نفسك في منظار الحقيقة من طرفيه المتقابلين، تريكها كأعظم ما تكون وكأصغر ما تكون ، وهي لا تعرفك الى أحد ولكنها تعرفك الى نفسك ! ولا تقدم اليك صديقاً جديداً ولكنها تقدمك الى صديقك الذي بين جنبيك على غير ما تراه كل يوم . وكفى بذلك داعياً يكتب عليك فريضة الحج اليها كلما استطعت اليه سبيلاً



بائع القلوب

حدثنا جهينة الاخبار قال : هبطت في بعض أسفاري مدينة من مدن الغرائب ، فسمعت أن بالمدينة ساحراً قديراً يبيع القلوب قديمها وحديثها ويجتلبها من حيث كانت لمن يبذل له الثمن الذي يريد . ولقيني بعض سماسرته الكثيرين فقال لي : ألا ترد على الرجل مع الواردين فتشتري لك قلباً من الطراز الذي يعجبك ؟ فالقلوب عنده من كل طراز والناس مقبلون عليه من كل صوب ، ولم يبق في المدينة أحد غيرك لم يجرب حظه في هذه البضاعة العجيبة ! فتعال جرب أنت حظك فلعلك تحمد التجربة أو ترجع منها بنبأ طريف !

قال جهينة : فقلت للسمسار : اليك عني يا هذا ! لا حاجة لي بقلب آخر غير هذا القلب الذي لم أذممه ولم أحمده ولا أكاد احتاج اليه كله : أرأيت في وجهي أمارة على فتور في الدورة الدموية فأنت تغريني بشراء قلب آخر غير الذي ينبض في جانب هذه المعدة ؟ لا والحمد لله ! « وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه » ... وصدق الله العظيم

قال جهينة : ومضت أيام بعدها أيام وسنون تتلوها سنون ، وطوفت في الشرق والغرب وعرفت من طبائع الناس وأبناء العالم مالم

أكن أعرف ، وعلمت أن الانسان قـد يجوب من المدن ما يسعه فضاء الله ويبقى في نفسه بعد ذلك فضاء يجهله ويضل فيه إذا نزل بين مفاوزه وبواديه . وكنت أجوب الارض ولا ألقى بالا الى ذلك الفضاء الذي أحتويه بين جنبي . فلما انثنيت اليـه راعني ما رأيت وهالني ما جهلت ، وضحكت مني كيف كنت أرضى بقلب واحد أحمله ولا أكاد أحس به وعلى قيد خطوات تاجر للقلوب يبيع للناس ما يرتضون ! فقـد عرفتني الرحلة بعد الرحلة والتجربة بعد التجربة أن من يعيش بقلب واحد انما يعيش بغير قلب ! وان القلوب كالأحذية لا تصلح بفردة واحدة . . ! وخير للانسان أن يمشي حافياً من ان يمشي بحذاء ذى لونين . !

ونذرت لله لئن عدت الى تلك المدينـة ليكونن بائع القلوب أول من أقصد من سكانها ، وليكونن القلب الذي أنشده الى جانب قلبي أول ما اشترى من بضاعتها . وكنت قد استخلصت لنفسي من تجارب الأيام أن القلوب في هذه الدنيا واحد اثنين : فأما قلب ينسيك نفسك وتنسيه نفسه ، ويمتزج بقلبك فاذا هما شيء واحد لا ينفصل شطر منه عن شطر ولا تعرف له بداية من نهاية ، ويجري في الوئام على مذهب القائلين أن الحب اجتماع نفس كاملة من جزئين متشاكلين يتعاطيان السرور والحزن من معين واحد . ففي مثل هذا الحب لا تحسب الذنوب ولا تشكر الهبات ، لأن الانسان كأنمـا

يهب نفسه حين يهب صاحبه السرور الذي يستطيعه ، وانما ينتظر الشكر من يعتقـد أنه يعطي كل شيء ولا يأخذ شيئاً يعدل عطاءه ، وليس يدوم حب على هـذه العقيدة . بل ربما كان شعور المحب الصادق أنه يأخذ كل شيء من حبيبه ولا يعطيه هو شيئاً يستحق عليه شكراً

وإما قلب يتم لك وجودك ويكمل فيك « أنانيتك » ويستثير من قوتك ما كان خافياً عليك ويشبعك من إحساسك بكل جوانب نفسك ، ويجري على مذهب القائلين أن ليس الحب أن تمحي شخصيتان في شخصية واحدة كما يهجس في خيال الشعراء ، وانما الحب أن تكمل كل من الشخصيتين بالاتصال بالاخرى،فتشتد الغيرة في الحب لاشتداد شعور الانسان بنفسه ويغتفر المحب كل شيء إلا أن يُشارك في ذرة من عطف حبيبه .

وتخيرت بين الطرازين فاخترت الطراز الاول لأنني عرفت فيما عرفت أن خير الكمال ما ينمو فيك دون أن تشعر به أو تقصد الى طلبه . كذلك ينمو الطفل الصغير وكذلك ينمو كل طفل صغير في عالمي الاجسام والمعاني

فلما نزلت بمدينة الساحر يممت دكانه نصا وما نفضت عني غبار السفر ، فاذا هو أحفل ما رأيت وأعجب ما شهدت في الدكاكين . زحام على الأبواب لا ينتهي حتى يعود كما بدأ ، وقلوب معروضة

لا يتماثل منها قلبان في الخصائص والألوان ، فمن قلب ناصع البياض الى قلب حالك السواد ، ومن قلب أحمر قان الى آخر أصفر فاقع الى آخر لا لون له الى آخر كعنق الحمامة يبدو في كل لون ! ومن هذه القلوب المحترق المتوهج والبارد المثلوج ومنها الصحيح السليم والكسير المثلوم ، وأسعارها غاية في الشذوذ لا تدري كيف يقدرها الباعة والشراة – فهذا قلب محترق يكثر عليـه الطلب ويغلو فيه البائع ، وذاك قلب كسير يعـلو بقيمته على أضعاف ثمن الصحيح . وكل له آنية يحفظ فيها لا تشبه الآنية التي تصلح لغيره . فمنها ما يحفظ في صندوق من الذهب ومنها ما يحفظ في علبة من الحديد ومنها ما يحفظ في غلاف من الورق ومنها ما يحفظ في كوب من الماء . ومنها ما يحفظ في الهواء الطلق بلا آنية ولا وقاء ، والناس على الدكان بين ذاهب وآيب يصيحون ويهتفون ويعطون ويأخذون وهم فرحون أو متفارحون !

فانتظرت حتى سكت اللجب وخف الزحام وهدأ التاجر من حركة البيع والشراء ، فتقدمت اليه فتلقاني ببشاشة الساحر الذي تعود اصطياد القلوب : وقال :

يلوح لي أنك قادم الينا من بلد بعيد . فهل من طلب نفيس نخدمك فيه ؟

قلت : في ذلك أتيت ، ولا أطيل عليك فانك قد مارست التجارة وخبرت أصنافها وعرفت أوصافها فاذا ذكرت لك طرفاً من الصفة التي أريدها فقد أغنيتك عن الاسهاب في تفاصيلها . أليس كذلك ؟

قال : أرجو أن أكون عند حسن ظنك ! أتريد قلباً ؟

قلت : نعم ! قلباً يمتزج بقلبي وأنسى فيه نفسي وينسى فيّ ..... فلم يمهلني الرجل ان أتم كلماتي الوجيزة ، وضحك في شيء من الاشفاق والسخرية اللطيفة ، ونظر الى صاحبه في الدكان . . . : فلان ! هذا طالب جديد للمستحيل الرابع . . فهل عندك ما يرضيه ؟

فالتفت اليّ صاحبه متهانفاً وهو يقول : لقد انقطع عنا هؤلاء الطلاب منذ زمن بعيد ، وما احسبك الا غريباً عن المدينة ! فانظر ما تقول واعلم انك تروم منا مراماً عسيراً لا تقدر عليه ولا يقدر عليه أحد . أفلا يغنيك عن القلب الذي تنشده قلب سواه من لونه وان لم يكن من صنف بضاعته ؟ ان الذين سبقوك الى هذا الطلب قد انتهوا بعد اليأس الى القناعة بذلك ، ووجدناهم راضين عن الصفقة أو مكرهين على الرضا . فكن أنت مثلهم واطلب منا مثل ما يطلبون ، انك سترضى عن نصيبك ان شاء الله أو إن شئت ان تريح نفسك من عناء الامتحان بعد الامتحان والخيبة بعد الخيبة

والتفت الى الساحر وقال :

لو جئتنا قبل الآن لخدعناك وزينا لك من البضائع التي عندنا غير ما تصف . ولكنك جئتنا والتجارة رائجة والمطلوب اكثر من المعروض فلا حاجة بنا الى خداعك . مر بما تشاء من هذه الاصناف التي نبيعها ، فأن الدكان وما فيها جميعاً بين يديك

قلت : أحكي لك حكاية

قال : حسن . هات حكايتك !

قلت : زعموا أنه كان في مدينة لندن تاجر يدعى القدرة على كل شيء والاستعداء لتلبية كل مطلب . وزعموا ان ظرفاء المدينة كانوا يهزؤون منه ويعبثون به ويتفننون في تعجيزه بالمطالب الغريبة النادرة وهو لا يعجز ولا يني عن المحاولة والنجاح . فكان هذا يطلب منه فيلا في كذا من العمر وذاك يطلب فاكهة في غير أوانها وغيرهما يطلب نبتاً لا يغرس في بلاد الانجليز وهو يجيبهم واحداً واحداً ولا يزيد على أن يستمهلهم بضعة أيام أو أسابيع اذا اسرفوا عليه في الشطط والتعجيز ، فجاءه ذات يوم مداعب خبيث يطلب اليه حقيبة من البراغيث في أيام قليلة وحسب انه لن يقبل البيعة ولو أسنى له الثمن وبالغ فى الترغيب ! غير ان الرجل قبل كعادته وأرسل أعوانه في كل مكان ليأتوا له بحقيبة البراغيث فى الموعد المحدود . فجاسوا في كل مكان واحتالوا بما وسعهم من الحيلة على اقتناص هذه المخلوقات

الصغيرة التي تشبه القلوب في سرعة التقلب والانتقال . فجمعوا منها عدداً عظيما وعادوا به الى صاحبهم وأفرغوه في الحقيبة فأذا هو لا يملأ منها إلا النصف ولا سبيل الى الزيادة المرغوبة قبل انتهاء الموعد .. فاسقط في يد الرجل وهم بالاقرار بالعجز والاذعان للفشل لولا أن خطر له ان البراغيث لا تعيش بغير هواء وان الفراغ الباقي في الحقيبة لا يقبل الامتلاء الا اذا أراد الطالب براغيثة ميتـة وهو لا يريدها إلا حية تقفز وتلسع ..! وبذلك نجا من المأزق على غير قصد منه وفاز بسمعة التاجر الذي لا يقول « لا » لمقترح عليه وان تعسف في الاقتراح

فضحك الساحر ثم قال وهو يقبض بأصابعه على لحيته : حكايتك هذه ظريفـة ! أظنني فهمتها . فأنت تريد منا الآن أن نبدي لك من المهارة في جمع القلوب الشاردة ما أبداه ذلك التاجر العنيد في جمع البراغيث الطيارة ..؟ حسن ! فاعلم اذن اننا سنفعل الطاقة وما فوق الطاقة وسنرضيك جهد الرضى وان كان لا يخفى عليك ان القلوب اكثر شروداً وأسرع طيراناً من أطيش البراغيث ... حسن يا صاح ! عد الينا بعد أيام فستجد عندنا قصارى ما نستطيع في هذه الصفقة . وليتنا نستطيع أن نحتال لك بقلب نصفه كما تهوى ونصفه الآخر من الهواء !!

وانتظرت أياماً ثم عدت اليه فلم يسرع الى مقابلتي بتلك البشاشة

التي رأيتها على وجهه في المرة الاولى.فأوجست شراً . ولكني دنوت منه وسألته سؤال من يتهيأ للانصراف ، فأطرق قليلاً . ثم قال لي كأنما يخاطب نفسه : لقد أتعبتنا يا بنيّ وكلفتنا ما لا نطيق . ولكني آمل أن يوافقك هذا القلب الذي صنعناه لك في مصنعنا باشراف مهندسنا الاكبر ومخترعنا الأوحد ونطاسينا المدرب في جبر الكسير وترميم العتيق من القلوب !

فابتدرته سائلاً : العله قلب نصفه هواء ؟

فقال لا تعجل ! بل هو قلب من عدة قلوب . جمعناه لك من كل خصلة شريفة في القلوب التي لدينا وأخذنا الاخلاص من جانب والثبات من جانب والجمال من هنا والذكاء من هناك . وأتلفنا مائة قلب ثمين لنستصفي لك قلباً واحداً من خيرة ما فيها من الطيبات والشمائل الحسان . فعساه بعد هذا التوفيق والتنسيق يعجبك ويغنيك أو يقنعك بعض القناعة ولو الى حين

قلت : هذا يا سيدي مرقعة وليس بقلب ! هذا ليس بقلب واحد ولا هو بعدة قلوب . وماذا أصنع يا ساحري العزيز بمضغة من أشلاء الفضائل الممزقة جمعتها الهندسة ولم تجمعها الحياة . ! على انكم قد تعبتم فيه كما قلت فهاته أتفرج عليه واشتريه لأبيعه في غير هذه المدينة لهواة التحف المصنوعة والعاديات المهجورة . انهم قد

يشترونه ويفاخرون به كما يشترون كل زهيد رخيص من سقط الاشياء بالكثير الغالي من المال

وجاءوني به في مثل اللفائف التي تطوى على الجثث المحنطة. فاقشعر جسدي واستعذت بالله! ولم أتمالك أن أصيح بالرجل: يا هذا ان أرخص قلب عندكم في هذا الدكان لأنفس من هذه المضغة التي لفقتموها من مائة قلب مسكين! ومددت يدي اليه فسقط الف قطعة... وسقطت معه عناية الحكمة والهندسة والتجارة والاختبار! وصرخ الرجل لا حول ولا قوة إلا بالله! يا ضيعة القلوب! يا حسرةً على المال! يا خسارة الاختراع! ونظر إليّ حانقاً وهو يتهدج: أيسرك هذا يا سيدي؟ أما كان لك في هذا الدكان الواسع سلوة عن ذلك القلب الذي جشمنا صنعه الأمرين وضيعته أنت علينا في لمحة عين؟

وحرت في أمري لا أدري ماذا أقول وماذا أفعل وذكرت انني جنيت على الرجل هذا الغرم الفادح في غير اساءة أتى بها ولا منفعة أصابها ومن العدل أن أعوضه عن الغرم أو اشاطره حمله، فطيبت خاطره وهدأت روعه، وقلت له انني موفيك الثمن الذي تقترحه في ذلك القلب المحطم. فاقترح ما تشاء!

وكان الرجل قد تماسك وعاودته سكينة الشيخ ورصانة الساحر، فهش لي وتلطف في الاعتذار وقال: بورك فيك من رجل كبير

القلب كبير الطلب . كلانا خاسر أيها الصديق بغير فائدة ! ولست أقبل ثمنا تبذله دون أن أعوضك عنه بعض العوض من بضاعتي الكثيرة الباقية . هذه قلوب الدكان كلها فتأملها وتفرس فيها وخذ لديك نموذجاً لكل طراز يعجبك منها ، ثم جربها عندك أياماً أو شهوراً وتريث في التجربة ولا تغل في الاشتراط فلعلك بعد أن عاينت عاقبة القلب المحطم المجموع من شتى القلوب تخفف من الغلواء وتعثر بين أصنافنا على قلب جميل ان لم يكن هو بغيتك الموموقة فليكن هو أدنى اليها من سواه

ونادى مساعده في الدكان : يا فلان ! هات لصديقنا نموذجاً لكل صنف منفوس به على عامة الشراة ودعه ينتقي منها الأقوم الأقوم واحمل له ما ينتقي الى مأواه

***

قبلت الفكرة متفائلاً وحملت الهدية شاكراً ، ورجعت بالنماذج الى مأواي وفي نيتي ألا أعود الى الدكان إلا وفي يدي قلب اختاره واجتزىء به عما لا ينال . وطفقت أنزل بالمعيار درجة بعد درجة عسى أن يعلو في نظري ما لم يكن عالياً ويجمل عندي ما لم يكن بالجميل ، حتى لقد خشيت أن أعكس الأمور فأسيغ الكريه وأمج السائغ وأرى البياض في موضع السواد والسواد في موضع البياض . ثم تمردت نفسي عليّ فجأة فسئمت النزول بالمعيار الى ذلك الحد

وشمته وشممته وأبيت أن أخدع نفسي بأشد من خديعة التاجر لي لو أنه عمد معي الى التمويه والترويج

قال جهينة : ولا أثقل عليك بتفصيل ما رأيت فانه مرير أليم . وماذا أقص لك وماذا أدع من قلوب عيوبها أثبت من فضائلها وأكاذيبها أصدق من حقائقها ؟ فكلها من طينة واحدة في الصميم وكلها في الهوى سواء ! ورب قلب يحس ولا يعلم وقلب يعلم ولا يحس ، وقلب آخر يحس ويعلم ولكنه لا يصفو ولا يقنع ، ورب قلب يحب ولا يقول وقلب يقول ولا يحب وقلب آخر يحب ويقول ولكنه يتكلم بالأحاجي وينطق بألف لسان ! وجميعهم يلتقون في نهاية تخلف الآمال وتخيب الظنون

وعدت الى الساحر ولم ينقض الأجل المنتظر بيني وبينه فتهلل واستبشر وحسب انني ظفرت ببغيتي واكتفيت بما وجدت فأسرعت اليه قبل الأوان المنظور . فبدأني بالتحية وصاح بي : مبارك يا صديقي مبارك !

قلت بارك الله فيك على كل حال . وخجلت من مجابهته بالرفض لأول وهلة فبادرته بالكلام وعطفت عليه وأنا أقول : إنك قد أعطيتني هذه القلوب لأسعد بواحد منها . فما قولك فيمن قد عاف السعادة ؟ ما قولك فيمن يريد له قلباً يستحق أن يشقى لأجله ؟

فأدرك حقيقة الامر وأطرق غير قليل ، ثم جعل يهمس بين

شفتيه كأنه في حلم : أو تحسب الفرق كبيراً بين قلب يقدر على أن يسعدك وقلب يستحق أن تشق لأجله ؟ كلاهما يا بنيّ واحد في المعدن والقيمة . فاذا عدمت هذا فقد عدمت ذاك ، واذا انطويت على اليأس من أحدهما فلا أمل لك في صنوه الذي ينبت معه على أرومة واحدة

قلت : فاقتراح أخير أعرضه عليك . فهل لك في سماعه ؟

قال : هات ما عندك فما في ذلك ضير

قلت : قلبي هذا الذي بين جنبيّ . قد غنيت عنه الآن فخذه اليك ! واصنع به ما أنت صانع !

وكأنما بوغت بهذا الاقتراح فبدت الحيرة في عينيه وقال : بكم ؟

فأجبته كما يجيب الصدى . بكم ! ؟ واستولت عليّ سخرية كالغضب فنظرت اليه متعجباً وقلت له متهكماً : أأنت ساحر ؟ أأنت تاجر ؟ بكم ؟ بكم ماذا ؟ ؟ أي شيء يساوي قلب لا يجد بين هذه الخلائق التي لا حصر لها قلباً واحداً يستحق أن يشق لأجله ؟ خذ يا شيخ هذا القلب الذي لا يساوي تعب حمله ! خذه عني يا شيخ وأنت المغبون ! خذه واذكر قول ابن سينا :

اني عظمت فليس مصر واسعي   لما غلا ثمني عدمت المشترى !



صورة السعادة

لي صديق مصور كلف بتصوير المعاني النفسية والتعبيرات الغريبة على وجوه النابهين والعظماء . قال لي مرة إنه شرع في تخيل صورة مبتكرة للسعادة وأراني مسودة من ملامحها في خياله . فاذا هي صورة فتاة في نحو العشرين ممشوقة القد مرهفة الجوارح مستهامة بالسرور وضعت قدماً على الأرض ما تكاد تمسها مساً ورفعت الاخرى كأنها ترقص أو تتهيأ للرقص ، وسطع في عينيها بريق من نشوة الحبور كبريق الخمر في عيون السكارى ، وتهدل شعرها منثوراً يطير في الهواء حول جيدها ورأسها كالأشعة المذهبة حول الجذوة اللامعة ، وفي يديها دف ممزوق تنقر عليه في عنف وخيلاء ، وعلى الصورة كلها سمة التوثب والجموح تتراءى في نظرات العين كما تتراءى في حركات الأصابع وهزات القوام

وكان يريني المسودة ويشرح لي مقاصده منها ومواضع التعديل التي ينوي أن يدخلها عليها . فأعجبت بالصورة ولم اوافق على الاسم الذي اختاره لها . وقلت له : لو غيرت الاسم لتمت الاجادة وأمنت الانتقاد . سمها الطرب أو الفرح ، أما السعادة فلا أتخيلها يا صديقي على هذا المثال

وكانت معرفة الصديق المصور بخوالج النفس وعبارات العواطف أكبر كثيراً من معرفته بمفردات اللغة ومعاني الكلمات ، فقال لي وما الفرق بين الطرب والسعادة ؟

قلت : أنا اتصور أن السعادة هي الاكتفاء واليقين . وليس في هذين الشعورين معاً ما يجمح بقياد النفس ويثور بالاعضاء ، انما تكون النفس إذا اكتفت وأيقنت قريرة باسمة ووديعة حالمة ، وراضية في سكون وغبطة ومسترسلة في هناءة مضمرة ، اذا بدا منها أثر على الوجه فقد يكون ذلك الأثر أقرب الى السوداء والخشوع منه الى الابتهاج والعربدة ، أما الطرب فهو نوبة تملك النفس وتستفزها فتخرجها عن صوابها وتدفع بها الى الحركة في ثورة هياجها . فالنفس فيه مسخرة من خارجها لا تستطيع أن ترجع الى باطنها ولا تطيق أن تخلو الى ضميرها ، ولن يكون الانسان سعيداً وهو نافر من الخلو بنفسه مضطر الى إسكات الالم بالحركة وإخفاء القلق الذي يفعم الخاطر باللجب الذي يساور الاعضاء . السعادة راحة صديق ناعمة

تمسح على الوجوه والقلوب أما الطرب فهماز راكب يجور على مطيته وينحي عليها بسوطه . السعادة مظللة وارفة أما الطرب فساطع متلهب . السعادة ملك رحيم يرافق السعيد ويهديه ويسقيه من شرابه في صمت وسكينة وجمال أما الطرب فشيطان مريد يستولى على الطروب فيتحبط به ويعتسف قياده ويضله عن هداه

انني قد أتصور الوحش الفاتك طروبا ولكني لن أتصوره سعيداً ، وقد أتصور الآله الخالد سعيداً ولكني لن أتصوره طروبا ، فالسعادة كمال وأنس والطرب حاجة وقلق ، وبينهما من التباين ما يوشك أن يجعلهما من طبيعتين مختلفتين أبعد اختلاف

قال : وكيف تتخيل السعادة اذا أردت أن تصورها ؟

قلت : أول شيء لا أتخيلها في العشرين من العمر ، وانما أختار لها سنا يكثر فيها الوعي والدراية ويقل فيها الجهل والغرارة . لأن السعادة شعورٌ عاقل متزن سميح . وليس هذا الشعور مما تحسنه بنت العشرين ولا هي تراد لأجله حين يعشقها العاشقون . إن الطرب أغلب على هذه السن عاشقة كانت أو معشوقة ، أما السعادة فلها بعد ذلك سن يضيء عليها نورها الساجي العميم ولا يدع الاضاءة فيها كلها لومضات البرق وخطفات اللهيب

قال : وبعد

قلت : وبعد فاني اختارلها ملامح الرضى الذي يشوبه الحزن ، والامل الذي تلطفه الذكرى ، واللذة التي يطهرها الحنو ، والنشاط الذي يلوح عليه التعب ، وأجلوها في شارة لو جلست بها في مأتم لما ظهرت عليها غرابة ملحوظة بين شاراته . واصور سرورها الى داخل نفسها الذي تدركه البصائر وتناجيه العاطفة وليس الى خارج أعضائها الذي تسمعه الآذان وتنزعج له الحواس ، وأتوسمها حالمة في يقظة شاعرة ، وليست جامحة في غيبوبة الجنون وسورة الهياج

قال : إذن ما هي السعادة عندك ؟

قلت : انني لا أحاول تعريف السعادة حين أرسم صورتها أو استحضر ذكرياتها ، ولكنني هكذا أشعر بها حين أظنني سعيداً ، وأخال اننا لا نخطيء في الشعور بالسعادة ولا في طلبها إلا يوم تدخل علينا التعريفات والحدود ونبدأ في فهمها بالرأي قبل أن ننالها بالتذوق والاحساس . وقديماً خيل الى الناس أن السعادة نهاية ما يختلج به قلب الانسان من الفرح والبهجة فهي على هذا طرف فى هذه الجهة والغم الشديد طرف مقابل لها فى الجهة الاخرى ، وهي تثير الانسان طرباً وهو يثيره حزناً وهلعاً . وليست السعادة فرحاً شديداً يقابل الغم الشديد كما خيل الى الذين عرفوها هذا التعريف ، ولكنها يقين كاف في النفس لا يثور ولا يثير

* * *

والحق إننا إذا بحثنا عن السعادة بالتعريفات والحدود فقد نطلبها وهي تطرق بابنا وقد نعرض عن طلبها ونحن أحوج الناس اليها. وأحسب أن سعادات الصبا كلها من قبيل تلك السعادة المتنكرة التي نستمتع بها ولا نعرف ما اسمها ولا يخطر لنا أن نرفع القناع في تلك اللحظة عن محياها، وكأنني كنت في حالة قريبة من هذه الحالات يوم قلت في نحو الثامنة عشرة أخاطب السعادة

مه يا سعـادة عني   فمـا أنا من رجالك
لا تطمعي اليوم مني   بالسعي خلف خيالك
فقـد سألتك حتى   مللت طول سؤالك
وقـد جهلتك لمـا   سحرتني بجمـالك
إن الحبيب بغيض   إذا استعز بخالك
فـلا تمري ببالي   ولا أمر ببـالك
أشقى الانام أسير   معلق بحبـالك

ثم علمت لما انقضت تلك الأيام أن سعادة من السعادات التي نطلبها ونلح في طلبها قـد زارتني يومئذ مراراً وسألتني حتى ملت طول سؤالي خلافاً لما زعمتُ من انني قد سألتها حتى مللتُ سؤالها... وكان خطأي أنا انني لم أستقبلها بحفاوتها التي تستحقها، وكان خطأها

هي أنها لم تعلن لي حقيقة اسمها . ومضت كما قلت بعدَ سنين « كأنها قبلة في ثغر مخمور » !

ولما جاوزت الثلاثين وضح لي رأي جديد في السعادة الانسانية فقلت انها هي شيء خلق لنفسين اثنتين تشعران بها معاً لا لنفس واحدة تشعر بها منفردة . وأننا إذا طلبناها وحدنا فقد شطرناها شطرتين فلا تقع في حوزتنا الا وهي سعادة ميتة ...! وذاك إذ أقول :

أن السعادة لن ترا ها في الحياة بمقلتين
خلقت لاربع أعين تحظى بها ولمهجتين
لك مقلتان ومهجة أترى السعادة شطرتين ؟

على انك قد تغير رأيك في السعادة من عام الى عام ومن فترة الى فترة ولكنها هي فيما بين ذلك لا تحرمك زياراتها المختلسة على غير مذهبك أنت في آداب هذه الزيارات ، فانتظرها في كل زي وفي كل لحظة ! أو لا تنتظرها على الاطلاق ! فانها تجيئك في أكثر الأحيان على غير انتظار

وهناك سعادة واحدة تتفق عليها جميع التعريفات وتتوافى لديها جميع الآراء . تلك هي السعادة المطلقة . أو هي سعادة الاكتفاء التام الذي لا يتوق الى شيء واليقين الدائم الذي لا يعتريه شك ولا اشتباه . وليست تلك السعادة منا ولا نحن منها . لأنها فيما نظن هي سعادة الربوبية الغنية عن كل أمل والخلود الآمن من كل آفة . وهل

نطمع نحن في هذه الامنية ؟ بل هل نريد نحن في هذه الحياة أن نكتفي فلا نأمل وان نوقن فلا نرتاب ؟ كلا ! هذا ما لا نحبه ولا نريده ولا نناله اذا أردناه . فانما طلبتنا نحن معلقة بغير السعادة التي تتفق عليها التعريفات وتتوافق لديها الآراء — وإذا تركنا هذه السعادة المطلقة جانباً فقد بقيت لدينا سعادات كثيرة بغير حصر ولا تعريف وليس سعادة مفردة يحدها تعريف واحد .وكل واحدة منهن كالمرأة التي تحبها هي خير النساء وأجملهن في الساعة التي تتجلى فيها على قلبك وخيالك ! وكلهن قمينات أن يصاحبن أغرب خوالج النفس وأبعدها عن فكرة السعادة الدارجة في أوهام الناس . ولكنهن لا يخلون أبداً من علامة ثابتة تميزهن بها بين اخواتهن السعادات الدعيات الكاذبات ، وتلك هي علامة اليقين والاكتفاء !



المعرفة

« .... ليس لك بي معرفة سابقة . لكن اسمح لي أن اسألك سؤالا في غاية الايجاز وهو :

يمكن الانسان أن يفكر في الاشياء التي له عليها تأثير فعلى (وقد) يكون تفكيره وحكمه عليها صحيحاً لأنه هو المسيطر عليها . ولكن كيف يمكنه أن يحكم حكما صحيحاً على الاشياء التي تسيطر عليه مثل الكون ، والفضاء ، والطبيعة ؟ أن هذه الاشياء التي نسميها بتلك الاسماء ليست في متناول يد الانسان بل هي على عكس ذلك لها كل التأثير عليه وعلى تفكيره . وقد يقول قائل إن الأنسان له (عقل) يصل الي حيز معلوم من الادراك ولكنني أقول له إنه لو كان كذلك لما اخطأ في أمر ما وان ما نسميه عقلا كثيراً ما يخطيء في حكمه على الاشياء التي بين أيدينا ، فكيف يمكنه ادراك الاشياء البعيدة بل الموهومة . وأخيراً ما هو الخطأ ؟ وما هو الصواب في التفكير ؟ وما الدليل المادي الذي يقوم كميزان لهما ؟ هذا سؤال فارجو اجابتي عليه ولكم الشكر والثناء الجزيل »

حبيب عوض الفيومي

***

سؤال الاديب الفاضل واسع الاطراف عويص الموضوع. ولكنى أجيب عليه بقدر ما يسع المقام واقول له من مبدأ الامر اننا لا نعلم

علمًا صحيحًا مطلقًا قل أو كثر عن « كنه » شيء قط مما في هذا الكون

فاما أن كان المراد بالادراك أو المعرفة أن نلم بأوصافٍ واعراضٍ مما نحس وجوده في الكون فقد نصل الى حد من المعرفة ينفعنا في الحياة العملية وفي موضوعات التفكير التي ترتبط بها ، وقد نصل الى علمٍ ما عن الاشياء المحدودة وعن الكون الذي لا نعرف له حداً ، ويكون الفرق بين المعرفتين أن احداهما لها مقياس من الوقائع المحدودة تقاس به وأن الثانية لا مقياس لها ولا فيصل فيها بين أصول الخطأ واصول الصواب .

وأما إن كان المراد بالمعرفة أن ننفذ الى حقائق الاشياء من وراء أوصافها وأعراضها فنحن لا نعرف معرفة صحيحة عن أي شيء في الكون فضلاً عن الكون الذي يحتوي جميع الاشياء . بل نحن لا نعرف كيف تكون المعرفة الصحيحة عند « العقل المطلق » الذي يقدر عليها ويعلو في هذه القدرة على طاقة عقل الانسان

***

هناك شيء موجود وهناك عقل يعرف . والمعرفة الانسانية هي علاقة بين ذلك الشيء الموجود وذلك العقل العارف ، ولكن ما هي

المعقوص بشكل بديع . وكان ثوبها الشفاف يمكّن الناظر من رؤية تقاطيع جسدها الرائقة . أما ثغرها وصدرها فقد نازعا الأزهار بهاء الصنع وجمال التكوين . فلما تأمّل بافنوس فيها ، غضّ من بصرة ، وأجاب « الصوت » بقوله :

— لماذا تأمرني بمشاهدة هذه الصور ؟ انها ولا شك تمثل الحياة الترابية للكافر الدفين هنا تحت قدمي ، في قاع جب ، في تابوت من صخر بركاني أسود . انها تعيد حياة رجل ميت وتذكّر به . وهي على الرغم من ألوانها البرّاقة ليست سوى أظلال ظل ، حياة رجل ميت ! . . فيا للغرور ! . . .



فردّ عليه « الصوت » بهذه الكلمات :

— انّه ميت ولكنه قد عاش ، وأنت ستموت ولن تكون قد عشت .

من ذلك اليوم لم يذق بافنوس طعم الراحة قط . واستمر الصوت يكلمه بلا انقطاع . ونظرت اليه الضاربة بالطنبور محدقةً من تحت أهداب عينيها الطويلة . ثم كلّمته قائلة :

— انظر ! اني خفيّة وحسناء . فاحببني . وأفرغ في حضني

الهوى الذي يضنيك . انّ خوفك لا يجديك نفعاً ، ولن تستطيع الفرار مني . أنا جمال المرأة . فيا أيها المعتوه أين المفرّ ؟ سوف تجد صورتي في بهاء الأزهار ، في أناقة النخيل ، وطيران الحمام ، وقفز الغزلان ، وتموُّج الغدران ، وضوء القمر . واذا أغمضت عينيك ، وجدتني في سويداء قلبك وقرارة نفسك . منذ ألف سنة ضمني الى صدره الرجل الراقد هنا ، ملفوفاً بأكفانه ، فوق مضجع من حجر أسود . منذ ألف سنة تملّى القبلة الأخيرة من فمي ولا يزال رقاده معطراً بشذاها . انك تعرفني يا بافنوس حق المعرفة . فكيف تتجاهلني ؟ اني أحد تجسدات تاييس التي لا تعد . وانت راهب راسخ في العلم والمعرفة ، وقد سافرت ، والسفر خير معلم ، وكم من يومٍ يُقضَى في الغربة ويأتي بُطرف وفوائد لا تُنال في عشر سنوات تقضى في الوطن . لقد طرق سمعك أن تاييس عاشت قديماً في بلاد اليونان باسم « هيلانة » وكانت لها حياة أخرى في مدينة طيبة ، وأنا التي كانت تاييس طيبة . فكيف غاب عنك هذا الامر ؟ لما كنتُ على قيد الحياة ، اشتركت في اكثر خطايا العالم ، والآن وان كنتُ لست سوى خيال ، لا أزال قادرة على الاشتراك في ذنوبك وحملها عنك أيها الراهب الحبيب . فما مصدر دهشتك ؟ أيّان تذهب ، تجد تاييس حتماً امامك .

هذه العلاقة وكيف تكون ؟ أهي انتقال الشيء المعقول برمته الى العقل العارف ؟ لا ولا ريب . أم هي نفاذ العقل العارف الى جوهر ذلك الشيء المكنون وراء العوارض والظواهر ؟ لا كذلك ولا ريب. أم هي انتقال أوصاف من الاشياء الى العقول يمكن أن يطرأ عليها الاختلاف اذا اختلفت العقول أو اختلفت الأوصاف ؟ وظاهر أن إدراك الانسان هو من نوع هذا الادراك الأخير . ومع هذا لا بد لنا من التسليم بأننا لا نعرف كيف تنتقل تلك الاوصاف ولا كيف نضع الحد الفاصل بين الوصف العارض والكنه الثابت في ذاته ، ولا نعرف ما هي طبيعة القدرة التي تجعل العقل « عارفاً » ، ولا كيف يعرف العقل نفسه إلا كما يعرف الأشياء الأخرى التي قد يصيب فيها وقد يخطيء بمقياس الصواب والخطأ الدارج المألوف

• • •

لكن . هل في هذا الحكم ما يدعو الى اليأس من الوجود ؟

أما أنا فأقول لا . لأن الوجود شيء والمعرفة المعهودة شيء آخر، وليس من طبيعة الوجود المحتومة أن يعرفه الانسان أو غير الانسان ، فليست المعرفة هي الوجود أو الحياة وليس الجهل هو العدم أو الموت . وللانسان في هذا الكون شأن غير أن يعرفه ويحيط بسره ويدرسه بعقله عن طريقته المعهودة في درس معلوماته . شأنه في هذا الكون

أن يكون جزأً منه وأن يحفظ الصلة بينه وبينه ، وهذه الصلة ليست كلها من طريق العقل ولا كلها من طريق الاحساس . وانما هي صلة اكبر من ذلك . لأننا لا نتصور انفصامها في حين اننا نتصور انفصام ما بين الانسان وبين الكون من صلة العقل والاحساس

ومن خطأ العقل أن يحتم معرفته التامة بحقائق الكون أو إنكاره البات لتلك الحقائق . إن العقل لا يفهم حقيقة شيء في ذاته ، فليس امامنا إلا أن نفترض أحد فرضين : فاما ألا يكون هنالك حقيقة تفهم ، واما ان العقل يضع نفسه في غير موضعه حين يتصدى لاستكناه تلك الحقائق . والفرض الأول بعيد التصديق ، فلم يبق إلا أن العقل غير منوط بفهم كل صلة بين الانسان وهذا الكون الذي نشأ منه ، وان الصلة موجودة وان لم تكن معقولة . إذ نحن لا نكاد نتخيل أن يكون الانسان وليد هذا الكون بكل ذرة من ذرات خلقه ثم يخلو من الاطمئنان الى حقائقه والايمان بسره والاتصال بكنهه

هذه الصلة التي لا تُدرك بالعقل هي الصلة التي ينفسح فيها المجال للايمان والاطمئنان الى حقيقة الكون بحكم نشوء الانسان فيه لا بحكم سبب آخر . ولكي ندرك هذا المعنى أقرب إدراك مستطاع نتخيل أن هناك كوناً آخر مناقضاً لتركيب الانسان قد نُقل اليه الانسان بطبيعته التي هو عليها — فماذا يكون ؟ يكون انه لا يستقر فيه لحظة

ولا يطمئن اليه أي اطمئنان . فنقيض هذه الحالة هي الحالة التي بُنى عليها الانسان في كونه هذا . وهي حالة الثقة : ثقة صاحب الدار في داره ، أو هي حالة العقيدة والايمان

وللعقل أن يأخذ منا ما أعطانا . وليس اطمئنان العقيـدة من عطاياه فليدعه جانباً وليأخذ من معارفنا ما يشاء . وهو لا يمس ذلك الاطمئنان إلا في ظاهره ، ثم لا قوة له على باطنه الذي لا يسمع صوته ولا يحفل بقضاياه

العقيدة هي الثقة بالنفس أو بالـكون وليست هذه الثقة مستمدة من العقل . وانما هي مستمدة من طبيعة تركيب الانسان ومن كونه متصلاً بهذا الـكون الذي هو فيه بصلة الوجود والحياة

فهذه الثقة هي أساس العقيدة ، وأما الأديان والشعائر وفروض المعرفة الأخرى عن حقائق الوجود فتلك هي الاشكال التي تتمثل بها العقيدة للفكر أو للخيال ، وهذه الأشكال هي التي تخضع لنقد العقل ومقاييس التفكير

وقد تختلف أشكال العقائد الظاهرة فترد على الحس من الف مورد وتلبس للخيال لبوساً لا يلبث على حال واحدة ، ولـكن أساس العقيدة في النفس يظل بنجوة عن هذه النقائض ويسلم من سطوة النقد الصحيح ، كما يسلم المعنى الصادق من اختلاف الكلمات التي

تعبر عنه في لغات الناس ومن اختلاف الخطوط التي تسطر بها تلك الكلمات

* * *

وقد بدأت الجواب بقولي « اننا لا نعلم علماً صحيحاً مطلقاً قل أو كثر عن كنه شيء مما في هذا الوجود » وأختمه بأن العلم المطلق لا يدخل في حاجة الانسان ولا في مقدوره ولا في طبيعة وجوده ، وان للفكر علماً ثابتاً بالنسبة اليه يستطيع أن يعتمد عليه كل الاعتماد ما بقيت النسبة بينه وبين ذلك العلم محفوظة كما يقولون ، فهو اذا أخطأ في فهمه فخطأه ثمة سهل التدارك والاصلاح ، لأن وسائله المحدودة كفء لتلك المعارف المحدودة . . أما اذا هو تجاوز هذا الشاطيء الأمين الى غمر الحقائق المطلقة فهنالك لا حيلة له ولا سلطان على أصغر شيء من الأشياء ولا فرق بين الخطأ والصواب في تيه ذلك الفضاء الذي لا مبدأ له ولا نهاية

ولنسلم بأن « الموجود » شيء أعم وأشمل من « المعروف » ، وان الانسان لم يخلق ليعرف الوجود في حقائقه المطلقة ولكنه خلق ليكون جزأ حياً منه يتصل به بصلات كثيرة والعقل صلة واحدة من بين تلك الصلات ، فحسبه في دنياه ان يكون ذلك الجزء الحي المغروس في صميمها وأن تمتد صلاته بها من كل طريق والى كل غاية . انه اذا استطاع أن يكونه فقد باء من الحياة بأصدق المعرفة وظفر من الكون بأوفى نصيب



اثر المحدث في التأليف العربي

أمامي الجزء السادس من « مهذب الاغاني » الذي يصنفه الاستاذ محمد الخضري بك ترتيباً واختصاراً لاغاني أبي الفرج الاصبهاني . أفتحه فأجد فيه عشرين صفحة في ترجمة « ابن هرمة » أحد الشعراء من أدعياء قريش الذين أبقى ذكرهم ذلك الكتاب ، وأتصفح هذه الترجمة الطويلة فلا أعثر فيها إلا على حديث استماحة وعطاء أو منع وهجاء كثيراً ما يقول فيه قولا صريحاً إنه قد مدح من مدحهم لأنه أخذ منهم أجراً على ذلك أو هو يطمع في الأجر بعد المديح ! ومن هذا الكلام قصته مع السري بن عبد الله إذ نزل به وأنشده قوله « عوجا نحيي الطلول بالكثب » الى آخر القصيدة . فلما فرغ راويته (ابن ربيح) من الانشاد قال السري لابن هرمة : مرحباً بك يا أبا اسحق ! ما حاجتك ؟ قال جئتك عبداً مملوكا . قال بل حراً كريماً وابن عم فما ذاك ؟ قال ما تركت لي مالا

الا رهنته ولا صديقًا إلا كلفتـه . فقال السري : وما دينك ؟ قال سبعمائة دينار ، قال قد قضاها الله جل وعز عنك ، فأقام أياما ثم قال يتشوق الى بلده ويمدحه بأبيات هذا بعضها

أما السري فاني سوف أمدحـه
ما المادح الذا كر الاحسان كالهاجي

ذاك الذي هو بعد الله انقذني — فلست أنساه انقاذي واخراجي
ليث بمجر إذا ما هاجه فزع — هاج اليه بالجـام واسراج
لأحبونك ممـا اصطفي مدحًا — مصاحبـات لعمار وحجاج
أسدي الصنيعة من بر ومن لطف — إلى قروع لبـاب الملك ولاج

كم من يدلك في الأقوام قد سلفت
عند امرىء ذي غنى أو عند محتاج

فأمر له بسبعمائة دينار في قضاء دينـه ومائة دينار يتجهز بها ومائة دينار يعرض بها أهله ومائة دينار إذا قدم على أهله »

* * *

وقصته هذه مع السري مثل لجميع قصصه مع الأمراء والعظماء . لم يصنع في حياته إلا أن يستجدي ثم يمدح أو يهجو بكلام كذلك الكلام الذي قرأته لا براعة فيه ولا صناعة ، فما الذي أبقى ذكر هذا الرجل اثنى عشر قرنًا بعد موته ؟ وبم استحق أن نسمع اليوم اسمه وان يَسمع به مَن تقدمنا بعد القرن الثاني للهجرة الى الآن ؟ وكيف

هان الخلود هذا الهوان فبلغه مثل ابن هرمة وهو أغلى ما تسمو اليه الهمم وتصعد اليه الأبصار ؟ أبهذا الشعر الذي لا خير فيه ؟ أم بقدر كان له يرفع من قيمة الشعر ما فاته من رفعة الاجادة ؟ أم بمهابة لشخصه تغنيه عن مهابة القدر وبلاغة الشعر ؟ لا ! فان ابن هرمة كان دعيا منبوذاً في نسب منبوذ من أنساب قريش . ولعل أظرف ما في ترجمته ما رواه الكتاب اذ روى أنه نزل بعبد الله بن حسن في البادية وجاءه رجل من اسلم « فقال ابن هرمة لعبد الله : أصلحك الله . سل الاسلمي أن يأذن لي أن أخبرك خبري وخبره . فقال له عبد الله بن حسن : ائذن له ! فأذن له الاسلمي

«قال ابراهيم : اني خرجت أصلحك الله أبغي ذودا لي فأوحشت وتضيفت هذا الاسلمي فذبح لي شاة وخبز لي خبزاً وأكرمني ، ثم غدوت من عنده فأقمت ما شاء الله ، ثم خرجت أيضاً في بغاء ذود لي فأوحشت فضفته فقراني بلبن وتمر ، ثم غدوت من عنده فأقمت ما شاء الله ثم خرجت في بغاء ذود لي فقلت لو ضفت هذا الاسلمي فاللبن والتمر خير من الطوى ! فضفته فجاءني بلبن حامض . . !

فقال الاسلمي : قد أجبته أصلحك الله الى ما سأل ، فسله أن يأذن لي أن أخبرك لم فعلت

فقال : ائذن له . فأذن له . فقال الاسلمي : ضافني فسألته من هو ؟ فقال لي رجل من قريش . فذبحت له الشاة التي ذكر ، ووالله

لو كان غيرها عندي لذبحته له حين ذكر أنه من قريش . ثم غدا من عندي وغدوت على الحي فقالوا : من كان ضيفك البارحة ؟ قلت رجل من قريش . فقالوا لا والله ! ما هو من قريش . ولكنه دعي فيها ! ثم ضافني الثانية على أنه دعي من قريش فجئته بلبن وتمر وقلت دعي قريش خير من غيره . ثم غدا من عندي وغدوت على الحي فقالوا من كان ضيفك البارحة ؟ قلت : الرجل الذي قلتم عليه إنه دعي من قريش . فقالوا لا والله ! ما هو بدعي من قريش ولكنه دعي أدعياء قريش . ! ثم جاء لي الثالثة فقريته لبناً حامضاً ووالله لو كان عندي شر منه لقريته إياه . . . فانخذل ابن هرمة وضحك عبد الله وضحك جلساؤه معه ! »

فهذا نسب ابن هرمة . أما منظره فلم يكن مهيب الشخص لا في نفسه ولا في جسمه ، لأنه كان ضعيف الحال وكان كما وصفه الكتاب « قصيراً دميما أريمص » فلا شأن لنسبه ولا شأن لشعره ولا شأن لشخصه كما رأيت . فبأي معجزة نجا اسم هذا الرجل من غمار النسيان الذي طما على أسماء الملايين من ابناء تلك القرون الأثنى عشر ثم وصل الينا فعلمنا في زماننا هـذا أن انساناً اسمه ابن هرمة ظهر فوق هذه الأرض وتحت هذه السماء قبل الف ومائتي سنة ؟ وحفظنا له كلاماً قاله وأخباراً حدثت له بين من نحفظ لهم الكلام ونروي عنهم الاخبار ؟ لا تقل أن له شعراً تسلل في جانب أخبار الغناء التي أوردها

الاصبهاني فيما أورد فبقي بذلك ذكره وخلص الينا اسمه ولم يرزح تحت زحام الاسماء التي يصيبها الكلال والاعياء في أشواط القرون . فليس هذا سبب بقاء اسم الرجل . لأن كتاب الاغاني أثبت له أخباراً مسموعة غير شعره ولان الاصوات المائة التي اختارها ذلك الكتاب بتراجمها وقصصها وأشعارها لم تكن كل ما غنى به المنشدون في الدول العربية الى عهد أبي الفرج — فابن هرمة كان معروفاً إذن بغير كتاب الاغاني ومختاراً بغير اختياره ، وكان ابن الاعرابي يقول ختم الشعر بابن هرمة . . ! ولا بد من سبب آخر غير الغناء وغير رواية الكتب جعل اسمه بين الاسماء الطافية على عباب التاريخ ولم يرسب به الى أعماق النسيان التي هوي اليها من هو خير منه وأولى بالبقاء .

أما ذلك السبب فما أظن إلا انه هو هوان قدره الذي حسبنا انه كان خليقاً ان يُعفّي على اثره ويغض من شعره . فان هذا الهوان هو الذي سهل له أن يتجرد لكسب الرزق من الاستجداء بالشعر ولا يبالي اللوم على عرضه ولا على قومه . وما دام قد تجرد لنظم الشعر في مدح قوم وهجو آخرين فله من « الحياة البدوية » كفيل بالعيش الميسور والذكر بعد الممات ، إذ كانت هذه الحياة قد جعلت الثناء غاية مجد الماجدين وجعلت رواية الاخبار غاية حكم الحكماء وعلم العالمين

فأما حب البدو الثناء بالسنة الشعراء فقد جمعوا فيه كل ما فطر عليه الناس من حب الفخر والشهرة والخلود فقام لهم مقام التاريخ و « الرأي العام » والتماثيل وكل ما يحفظ به الذكر من الأنباء والآثار

وأما الرواية فهي غاية العلم عند العرب لأنهم قوم رحل لا زبدة لأعمارهم – بعد أن ينفقوها في ارتياد الكلأ ونقل المتاجر من بادية الى اخرى ومن حاضرة الى غيرها ومن حي الى حي – إلا هذه الزبدة من تواريخ الناس وعبر الحوادث وتجارب الأيام وقصص المشهورين والمغمورين . فمثل الحياة التي أُنفقت عندهم فيما يفيد ولم تذهب سدى في غير طائل هو حياة الرحالة الذي يعرف ما لا يعرف سواه من أنباء كل قبيلة ووقائع كل جيل ويطرفك بالخبر كلما كان بعيداً منسياً كان ذلك أدل على وفرة علمه وطول تجربته . ومن كان له هذا العلم وهذه الحنكة فهو الحكيم وهو الواعظ وهو الراوية وهو « المحدث » الذي يُصغى اليه وتلتمس المعرفة عنده

ولما تحضر العرب وقامت دولتهم في المدن كان جلساء الملوك في السمر والمنادمة كلهم من «المحدثين» باللسان أو ممن يؤلفون الكتب للتحديث في الورق . فغير عالم ولا مطلع في رأيهم من يغيب عنه خبر في قبيلة أو بطن من بطونها ، أو من يُسأل عن شطرة بيت قالها شاعر في ذي خطر فلا يكون له معرفة بها ونادرة عنها . وظلت هذه بضاعة الاديب العربي أو « الفقيه الادبي » الى سنوات مضت

نذكرها ونذكر كيف كان الادباء — ممن لا يزال بعضهم على قيد الحيـاة — يرودون المجالس بأساطير القبائل وأقاصيص الأعراب وصغائر الأنباء عن البائد المغمور منهم قبل النابه المشهور، ثم لاينسون بين حين وحين نادرة من نوادر الكرماء المحمودين الذين يجزون بالالف على القصيدة يُمدحون بها ويمنحون الضيعة في الكلمة يستفسرون عنها! ولولا هذا « التحديث » الذي غلب على التأليف العربي والآداب العربية والذي يغري بأجزال العطاء للمؤلفين والادباء لمـا بقي لابن هرمه واضرابه اثر في الاغاني ولا غير الاغاني ولا سمعنا عالمًا يباهي بالغريب كابن الاعرابي يقول انه كان خاتم الشعراء!

***

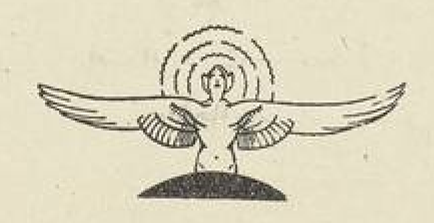
وليس ابن هرمة بالشاعر الوحيـد الذي استدر العطاء بالثناء، فهذه سنة غالبة بين شعراء العرب في البدو والحضر وندر بينهم من لم ينظم الدواوين الـكبيرة في هذه الاغراض، إلا ان الاكثر من هؤلاء كسبوا الشهرة والذكر بغير ما كسبوا به المال ورويت لهم حسنات شعرية — قلت أو كثرت — تحفظ لهم أسماءهم بعد موتهم ولو لم ينظموا حرفًا في المدح والهجاء. ومنهم من لا يُعرف له اليوم شيء من مدحه وهجائه غير ما يُراجع في صفحات الكتب أو يستظهره الدارسون والحفاظ. فهم شعراء ثم مستجدون بعد أن كانوا شعراء. أما ابن هرمة واضرابه فانهم مستجدون من مبـدأ الأمر ثم نظموا

الشعر لأنه اداتهم في صناعة الاستجداء . وهم خلقه المحدث وحده ولا مكان لهم في سجل التاريخ بغير اذنه

***

ولـكن لا يفهم من هذا انا لا نقرأ في « الأغاني » أو في المهذب إلا شعراً كشعر ابن هرمة وترجمة كترجمة حيـاته القاحلة العقيم ، فانما قصدنا الى العبرة من سيرة انسان كهذا بقيت اثني عشر قرناً وكان كثيراً عليه مسافة عمره من المولد الى الممات !

وأردنا أن نرى كيف تقتحم الصغائر مكانها الفسيح بين العظائم حتى في ساحة التاريخ وامام عرش الخلود ! ولا حاجة بنا بعد ذلك الى تنويه بأغاني أبي الفرج أو بمهذبه المختصر ، فقد أضاف به الاستاذ الخضري عملاً جديداً الى أعماله النافعة في الأدب والتاريخ





اغواء فتاة [1]

قال ابليس : كنت أتمشى في بعض أحياء القاهره وقد نهكني الفكر وأمضني اعمال الرأي وأنا مشتغل البال بمكيدة جهنمية أوقع بها ساسة الأمم في طامة مشكلة وحرب زبون [2]. فبينا أسير في طريق عامرة بالقصور آهلة بأصحاب الثراء والجاه القديم إذ حانت مني التفاتة الى نافذة في دار قوراء لمحت فيها فتاة عذراء مفرغة في قالب بديع من الحسن تنسجم على جسدها الغض غلالة بيضاء كأنها نسجت من رغوة الماء وخيوط الضياء ، تشف من بدنها عن بشرة صافيـة بضة ، ونهدين قاعدين كأنما ينفذان من خلال ذلك الشف الرقيق ، وقد اتكأت على النافذة تنظر الى الطريق وتتنسم الهواء

تلك هي صاحبتي الصغيرة مريم ، وما كنت أجهلها ولا أنا غافل

---

(١) هو فصل مستقل من فصول يشرح فيها ابليس اساليب اغوائه للناس

(٢) قد أفلح ابليس في تدبير هذه الحرب على ما يظهر فان الحرب العظمى قد اشتعلت بعد كتابة هذا الفصل بسنة واربعة شهور !

عنها . ولكنها كانت طفلة تمرح في حراسة ملائكة الطفولة فلا أجرؤ على الدنو منها ، وكانت زهرة في كمام الفضيلة فلا تمتد يدي الى اقتطافها — وللطفولة حرم تحوم حوله الشياطين ولا تتخطاه

فأما وهي اليوم كاعب نبض قلبها بدم الشهوة وجرت في عروقها حرارة الهوى ، وتفرقت عنها ملائكة الطفولة فلا شيء يعصمها مني ، وتفتحت زهرتها فامتزج عرفها الطاهر بهواء هذه الدنيا ، فلسوف يكون لي معها شأن كالذي كان لي مع غيرها من بنات حواء ، ثم اتركها وما بقي فيها إلا كالذي يبقى في الزهرة الذابلة من شذى أحرقه في مباخر الجحيم

ورأيت أن أعرّج عليها في طريقي فألهو بها وأرفه عني ساعة بهذه الفكاهة اللطيفة ، فأريح ذهني من جد الخبائث الكبيرة والشرور المستطيرة ، واشغل نفسي بهذه الغواية الساذجة وان كانت لا تحتاج الى اكثر من دعابة شيطان صغير من تلاميذي المبتدئين في صنعة الفساد

وكانت مريم بنت رجل ذي مكانة وثراء ، ظللت اضارب بعقله في المضاربات حتى خسر عقله وماله ولم يبق له من الضياع والنشب إلا هذا القصر الذي يقيم فيه ، فحجروا عليه وأقاموا له قيما يتولى تأجير جانب من القصر وينفق من أجرته فى مؤنة العائلة وتربية الصغار ، فعكف الرجل على بيته لا يريم عنه ، وهجره أصدقاؤه وتسلل حشمه

واحداً بعد واحد إلا خصياً منحوسا حفظ عهد سيده كما يقول ويئس من غير هذا المرتزق كما يعلم الله !! ولو علم الخبيث مرتزقاً أوسع جناباً وأوطأ رحاباً لفر من بيت سيده فراره من المأسدة . !

وكنت قد وكلت بمريم ولدي الأعور[١] فصرفته في دعوة فتى انسى استعين به احياناً على خلب قلوب العذارى ، وصعـدت الى مريم فدخلت غرفتها وهي لا تراني وقد قامت تخطر الى المرآة ، واني لأعلم انني أفتن المرأة بكل صورة إلا صورتها فانها خلقت مفتونة بها ، وأقودها الى كل مكان إلا مكان المرايا فانها تنقاد اليه طيعة راغبة ، وما أحسب حواء حين أبصرت صورة محياها في ماء الغدير إلا قد حسبت أن الله أجرى لها الماء لتتراءى فيه لا ليرتوي منـه العطاش ويحيا به موات الأرض ، وكذلك نشأ بناتها على هذا الرأي ، والحمد لله !

بيد اني اذا كنت لا أبث في نفس المرأة بذور الغرور بجمالها فقد أنميه وأمدها فيه وامهد منه سبيلاً الى إذكاء الحسد والبغضاء والاستهتار بالعشق وسائر الأهواء ، واخطأ الذين خيل اليهم أن افتتان المرأة بجمالها واضعها بمنجاة من طمع مرضى القلوب ورافعها عن

---

(١) الأعور من ولد ابليس الخمسة هو الموكل بالخنا والفساد في الارض كما جاء في الاحياء

منال الراغبين،فتكبر في نظر نفسها وتُصغر المتطلعين اليها ، فأنما قولهم هذا بعض الظن وكل الخطأ . ومتى صد الدلال عاشقاً؟ بل أي عاشق لا يتصباه الدلال ولا يضرم رغبته التمنع والمطال ؟ ؟

ان افتتان المرأة بجمالها ليبعدها عن طائفة من الطامعين لا خبرة لها بأهواء المرأة . فأما الذين يعلمون الى أين يثبت غرورها فربما أدناهم منها وأعانهم عليها . فهي تخدع من جانب ذلك الغرور ويُلقي بها العجب في وسط ميدان الشهوات فاذا هي كالقائد الذي تجعله كسوته المذهبة وأنواطه المتلألئة هدفاً للرماة وغرضاً للرائشين

ولو علم الآباء أي حظ لى في الجمال المفتون لما امتدحوا أنفة بناتهم ولما خافوا عليهن من شيء خوفهم من هذه الانفة ، لأنها سلاح ترفعه الفتاة في وجوه الأزواج فيفرون منها وتضعه تحت اقدام الفساق فيظفرون بها ، واني ليعجزني من الملاحة الوديعة ما لا يعجزني من الدمامة الشنيعة ، وأنا القائل عن لسان بعض الأنس :

أحب اللواتي في صباهن غرة وفيهن عن أزواجهن طماح
مسرات حب مظهرات عداوة تراهن كالمرضى وهن صحاح

وكذلك نزيغ الشعراء ، ونخدع الامهات والآباء .

* * *

فلما نهضت مريم تخطر الى المرآة قلت لقد سنحت الفرصه وقضي الأمر .

وأقبلت عليها أقول :

« تبارك الله » ما هذا الجبين الساطع والوجه البارع والحسن الرائع !! على مثل هذا الجمال فلتتقطع قلوب الرجال حسرة ، ومن مثل هذا الرواء فلتتحرق صدور النساء غيرة ، ووالله ما هما إلا صورتان فازتا بمعاني الحسن وسماته : هذا المحيا في عالم الشهادة ، وذلك المثال في عالم الخيال ...

فتبسمت الفتاة وترنح عطفاها وأنشأت تجيل في المرآة نظرات كانت قبل اليوم تلحظها من سواها ولا تفقه معناها ، فأخذت اليوم تتعلم كيف ترمي ، وتنظر أي الرميات يوجع وأيها يدمي ، وأي السهام يخطيء وأيها يصمي ، وأرسلت من بين اجفانها تلك النظرات الانثوية التي تشبه المغناطيس لأنها تجذب اليها قلوباً من الحديد الصليب ، وان كان ذلك الحديد ليكونن عليها في بعض الأحيان حدا لحد السيف ونصلا كنصول الحراب

ورأيتها عارية الشعر ، عاطلة النحر ، مجردة المعصم ؛ فقلت : ما كان أجمل هذا الليل لو زانته النجوم الجوهرية ، وما أنفس الحلي الذهبية على هذه الترائب البلورية !! أو ما كان قرط الماس أجمل في هذه الاذن منه عالقاً في اذن جارتك السمراء كأنه شرارة طارت من فحمة ؟ وما بال هذا النحر لا تكسوه لبة ربما فاضت على صدر

قاتم فلاحت فيه كما يلوح وضح البرص في الاديم الاسود ؟ وما لهذا المعصم لا يزينه سوار ربما التوي على ذراع مهزول فكأنه مسعر قد التف عليه ثعبان !! وهل استخرج النضار الا ليلمع على هذه الصدور ؟ ؟ أو التقط الجوهر الا ليسطع في ضياء الجمال الفضاح ؟ ؟

وتلك رقية ما رقيت بهـا فتاة فقويت عليها وما دسست في صدر أنثى خدعة هي أسرى فيه منها . بل لقد كنت اهجس بها في قلب المرأة فتؤثر لو انها تصبح بغير جيد من أن يكون لها جيد لا تطوقه الحلي والعقود !

فما تلوتها على مريم حتى انكسرت كبرياؤها وزال عنها ذلك البشر الذي كان يترقرق في أسارير وجهها . وكأنها تقول : أنى لي هذه النفائس وقد حرمني الله نعمتها وأباها عليّ الله أن يمتعني بها ؟

قلت أولا يغنيك أبوك عن هذا التمني ؟ !

قالت أن أبي لكالضيف في المنزل لو أنه يكرم اكرام الضيف . وهذا القيم قد بات يقتر عليه في النفقة ويقطر عليه الدرهم بعد الدرهم فاذا ظفر بعلبة التبغ حسبها منه غنما كبيراً ومنة عظمى

قلت : فخطيبك !! فأجهشت الفتاة بالبكاء وهي تقول : لقد كان لي خطيب يزورنا أحيانًا فيتودد إلي ويلاطفني ، فلما تضعضعت حالنا وقعد بنا الدهر هجر الرخاء منزلنا وهجره في يوم واحـد . فما سمعنا عنه منذ ذلك اليوم إلا أنه عقـد خطبته بالامس على احدى

قريناتي في المدرسة ، ولو أنها كانت أملح مني خلقاً أو أصبح صورة لحسدتها على ملاحتها وصباحتها ، ولكني لست أحسدها إلا على أب أكثر من أبي مالا وأدنى إلى القبر قدماً

قلت لا يعدم هذا الجمال عاشقاً يتقرب اليه بحياته ، ويذل المال في سبيل مرضاته !

فانتفضت الفتاة ارتياعاً من كلمة العشق . وكان مبلغ علمها فيه أن العشق والفسق شيء واحد ، وان البنت التي تَعشق غير جديرة بأن تُعشق ، وكانت تسمع العجائز يقلن عن بنات اليوم أنهن فطح القلوب تتكشف نفوسهن لعيون الرجال وهي سر من أسرار الجنس لا يجوز افشاؤه وخطة مدبرة يحرم اعلانها لغير بناته ، ويأخذن على الفتيات الناشئات إطماعهن الرجال في جنس النساء ثم يتذاكرن الأيام الخوالي أيام كن يتمنعن وهن الراغبات ويحرقن قلوب أزواجهن بالتيه والصدود والتجني والدلال وهن بهم أكلف وعليهم أحنى وأعطف ، ثم يتوجعن لسوء حظ بنات اليوم ويقلن لمن حضر منهن : لقد نعمنا بزماننا فاستقبلن اليوم زمانكن المعكوس ! كأنما يضعن من شأن الصبا بعد أن فارقهن ويأسفن على حظ الصبيات من الشباب لئلا يأسفن على ما فاتهن منه . أو كأنما يحسبن الفتيات ضرائر لهن في هذا العاشق المتقلب فينتقمن لانفسهن ويبخسن ما يوليه اولئك الفتيات من تحفه ولطائفه

وشوه وجه العشق في عينيها ما كانت تقرأ وتسمع في المدرسة من وصف الفضائل وصفا كوصف الأكمه لنجوم السماء، وتعريف العفة تعريفاً يناقض كل صلة بين الرجل والمرأة غير تلك الصلة التي يسجلها الشيخ المأذون في دفتره، ولعمري أنها لفضائل هوائية لا تعيش الا بمعزل عن الرذائل ولا تجالد الشهوات في ميدان واحد، وانها لجنود تمتنع عن عداتها في حصن بعيد فلا تلبث أن تقتحمه العداة عليها مرة حتى تستأسر لها أو تتقلد سلاحها وتحارب به في صفها، وليست الثقة بهذه الفضائل الا كثقة هاروت وماروت بنفسيهما في السماء. فلما هبطا الى الأرض سكراً وفسقاً وقتلا في لحظة واحدة!

يضع حمقى الانس فضائلهم هذه عثرات في طريقي فأتناولها وأجعلها معالم يهتدي بها الناهجون فيها. ولا شيء يهون عليّ اغواء الفتاة الشرقية غير عفة هي بصدور الكتب أجمل منها بصدر الفتاة،

ليس لاغواء الفتاة الشرقية عندي إلا طعمة واحدة. فأما فتاة الغرب فاني انصب لها أحبولة بعد أحبولة حتى تقع في يدي، وتصبح فريسة لي

فاذا انتقلت بالشرقية من الصيانة الى العشق أبصرت نفسها قد انتقلت الى حال ينكرها أهلها وذووها ويستهجنها الناس من حولها، وعلمت أن ما هي فيه رجس لا يرضاه أحد غيرها فخلعت العذار وارسلت نفسها في التيار، فذهبت الى الغاية من التبذل والاستهتار

فأما اختها الغربية فلا بأس بها من العشق ولا انكار عليها فيه . فاذا أحبت لم ينته منها أربي ولم أزل انتقل بها في أدوار شتى واتدرج بها من السائغ الى المحظور ومن الطيب الى الخبيث حتى يفضي بها الأمر الى الفساد

وكذلك استفيد من غلو الشرقيين في فضائلهم ما لا استفيده من تفريط سواهم . فكلما ضيقوا دائرة الفضيلة اتسعت دائرة الرذيلة، وكلما حصروا حدود الحسنات انفرجت حدود السيئات

* * *

وآنست من مريم استعصاء وتثاقلا . فأخذت بيدها الى نافذة تطل على حديقة قصر في جوارهم تسكنه اسرة لها فتاة من لداتها قد سبحت في الغواية سبحا وتقلبت في المقابح ردحاً، وجرت في العشق على مذهب أولئك الذين يخجلون من أن تراهم اليوم مع عاشق الأمس ، ويحسبون أن الدوام على عاشق واحد كالدوام على لباس واحد . هذا ينم عن فقر الى المال ، وذاك يبين عن فقر الى الجمال

وكانت يوم ذاك في هوى فتى هو ثالث عشاقها ، فكان يختلف اليها في الحديقة وتعلم أمها من شأنها ما تعلم ولكنها تبادلها غض النظر . ولعلها لا تكره زيارة الفتى لأن عين ابنة الثلاثين قد ترى كما ترى عين ابنة الخمس والعشر !!

وكان مجلسهما في الحديقة عند سرحة فرعاء يقضيان تحتها ساعة أو ساعات لا مقدار لها في تقويم العاشقين ، لأن اله الحب وربات الزمن لا يتلاقون في مكان واحد ، فاذا شغل الحب موضعاً فر منه الزمن ، وإذا خلا موضع من الحب تمطى فيه الوقت وتطاولت الساعات

وجلسا في تلك اللحظه وقد تعاقدا بالأيدي وتجاذبا بالنظر . فكأنهما يعالجان التنويم المغناطيسي أو كأن كلا منهما قد جمع روحه في عينيه لتتعرف من وجه صاحبه روحاً لقيتها في عالم الذر ، فيطول أمد النظرة لطول العهد ، ثم تختم بقبلة لا يدريان أهي راحة الذاكرة من هذا الامعان والاستقصاء أم هي بين الروحين تصافح المعرفة واللقاء

فلما رأتهما مريم على هذه الحال تضرمت في نفسها شعلة الصبا ، وسرت في عروقها حميا الهوى ، فقالت ليت لي عاشقاً ! !

قلت أوتعشقين ؟ ؟

قالت ولم لا ؟ ؟ بل اني لعاشقة الساعة . وكأنني أجد نفسي بين يدى فتي أجلس منه مجلس هذه الفتاة من ذلك الفتى ، وانا نتلاحظ كما يتلاحظان ، ونتعانق كما يتعانقان ، ونقطف من زهر المنى في روض الهوى مثلما يقطفان

قلت فاذهبي الى عين شمس ... فهنالك تجدين عيانا ما تتوهمين خيالاً .واستقبلي عصاري اليوم في وادى الضياء والغرام حبيبك المأمول ونعيمك المعسول

* * *

وجاء الأعور بالفتى الانسى فأرصده فى منعطفات عين شمس بحيث أمرته . فوقف يتشاغل بالصفير ويغازل الغاديات والرائحات

أما هذا الفتى فهو ممن طمست على بصائرهم وأضلت ألبابهم ، وطوحت بهم في الفساد الى حيث لا يبلغ صوت الضمير ونداء الوجدان . فأصبح فاتر النفس ، بارد القلب ، لا يخف الى غير المخازي ، ولا يرتاح الى حديث في غير الشراب والنساء ، ولا يرى إلا ان العالم حان أو ماخور

وذهبت مريم الى امها فاستأذنتها في الخروج أصيل ذلك اليوم ، وكأن امها خافت عليها مغبة ما بها من الكمد واشفقت أن تتلاشى نفسها غماً من غدر خطيبها وانصرافه عنها الى صاحبتها ، فكرهت أن تجمع عليها بين ضيق الصدر وضيق الأسر ، فأذنت لها ونادت بالخصي جوهر ليصحبها الى حيث تشاء

*
* *

ولم يبق الا ريم من النهار فتوردت الشمس وتزينت مريم

بأحسن زينتها و برزت تتهادى في الطريق كأنها طاقة الزهر تترك بعدها عبقاً في حيثما صافحت الهواء

وطفقت كلما نقلت قدماً سمعت كلمة اطراء وغزل ، وكلما أرسلت نظرة تعثرت في نظرات المقل ، وهي ترى ذلك وتسمعه ولا تعيره نظراً ولا توليه مسمعاً،حائرةَ الطرف في دنياها الجديدة مشردة النفس بين الخجل والغرابة . حتى رمقت الفتى على قرب فرأت قواماً قويماً ومشية رشيقة ووجهاً تشرق فيه بشاشة الصبا وفماً تبتسم فيه الملاحة وعينين ألاّقتين كأنما تضاحكان الضياء، فأحست كأن طائراً نضّ جناحيه بين جوانحها ، ومشت قبالتـه وهي تنجذب الى ناحيته على غير عمد ، وعلمت انها ستسمع من ذلك الفم الجميل ما قد سمعت من اولئك الثرثرة المتعشقين . فخفق قلبها وتوهج خداها . واذا هي على قيد باع منه تسمع صوتاً رخيماً ولـكنها لا تتبين ما يقول

وحاولت أن تنحرف عنه فخانتها قدماها . ثم همت أن تنظر اليه فلم تطعها عيناها . ورأى الفتى ترددها ووجومها فأقبل عليها بكياسة الامراء وقال لها بلباقة الخطبـاء : ألست أنا أولى بمصاحبة هذا الملك السماوي من ذلك العبـد الأدلم ؟؟ وأشار الى الخصي جوهر — وكان على بعد يحادث بعض أصحابه — فضحكت . وأدارت عينيها اليه ولـكنها لم تلبث أن أدارتهما عنـه . وما كان فتاي ليجهل أن إعراض الخجل والدلال انما هو عين الاقبال ؟ وان

اثناء الروعة انما هو هزيمة في هذا المجال ، فأسرع اليها بجرأة أفادته اياها ممارسة هذه المواقف وأمسك يدها وهي ترتجف بين يديه ، فأذهلتها هذه المفاجأة ولبثت هنيهة يخيل اليها أنها تتأهب للحركة ولا تتحرك وانها تنبس بالكلام ولا تتكلم . كأن القلب الذي يوحي اليها الكلام والاعتزام قد طار منها في ملكوت الحب والهيام. فلم يبق منها إلا بصر شاخص كما ينظر الصبي في أثر العصفور أفلت من يده ، وإلا بدنٌ مستسلم كأنه بين راحتي الكرى

وأدركهما جوهر وهما على هذه الحالة . فأرسل الفتى يدها وأفاقت هي الى نفسها وهي تقول : وافضيحتاه ! هذا جوهر أغا !!

وسمعاه يحرنجم ويطمطم بما لا يفهمانه ، وكأن كلماته من اللكنة والعجمة أصوات بغير حروف . ثم قال : « عيب يا بك ! لا يليق بك أن تتهجم على الحرائر في قارعة الطريق ! ان هذه ليست من اولئك اللائي تعرفهن !!... »

فاستقبله الفتى باسماً وقال بما يعهد في هؤلاء الفتيان من الظرف وتزويق الكلام : « سامحك الله يا أبي جوهر فقد بالغت في اساءة الظن بنا ! ولسنا نحن كما ظننت من السوقة الهمل ، ولكننا أبناء قوم كرام والحمد لله . وأنت تعلم أن الآنسة أبعد من أن تكون مظنة ريبة وهي ربيبتك وفتاتك ! ووالله ما كنت لأتصدى لمحادثتها لولا انها زميلة أختي في المدرسة ، وانها كانت تزورها في

منزلنا فعرفتها وعرفتني هناك » وامتد بينهما الاستسماح والاعتذار هنيهة ثم دس في يده ديناراً طال عهد الخصي بأمثاله فطار له لبه وقال : والى أين تذهبان الساعة ؟؟

قال : نتمشى قليلاً حول هذه الحدائق ثم نعود . قال اذن أدع الآنسة في صيانتك ريثما أذهب الى هذه القهوة ثم ألحق بكما بعد ذلك . قال مع السلامة !

***

وكذلك تصنع الدنانير والدراهم . . . فانها – بارك الله لي فيها – قد سكها الناس ليجعلوها ثمناً للعروض والحطام فمازلت بهم حتى تركتهم يشترون بها المحاسن والمواهب والأعراض والمذاهب . بل حتى لقد جعلتها في أيدي بعض الناس ثمناً للفردوس وبراءة من النار

فلما شعر الزنجي بالدينار في كفه رأيته كأنما قد انعكس بريقه على وجهه واعتدل ما التوى من خراطيمه . ثم تذكر موائد القمار وقد ودعها منذ سنين ، فحن اليها وذهب يمتع نفسه باللعب والحديث ، وهما حظ الخصيان من الدنيا ولذتهم فيها ، بعد الطعام والشراب

أما أنا فقد استدرجت الفتى والفتاة الى حيث اختابا في بعض تلك الاماكن المنزوية عن الانظار . . . ثم مضيت في سبيلي

***

عادت مريم وهي لا تطيق الصبر يوماً عن عين شمس . ولذت

رنات الذهب والفضة للخصي فأصبح يشتاق تلك النغمة كل أصيل، وتتأخر آنسته عن الموعد قليلاً فيصعد اليها مستعجلاً. حتى خامر الشك قلب الأم... فأبت عليها الخروج يوماً ومانعتها يوماً ثانياً وأغلظت لها يوماً ثالثاً. فأطاعت على كره وانتظرت في اليوم الرابع على مضض، وألظ بها القلق في اليوم الخامس فبقيت تتلهف حيرة وشوقاً. الى أن حان موعد العصر فعزمت على موافاة عاشقها — سمحت امها أم لم تسمح — وانها لتتهيأ للخروج اذ قابلتها امها فاستغربت منها هذه الجرأة. وقالت، الى أين يا مريم؟؟

قالت: الى عين شمس!!

قالت: ألست تعلمين انني أخاف عليك من هذه المدينة المشئومة؟؟

قالت: أما أنا فأعلم أنه لا خوف عليّ منها...

قالت: حسناً، ولكنني لا أريد أن تذهبي اليها

قالت: ولكني أنا أريد ذلك... ألست حرة فيما اريد؟؟

⁂

هذه هي الكلمة الجديدة التي تعلمتها الفتاة! الحرية؟ لقد كانت تعرفها من قبل ولكنها كلمة لم تكن لتؤدي في قاموس الطفولة معنى عقوق الأم الرؤوم، وايلام ذلك الحنان الطهور

ألست حرة فيما أريد...؟ نعم أيتها الفتاة أنت حرة فيما

تريدين . . !! وكل فتاة حرة أيضاً . . . . هكذا قال فلاسفة الحرية، اكثر الله من أمثالهم

ان حرية النساء مبدأ صحيح قويم ، بيد أن الهيئـة الاجتماعية لا تخلو من منعرجات ومنعطفات لا تنطبق عليها المبادىء القويمة إلا اذا التوت عندها بعض الالتواء ، فهل من شأن الشريعة أن تحد مواضع هذا الالتواء ؟ لا ! إن الشرائع العـامة لا تضع إلا القواعد العامة ، وانما ذاك عمل البيئة والاسرة ، وما دامت هذه الأزقة في الهيئة الاجتماعية فالمبادىء القويمة لا تخترقها كلها . فلا زال الحكماء يرسمون هذه المبادىء لاصلاح الناس فنتخذها نحن ذريعـة الى افسادهم في بعض الاحايين . . . .





١ – ماذا يحسن ان تستبقي من اخلاقها التقليدية

٢ – ماذا يحسن ان تقتبس من شقيقتها الغربية

(١) من الصعب أن نعرف على وجه التحقيق ما هي « الأخلاق » أو الصفات التي اختصت بها المرأة الشرقية دون سائر النساء في العالم ، فان كثيراً من الاخلاق التي تنسب اليها ويُظن انها خاصة بها ومقصورة عليها قد وجدت من قبل وتوجد الآن في بعض النساء الاوربيات عند تشابه الأسباب ، وهي في الغالب الجهل والاستبداد . غير اننا لا يسعنا الا ان نعتقد من وجهة عامة ان هناك اختلافاً بين الشرقيات والغربيات مردّهُ فيما نرى الى فرق واحد : هو ان المرأة الشرقية احسّ بطبيعة الانوثة من صاحبتها الغربية ، فهي اوفر منها حظاً من عنصر النسوية أو ان المرأه الصميمة فيها اكثر من المرأة الصحيحة في تلك ، وهي على الجملة ارأم لأبنائها وآلف

---

(١) كانت مجلة الهلال قد وجهت هذين السؤالين الى جماعة من الكتاب والادباء فكتب صاحب المراجعات اليها بهذين الجوابين

لزوجها وأسكن الى المعيشة البيتية من صاحبتها الغربية . وهذه هي الخصلة التي نود ان تستبقيها المرأة الشرقية في أساسها لا في تفاصيلها فتظل كما كانت في كل عصر ملكة البيت الحاكمة المحكومة يسكن اليها الرجل من متاعب الحياة ولا يزال عندها — صغيراً كان أو كبيراً — طفلاً لاعباً يأوى منها الى صدر الأمومة الرفيق واحضانها الناعمة رضيعاً ويافعاً وفتى وكهلاً الى أن يشيخ ويفنى . ويستدعي ذلك ان تعيش هي في ظله وتعتمد في شؤون العالم الخارجية عليه وتدع له كسب رزقها وتدبير حاجاتها وتنظر اليه من ناحيتها ايضاً نظرة الابن الى ابيه لا نظرة المنافس المزاحم الى من يناجزه في ميدان واحد . ولسنا نعني بما نقول أن تكون المعيشة البيتية واجباً مفروضاً على المرأة كما يُفرض السجن على السجين ولكننا نعني ان تكون هذه المعيشة حقاً من حقوقها المفروضة على المجتمع ، لأن عملها في البيت — وهو اعداد الجيل القادم — اكبر وأجل من أن تجمع بينه وبين السعي في طلب الرزق والاحتيال على شؤون المعاش . فهي تعول المجتمع القادم وتسهر عليه فمن حقها على المجتمع الحاضر أن يعولها ويسهر عليها ، والا كان خروجها الى معترك السعي والجهاد علامة على التقصير والخلل من جانب المجتمع ونذيراً بالشذوذ عن تقسيم الطبيعة الذي عرفه الشرقيون بالبداهة من قديم العصور . ولا بد للمرأة من ان تبني كل سيرتها في الحياة على الايمان بهذه الحقيقه التي لا سبيل الى نكرانها

بصفة جدية : وهي ان الرجل أقوى من المرأة على نضال الحياة مما يدل على انه قد خلق له ، وانها قد خلقت لتعتمد عليه في هذا الأمر لا لتزاحمه فتقهر وتنهزم لا محالة . ولا يغني عن القائلين بغير هذا الرأي قولهم ان المرأة انما تخلفت عن الرجل في مضمار الحياة العمومية لانه تغلب عليها في عصور الظلم والجهل فان تغلبه عليها دليل في ذاته على انه أقوى منها جسداً وعقلا والا لما استطاع التغلب عليها بالقوة الجسدية وحدها كما لم يستطع الحيوان ان يتغلب على الانسان بتفوقه عليه في القوة الجسدية دون العقلية

⁂

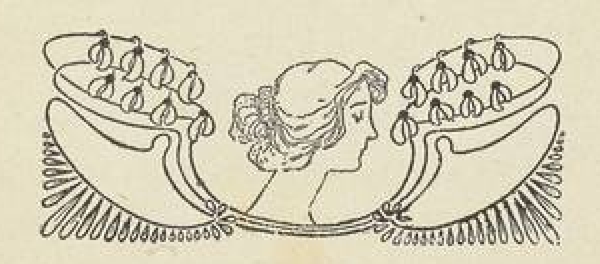
(٢) أما ما يحسن أن تقتبسه المرأة الشرقية من المرأة الغربية فهو الاخلاق أو الصفات التي تعينها على تدبير المنزل وتربية الابناء وآداب المجالس وحرية اختيار الزوج . فيجب ان تمارس الألعاب الرياضية لتقوى جسداً وتصح مزاجاً،وان تتعلم الضروري من اصول الاقتصاد وتقويم الصحة وطرائف الآداب ، وان تحذق فناً أو أكثر من الفنون الجميلة ولا سيما الموسيقى ، ولا بأس بالرقص في محافل الأسر ولكن على طريقة تناسب عادات المشارقة ، تقتبس من الرقصات الشرقية القديمة والحديثة التي لا تخل بالصيانة والحياء

وننبه بوجه خاص الى آداب المجالس لاننا نعزو كثيراً من العيوب التي ترين على المجتمع المصري الى احتجاب الجنس اللطيف

عن مجالس الرجال وأنديتهم ،وأحسب لو ان الشبان عندنا تعودوا أن يتحدثوا الى النساء المهذبات وأن يتحدث النساء اليهم لعنوا بتثقيف عقولهم واخلاقهم والاطلاع على ما يجمل التحدث به على مسمع من الأوانس والسيدات ولنزهوا نفوسهم وألسنتهم عن اللغو والهجر الذي يقضون به ساعات سمرهم ، ولاتخذت المنافسة على المرأة سبيلاً اكرم وألبق وأجدى من سبيلها المعهود

أما حرية اختيار الزوج فحق للمرأة أن شاءت تولته بنفسها وان شاءت تركته لأوليائها . على انني لا أغالي بهذا الحق مغالاة الذين يحسبونه اس السعادة كلها في الزواج

وبعد ، فأنني أحب ان تحتفظ المرأة الشرقية « بأنوثتها » وألا تقتبس من المدنية الغربية الا ما كان سلاحاً لهذه الأنوثة في أداء وظيفتها وصون حقوقها



الاصلاح الادبي

كل اصلاح في شأن من شؤون الامم لا يتنـاول تصحيح مقاييس الحياة فيها هو عبث فارغ لا يستحق عناءه — وفي مقدمة ذلك اصلاح الآداب والفنون

ويجب أن يكون مفهوماً بالبـداهة ان اصلاح الآداب شيء غير تنقيح صيغ الالفـاظ أو تحوير أوزان الشعر أو تعديل النحو والصرف فانما هو في الحقيقة لا يقل عن تصحيح حياة الامة ومن ثم تصحيح التعبير عن تلك الحياة . فهو بمثابة خلق جديد للأمم وهو من صناعة الآلهة لا من صناعة الخلائق الهالـكين

وأصدق ما تُمتحن به مقاييس الحياة في الأمم أن تُعرف الفضائل التي يزنون بها مقادير الرجال: ماذا يبتغون منهم وفي أية هيئة يحبون أن ينظروا اليهم ؟ أيطلبون منهم حياة تكفيها حدود من الطعام والشراب والثياب المزركشة والأسماء الطنانة ويوم واحد من الزمن يفتأ يتكرر على وتيرة واحدة ويُعـاد كما بُدىء الى أن يطويه الموت في ظلماته ؟ أم يبتغون منهم حياة لها حدود ضاربة في

اوائل الآزال وأواخر الآباد تحتاج الى سماء عالية وآماد غير متناهية وفضاء مترع بالنور والجمال واكوان مفعمة بالقوى والاسرار وآلهة تعمل في الجهر والخفاء ولحظات سرمدية تمر كل لحظة منها باستكشاف جديد من الحياة وفن طريف من فنون الوجود ؟ فان كانت الاولى فانفض يديك منهم ولا تحدثهم عن عليين فانهم يمشون الى أسفل ولا عن الجمال فانه غير جميل لديهم ولا عن معاني الحياة فان حياتهم معنى واحد لا يفهمونه ولا يستحق أن يفهمه أحد .

وان كانت الثانية فلا تأس عليهم ولا تهولنك العقبات التي في طريقهم فانهم لعلى بصيرة من أمرهم وانهم لمهديون الى الآداب العالية والفنون الرفيعة وان صرفتهم عنها بعض الدواعي الى حين

يعثر الباحث الاثري على جثة هامدة في لفائف شاحبة حولها كسر من الفخار بينها قطع من الورق فلا يلبث أن ينشىء في خياله عالماً حافلاً من تلك الآثار ودنيا حية من تلك البقايا الميتة : يجمع من تلك الكسر آنية صحيحة ، ويضع تلك الآنية في البيوت التي تلائمها ، ويعمر تلك البيوت بمظاهر الحضارة التي تدل عليها الجثة المحفوظة والاكفان البالية والاوراق المتهافتة والعمارة المتخيلة ، فاذا هو قد أسبغ من خياله عالماً رحيباً جليلاً على هيكل ضعيف ضئيل .

فالآن هب ان باحثاً أثرياً عثر بعد الف عام على ديوان من

دواوين الشعراء الذين ينعتون بيننا اليوم بالعظمة والخلود وأراد أن يستدل منه على الحياة التي كانوا يحيونها والعالم الذي كانوا يعيشون فيه فأي عالم يكون هذا العالم الذي يتخيله الباحث الأثري على هذا القياس ؟

أتريد الجواب بصراحة وايجاز ؟ انه ولا شك عالم مطموس لا يختلف عن عالم « الحمير » مضروباً في عشرة أو في عشرين بل مقسوماً في بعض الصفات والأبعاد على عشرة أو عشرين !... عالم العلف والمذود والقيد واللجام والاتان !... عالم لا يتطلب من النازلين فيه احساساً أكبر من احساس الدواب السائمة في الفلاة ولا يشعر المتفقد لآثاره انه كانت له سماء أو كانت له آزال وآباد أو كانت فيه أرواح وأسرار أو كانت فيه أفراح وأهوال أو كان له إله قدير... ولو كلفني خلق هذا العالم المطموس — لو كلفني أنا الانسان الحائن تعب خمس دقائق لما رأيته جديراً بهذا التعب القليل في حياتنا المزدحمة بالمتاعب والأشغال !

وأنت يا مصلح الآداب ، يا من تريد من الناس أن ينظموا الحياة شعراً من لحن السماء وفناً من فنون الخلق والانشاء وصوراً الهية من حقائق الأشياء ما عملك أنت بين هذه المخلوقات التي تماجن الاقدار بخلقها وتكلفك أنت ثمن مجونها ودعابتها ؟ عملك أن تنقلها من عالمها المقبور الذي هي فيه الى العالم الحي الفائض بالمعاني التي

فكر فيها افلاطون وعبدها الغزالي وشعر بها شكسبير وغناها فاجنر وتطلع اليها نيتشه وصورها ليوناردو واستنشق هواءها الوف الملايين ممن هم أقل حظاً من هؤلاء في العبقرية والابتكار ولكنهم اخوانهم في وطن المعرفة والادراك ، فأين أنت يا صاح من هذا العمل وماذا لديك من العدة ؟ أمل إله ويد انسان وصبر تتلق به الحوادث هو صبر مخلوق من أبناء الفناء .

لقد عالجت هذا العمل الموبق سنين طوالاً ووهبته حياتي فخسرتها وما استفاد هو منها شيئاً ! . وكاد أن يتسرب اليّ اليأس وورد على خاطري مرات أن هذا الشرق العربي أو المستعرب ما كان قط في عصر من عصوره الماضية خيراً مما نراه الآن ، وزعمت أن الانبياء والروحانيين ما ظهروا فيه إلا كما يظهر الاطباء حيث ينتشر الوباء ، فلا قداسة ولا روحانية ولا شعور وانما هو فقر في الروح عالجته الطبيعة بدواء النبوة ، وقد ذهب الانبياء وبقي الداء بعدهم كما كان ، وسيبقى هكذا الى آخر الزمان . ولكننا لا نزال نعمل

وأخشى أن يكون عمل اليأس لا عمل الرجاء . ان الزاد ليثقل ظهورنا في الصحراء المجدبة ولسنا نأمل أن نعيش فيهـا حتى نأكله فنطرحه عن ظهورنا مرغمين ، ثم نقول : لعل غمامة تعبر به في هذه المفازة فتكون منه واحة وتكون من الواحة حياة ! ولكن ترى هل تعبر الغمامة ؟ أو تعصف السموم بالبذور قبل أن تدركها رحمة السماء !



المطبعة العصرية

تأسست سنة ١٩١٩

دارها بشارع الخليج الناصري رقم ٦

بأول الفجالة — بمصر

(بالقرب من قرقول الازبكية بميدان

باب الحديد)

جميع الكتب المذكورة في هذا الملحق من علمية وتاريخية واجتماعية هي من أجود الكتب العصرية ، ومؤلفوها أشهر كتاب الشرق ، ومطبوعة أتقن طبع على أحسن ورق ، ومزينة بالصور الجميله ، ومغلفة بأجمل وأمتن غلاف

يُضاف الى ثمن الكتاب الذي يُطلب ٤ قروش أجرة بريد لبلاد القطر المصري و ١٣ قرشاً للخارج وهذا المبلغ يكفي لارسال

ما زنته ٥ كيلو جرام . فيحسن بمن يرغب في طلب كتاب واحد أن ينتخب من هذه المجموعة النفيسة بعض كتب أخرى فنرسلها كلها معاً ضمن طرد بريد واحد

قيمة الكتب تُرسل مقدماً مع الطلب، أو يرسل نصفها و يحول عليه بالباقى .

(القرش المصري يساوي ٢½ بنسات انكليزية أو ٥ سنتات أميركانية)

العنوان البريدى — الياس انطون الياس ، صندوق البريد رقم ٩٥٤ — مصر
Mr. Elias A. Elias, P.O. Box 954, Cairo, (Egypt.)



تأليف حضرة

الدكتور محمد عبد الحميد بك

هذا كتاب يجب ان يطلع عليه كل معلم ووالد وتلميذ ، وحباً فى تعميم فائدته قد جعلنا ثمنه ١٠ قروش ص

القاموس العصري

انكليزي وعربي

تأليف

الياس انطون الياس

(الطبعة الثانية منقحة وموضحة بالصور)

ان جميع المعاجم الانكليزية وعربية التي تقدمت « القاموس العصري » لم يضعها مؤلفوها لفائدة طلاب اللغة الانكليزية من الشرقيين، بل وضعوها لطلاب اللغة العربية من المستشرقين، ولذلك تجدهم يأتون بالكلمة الانكليزية فيذكروا أمامها من البيانات ما يفسر اوضاع الترجمة العربية المقابلة لها وكيفية هجائها في حالاتها المتنوعة، وجمعها ومفردها، الى غير ذلك مما لا فائدة منه مطلقاً للطالب الشرقي. وأول معجم وضع خصيصاً للشرقيين هو « القاموس العصري »

ويطول بنا الشرح اذا ذكرنا مميزات هذا المعجم. واننا ننصح لكل من لم يطلع عليه للان، مكتفياً بما عنده من القواميس العتيقة

أن يبادر الى أقرب مكتبة ويفحصه فيرى بنفسه حقيقة ما ذكرناه ويرى الفائدة التي ينالها من اقتنائه

وقد قررته وزارة المعارف العمومية لاستعمال معلمي اللغة الانكليزية والترجمة في كل فصل من فصول مدارسها الثانوية في القطر المصري ، وذلك بخطاب تاريخه ١٣ مايو سنة ١٩١٤ رقم ٧٧٧

والطبعة الثانية تمتاز بما لا يقاس عن الطبعة الاولى — ثمنه ٧٠ قرشاً .



تأليف البحاثة الاستاذ

اسماعيل مظهر

القاموس العصري

عربي وانكليزي

مُصَوَّرٌ

تاليف

الياس انطون الياس

هو معجم لم يُنسج على منواله حتى الآن ، ويمتاز بأسلوبه البسيط (المسجل فى المحاكم المختلطة تحت نمرة ١٦٢) الذي ابتكره المؤلف لأجل التوفيق بين الترتيب المصطلح عليه في القواميس العربية والترتيب الهجائي البسيط المتبع في كل القواميس الافرنجية ، ثم تحديد معنى الكلمة العربية أو تفسيرها بكلمة عربية مرادفة لها تمهيداً لذكر الترجمة الانجليزية . إذ بدون ذلك لا يتسنى للطالب أن يتحقق من صحة المقابل الانجليزي للمعنى الخاص الذي يطلبه

إطلع عليه فتعلم انه اكثر فائدة لك من أي قاموس آخر مادمت من المشتغلين باللغة الانكليزيه —

عدد صفحاته ٧٠٠ من القطع الكبير ويحوي نحوه ٥٢,٠٠٠ كلمة عربية وما يقابلها من الترجمة الانكليزية . وقد قررته وزارة

فارس الملك

تأليف

الكاتب الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ

طانيوس عبده

أناتول فرانس

في مباذله

تأليف جان جاك بروسون

مع خلاصة كتاب

« محادثات مع أناتول فرانس ، لنيقولا سيغور »

وزبدة ما قالتهُ الجرائد الفرنسية في فرانس يوم وفاته

نقلهُ الى العربية وصدرهُ بمقدمة وعلق عليه بعض حواش

كاتب الشرق الأكبر صاحب العطوفة

من أعضاء المجمع العلمي العربي

وقد حليناه بما يزيد عن المئة والخمسين صورة وطبعناه على ورق جميل وجعلنا ثمن النسخة ٢٠ قرشاً ، وطبعنا منه نسخاً قليلة على ورق ممتاز وثمنها ٢٥ قرشاً فقط

الزنبقة الحمراء

(قصة مزينة بنحو ثلاثين صورة)

بقلم الكاتب العظيم اناتول فرانس

تعريب الاستاذ احمد الصاوي محمد

مع مقدمة بقلم كاتب الشباب النابه الاستاذ منصور فهمى

عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية

لم ينتشر كتاب في الحكمة انتشار كتاب « تاييس »، كما لم ينتشر كتاب فى الحب انتشار كتاب « الزنبقة الحمراء »، ويكفى أن تعلم أن الترجمة العربية لهذه القصة منقولة عن الطبعة السابعة والثمانين بعد الأربعمائة !! فتأمل !!

وقديماً وصف «شكسبير» نابغة الدهر الغيرة بانها : تلك الخليقة الشوهاء ذات العيون الخضراء التي تسخر مما تتغذى به من لحوم الناس ! وقال : أن الرجل الذي يثلم عرضه فيعرف مصابه ويكره جالبه عليه سعيد بجانب ذلك الذى يقضى الدقائق الجهنمية شغفاً، الا انه مستريب، عاشقاً أشد العشق، ولكن تساوره الشكوك...

وحديثا، بعد ثلثمائة عام ونيف، جاء أناتول فرانس، افلاطون

العصر ، فحلل الغيرة في قلب رجل العصر ، الرجل الباريسى ، باسلوبه الرقيق الجزل البليغ المداعب الاخاذ بمجامع القلوب .

فلن تجد في هذه القصة عبث اطفال وغرام أيفاع . كلا ! انك ستجد الرجل الغيور المستهام وكيف يتعـذب ويعمل على تكوين حزنه وضجره . كما انك ستجد المرأة بكل انوثتها القوية المستكملة لا سلطان عليهـا الاّ سلطان الهوى — هوى عقلها وفؤادها وجسمها . .

والى غير هذا الغرام والغيرة تجد أحاديث اخرى فياضة طليّـة طريفة ساحرة . . منها فصل معقود على « نابليون » الذي يراه المؤلف مشهوراً بسرقة علب النشوق المرصّعة من النبلاء ! ! ! ثم حديث « فلورنسا » الجميلة ، والفنون الجميلة ، والاشتراكية ، والزواج . الخ الخ

الزنبقة الحمراء ! انها نداء صارخ عميق الى الحب كأنه هدير البحر ! فترى الحب ، ذلك الطاغية الجبار ، آتياً ملبياً النداء تهتز لقدومه الكائنات . . . فيطلع الفجر مبرقعاً بنشوة الحب الأولى ، ثم تشتعل ناره ويشتد أواره حتى تأتي الغيرة فترخي بيدها على الغرام ستار ليل الهجر الأبدي . . . فياله من مشهد مهيب ترتعد من هوله الفرائص ويغلب الأسى العيون فتذرف الدمع الهتون ! . . .

مقدمة
الحضارات الاولى

تأليف العلامة الحكيم **غوستاف لوبون**

لما ألف الدكتور غوستاف لوبون كتابه في حضارات المصريين ، والأشوريين والفينيقيين ، والفرس وغيرهم ، وضع له مقدمة هي بالنسبه الى تاريخ الامم القديمة بمنزلة مقدمة ابن خلدون بالنسبة الى تاريخ الامم الاسلامية ، فأرسل هذا الفيلسوف بنظره الثاقب في تاريخ الحضارات الاولى واستعان على ذلك بسياحاته الكثيرة واستنتج من كل ذلك حقائق في فلسفة التاريخ بناها على قواعد علم النفس وعلى النواميس المقررة في العلوم الكونية ، فأصبح كتابه المرجع في كشف النقاب عن كيفية اشراق شمس الحضارة في شعوب البشر وتدرجها في سلم الرقي . مطبوع طبعاً متقناً في **١٢٧** صفحة كبيرة على ورق صقيل وثمنه ٨ قروش والبريد



عدد صفحاته ٥٤٠ وكلماته ٢٥٠٠٠

وثمنه ٢٥ قرشاً

تاييس

(قصة مزينة بالصور)

تأليف شيخ كتاب العصر أناتول فرانس

وترجمة الاستاذ احمد الصاوي محمد

تاييس — صورة صادقة لمصر القديمة بعلومها وفنونها وفلسفتها وادابها ، وقصورها وحقولها ، وصحاريها ووديانها ، وملاعبها وأديارها ، وعادات أهلها

تاييس — قصة حب تملك عليك نفسك ، فتظل تقرأ حتى تنسى نفسك وتحملك دعابات أناتول فرانس اللذيذة المشهورة الى عالم كله ضحك ومسرات ، ثم تجعلك تبكي لآلام رجل راح ضحية الدنيا الغرور بعد ان عذبه فكره عذاباً فظيعاً .

إقرأ تاييس — تجد الحكمة والمعرفة والردود الصائبة على الاسئلة التي تخالج نفوس الشباب الفتية الحائرة ، وقلوب أهل الفطنة والذكاء .

ما الحب ؟ ما الكره ؟ ما الحكمة ؟ ما الضلالة ؟ ما المعرفة ؟ ما الجهالة ؟ ما الفلسفة ؟ ما الغباوة ؟ ما الوطن ؟ ما الخيانة ؟ ما الشر ؟ ما الدين ؟ ما الكفر ؟ ما الجنة ؟ ما النار ؟ ما الشهوة ؟ ما العفة ؟

ما التلذذ ؟ ما التقشف ؟ ما الحرية ؟ ما العبودية ؟ ما العشق الحلال والعشق الحرام؟ مافلسفة الفضيلة والرذيلة؟ ماحكاية الارض والسماء ؟

إقرأ تاييس — تاييس تحل لك كل هذه الالغاز المغلقة ! تاييس تبوح لك بأسرار الغرام ! إقرأ قصة تاييس الفاجرة ! تاييس القديسة !

ثمن النسخة ١٠ قروش والبريد



تأليف الاستاذ فرنسيس ميخائيل

الغرض منه تعليم الطالب مقتطفات من النظام الاجتماعي ليلم بحقوقه وواجباته نحو أبناء وطنه ويقف على القوانين والانظمة التي تجري على بلاده ويطلع على حدود السلطة التنفيذية والقضائية وما يتمشى عليه دستور وطنه – يقع في ٧٠ صفحة

وثمنه ٣ قروش والبريد قرشان

هلمَّ بنا ندخل في بوابة علم الاجتماع ونكشف اسرار الهيئة الاجتماعية ، تلك الاسرار العجيبة الغريبة

ترى امما عظيمةً راقية متمدِّنةً حيوية تضرب في طول الكرة الارضية وعرضها ، وترى شعوباً متأخرة خاملة خامدة الحركة ، وترى جماعات همجية متوحشة منحطة جداً — اذا كانت هذه الجماعات كلها ابناء آدم وحواء ، فما سرّ تفاوتها في الرقيّ ؟

ففي « علم الاجتماع » تعلم كيف تكوَّنت الجماعات والشعوب والأمم ، وكيف تنوعت وتفاوتت في رقيها

ترى جمهوراً متهيجاً متحمساً متهوّساً ، ثم ترى جماعات هادئة عاملة ، ثم تري اناساً في مجالسهم يتناقشون ويقترعون ويقررون اموراً . ثم ترى هيئات نظامية من جمعيات وشركات وحكومات الخ ، فما هو سر التهوس والتناقش والنظام ؟ . ثم ترى ازياء تتعاقب ، وعادات تتوالى ، وتقاليدَ تَتوارَث ، ورأياً عاماً يسود ، وقوانين تتقرَّر . فكيف تنشأ الازياء والعادات والتقاليد والقوانين ؟

في « علم الاجتماع » ترى العواطف والعقول تتصادم فتثير الجماعات ثم تسكنها ، وتمخض الثورات الفكرية عن الانظمة والهيئات

« علم الاجتماع » يبين لك ان الشهوة الجسدية ، والحب ، والذوق الجميل ، والعواطف ، فعلت كل ذلك ، وفي وسعها أن تقول للجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل

« فعلم الاجتماع » هو علم التكوُّن والنشوء ، وعلم العواطف المسيطرة على الهيئة الاجتماعيـة ، وعلم العقل المدرّب للعواطف ، وعلم الحب والجمال اللذين يرتفعان بالمدنية الى فوق

« علم الاجتماع » هو البوابة التي تدخل منها إلى عالم أسرار الهيئة الاجتماعيـة حيث تنكشف لك وترى العجب العجاب . هذا هو العلم الذي بسطه الاستاذ نقولا الحداد الكاتب الاجتماعي المعروف في هذا الكتاب الذي نحن في صدده ، بسطاً يدع كل قارىء يفهمه بكل سهولة

فهذا الكتاب هو الوحيد في موضوعه باللغة العربية والمستوفي كل ما يخطر لك ببال من هذا القبيل . أفلا تشعر أنه يجب أن تطالعـه وأن يكون في مكتبتك لكي تعود اليه كلما رمت أن تعرف منزلتك في الجماعة ومنزلة قومك في الامة ومنزلة أمتك في المجتمع الانساني ؟ وما هي وسائل الارتقاء لك ولقومك ولامتك ؟

الكتاب الأول – في حياة الهيئة الاجتماعية – ٢٥ قرشاً
الكتاب الثاني – في تطور الهيئة الاجتماعية – ٢٥ قرشاً

المرأة وفلسفة التناسليات

تأليف الدكتور فخري طبيب الجلد والامراض التناسلية

اذا أردت أن تفهم « من هي المرأة ؟ » وتاريخ معاملتها عند الشعوب القديمة . وكيف تعيش المرأة ، وكيف تفكر ، وما تأثير طبيعة جسمها وعقليتها ونفسيتها على حياتها التناسلية وعلى حياتها الأدبية والاجتماعية . واذا أردت أن تعرف معنى جمال المرأة وكيف يتأثر بالعناية الصحية أو بالزينة الصناعية . واذا أردت أن تفهم حقيقة موقفها كفتاة ، وكأم ، وكواحدة حرة طليقة لا تخضع لأنظمة الزواج

اذا أردت أن تعرف كل شيء عن المرأة بصراحة فنية ودقة علمية فما عليك الا أن تقرأ كتاب « المرأة وفلسفة التناسليات »

يقع هذا الكتاب في نحو ٦٥٠ صفحة ، ومحلى بأكثر من ٥٠ صورة تمثل حياة المرأة في مختلف الأقطار والعصور وثمنه عشرون قرشاً مغلفاً و٢٥ قرشاً مجلداً واجرة البريد

كتاب

الأمراض التناسلية

وعلاجها وطرق الوقاية منها

تأليف الدكتور فخري طبيب الجلد والامراض التناسلية

فى سنة واحدة أوشكت الطبعة الأولى من هذا الكتاب أن تنفد لانه أحسن كتاب ظهر باللغة العربية حاوياً كل المعلومات اللازمة للطبيب ولأفراد الشعب عامة عن هذه الأمراض وكيفية التعرض للعدوى بها وطرق معالجتها وأحسن ما يتبع عملياً لمنع العدوى بها . كتاب حيوى للشبان والشابات يفهمهم الاخطار التى يتعرضون لها من أول التقبيل الى ..... ويفهمهم واجبهم الادبي والصحى لتحاشى هذه الاخطار.

يقع هذا الكتاب فى ٣٢٣ صفحة بالقطع الكبير وبه اكثر من ٦٠ صورة تمثل المرض فى الاعضاء التناسلية عند الذكور والاناث وثمنه ثلاثون قرشاً مجلداً بقماش واجرة البريد.

رواية

في جزئين

السحر العظيم

تأليف

الكاتب الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ

طانيوس عبده

لم يلق من كل الروايات المنقولة الى اللغة العربية ما لاقته هذه الرواية الساحرة من الاقبال ، فقد طبعت للآن ثلاث طبعات على ورق ردي، وطبع ذري ولكنها رغماً عن ذلك وعن غلو ثمنها (إذ كانت تُطبع في ٤ اجزاء صغيرة وكل جزء يُباع بعشرة قروش) كانت تتخاطفها الايدى عند ظهورها

وقد طبعناها الآن فى جزئين كبيرين على ورق جيد ، وغلفناها بغلاف جميل وجعلنا ثمنها ٢٠ قرشا فقط والبريد

رواية

باردليان

تأليف الروائي الشهير ميشيل زيفاكو

وترجمة الكاتب البليغ الاستاذ طانيوس عبده

ليس الاستاذ طانيوس عبـده في حاجة الى التنويه بذكره فهو أعظم من اشتهروا في عالم الترجمة بنقل الروايات الادبية الشيقة الى لغة العرب ، وامتاز على كثير من المعربين بأنه ينقل رواياته في عبارات سلسة خلابة .

وهذه الرواية من أشهر الروايات التي ظهرت باللغة العربية الى لآن وهي تقع في ثلاثة أجزاء (بدلاً من ثمانية اجزاء في الطبعة الاولى) مجموع صفحاتها ٨٥٠ من القطع الكبير – ومطبوعة على ورق جيد جداً وحرف جميل وتجليد متـين وثمن الثلاثة اجزاء ٢٠ قرشاً فقط والبريد (بدلاً من ٤٠ قرش للطبعة الأولى) وتليها